



غرائب

آية النزيل

تأليف

الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر
ابن عبد الفتاد الرازي
رحمه الله

تحقيق
د. عبد الرحمن بن إبراهيم الطرزي
أستاذ مشارك

جامعة الملك سعود - كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

حقوق الطبع محفوظة

الناشر : دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية

الرياض ٤ / ٤٦٢١٧٢٢ - ٤٦٥١٦٨٩

وقف لله تعالى على
مكتبة المسجد النبوي
من ربيع كتاب: (الأوقاف الإسلامية ودورها
الحضاري الماضي والحاضر والمستقبل)
لؤلؤه أ د/ عبدالرحمن الصبيان رحمه الله وللجميع
تاريخ النشر: ١٤٤١ / ٨ / ٢٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1870-1871

1871-1872

1872-1873

1873-1874

1874-1875

1875-1876

1876-1877

1877-1878

1878-1879

1879-1880

1880-1881

1881-1882

1882-1883

1883-1884

1884-1885

1885-1886

1886-1887

1887-1888

1888-1889

1889-1890

1890-1891

1891-1892

1892-1893

1893-1894

1894-1895

1895-1896

1896-1897

1897-1898

1898-1899

1899-1900

1900-1901

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وبعد

لقد عشت مع هذا الكتاب - «نموذج جليل في أسئلة واجوبة عن غرائب أم القرآن» - أياماً عديدة لإعداده كمشروع لإطروحة الدكتوراه - تحقيق ودراسة - في العام الدراسي ١٤٠١ هـ - ١٤٠٢ هـ، ثم تم اختيار موضوع آخر، ولكن استمرت معي وتعلقت بي فكرة تحقيق هذا الكتاب، لما وجدت فيه من دراسة متأنية لكثير من آيات القرآن المشككة، بأسلوب علمي بين ودقيق، ولما يتصف به المؤلف من علم غزير بالقرآن وباللغة العربية كما هو واضح من مؤلفاته كما سيأتي إن شاء الله.

وإن هذا الكتاب يمثل أنموذجاً فريداً لتفسير القرآن بالقرآن وإن ما أشكل من آياته يجب إرجاعها إلى الآيات المحكمات منه، وكذا تفسير القرآن بالسنة النبوية، وبأقوال الصحابة والتابعين أو تفسير القرآن بما يتفق مع كلام العرب.

وقد تناول كثيراً من آيات القرآن، كما تناول جميع سورته. وفي الختام لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل والدعاء لكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب بالتوجيه والنصح ... وأخص بالذكر أم عبدالملك التي ساعدتني في المراجعة أثناء عملية

ب

الطباعة، وتحملت عبء الغربة لذلك.
أرجو حسن العاقبة وخير الجزاء في الدارين للجميع، والحمد لله
رب العالمين.

المؤلف والكتاب

المؤلف

هو أبو عبدالله زين الدين . محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر بن عبدالمحسن الرازي الحنفي، فهو من فقهاء الحنفية، وقد صنف هذا التفسير، والفقه، والتصوف واللغة والأدب كما يظهر من مؤلفاته.

وأصله من الري، وقد زار مصر والشام، وهو من علماء القرن السابع حيث كان حياً مقيماً في مدينة قونية بتركيا سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م، ومما يؤكد ذلك ما جاء في ص ٢٢٤ من هذا الكتاب، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته (١).

مؤلفاته

لقد صنف الإمام زين الدين في مجال التفسير، والفقه، والمواعظ والزهد، والتصوف، واللغة، ووصل إلينا له ما يأتي (٢):

- الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز.
- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، وهو

(١) إيضاح المكنون ج١ ص ٤٧٥، ج٢ ص ٢٨٩.

معجم المؤلفين لعمد رضا كحالة ج١ ص ١١٢.

الأعلام للزركلي ج١ ص ٥٥.

الخطيبية ج١ ص ١٨٦، ج٢ ص ٢٧٥.

(٢) المراجع السابقة.

فى بيان المشكل من القرآن، وهو هذا الكتاب.

- كنز الحكمة، وهو فى الحديث.
- تحفة الملوك، وهو فى فقه العبادات، ويتكون من عشرة أبواب، بدأ فيه بباب الطهارة، وختمه بباب الكسب والأدب.
- حدائق الحقائق، وقد قمنا بتحقيقه.
- دقائق الحقائق، وهو فى التصوف.
- زهر الربيع عن ربيع الأبرار، وهو فى المواعظ والتصوف.
- مختار الصحاح، وهو فى اللغة، فرغ من تأليفه سنة ٦٦٠هـ.
- كنوز البراعة فى شرح المقامات للحريزى.
- روضة الفصاحة، وهو فى علم البيان والبديع، وقد أشار إليه المؤلف فى هذا الكتاب أكثر من مرة.
- شرح غريب القرآن، لقد أحال المؤلف فى كتابه هذا إلى كتاب آخر له تحت هذا الاسم، انظر ص ٤٠٢، ولم أجد له إشارة فى معجم المؤلفين أو فى الأعلام وغيرهما.

مخطوطات الكتاب

إن لهذا الكتاب المخطوطتين التاليتين:

المخطوطة الأولى مخطوطة المكتبة العثمانية - المكتبة الأحمدية - بحلب، سوريا رقم ٧٦، وتقع في ١٢٤ ورقة، وكما هو واضح من نماذج المخطوطة صفاتها، وهي الأصل في إخراج هذا الكتاب، وهي نسخة (أ).

المخطوطة الثانية مخطوطة المكتبة العثمانية - المكتبة الأحمدية - بحلب، سوريا رقم ٥٩ وتقع في ١٦٩ ورقة، وكما هو واضح من نماذج المخطوطة صفاتها، وهي نسخة (ب).

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أنه قد سبق طباعة الكتاب طباعة حجرية - قديمة - على هامش كتاب «إملاء ما من به الرحمن» للعكبري، ولكن كثر فيه السقط والأخطاء.

منهج التحقيق

إن أهم ما يجب ذكره في منهج التحقيق هو صحة نسبة هذا الكتاب للإمام زين الدين كما هو واضح من مقدمته، وما أشارت إليه المصادر والمراجع التي أثبتناها لمؤلفاته.

وكذا تخريج الآيات القرآنية.

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد والأجر والمثوبة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

بين يده الكتاب

إن هذا الكتاب من الكتب الهامة فى دراسة المشكل من آيات القرآن بأسلوب علمى دقيق يتصف بالعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة والتابعين، وكذا معرفة بكلام العرب الذى أنزل القرآن الكريم به.

وقد نهج فى كتابه هذا منهجاً علمياً سليماً فى بيان وجه الإشكال ثم بيان الإجابة عليه، ولذلك فإنه يبدأ بالسؤال بقوله: فإن قيل كيف أو بمعنى ... ثم يجيب عليه بقوله: قلنا، فهذا منهجه فى هذا الكتاب من بدايته حتى خاتمته.

كما أن بعض الأسئلة أو الإشكالات قد تكون مبنية على رأى من الآراء، ولا يعنى هذا أنه رأياً له، وإنما هو رأى للقاتل به، وهو ما قد يوضحه كثيراً.

ومما يبين أهمية هذا الكتاب أنه قد اعتمد فى تأليفه على آراء جمع كبير من علماء الإسلام كابن الأنبارى والزمخشري وابن جرير الطبرى وابن قتيبة والواحدي والكلبى والجوهري وابن السكيت وابن عرفة والأزهري وسيبويه والفراء وابن جنى والأخفش والزجاج وقطرب وثعلب ... إلخ.

وقد كان هذا الكتاب من ثمرة المذاكرة بين الأصحاب حول القرآن الكريم، وهو منهج قل من يتبعه من علماء العصر الحاضر، مما قلل انتاجهم وتأثيرهم فى مجتمعاتهم، ومعالجة المسائل المحيطة بهم بما يتفق مع روح القرآن ... والله الهادى إلى سواء السبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله

عليه توكلت واليه اني اعوذ
عبد القادر الرازي عفا الله عنه وغفر له وبجميع السابقين هذا مختصر من حكمة الله
يعني من اسئلة القرآن المجيد ولجوبها فمنه ما نقلت من كتب الاولين الى اني كتبت في حقه
وسنة ما انعم الله تعالى علي به بسبب مذكرة اخي من اخوان الصفاء في دين الله وسنة
كتابه وكذا في صلاتنا سليم الفطرة وقاد الزمن طبعنا من مقام المخلوق وصفا
الكلل للانسان في الله تعالى في بعضيته ومذاكرته في سني قديمه وكما في حديثه الحقة
ها كغير البحث والسؤال عنها فلهذا اه الله اليها وفتح عليه فيها غريب السمع من العباد
وما رانا في كتبهم لم يفتح فكره الفادحة ونبته السليخة على اجهر هذه الصفاة وهي
من دواعي الف وماتى سوال وان كانت بالنسبة لي اما في القرن من الجبابرة الذين كادوا القلوب
من الدنيا والسعي من الجحيم والسماء ولكن فقدت اختارته في المودع منها وتزويده الى
الانعام ليكثر الانتفاع به في البحر لوقت وطول وجوه ونسبنا لاسئلة متعلقين بوجه
المعربات والمعاني التي في احق في الافهام واخفي فاني وضعت لها مستحقا اخر واودسته
انموذجا ما ايضا فاطلب منه والله استبان وعليه اتوكل واليه اتضرع في ان يقول علي
وعلي السار في الجحيم ويتبين في واج السار في الجنة ورحمة الله عز وجل عليهم
مغفرة واعفائه في الدنيا والآخرين والرحمن الرحيم بالرحمة من الرحيم بالرحمة
عن الشياطين وغيره فكيف تعلمه ورأه الدوب صفات المذبح التي في من له في الدنيا والآخرين
قال في معنى وغيره انها بمنزلة واحد كخدمه ونزاهة في الجبرود العوالم وعلى القول في روضه
انما قدمه من الله تعالى اسمنا من البارئ الذي هو عظم راسخه او مضافا فقدمه والرحيم
وصفه يعني مفردا ومضافا فاعرفه والرحمن بوصف به عني مضافا ولا يوصف به مفردا
الا الله تعالى في وصفه في كفيف قدم العباد على اسعافه والراستعانة من ممدني
البرد يستعان الله على العباد في حينه في عباد الله عليه السلام في الزاد كما نزل في الترتيب
او المراد بمنع العبادة التي هي في مقدم على الاستعانة في ادوارها بالعبادات فان
لا يمكن من هذا الرباط في الاداء والعبادات فان في الزاد بالمراد المستعانة بالعباد
او الترتيب او طريق الجنة او المؤمنين هم سادس في ذلك فاحسن في فهم اهدانا الشرط المستقيم والله

المنير

حصيل الحاصل معناه ثبتنا عليه وأدنا على سلوكه خفاف من سوء النعمة نعوذ بالله من كل
 كما تقول العرب للواقف وقف حتى أشكل معناه فمنا وقولك وأثبت عليه أومت طلب زيادة
 الحري كما قال في الذي استدر إذا دهم في ذلك وبذلك الله الذي استدر
 فدي ما ذبه دخل مرة في قوله تعالى وفي النبال ووفاء غير الضرب عليهم والفتان
 كافر في المنصور فأيضا تأكيد النفي الذي قبل عليه من
 ضيف قال لا ريب فيه على بعل الاستغناء وكما قال في آيات في ويريد ذلك في حال
 وان ختم في ريب مما نزلنا على عبدنا معناه طيب فيه عند الله وسوله والبر
 أو هو نفي معناه نفي أي لا ريب أن الله من عند الله ونظم في قوله تعالى وإن الساعة آتية
 لا ريب فيها كذا قال في الذي استدر من المؤمنين والمؤمنات منكم في حصيل الحاصل
 إنما صاروا متقين بالاستناد واسمه من المولى أو أرادته ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه
 أو ختم بالذكر منهم الثابتون بمعانته حيث قبلوه وابتعوه كقوله إنما استدر من
 يتشاك أو أراد الذي يتشاك واقتصر على أحدهما كقوله تعالى من أجل أنكم
 المتخادعة إنما تصور من من شئ عليه الأمور ليعلم الخداع وحقه يقال خدعته إذا أراد به
 المكروه من حيث لم يعلم والله تعالى ما يخفى عليه شيء فكيف قال يخادعون الله فأنه معناه
 في دعوى رسول الله كقوله تعالى أن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله وقوله من طبع الله
 فقد أطاع الله أو سمعتم تنافوا خدانا للشبهة بفعل الخادع كذا قال في حصيل الحاصل
 المنافقين بقوله إنما أنتم من المنكروين ومعلوم أن خيالهم مفسد كذا قال في الإرادة والنياد
 الفساد بالمرح ودمع كذا في المخصوص به كذا قال في حصيل الحاصل
 من باب العف والغفرية وفيه فحجج والله تعالى ما من شيء من شيء
 استمرز أو كقوله وجن أو شية شية منها فالله تعالى ما من شيء من شيء
 ما الغاية في قوله أو كصيب من الماء ومعلوم أن الصيب لا يكون إلا من السماء فأيضا
 الله ذكر السحاب مرفقة وإضافة إليه بالبدل على أنه من جميع ألقابها من أفق واحد كذا
 أفق يسمي سحابا ومن يدراد من بيننا وسماؤنا كذا قال في حصيل الحاصل
 بالله أناد أو أنتم مخلوق والمتركون لم يكونوا عليا الله ما قد لود في قوله من يدراد
 أن له أناد أو أنتم مخلوق أن لا زاد ولا تدر على شيء من سبب

بما دون ذلك وان ثبت استعمال احد في الشئ والاخر في الزمان ويجوز ان يكون العدد اثنى عشر
سناد حاية لمخالفة السند قوله قال من شر ما يقاؤه

لما بعده في الثانية و اعادته خص قوله الاشياء والسنن بالذكر فقط لا بشرها كما فعلت
الناس على الدوام في الشئ نفسه وختمها بالذكر لئلا يشرها وانه يلحق الانسان من حيث هو
به ولهذا قيل في الاعداء المداجي وهو الذي يلد للانسان من حيث هو يوم كلف من شره
السننات وتكرما قبلها وما بعدها راو كل فنانة لها شدة وليس كل عاصي وهو المالك
لشئ وكذا ليس كل حاسد له شر بل ثبت حقد محمود وهو الحقد في الخيرات ومنه وادى اليك الحقد

للمؤمنين والاسباب ابراهيم ومائا من المكرمات بحاسد وقال
ان الخلق حسن في شأها الحقد كذا خص الناس بالذكر في

نوعه وبت الناس وهو من كل شئ انما خصهم بالذكر لشرها لهم وتفضيلا على غيرهم
ما لم ايل الفضل التحسين الثاني انه راا انونا بالاستدادة من شرهم ذكر مع ذلك انه بهم ليس
انه من الذي ليس من شرهم ان الاستدادة وتخص من المؤمنين من الناس في شرهم

هو الشر وهو وهم كما استيفت بمن الشبهة اذا اعتراه فطلب بغيره وسد عنه وادى الى
الشر من شره من الشبهة وانما بيان الذي يوسوس في الشيطان للوسوس في شره من شره
كما قال في الجاني الثاني ابيان الناس التي اضعف الوسوسة لاسدودهم وانما في الذكر

الخير اجمع للناس قال يعني اية التفسير المراد المعنى الاول لله تعالى في شره من شره
الخير ومن شره الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره
الزجاج في هذا الوجه لئلا يخلط الناس على الانسى والتدل انه اسم الخير وقال ابن جرير

الخير الثاني انه قال من شره الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره
الخير الثاني انه قال من شره الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره
الخير الثاني انه قال من شره الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره

في الوجه الثاني من الشبهة منهم هو الذي يوسوس في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره
الزجاج في الوجه الثاني انه قال في شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره
ما جئتكم به من امر مستأجر وانما من شره من شره من الوسوسة في شره من شره من الوسوسة في شره من شره

شر

بُشْرًا فَتُهَوِّدُهُمْ مِنَ الْبَيْتَةِ وَلَوْ دَخَلَ هَذَا الْإِبْلَاقُ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَجْهُولُ مُنَاسِبًا لِنَفْسَةِ الْقُرْآنِ
فَالْأَجْرُ مِنْهُ أَنْ يُرَادَ بِالنَّاسِ لِأَوَّلِ النَّاسِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ وَهَذَا قُرْآنُ مَنْ جَاءَتْ
أَنَاسُ النَّاسِ ثُمَّ يَتَّبِعُ الْجَنَّةَ وَالنَّاسُ مِنَ التَّغْلِيظِ وَالْجَنَّةُ مِنَ التَّوْحِيدِ بِالنَّاسِ
سُقُوتِ اللَّهِ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَفُتْنَا فِي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
 الرَّاحُ لِلْإِسْلَامِ وَرَبِّهِ الْقَائِمُ بِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ
 عَالِي شَيْخَانِمْ هَدَمَ الْبَرِّ سَاعَ مَا
 الْمَارِلُ سَعَةً مَعْرُوسًا
 مَا مَدَّ اللَّهُ سَائِرَ مَسَلَا
 بِمَا عَمِيَتْ الْخَشْيَةُ
 وَلَمْ تَنْتَهَ
 وَبِالْحَمْدِ

مجلس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ ثَقِي

قَالَ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ وَمَغْفِرَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي يَكْرُبَ عَبْدُ
الْقَادِرِ الرَّازِي عَمَّا لَمْ يَكُنْ فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَغَفَرَهُ وَلِحَمِيدِ الْمَدِينِ هَذَا
مُخْتَصَرُ جَمْعَةٍ فِيهِ أَمْثَرُ ذَا بَسْمِ مِنْ أَسِيلَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَاجْتَمَعَ
فِيهِ مَا لَقِيَ مِنْ كُتُبِ الْعُلَمَاءِ إِلَّا فِي نَحْتِهِ وَلِخَصَّتِهِ وَمِنْهُ مَا فَتَحَ
اللَّهُ لِي عَلَى يَدِهِ سَبَبَ مَذَاكِرِي مِنْ أَخِي مِنْ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ دِينِ
اللَّهُ وَرَحْمَةِ كِتَابِهِ وَكَانَ صَلَاحًا لِقَسَائِمِ الْفَطَمِ وَقَادِ الدَّهْرِ
جَامِعًا لِلْجَمَلِ مِنْ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي
الْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى بَعْثَتِهِ وَمَذَاكِرَتِهِ فِي مَعَانِي كِتَابِهِ وَكَانَ شَدِيدَ
النَّصِيحَةِ لَهَا كَثِيرَ الْبَحْثِ وَالسُّوَالِ عَنْهَا فَهَذَا اللَّهُ إِلَهًا وَفَتْحَ عَلَيْهِ
فِيهَا بِغَرَابِ الْمُسْتَعْبِيَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا فِي كِتَابِهِمْ تَحْمِلَتْنِي تَكَرُّرُهُ
الْقَادِحَةُ وَبَيْتُهُ الصَّالِحَةُ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الصَّبَابَةِ وَهِيَ تَزِيدُ
جَمِيعَ الْفَوَائِدِ وَمَا نَبِيَّ سُوَالٍ وَإِنْ كَانَتْ بِالنَّسَبَةِ إِلَى مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ
الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ كَمَا قَطَعْتَ مِنَ الدُّرِّ وَالسَّيِّ مِنْ جَوْمِ السَّمَاءِ وَلَكِنَّ
قَصِدْتُ اخْتِصَارَ هَذَا الْأَمْوِجِ مِنْهَا وَلَقَرِيْبِهِ إِلَى الْإِنْفَاهِ لِيَكُنْ
الْإِنْتِفَاعُ بِهِ وَلَا يَجْعَلُ رِقَّتَهُ وَخَوْضَهُ وَأَمَّا الْأَسِيلَةُ الَّتِي تَتَلَقَّ
بِوُجُوهِ الْأَعْرَابِ وَيَا مَعَانِي النَّبِيِّ أَوْقِ عَلَى الْإِنْفَاهِ وَارْحُفْ فَإِنِّي
وَضَعْتُ لَهَا مَخْتَصَرًا آخَرَ وَأَوْقَعْتُهَا أَمْثَرُ ذَا بَسْمِ أَيْضًا فَلْيَنْتَبِطِ
مِنْهُ وَبِاللَّهِ اسْتَعِينْ وَعَلَيْهِ اتَّوَكَّلْ دَائِمًا تَضَرَّعِي أَنْ يَحْمِلَ
عَلَيَّ وَعَلَيَّ خَالِصًا لَوْجِهِ الْكَرِيمِ وَيُنْفِذَنِي وَأَتِي الصَّالِحِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ
عَفْوِ رَحِيمِ سُبْحَانَكَ فَاتَّخَذَهُ الْكِتَابُ
فَإِنْ قِيلَ الرَّحْمَنُ أَيْضًا فِي الْوَصْفِ بِالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّحِيمِ بِالْفُتْلِ
عَنِ الرَّجَاحِ وَغَيْرِمْ فَكَيْفَ قَدَرْتَهُ وَعَادَةُ الْعَرَبِ فِي صِفَاتِ الْمَدْحِ

الترتيب من الآتي الى الابد قلنا قال الجوهري وغيره
 انها بمعنى واحد كندبم ونذمان فيلهذا لا يرد السؤال
 وعلى القول الاول انما قدمه لان الله تعالى اسم خاص بالباري
 لا يسمي به غير لا مفردا ولا مضافا فقدمه والرحيم بوصف به
 غير مفردا مضافا فاخرة والرحمن بوصف به غير مضافا ولا بوصف
 به مفردا الا الله تعالى فوسطه فان قيل كيف قدم العبادة على
 الاستغناء والاستغناء مقدمه لان العهد يستعين الله على
 العبادة فيعينه الله عليها قلنا الواو لا تدل على الترتيب او المراد
 لهذه العبادة التوحيد وهو مقدم على الاستغناء على اداء
 سائر العبادات فان من لم يكن موحد لا يطلب الاعانة على اداء
 العبادات فان قيل المراد بالصراط المستقيم الاسلام
 او القرآن او طريق الجنة بالنقل والوصول مهتدون الي
 ذلك فامعني قولهم اهتدوا الصراط المستقيم وانه تحصيل
 الحاصل قلنا معناه تبتنا عليه وادمنا على سلوكه خوفا
 من سوء العاقبة نفوذ بالله من ذلك كما تقول العرب للواقف
 وقف حيث انتهك معناه دم على وقوفك وانبت عليه او معناه طلب
 زيادة الهدى كما قال تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقال
 ويبريد الله الذين اهتدوا هدى فان قيل ما قابلية دخول
 لا في قوله تعالى ولا الضالين وقوله غير المغضوب عليهم ولا الضالين
 كاف في المقصود قلنا قابلية تأكيد النفع الذي دل عليه غير
 سور البرق فان قيل كيف قال لا رب
 فيه عين سبيل الاستغراق وكم ضال قد ارتاب فيه ويؤيد ذلك
 قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا قلنا

ما قبلها وما بعده قال ان كل نقاشة لها شر وليس كل
نقاش واما الاله شر وكنه اليس كاي حاسده له شر بل ربه همد
يحمده واما الحسد في الخيرات ومنه قوله عليه الصلاة والسلام
لا حسد الا في اثنين الخربك وقال ابو تمام وما حاسده
في المكروهات بحاسده وحي أخذ ان لا يحسن
في مكالم الحسد صورم الناس

فان قيل كيف حصل الناس باله كره في ربه له تعالى
قوله اخذ ذرية الناس وهرب كل شيء قلنا انما خصهم
باله كره نظرا لئلا هم وتغيبوا على غيرهم لانهم اهل العقاب
والتمييز الثاني انه لما امر بالاستقامة من شرهم ذكر مع ذلك
انهم ليسوا بمنزلة النبي يسجد من شرهم الثالث ان
الاستقامة ذرة وفتحت من شرهم من اليه الناس يريدون
الذي ذروا له من ربه ودمهم كما يستغيثون ببعض الصيود
اذ اعتداه قطب لبيده ويخزونه ووالي امره فان قيل
فقر له تعالى من الجنة والناس بيان لانني ليس من علي ان
الشرطان الذي من عندهما جني وانني كما قال شيطان
الارض والجن ان بيان الناس الذي اصغت الوردية الى
صدورهم وانما من المذكور اخذ الجني الارض قلنا
قال في معنى التفسير المراد بالخيرة الاولى كانه قال
من شر الوردية الجني ومن شر الوردية الاني فهو
استقامة ذرة بان الجني من شر الوردية من الجنيين ودر
اختيار الوردية وحي هذا الورد الحلاق لقتل الناس على الاني
وانما الورد اسم للخيرة وقال بعضهم المراد بالخيرة الثاني كانه قال



غرائب

آية النزيل

تأليف

الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر
ابن عبد المتاد الرازي
رحمه الله

تحقيق
عبد الرحمن بن إبراهيم الخليلي
أستاذ مشارك

جامعة الملك سعود - كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) (١)

قال الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى عفا الله عنه، وغفر له ولجميع المسلمين: هذا مختصر جمعت فيه أنموذجاً يسيراً من أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها فمنه ما نقلته من كتب العلماء إلا أنى نقحته ولخصته ومنه ما فتح الله تعالى على به بسبب مذاكرة أخ لى من إخوان الصفا فى دين الله ومحبة كتابه، وكان صالحاً تقياً سليم الفطرة وقاد الذهن جامعاً لجملة (٢) من مكارم الأخلاق، وصفات الكمال الإنسانى أنعم الله تعالى على بصحبته ومذاكرته فى معانى كتابه، وكان شديد العناية بها كثير البحث والسؤال عنها، قد هداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرايب لم نسمعها من العلماء ولا رأيناها فى كتبهم فحملتنى فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصبابة، وهى تزيد على ألف ومائتى سؤال، وإن كانت بالنسبة إلى ما فى القرآن من العجائب والغرائب كالتقطرة من الماء والسهى من نجوم السماء، ولكنى قصدت اختصار هذا الأنموذج منها، وتقريبه إلى الأفهام، ليكثر الانتفاع به ولا يهجر لدقته وغموضه، وأما الأسئلة التى تتعلق بوجوه الاعراب وبالمعانى التى هى أدق على الأفهام وأخفى، فإنى وضعت لها مختصراً آخر أودعته أنموذجاً منها فلتطلب منه، وبالله أستعين وعليه أتوكل وإليه أنضرع فى أن يجعل علمى وعملى خالصاً لوجهه الكريم، ويتغمدنى وأخى الصالح بمغفرته ورحمته إنه غفور رحيم.

(١) وفى نسخة (ب) وبه ثقتى.

(٢) وفى نسخة (أ) بجملة.

سورة فاتحة الكتاب

فإن قبل: الرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم بالنقل عن الزجاج وغيره، فكيف قدمه وعادة العرب في صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى؟

قلنا: قال الجوهري وغيره أنهما بمعنى واحد كنديم وندمان فعلى هذا لا يرد السؤال، وعلى القول الأول إنما قدمه لأن الله تعالى اسم خاص بالبارى لا يسمى به غيره، لا مفرداً ولا مضافاً فقدمه، والرحيم يوصف به غيره مفرداً ومضافاً فأخره، والرحمن يوصف به غيره مضافاً ولا يوصف به مفرداً إلا الله تعالى فوسطه.

فإن قيل: كيف قدم العبادة على الاستعانة والاستعانة مقدمة لأن العبد يستعين الله على العبادة فيعينه الله عليها؟

قلنا: الواو لا تدل على الترتيب، أو المراد بهذه العبادة التوحيد، وهو مقدم على الاستعانة على أداء سائر العبادات، فإن من لم يكن موحداً لا يطلب الاعانة على أداء العبادات.

فإن قيل: (المراد بالصراط المستقيم الاسلام أو القرآن أو طريق الجنة (١) والمؤمنون مهتدون إلى ذلك، فما معنى قولهم: «اهدنا الصراط المستقيم») وأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا: ثبتنا عليه وأدمنّا على سلوكه، خوفاً من سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما تقول العرب للواقف قف حتى آتيك معناه دم على وقوفك وأثبت عليه، أو معناه طلب زيادة الهدى كما قال تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى) (٢) وقال: (ويزيد الله

(١) وفي نسخة (ب) بالنقل.

(٢) سورة محمد ١٧.

الذين اهتدوا هدى) (١).

فإن قيل: ما فائدة دخول لا في قوله: (ولا الضالين) (٢) وقوله:
«غير المغضوب عليهم» والضالين كاف في المقصود؟
قلنا: فائدته تأكيد النفي الذي دل عليه غير.

| |
|--|
| |
|--|

(١) سورة مريم ٧٧.

(٢) سورة الفاتحة ٧.

سورة البقرة

فإن قيل: كيف قال: (لا ريب فيه) (١) على سبيل الاستغراق وكم زال قد ارتاب فيه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) (٢)؟

قلنا: معناه لا ريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين، أو هو نفى معناه نهى (٣) أي لا ترتابوا فيه إنه من عند الله، ونظيره قوله تعالى: (وإن الساعة آتية لا ريب فيها) (٤).

فإن قيل: كيف قال: (هدى للمتقين) (٥) والمتقون مهتدون فكأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا: إنما صاروا متقين بما استفادوا منه (٦) من الهدى، أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى، وزيادة فيه، أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه كقوله: (إنما أنت منذر من يخشاها) (٧) أو أراد الفريقين واقتصر على أحدهما كقوله تعالى: (سرابيل تقيكم الحر) (٨).

فإن قيل: المخادعة إنما تتصور في حق من تخفى عليه الأمور ليطم الخداع في حقه، يقال خدعه إذا (٩) أراد به المكروه من حيث

(١) سورة البقرة ٢. (٢) سورة البقرة ٢٣.

(٣) وفي نسخة (ب) النهي.

(٤) سورة الحج ٧. (٥) سورة البقرة ٢٠.

(٦) وفي نسخة (ب) (به) بدلا من (فيه).

(٧) سورة النازعات ٤٥.

(٨) سورة النحل ٨١.

(٩) وفي نسخة (ب) إن أراد.

لا يعلم، والله تعالى لا يخفى عليه شيء فكيف قال (١) (يخادعون الله)؟

قلنا: معناه يخادعون رسول الله كقوله تعالى: (إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله) (٢) وقوله: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٣) أو سمى نفاقهم خناعاً لشبهه بفعل المخادع.

فإن قيل: كيف حصر الفساد في المنافقين بقوله: (ألا إنهم هم المفسدون) (٤) ومعلوم أن غيرهم مفسد؟

قلنا: المراد بالفساد الفساد بالنفاق وهم كانوا مخصوصين به.

فإن قيل: كيف قال الله: (الله يستهزيء بهم) (٥) والاستهزاء من

باب العبث (٦) والسخرية وهو قبيح والله تعالى منزّه عن القبيح؟

قلنا: سمى جزاء الاستهزاء استهزاء كقوله: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٧) فالمعنى الله يجازيهم جزاء استهزائهم.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: (أو كصيب من السماء) (٨) ومعلوم

أن الصيب لا يكون إلا من السماء؟

قلنا: فائدته أنه ذكر السماء معرفة وإضافه إليها ليدل على أنه من

(١) وفي نسخة (ب) يقال سورة البقرة.

(٢) سورة الفتح ١٠.

(٣) سورة النساء ٨٠.

(٤) سورة البقرة ١٢.

(٥) سورة البقرة ١٥.

(٦) وفي نسخة (ب) العتب وهو تصحيف.

(٧) سورة الشورى ٤٠.

(٨) سورة البقرة ١٩.

جميع آفاقها لا من أفق واحد، إذ كل أفق يسمى سماء (١) قال الشاعر: ومن بعد أرض بيننا وسماء.

فإن قيل: كيف قال: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) (٢) والمشركون لم يكونوا عالمين أنه لا ند له ولا شريك (٣) بل كانوا يعتقدون أن له أنداداً وشركاء؟

قلنا: معناه وأنتم تعلمون أن الأنداد لا تقدر على شيء مما سبق ذكره في الآية، (أو) (٤) وأنتم تعلمون أنه ليس في التوراة والانجيل جواز اتخاذ الأنداد.

فإن قيل: كيف عرف النار (٥) ونكرها في سورة التحريم (٦)؟ قلنا: تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة (٧) فنكرها، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة المنورة مشار بها إلى ما عرفوه أولاً.

فإن قيل: قوله: (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكنموا الحق) (٨) ليسا فعلين متغايرين لينهوا عن الجمع بينهما بل أحدهما داخل في الآخر؟

قلنا: هما فعلاان متغايران لأن المراد بلبسهم الحق بالباطل كتابتهم في

(١) في نسخة (ب) تصحيف وتقديم وتأخير في هذه الفقرة.

(٢) سورة البقرة ٢٢.

(٣) وفي نسخة (ب) لا شريك له.

(٤) في النسخة (ب)

(٥) انظر سورة البقرة ٢٤.

(٦) انظر سورة التحريم ٦.

(٧) وفي نسخة (ب) معرفة.

(٨) سورة البقرة ٤٢.

التوراة ما ليس منها، وبكتمانهم الحق قولهم: لا نجد فى التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: قوله تعالى: (الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم وأنتهم إليه راجعون) (١) ما فائدة الثانى والأول يدل عليه ويقتضيه (٢)؟

قلنا: قوله: (ملائكة ربهم) أى ملائكة ثواب ربهم وما وعدهم على الصبر والصلاة، وقوله: (وأنتهم إليه راجعون) أى موقنون بالبعث، فصار المعنى أنهم موقنون بالبعث، وبحصول الثواب الموعود، ولا تكرار فيه (٣).

فإن قيل: كيف قال: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) (٤) وهم أنما بدلوا القول الذى قيل لهم، لأنهم قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة؟

قلنا: معناه فبدل الذين ظلموا قولا قيل لهم، وقالوا قولا غير الذى قيل لهم.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) (٥) العثو: الفساد، فيصير المعنى ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين؟

قلنا: معناه ولا تعثوا فى الأرض بالكفر، وأنتم مفسدون بسائر المعاصى.

(١) سورة البقرة ٤٦.

(٢) وفى نسخة (ب) تدل عليه ويقتضيه.

(٣) وفى نسخة (ب) فلا تكرار فيه.

(٤) سورة البقرة ٥٩.

(٥) سورة البقرة ٦٠.

فإن قيل: كيف قال: (لن نصبر على طعام واحد) (١) وطعامهم كان المن والسلوى وهما طعامان؟

قلنا: المراد أنه دائم غير متبدل، وإن كان نوعين.

فإن قيل: كيف قال: (ويقتلون النبيين بغير الحق) (٢) وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق؟

قلنا: معناه بغير الحق في اعتقادهم، ولأن التصريح بصفة فعلهم التبيح أبلغ في ذمهم، وأن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما في عكسه. قال: (وب احكم بالحق) (٣) لزيادة معنى في التصريح بالصفة، ولأن قتل النبي قد يكون بحق كقتل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ولده لو وجد كان بحق.

فإن قيل: كيف قال: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (٤)

وانتقالهم من صور البشر إلى صور القردة ليس في وسعهم؟ قلنا: هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب، فهو من قوله تعالى: (كن فيكون) (٥).

فإن قيل: كيف قال: (عوان بين ذلك) (٦) ولفظة (بين) تقتضى شيئين فصاعداً، فكيف جاز دخولها على ذلك وهو مفرد؟

قلنا: يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع، ومنه قوله تعالى: (هل

(١) سورة البقرة ٦١.

(٢) سورة البقرة ٦١.

(٣) سورة الأنبياء ١١٢.

(٤) سورة البقرة ٦٥.

(٥) سورة البقرة ٦٨.

(٦) سورة البقرة ١١٧.

بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) (١) وقوله: (وان تصبروا وتنتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (٢) وقوله: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعم والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) (٣) فمعناه عوان بين الفارض والبكر وسيأتى تمامه فى قوله: (بين أحد من رسله) (٤) إن شاء الله.

فإن قيل: قوله: (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) (٥) كلاهما فى المعنى واحد فما فائدة الثانى؟

قلنا: التفجير يدل على الخروج (بوصف الكثرة والثانى يدل على نفس الخروج) (٦) وهما متغايران فلا تكرار.

فإن قيل: ما الفائدة فى قوله: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) (٧) والكتابة لا تكون إلا باليد؟

قلنا: فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم، وذلك زيادة فى تمبيح فعلهم، فإنه يقال: كتب فلان كذا وإن لم يباشره بنفسه بل أمر غيره به من كاتب له ونحو ذلك.

فإن قيل: التولى والإعراض واحد فكيف قال: (ثم توليتم إلا قليلا

(١) سورة يونس ٥٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

(٣) سورة آل عمران ١٤.

(٤) سورة البقرة ٢٨٥.

(٥) سورة البقرة ٧٤.

(٦) ساقط من نسخة (ب).

(٧) سورة البقرة ٧٩.

منكم وأنتم معرضون) (١) ؟

قلنا: معناه ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد، وأنتم معرضون عن الفكر والنظر في عاقبة ذلك.

فإن قيل: قوله: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا) (٢) ما فائدة قوله: «ومن الذين أشركوا» وهم من جملة الناس؟

قلنا: إنما خصوا بالذكر بعد العموم لأن حرصهم على الحياة أشد، لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

فإن قيل: قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين) (٣) يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين فلم يكن حراماً؟

قلنا: العمل به حرام، لأنهما كانا يعلمان الناس السحر ليجتنبوه، كما قال تعالى: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (٤) ونظيره لو سأل إنسان ما الزنا لوجب بيانه له ليعرفه فيجتنبه.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة

(١) سورة البقرة ٨٢.

(٢) سورة البقرة ٩٦.

(٣) سورة البقرة ١٠٢.

(٤) سورة البقرة ١٠٢.

من خلاق ولبنس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (١)
أثبت لهم العلم أولاً مؤكداً بلام القسم ثم نفاء عنهم؟
قلنا: المثبت لهم أنهم علموا أن من اختار السحر ما له في الآخرة من
نصيب، والمنفى عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصير إليه من
يخسر الآخرة، ولا يكون له نصيب منها، فالمنفى غير المثبت فلا
تنافى.

فإن قيل: كيف قال: (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله
خير لو كانوا يعلمون) (٢) وأما يستقيم أن يقال هذا خير من
ذلك إذا كان في كل واحد منهما خير، ولا خير في السحر؟
قلنا: خاطبهم على اعتقادهم أن من تعلم السحر خيراً نظراً منهم إلى
حصول مقصودهم الدنيوى به.

فإن قيل: كيف قال هنا: (وب اجعل هذا بلداً آمناً) (٣) وقال في
سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام: (وب اجعل هذا البلد
آمناً) (٤)؟

قلنا: في الدعوة الأولى كان مكاناً قفراً فطلب منه أن يجعله بلداً
وآمناً، وفي الدعوة الثانية كان بلداً غير آمن فعرفه وطلب له الأمن،
أو كان بلداً آمناً فطلب له ثبات الأمن ودوامه، وكون هذه السورة
مدنية وسورة ابراهيم مكية لا تنافى (٥) في هذا، لأن الواقع من
ابراهيم عليه الصلاة والسلام بلغته على الترتيب الذى قلنا، والاختبار

(١) سورة البقرة ١٠٢.

(٢) سورة البقرة ١٠٢.

(٣) سورة البقرة ١٢٦.

(٤) سورة ابراهيم ٣٥.

(٥) وفي نسخة (أ) لا ينافى.

عنه في القرآن على غير ذلك الترتيب أو لأن المكي منه ما نزل قبل الهجرة، فيكون المدني متأخراً عنه، ومنه ما نزل بعد فتح مكة، فيكون متأخراً عن المدني، فلم قلت أن سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من المكي الذي نزل قبل الهجرة.

فإن قيل: أي مدح وشرف لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (وَأَنفِصَ الْآخِرَةَ لِمَنِ الصَّالِحِينَ) (١) مع ما له من شرف الرسالة والخلعة؟

قلنا: قال الزجاج المراد بقوله من الصالحين أي من الفائزين. فإن قيل: الموت ليس في وسع الإنسان وقدرته حتى يصح أن ينهى عنه على صفة أو يؤمر به على صفة، فكيف قال: (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) (٢)؟

قلنا: معناه أثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم (٣) الموت متم على دين الإسلام، فهو في المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه أو نهى عن تركه.

فإن قيل: قوله تعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا) (٤) إن أريد به الله تعالى فلا مثل له وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له أيضاً، لأن دين الحق واحد؟

قلنا: كلمة «مثل» زائدة معناه فإن آمنوا بما آمنتم به، يعني بمن آمنتم به وهو الله تعالى أو بما آمنتم به وهو دين الإسلام و«مثل»

(١) سورة البقرة ١٢٠.

(٢) سورة البقرة ١٢٢.

(٣) وفي نسخة (ب) إذا جاء أحدكم.

(٤) سورة البقرة ١٢٧.

قد تزداد في الكلام كقوله تعالى: (ليس كمثله شيء) (١) وقوله: (مثله في الظلمات) (٢) ومثل بمعنى واحد، وقيل: الباء زائدة كما في قوله تعالى: (بجذع النخلة) (٣) أى مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام.

فإن قيل: كيف قال: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) (٤) وهو لم يزل عالماً بذلك؟

قلنا: معناه لنعلمه واقعاً موجوداً، أو أراد بالعلم التمييز للعباد كقوله (٥) تعالى: (ليميز الله الخبيث من الطيب) (٦).

فإن قيل: كيف قال: (فلنولينك قبلة ترضاها) (٧) وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم (٨) لم يكن راضياً بالتوجه إلى بيت المقدس، مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه؟

قلنا: المراد بهذا الرضا رضا المحبة بالطبع لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله.

فإن قيل: كيف قال: (وما أنت بتابع قبلتهم) (٩) ولهم قبلتان لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟

(١) سورة الشورى ١١.

(٢) سورة الأنعام ١٢٢.

(٣) سورة مريم ٢٥.

(٤) سورة البقرة ١٤٣.

(٥) وفي نسخة (ب) لقوله تعالى.

(٦) سورة الأنفال ٢٧.

(٧) سورة البقرة ١٤٤.

(٨) وفي نسخة (ب) عليه الصلاة والسلام. (٩) سورة البقرة ١٤٥.

قلنا: كلا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد بالبطلان قبله واحدة.

فإن قيل: كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين حتى قال: (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) (١)؟

قلنا: معناه إلا أن يقولوا ظلماً وباطلاً، كقول الرجل لصاحبه ما لك عندي حق إلا أن تظلم، وإلا أن يقول الباطل. وقيل: معناه والذين ظلموا منهم، فلا هنا بمعنى واو العطف كما في قوله تعالى: (أفنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم) (٢) وقيل لا فيهما بمعنى لكن وحببتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ما درى محمد أين قبلته حتى هديناه، وكانوا يقولون أيضاً يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا، فلما حوله الله تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجة، فعادوا يقولون لم تركت قبله بيت المقدس إن كانت باطلة فقد صليت إليها زماناً، وإن كانت حقاً فقد انتقلت (٣) عنها فهذا هو المراد بقوله: (إلا الذين ظلموا منهم) (٤) وقيل: المراد به قولهم ما ترك محمد قبلتنا إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لوطنه، وقيل: المراد به قول المشركين قد عاد محمد إلى قبلتنا لعلمه أن ديننا حق فسوف يعود إلى ديننا، وإنما

(١) سورة البقرة ١٥٠.

(٢) سورة النمل ١٠ - ١١.

(٣) وفي نسخة (ب) انتقلت عنها.

(٤) سورة البقرة ١٥٠.

سمى باطلهم حجة لمشابهة الحجة فى الصورة كما قال: حجتهم داحضة (١) وقال: (فرحوا بما عندهم من العلم) (٢).

فإن قيل: ما الفائدة فى قوله: (ولا تكفرون) (٣) بعد قوله: (واشكروا لى) (٤) والشكر نقيض الكفران، فمتى وجد الشكر انتفى الكفران؟

قلنا: قوله واشكروا لى معناه استعينوا بنعمتى على طاعتى، وقوله ولا تكفرون معناه ولا تستعينوا بنعمتى على معصيتى، وقيل: الأول أمر بالشكر والثانى أمر بالثبات عليه.

فإن قيل: كيف قال: (والناس أجمعين) (٥) وأهل دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم؟

قلنا: المراد بالناس المؤمنون فقط، أو على عمومهم وأهل دينه بلعنونه فى الآخرة، قال تعالى: (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) (٦) وقال: (كلما دخلت أمة لعنت أختها) (٧).

فإن قيل: ما الفائدة فى قوله تعالى: (إله واحد) (٨) وهلا قال: (وإلهكم واحد) (٩) فكان أحصر وأوجز؟

(١) سورة الشورى ١٦.

(٢) سورة غافر ٨٢.

(٣) سورة البقرة ١٥٢.

(٤) سورة البقرة ١٥٢.

(٥) سورة البقرة ١٦١.

(٦) سورة العنكبوت ٢٥.

(٧) سورة الأعراف ٢٨.

(٨) سورة البقرة ١٦٢.

(٩) سورة البقرة ١٦٢.

قلنا: لو قال: «والهكم واحد» لكان ظاهره (١) إخبار عن كونه واحداً في الألوية، يعنى لا إله غيره، ولم يكن إخباراً عن توحده في ذاته، بخلاف ما إذا كرر ذكر الألهة، والآية إنما سقت لإثبات أحديته في ذاته ونفى ما يقوله النصارى إنه واحد والأقانيم ثلاثة أى الأصول أن زيدا واحداً وأعضاءه متعددة فلما (٢) قال: «إله واحد» دل على أحدية الذات والصفة، ولقائل أن يقول قوله واحد يحتمل الأحدية في الذات، ويحتمل الأحدية في الصفة سواء كرر ذكر لا إله أو لم يكرر فلا يتم الجواب.

فإن قيل: كيف وجه صحة التشبيه في قوله تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق) (٣) وظاهره تشبيه الكفار بالراعى؟ قلنا: فيه إضمار تقديره ومثلك يا محمد من الكفار كمثل الراعى مع الأنعام أو تقديره ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعى أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الراعى أو ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام كمثل الراعى.

فإن قيل: كيف يخص (٤) المنعوق به بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء، مع أن كل عاقل كذلك أيضاً لا يسمع إلا دعاء ونداء؟ قلنا: المراد بقوله: «لا يسمع» لا يفهم (٥) أساء سمعاً فأساء اجابة أى أساء فهماً.

(١) وفى نسخة (ب) ظاهر.

(٢) فى نسخة (ب) فلو قال وهو خطأ.

(٣) سورة البقرة ١٧١.

(٤) وفى نسخة (ب) خص.

(٥) وفى نسخة (ب) كقولهم.

فإن قيل: كيف قال: (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) (١) وقال في موضع آخر: (فوردك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (٢)؟ قلنا: المنفى كلام التلطف والاكرام (٣) والمثبت سؤال التوبيخ والاهانة فلا تنافى.

فإن قيل: كيف قال: (كتب عليكم القصاص في القتلى) (٤) أى فرض، والقصاص ليس بفرض بل الولى مخير فيه بل مندوب إلى تركه؟

قلنا: المراد به فرض على القاتل التمكين، لا أنه فرض على الولى الاستيفاء.

فإن قيل: كيف قال: (الوصية للوالدين والأقربين) (٥) عطف الأقربين على الوالدين، وهما أقرب الأقربين والعطف يقتضى (٦) المغايرة؟

قلنا: والوالدين ليسا من الأقربين، لأن القريب من يدلى إلى غيره بواسطة كالأخ والعم ونحوهما والوالدان ليسا كذلك، ولو كانا منهم لكان خصا بالذكر كقوله تعالى: (وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل) (٧).

(١) سورة البقرة ١٧٤.

(٢) سورة الحجر ٩٢.

(٣) فى نسخة (ب) الأكرام.

(٤) سورة البقرة ١٧٨.

(٥) سورة البقرة ١٨٠.

(٦) فى جميع النسخ تقتضى.

(٧) سورة البقرة ٩٨.

فإن قيل: كيف قال: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) (١) وصوم هذه الأمة ليس كصوم أمة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام؟

قلنا: التشبيه في أصل الصوم لا في كيفيته، أو في كيفية الإفطار، فإنه كان في أول الأمر الإفطار مباح من غروب الشمس إلى وقت النوم فقط، كما كان في صوم من قبلنا ثم نسخ بقوله تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المسجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) (٢) أو في العدد أيضاً على ما روى عن ابن عباس أنه فرض على النصارى صوم رمضان بعينه، فقدموا عشرة وأخروا عشرة لناد يقع في الصيف، وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين فصار صومهم خمسين يوماً بين الصيف والشتاء.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (وبيئات من الهدى) (٣) بعد قوله: (هدى للناس) (٤)؟

قلنا: ذكر أولاً أنه هدى ثم ذكر أنه بينات (٥) من جملة ما هدى الله به عباده، وفرق به بين الحق والباطل من الكتب السماوية الهادية الفارقة بين الحق والباطل فلا تكرر.

(١) سورة البقرة ١٨٢.

(٢) سورة البقرة ١٨٧.

(٣) سورة البقرة ١٨٥.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

(٥) وفي نسخة (ب) تبيان.

فإن قيل: ما فائدة إعادة ذكر المريض والمسافر (١)؟

قلنا: فائدته أن الآية المتقدمة نسخ مما فيها تخير الصحيح، وكان فيها تخير المريض والمسافر أيضاً، فأعيد ذكرهما لئلا يتوهم أن تخييرهما نسخ كما نسخ تخير الصحيح (٢).

فإن قيل: قوله تعالى: (فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) (٣) يدل على أنه يجيب دعاء الداعين، ونحن نرى كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم؟

قلنا: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال، إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يدفع عنه من سوء مثلها، ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله، وأكل الحلال، وحضور القلب وقت الدعاء، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة، ولأن الداعى قد يعتقد مصلحته فى الإجابة، والله يعلم أن مصلحته فى تأخير ما سأل أو منعه عنه، فيجيبه إلى مقصوده الأصلى وهو طلب المصلحة، فيكون قد أجيب وهو يعتقد أنه منع.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (تلك عشرة) (٤) ومعلوم أن ثلاثة وسبعة عشرة، ثم ما فائدة قوله: (كاملة) والعشرة لا تكون إلا كاملة، وكذا جميع أسماء العدد لا تصدق على أقل من المذكور ولا

(١) فى نسخة (ب) خطأ فى هذه الفقرة يغير المعنى.

(٢)

(٣) سورة البقرة ١٨٦.

(٤) سورة البقرة ١٩٦.

على أكثر منه؟

قلنا: فائدة قوله: «تلك عشرة» أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما في قوله تعالى: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) (١) ولا تحل (٢) التسع جملة فنفي في قوله: «تلك عشرة» ظن وجوب (٢) أحد العديدين فقط، أما الثلاثة في الحج أو السبعة بعد الرجوع، وإن يعلم العدد من جهتين جملة وتفصيلاً، فيتأكد العلم به، ونظيره فذلّة الحساب وتنصيف الكتاب، وأما قوله: «كاملة» فتأكيد كما في قوله تعالى: (حولين كاملين) أو معناه كاملة في الثواب مع وقوعها بدلاً عن الهدى، أو في وقوعها موقع المتتابع مع تفرقها أو في وقوعها (موقع الصوم في الصوم في الحج) (٤) مع وقوع بعضها بعده أو في وقوعها موقع الصوم بمكة مع وقوع بعضها في غير مكة فالحاصل أنه كمال وصفاً لا ذاتاً.

فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالذكر في قوله تعالى: (فإذا أنفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) (٥)؟

قلنا: إنما كرره تنبيهاً على أنه أراد ذكراً مكرراً لا ذكراً واحداً، بل مرة بعد أخرى، ولأنه زاد في الثاني فائدة أخرى، وهى قوله: «كما هداكم» يعنى اذكروه بتوجيهه كما ذكركم بهدايته، ولأنه أراد

(١) سورة النساء ٢.

(٢) وفي نسخة (أ) لحل (ب) الأكل.

(٣) وفي نسخة (ب) وجود.

(٤) ماقط من نسخة (أ) ومثبتة في نسخة (ب).

(٥) سورة البقرة ١٩٨.

بالذكر الأول الجمع بين الصلاتين بمزدلفة، وبالثاني الدعاء بعد الفجر بها فلا تكرار.

فإن قيل: كيف قال: (فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (١) وأراد به الافاضة من عرفات بلا خلاف، وبعد المجيء إلى مزدلفة والذكر فيها مرتين كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات؟

قلنا: فيه تقديم وتأخير تقديره: من ربكم ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتكم من عرفات.

فإن قيل: كيف قال: (فمن تعجل من يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه) (٢) ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمي إذا لم يكن عليه اثم لا يكون على المتأخر الأثم بالرمي كاملاً.

قلنا: كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل أثماً، ومنهم من جعل المتأخر أثماً (٢) فأخبر الله تعالى بنفى الاثم عنهما جميعاً أو معناه لا اثم على المتأخر في ترك الأخذ بالرخصة، مع أن الله يحب أن تؤتى (٤) رخصه كما تؤتى (٤) عزائمه، أو معناه أن انتفاء الاثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة أو العزيمة في الرمي، ثم قيل: المراد به تقوى المعاصي في الحج، وقيل: تقوى المعاصي بعد الحج في بقية العمر بالوفاء بما عاهد الله

(١) سورة البقرة ١٩٩.

(٢) سورة البقرة ٢٠٢.

(٣) في نسخة (ب) وقوع خطأ بالتقديم والتأخير مع الفقرة التالية.

(٤) في نسخة (ب) يؤتى.

تعالى عليه فى عرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والانابة، والمشكل فى هذه الآية قوله تعالى: (فى يومين) والتعجل المرخص فيه انما هو التعجل فى اليوم الثانى من أيام التشريق، فكيف ذكر لفظ «اليومين» وأراد بهما اليوم الثانى فقط.

فإن قيل: كيف قال: (وإلى الله ترجع الأمور) (١) وهو يدل على أنها كانت إلى غيره كقولهم رجع إلى فلان عبده ومنصبه؟ قلنا: هو خطاب لمن كان يعبد غير الله، وينسب أفعاله إلى سواه، فأخبرهم أنهم إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردوا إليه ما أضافوه إلى غيره بسبب كفرهم وجهلهم، ولأن رجع تستعمل بمعنى صار ووصل كقولهم: رجع على من فلان مكروه (ومنه قول لبيد) (٢): وما المرء إلا كالشهاب وضوءه

يجود رماداً بعد إذ هو سامع

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيده، فلما خلقهم ملكهم بعضها خلافة ونيابة، ثم رجعت إليه بعد هلاكهم، ومنه قوله: (لمن الملك اليوم) (٣) وقوله: (الملك يومئذ الحق للرحمن) (٤) وإنه قال: (وإلى الله ترجع الأمور) (٥) ولم يقل: وإليه، وإن كان قد سبق ذكره مرة لقصد التفخيم والتعظيم، وذلك ينافى الإيجاز والاختصار.

(١) سورة البقرة ٢١٠.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة غافر ١٦.

(٤) سورة الفرقان ٢٦.

(٥) سورة البقرة ٢١٠.

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير قتلوا لدين والأقربين) (١) فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون، وأجيبوا ببيان المصروف؟ قلنا: قد تضمن قوله تعالى: «قل ما أنفقتم من خير» بيان ما ينفقونه وهو كل خير، ثم زيدوا على الجواب ببيان المصروف، ونظيره قوله تعالى: (وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصا أتوكؤا عليها وأمش بها على غنمي ولي فيها مارب أخرى) (٢) وقوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن الوضوء بماء البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

فإن قيل: كيف جاء يسألونك ثلاث مرات بغير واو (يسئلونك ماذا ينفقون) (٣) (يسئلونك عن الشهر الحرام) (٤) (يسئلونك عن الخمر والميسر) (٥) ثم جاء ثلاث مرات بالواو (ويسئلونك ماذا ينفقون) (٦) (ويسئلونك عن اليتامى) (٧) (ويسئلونك عن المحيض) (٨)؟

قلنا: لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقاً، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع دلالة على ذلك.

(١) سورة البقرة ٢١٥.

(٢) سورة طه ١٧.

(٣) سورة البقرة ٢١٥.

(٤) سورة البقرة ٢١٧.

(٥) سورة البقرة ٢١٩.

(٦) سورة البقرة ٢١٩.

(٧) سورة البقرة ٢٢٠.

(٨) سورة البقرة ٢٢٢.

فإن قيل: كيف قال: (وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم) (١) وعزمهم الطلاق مما يعلم لا مما يسمع؟ قلنا: الغالب أن العازم على الطلاق وترك الغي لا يخلو عن مقالة ودمدمة، وإن خلا عنها فلا بد له أن يحدث نفسه ويناجيها بما عزم عليه، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى، كما يسمع وسوسة الشيطان.

فإن قيل: كيف قال: (وبعولتھن أحق بردهن) (٢) ولا حق للنساء في الرجعة، وأفعل تقتضى الاشتراك؟ قلنا: المراد أن الزوج إذا (٢) أراد الرجعة وأبت المرأة وجب إيثار قوله على قولها، لا أن لها حقاً في الرجعة. فإن قيل: كيف قال: (وبعولتھن أحق بردهن) (٤) في ذلك إن أرادوا إصلاحاً، والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل العدة؟

قلنا: المراد أن الرجعة أصوب وأعدل إن قصد الزوج بها الإصلاح، وتركها أصوب وأعدل إن قصد الإضرار بها. فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (٥) وقوله تعالى: (لا يذوقون فيها الموت إلا

(١) سورة البقرة ٢٢٧.

(٢) سورة البقرة ٢٢٨.

(٣) وفي نسخة (ب) إن.

(٤) سورة البقرة ٢٢٨.

(٥) سورة البقرة ٢٤٢.

الموتة الأولى (١)؟

قلنا: المراد بالآية الأولى أماتة العقوبة مع بقاء الأجل، وبالآية الثانية الاماتة بانتهاء الأجل، ونظيره قوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام: (ثم بعثناكم من بعد موتكم) (٢) لأنها كانت إماتة عقوبة، أو كان أحيائهم آية لنبيهم على ما عرف في قصتهم، فصار كأحياء العزيز حين مر على القرية، وآيات الأنبياء نوادر مستثناة فكان المراد بالآية الثانية الموتة التي ليست بسبب آية لنبي من الأنبياء، وأحياء قوم موسى آية له أيضاً فكان هذا جواباً عاماً، مع أن في أصل السؤال نظراً لأن الضمير في قوله «لا يذوقون» للمتقين، وفي قوله «فيها» للجنات على ما يأتي بيانه في سورة الدخان إن شاء الله تعالى على وجه يندفع به السؤال من أصله.

فإن قيل: كيف قال: (والله يؤتى ملكه من يشاء) (٣) والله تعالى لا يؤتى ملكه أحداً؟

قلنا: المراد بهذا الملك السلطنة والرياسة التي انكروا أعطائها لطالوت، وليس المراد أنه يؤتى كل ملكه لأحد لأن سياق الآية يمنعه.

فإن قيل: كيف قال في الماء: (ومن لم يطعمه) (٤) (٥) ولم يقل ومن لم يشربه والماء مشروب لا مأكول؟
قلنا: طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق، والذوق هو المراد هنا وهو يعم.

(١) سورة الدخان ٥٦.

(٢) سورة البقرة ٥٦.

(٣) سورة البقرة ٢٤٧.

(٤) سورة البقرة ٢٤٩.

(٥) وفي نسخة (ب) فإنه منى.

فإن قيل: كيف خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر في قوله تعالى: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وءاتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) (١)؟

قلنا: لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة مع الكتابين العظيمين المشهورين.

فإن قيل: كيف قال: (من قبل أن ياتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) (٢) وفي يوم القيامة شفاعة للأنبياء وغيرهم بدليل قوله تعالى: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (٣) وقوله (٤): (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (٥) وقوله: (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (٦)؟

قلنا: هذه الآيات لا تدل على وجود الشفاعة يوم القيامة بل تدل (٧) على أنها لا توجد ولا تنفع بغير إذنه، ولا توجد لغير (٨) مرضى عنده، وبهذا (٩) لا ينافي (نفي) (١٠) وجودها

(١) سورة البقرة ٢٥٢.

(٢) سورة البقرة ٢٥٤.

(٣) سورة البقرة ٢٥٥.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) سورة الأنبياء ٢٨.

(٦) سورة سبأ ٢٣.

(٧) وفي نسخة (أ) يدل.

(٨) وفي نسخة (ب) بغير.

(٩) وفي نسخة (ب) وهذه.

(١٠) في نسخة (ب).

بل المنافى له الاخبار عن وجودها لا الاخبار عن إمكان وجودها، ولو سلم فالمراد به نفى شفاعة الأصنام والكواكب التي كانوا يعتقدونها، ولهذا عرض بذكر الكفار بقوله تعالى: (والكافرون هم الظالمون) (١) وقيل: المراد أنه لا شفاعة في اثم ترك الواجبات، لأن الشفاعة في الآخرة في زيادة الفضل لا غير، والخطاب مع المؤمنين في النفقة الواجبة وهي الزكاة.

فإن قيل: كيف قال: (والكافرون هم الظالمون) (٢) على جهة الحصر وغيرهم ظالم أيضاً؟

قلنا: لأن ظلمهم أشد فكانه لا ظالم إلا هم، ونظيره: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (٣).

فإن قيل: كيف قال: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم) (٤) بلفظ المضارع، ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضي، والاخراج قد وجد لأن الإيمان قد وجد؟

قلنا: لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الاخراج من الله تعالى في الزمن المستقبل في حق من آمن، بزيادة كشف الشبهة (هـ) ومضاعفة الهداية، وفي حق من لم يؤمن ممن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية وزيادتها أيضاً، ولفظ الماضي لا يدل على هذا المعنى. فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظلمات الكفر، والكافرون في نور

(١) سورة البقرة ٢٥٤.

(٢) سورة البقرة ٢٥٤.

(٣) سورة فاطر ٢٨.

(٤) سورة البقرة ٢٥٧.

(هـ) وفي نسخة (ب) الشبهة.

الإيمان ليخرجوا من ذلك؟

قلنا: الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول، يقال لمن امتنع عن الدخول فى أمر وخرج منه وأخرج نفسه منه، وإن لم يكن دخل فيه، فعصمة الله تعالى المؤمنين عن الدخول فى ظلمات الضلال إخراج لهم منها، وتزيين قراء الكفار لهم الباطل الذى يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى، ولأن إيمان أهل الكتاب بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر كان نوراً لهم وكفرهم به بعد ظهوره خروج منه إلى ظلمات الكفر، ولأنه لما ظهرت معجزاته عليه الصلاة والسلام كان موافقه ومتبعه خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومخالفه خارجاً من نور العلم إلى ظلمات الجهل.

فإن قيل: كيف انتقل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى حجة أخرى وعدل عن نصرته الأولى، مع أنها لم تنقطع بما عارضه به نمرود من قتل أحد المحبوسين وإطلاق الآخر، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما أراد هذا الأحياء والإماتة؟

قلنا: إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك معنى الأحياء والإماتة التى أضافها إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى، حيث عارض معارضة لفظية، وعمى عن اختلاف المعنيين، أو لأنه علم أنه فهم الحجة لكنه قصد التمويه والتلبيس على أتباعه وأشياعه، فعدل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أمر ظاهر، يفهمه كل أحد ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس.

فإن قيل: كيف طبع الله على قلبه فلم يعارض بالعكس فى طلوع الشمس؟

قلنا: لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب، لأن ذلك إمارة

قيام الساعة فلا يوجد إلا قريباً من قيامها، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده فلو ادعاه لكذبوه. فإن قيل: كيف قال عزيز منكراً مستبعداً: (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) (١) وهو نبي والنبي لا يخفى عليه قدرة الله تعالى على احياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها؟

قلنا: ما قاله منكراً مستبعداً لعظيم قدرة الله، بل متعجباً من عظيم قدرته تعالى، أو طلباً لرؤية كيفية الاعادة، لأن أنى بمعنى كيف أيضاً، وقد نقل عن مجاهد أن المار على القرية القائل ذلك كان رجلاً كافراً شاكاً في البعث، وإن كان الأول هو المشهور.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: (أو لم تؤمن) (٢) وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟

قلنا: لنجيب بما أجاب به، فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون النبي غير مطمئن القلب بقدرة الله تعالى على احياء الموتى، حتى قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (ولكن ليطمئن قلبي) (٣)؟

قلنا: ليطمئن قلبي بعلم ذلك عياناً كما اطمأن به برهاناً، أو ليطمئن بأنك اتخذتني خليلاً، أو بأنى مستجاب الدعوة، ولقائل أن يقول على الوجه الأول كيف يزداد يقيناً بالمشاهدة، وقد روى عن على رضى الله عنه أنه قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً وإبراهيم

(١) سورة البقرة ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة ٢٦٠.

(٣) سورة البقرة ٢٦٠.

عليه الصلاة والسلام أعظم رتبة وأجل، وجوابه أن علياً رضى الله عنه أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان، حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان يسيرة لا يعتد بها.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (فصوهن إليك) (١) أى فضيهن، ولفظ الأخذ مفعول عنه؟

قلنا: الفائدة فيه زيادة تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها، لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنها غيرها.

فإن قيل: كيف مدح المنفقين (٢) بترك المن، ونهى عن المن أيضاً، مع أنه وصف نفسه بالمنان (٣)؟

قلنا: «من» بمعنى أعطى ومنه المنان (٤) فى صفات الله تعالى وقوله: (فأمنن أو أمسك) (٥) وقوله: (لقد من الله على المؤمنين) (٦) أى أنعم وقوله: (فأما منا بعد) (٧) أى انعاماً بالاطلاق بغير عوض، و«من» بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم.

فإن قيل: (قوله تعالى) (٨) (بل الله يمين عليكم ان هداكم للإيمان) (٩) من القسم الثانى؟

(١) سورة البقرة ٢٦٠.

(٢) وفى نسخة (ب) المتقين.

(٣) وفى نسخة (ب) المنان.

(٤) وفى نسخة (ب) المنان.

(٥) سورة ص ٣٩.

(٦) سورة آل عمران ١٦٤.

(٧) سورة محمد ٤.

(٩) سورة الحجرات ١٨.

(٨) فى نسخة (ب).

قلنا: ذلك اعتداد بنعمة الايمان، فلا يكون قبيحاً بخلاف نعمة المال، ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح في حقه ذم في حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف قال: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) (١) ثم قال: (فيها من كل الثمرات) (٢)؟

قلنا: لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما، وأن كان فيها غيرها تغليباً لهما وتفصيلاً.

فإن قيل: قوله تعالى: (لا يستلون الناس الحافنا) (٣) يدل (٤) على أنهم كانوا يسألون برفق فكيف قال: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف)؟

قلنا: المراد به نفس السؤال والالحاف جميعاً كقوله تعالى: (لا ذلول كثير الأرض) (٥) وكقول الأعشى:

لا يغمز الساق من أين ولا وصب

معناه ليس بساقه أين ولا وصب فيغمزها.

فإن قيل: كيف قال: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم هالوا إنما

(١) سورة البقرة ٢٦٦.

(٢) سورة البقرة ٢٦٦.

(٣) سورة البقرة ٢٧٢.

(٤) وفي نسخة (ب) بينهم.

(٥) سورة البقرة ٧١.

البيع مثل الربوا وأحل الله البيع وحرم الربوا (١) الحق الوعيد بأكله مع أن لابسه ومدخره وواهبه أيضاً في الاثم سواء. قلنا: لما كان أكثر الانتفاع (٢) بالأكل عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل كما يقال أكل فلان ماله كله إذا أخرجه في مصالح الأكل وغيره. فإن قيل: كيف خص الأكل بذكر الوعيد دون المطعم وكلاهما آثم؟ قلنا: لأن انتفاعه الدنيوي بالربا أكثر من انتفاع المطعم. فإن قيل: كيف قال: (إنما البيع مثل الربا) (٢) والكلام في الربا، ومقصودهم تشبيهه بالبيع بقياسه إنما الربا مثل البيع؟ قلنا: جاءوا بالتمثيل على طريق المبالغة، وذلك أنه إذا بلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه (أصلاً) (٤) في الحل والبيع فرعاً لقولهم: القمر كوجه زيد والبحر ككفه إذا أرادوا المبالغة. فإن قيل: كيف قلتم أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار، وقد قال الله تعالى في حق آكلي الربا: (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٥)؟

قلنا: الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء، وإن لم يكن بصفة التأييد، يقال: خلد الأمير فلاناً في الحبس (٦) إذا طال حبسه، أو قوله: فأولئك إشارة إلى من عاد إلى استحلال الربا بقوله: إنما البيع مثل الربا، بعد نزول آية التحريم، وذلك يكون كافراً والكافر مخلد في

(١) سورة البقرة ٢٧٥.

(٢) وفي نسخة (ب) «بالبال إنما هو الأكل لأنه مقصود لا غناء عنه ولا بد منه عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل».

(٤) في نسخة (ب).

(٢) سورة البقرة ٢٧٥.

(٦) وفي نسخة (ب) السجن.

(٥) سورة البقرة ٢٧٥.

النار.

فإن قيل: انتظار المعسر فرض بالنص (١)، والتصدق عليه تطوع،

فكيف قال: (وإن تصدقوا خير لكم) (٢)؟

قلنا: كل تطوع كان محصلاً للمقصود من الغرض بوصف الزيادة كان أفضل من القرض، كما أن الزهد في الحرام فرض، وفي الحلال تطوع والزهد في الحلال أفضل كما بينا (٣) كذلك هنا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (بدين) (٤) وقوله: (فداينتم) (٥) من عنه؟

قلنا: فائدته رجوع الضمير إليه في قوله: (فاكتبوه) (٦) إذ لو لم يذكره لقال: فاكتبوا الدين، والأول أحسن نظاماً، الثاني أن تداينا مشترك بين الاقراض والمبايعة وبين المجازاة، وإنما عبر بينهما بفتح الدال وكسرها ومنه: (ملك يوم الدين) (٧) (إيان يوم الدين) (٨) فذكر الدين ليتعين أى المعنيين هو المراد.

فإن قيل: كيف شرط السفر في الارتهان بقوله تعالى: (وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله به ولا تكتموا

(١) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) النص.

(٢) سورة البقرة ٢٨٠.

(٣) وفي نسخة (ب) لما بينا.

(٤) سورة البقرة ٢٨٢.

(٥) سورة البقرة ٢٨٢.

(٦) سورة البقرة ٢٨٢.

(٧) سورة الفاتحة ١.

(٨) سورة الذاريات ١٢.

الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون
عليم) (١) وجواز الرهن لا يختص بالسفر؟

قلنا: لم يذكره لتخصيص الحكم به، بل لما كان السفر مظنة (٢)
عوز الكاتب والشاهد الموثوق (٣) بهما أمر على سبيل الارشاد،
ولحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان.

فإن قيل: ما فائدة ذكر القلب في قوله: (فإنه أثم قلبه) (٤) مع
ان الجملة هي بالأثم لا القلب وحده؟

قلنا: كتمان الشهادة هو أن يضرها، ولا يتكلم بها، فلما كان ذلك
إثماً مقترفاً بالقلب ومكتسباً به أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى
الجارحة التي يعمل بها أبلغ كما يقال: هذا مما أبصرته عيني وسمعته
أذني وعلمه قلبي.

فإن قيل: كيف قال: (وإن تبدوا ما هي أنفسكم أو تخفوه
يحاسبكم به الله) (٥) وما يحدث به الانسان نفسه لا يآثم به ما
لم يفعله، اما لأنه لا يدخل الاحتراز عنه في الوسع والطاقة أو
بالحديث المشهور.

قلنا: قيل: أريد بالآية العموم ثم نسخ بقوله تعالى: (لا يكلف الله
نفساً إلا وسعها) (٦) وقيل لا نسخ فيها لأنه خبر لا أمر أو نهى
بل العموم غير مراد، وانما المراد ما يمكن الاحتراز عنه، وهو العزم

(١) سورة البقرة ٢٨٢.

(٢) وفي نسخة (ب) مظنته.

(٣) وفي نسخة (ب) موثق.

(٤) سورة البقرة ٢٨٢.

(٥) سورة البقرة ٢٨٤.

(٦) سورة البقرة ٢٨٦.

القاطع والاعتقاد الجازم لا مجرد حديث النفس والوسوسة ولأنه أخبر عن المحاسبة لا عن المعاقبة، فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وأخفوا ليعلموا احاطة علمه بجميع ذلك ثم قال: يغفر لمن يشاء فضلا ويعذب من يشاء عدلا كما أخبر في الآية.

فإن قيل: أى شرف للرسول عليه الصلاة والسلام فى مدحه بالإيمان، مع أنه فى مرتبة الرسالة، ودرجتها وهى أعلى من درجة الإيمان فما فائدة قوله: (آمن الرسول) (١)؟

قلنا: فائدته أن يبين (٢) للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مدح به خواصه ورسله، ونظيره فى سورة الصفات قوله تعالى فى خاتمة ذكر كل نبي: (إنه من عبادنا المؤمنين) (٣).

فإن قيل: روى عن ابن عباس أنه قرأ: (وملائكته وكنابته) (٤) فسل عن ذلك فقال كتاب أكثر (٥) من كتب فما وجهه؟

قلنا: قيل: فيه أنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع، والجنس أكثر من الجمع، لأنه حقيقة فى الكل على ما ذهب إليه بعضهم، ويرد على هذا أن يقال: الكلام فى الجمع المضاف والمفرد المضاف والجمع المضاف للاستغراق عرفاً وشرعاً، كقوله لعبد: أكرم أصدقائى وأمن أعدائى، وقوله: زوجاتى طوائف وعبيدى أحرار بخلاف قوله صديقى وعدوى وأمرأتى، فظهر أن الجمع المضاف أكثر.

(١) سورة البقرة ٢٨٥.

(٢) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) تبين.

(٣) سورة الصفات ٨١، ١١١، ١٢٢.

(٤) سورة البقرة ٢٨٥.

(٥) وفى نسخة (ب) أكبر.

فإن قيل: بين لا يضاف إلا إلى اثنتين (١) فصاعداً فكيف قال: (٢) ففرق بين أحد من رسله (٢)؟

قلنا: أحد هنا بمعنى الجمع الذي هو آحاد كقوله تعالى: (فما منكم من أحد) (٢) فإنه ثم بمعنى الجمع بدليل قوله: (حاجزين) (٤) فكأنه قال لا نفرق بين آحاد من رسله كقوله: المال بين آحاد الناس ولأن أحداً (٥) يصلح للمفرد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما نفيًا وإثباتًا، نقول: ما رأيت أحداً إلا بنى فلان أو إلا بنات فلان سواء، وتقول: إن جاءك أحداً بكتابي فأعطه وديعتي يستوى فيه الكل، فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم ومنه قوله تعالى: (يا فساء النبي لستن كأحد من النساء) (٦).

فإن قيل: من أين دل قوله تعالى: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (٧) على أن الأول في الخير والثاني في الشر؟ قلنا: قيل هو من كسبت واكتسبت، فإن الأول للخير والثاني للشر وليس لقوله تعالى: (ومن يكتسب خطيئة أو إثماً) (٨) وقوله: (كل نفس بما كسبت رهينة) (٩) وقوله: (أو يوبقهن بما

(١) وفي نسخة (ب) اثنين.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) سورة الحاقة ٤٧.

(٤) سورة الحاقة ٤٧.

(٥) وفي نسخة (ب) أحاداً.

(٦) سورة الأحزاب ٢٢.

(٧) سورة البقرة ٢٨٦.

(٨) سورة النساء ١١٢.

(٩) سورة المدثر ٢٨.

كسبوا) (١) وقوله: (ومن يفتقر حسنة) (٢) والافتراق والاكْتساب بمعنى واحد، وقيل: هو (من) (٣) اللام وعلى وليس بسديد أيضاً لقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (٤) وقوله تعالى: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (٥) وقوله: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) (٦) اللهم إلا أن يدعى أن اللام وعلى عند الاطلاق تقتضيان ذلك كما فى هذه الآية: (لا مقرونتين) (٧) بذكر الحسنة والسيئة أو الحسن والتبجح ويدل عليه قوله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) (٨) أطلقه وأراد به الشر بدليل ما بعده، وقولهم: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك» وقولهم: «فلان يشهد لك وفلان يشهد عليك» ويقول الرجل لصاحبه هذا الكلام حجة عليك لا لك، وقال الشاعر:

على أننى راض بأن أحمل الهوى

وأخلص منه لا على ولا ليا

وأما قوله تعالى: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (٩) وإن كان متيذاً لأن فيه دلالة أيضاً من جهة اللام وعلى لأن القيد شامل لطرفيه، والله أعلم.

(٢) سورة الشورى ٢٢.

(٤) سورة الرعد ٢٥.

(١) سورة الشورى ٢٤.

(٣) نسخة (ب).

(٥) سورة الإسراء ٧.

(٦) سورة البقرة ١٥٨.

(٧) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) مقرونين.

(٨) سورة الأنعام ١٦٤.

(٩) سورة فصلت ٤٦.

سورة آل عمران

فإن قيل: كيف قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق) (١) ثم قال تعالى: (وأُنزل التوراة والإنجيل) (٢)؟ قلنا: لأن القرآن نزل منجماً، والتوراة والإنجيل نزلا جملة واحدة كذا أجاب الزمخشري وغيره، ويرد عليه قوله تعالى بعد ذلك: (وأُنزل الفرقان) (٣) فإن الزمخشري قال: أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصاً، أو أراد به الزبور، أو أراد به القرآن، وكرر ذلك تعظيماً، ويرد عليه بعد ذلك: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) (٤) وقوله تعالى: (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) (٥) وقوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) (٦) والذي وقع لى فيه -والله أعلم- أن التضعيف فى نزل، والهمزة فى أنزل كلاهما للتعدية، لأن نزل فعل لازم فى نفسه وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنى آخر، وهو التكثير أو نحوه لأنه لا نظير له، فإنما جمع بينهما والمعنى واحد، وهو التعدية جرياً على عادة العرب فى افتتانهم فى الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى، ويؤيد هذا قوله تعالى: (لولا نزل عليه آية من ربه) (٧)، وقال

(١) سورة آل عمران ٢.

(٢) سورة آل عمران ٣.

(٣) سورة آل عمران ٤.

(٤) سورة آل عمران ٧.

(٥) سورة البقرة ٤.

(٦) سورة الفرقان ٢٢.

(٧) سورة الأنعام ٢٧.

فى موضع آخر: (لولا أفضل عليه آية من ربه) (١).
فإن قيل: كيف قال: (منه آيات محكمات) (٢) ومن للتبويض،
وقال فى موضع آخر: (كتاب أحكمت آياته) (٣) وهذا يقتضى
كون جميع آياته محكمة؟

قلنا: المراد بقوله: «منه آيات محكمات» أى ناسخات «وأخر
متشابهات» أى منسوخات، وقيل: المحكمات العقلية والمتشابهات
الشرعية، وقيل: المحكمات ما ظهر معناها والمتشابهات ما كان فى
معناها غموض ودقة، والمراد بقوله تعالى «كتاب أحكمت آياته» أن
جميع القرآن صحيح ثابت مصون عن الخلل والزلل فلا تنافى.
فإن قيل: كيف قال هنا: (وأخر متشابهات) (٤) جعل بعضه
متشابهاً، وقال فى موضع آخر: (كتاباً متشابهاً) (٥) وصفه كله
بكونه متشابهاً.

قلنا: المراد بقوله: (وأخر متشابهات) ما سبق ذكره، والمراد
بقوله: (كتاباً متشابهاً) أنه يشبه بعضه بعضاً فى الصحة وعدم
التناقض وتأييد بعضه البعض فلا تنافى.

فإن قيل: ما فائدة إنزال المتشابه بالمعنى الأخير، والمقصود من
إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى، والغموض والدقة فى المعانى
ينافى هذا المقصود أو يبعده؟

(١) سورة الرعد ٧، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران ٧.

(٣) سورة هود ١.

(٤) سورة آل عمران ٧.

(٥) سورة الزمر ٢٢.

قلنا: لما كان كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعاً ولا يحتمل غير ظاهره، وإلى ما هو مجاز وكناية وإشارة وتلويح والمعاني فيه متعارضة متزاحمة، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبعد (١) في كلامهم نزل القرآن بالنوعين تحقيقاً لمعنى الإعجاز، كأنه قال عارضوه بأي النوعين شنتم فإنه جامع لهما، وأنزله الله محكماً ومتشابهاً ليختبر من يؤمن ب كله ويرد علم ما تشابه منه إلى الله، فيشبهه، ومن يرتاب فيه ويشك وهو المنافق فيعاقبه، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره أو أراد أن يشتغل العلماء برد المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة، ولو كان كله ظاهراً جلياً لاستوى فيه العلماء والجهال ولما تمت الخواطر لعدم البحث والاستنباط، فإن زناد الفكر إنما يقدر بزيادة (٢) المشكلات، ولهذا قال بعض الحكماء: عيب الغنى أن يورث البلادة ويبيت الخاطر، وفضيلة الفقر أنه يبعث على أعمال الفكر واستنباط الحيل في الكسب.

فإن قيل: قوله تعالى: (برونهم مثلهم رأى العين) (٣) أى ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مثلى عدد نفسها أو بالعكس على اختلاف القولين وكيفما كان فهو مناف لقوله تعالى فى سورة الأنفال: (وإذا يريكموهم إذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم) (٤) لأن يدل على أن الفئتين تساوتا فى استقادل كل واحدة منهما

(١) وفى نسخة (ب) المستبعد.

(٢) وفى نسخة (ب) تقدح بزناد.

(٣) سورة آل عمران ١٢.

(٤) سورة الأنفال ١٤.

للأخرى؟

قلنا: التقليل والتكثير فى حالين مختلفين قلل الله المشركين فى نظر المؤمنين أولاً، والمؤمنين فى نظر المشركين حتى اجتزأت كل فئة على قتال صاحبها، فلما التقتا كثر الله المؤمنين فى نظر المشركين حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا أو كثر الله المشركين فى نظر المؤمنين، وأراهم إياهم على ما هم عليه وكانوا فى الحقيقة أكثر من المؤمنين، ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله: (فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ... الآية) (١) فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ غَلَبُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ وَهِيَ غَزَاةُ بَدْرٍ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَضْعَافُ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: أَرَى اللَّهَ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرِكِينَ مِثْلَى عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ أَمْثَالِهِمْ لَكِنَّهُ قَلَلَهُمْ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ وَأَرَاهُمْ بِقَدْرِ مَا أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَهُمْ، لَتَقْوَى قُلُوبُهُمْ بِمَا سَبَقَ مِنَ الْوَعْدِ إِنَّ الْمِائَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَغْلِبُ الْمِائَتَيْنِ مِنْهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا فَائِدَةُ تَكَرُّارِ قَوْلِهِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) فِي قَوْلِهِ: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ مُخْتَصِفًا أَلْفًا بِإِلَهِهِ) (٢)؟

قلنا: الأول قول الله تعالى والثاني حكاية قول الملائكة وأولى العلم، وقال جعفر الصادق رضى الله عنه: الأول وصف والثاني تعليم أى قوله وأشهدوا كما شهدوا.

فَإِنْ قِيلَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَهُمْ مُعْرَضُونَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ

(١) سورة الأنفال ٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨.

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معروضون) (١) والتولى والإعراض واحد كما سبق مرة؟

قلنا: معناه يتولون عن الداعي ويعرضون عما دعاهم إليه وهو كتاب الله أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم أو كان الذين تولوا علماءهم والذين أعرضوا أتباعهم.

فإن قيل: كيف قال: (بيدك الخير) (٢) خص الخير بالذكر وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضر؟

قلنا: لأن الكلام إنما ورد رداً على المشركين فيما أنكروه، مما وعد الله به نبيه على لسان جبريل عليهما الصلاة والسلام من فتح بلاد الروم وفارس، ووعد النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة بذلك، فلما كان الكلام في الخير خصه بالذكر باعتبار الحال، أو أراد الخير والشر فأكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر كقوله: (سراييل تقيكم الحر) (٣) وإنما خص الخير بالذكر لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) (٤) وإيلاج الشيء في الشيء يقتضى اجتماع حقيقتيهما بعد الإيلاج كإيلاج الخيط في الأبرة والأصبع في الخاتم ونحوهما، وحقيقة الليل والنهار لا تجتمعان؟

قلنا: الإيلاج قد يكون كما ذكرتم، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما

(١) سورة آل عمران ٢٣.

(٢) سورة آل عمران ٢٦.

(٣) سورة النحل ٨١.

(٤) سورة آل عمران ٢٧.

بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه كإيلاج يسير من خبز في لبن كثير أو بالعكس فإن الحقيقتين مجتمعتان وزناً، وصفة أحدهما غالبية على الأخرى، كذلك الليل والنهار إذا كان الليل (١) أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال ففيه من النهار ساعتان قطعاً، وكذا على العكس، أو معناه يولج زمن الليل في زمن النهار وبالعكس، أو يولج الليل في النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين وبالعكس، أو معناه أنه خلق ليلاً صرفاً خالصاً، ونهاراً صرفاً خالصاً وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبيل (٢) طلوع الشمس وقبيل (٢) غروبها، والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة.

فإن قيل: ما فائدة قوله (٢): (وليس الذكر كالأنثى) (٤) وهو معلوم من غير ذكر؟

قلنا: هي ظنت أن ما في بطنها ذكر، ولهذا نذرت أن تجعله خادماً لبیت المقدس، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر في الذكور خاصة، فلما وضعت أنثى استحييت حيث خاب ظنها، ولم يتقبل نذرها، فقالت ذلك معتذرة تعنى (٥) ليست الأنثى بصالحة لما يصلح له الذكر من خدمة المسجد، لا أنها أرادت (أن) (٦) الأنثى ليست

(١) وفي نسخة (ب) الليل والنهار.

(٢) وفي نسخة (ب) قبل.

(٢) في نسخة (ب) قوله وفي نسخة (أ) قولها.

(٤) سورة آل عمران ٢٦.

(٥) وفي نسخة (ب) يعنى.

(٦) في نسخة (ب).

كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك، فلما قالت ذلك منكسرة خجلة من الله عليها بتخصيص مريم بقبولها في النذر دون غيرها من الأنثى، وقال: (فتقبلها وبها بقبول حسن) (١).

فإن قيل: المستعمل في مثله إدخال حرف النفي على القاصر، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم: ليس الفضة كالذهب، وليس العبد كالحر، فوزانه ليس الأنثى كالذكر؟

قلنا: لما كان جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً في التشبيه في حالة الإثبات، يقتضى (٢) المبالغة في المشابهة كقولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه، كان يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً في حالة النفي يقتضى نفي المبالغة في المتشابهة لا نفي المشابهة، وذلك هو المقصود هنا، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى في أعم الأوصاف، وأغلبها، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر، وإنما أرادت أم مريم نفي المشابهة بينهما في صحة النذرية خادماً لبیت المقدس لا غير، فلذلك عكست الثاني: إن ذلك قول الله تعالى، والمعنى ليس الذكر الذى طلبت أن يكون خادماً للكنيسة كالأنثى التى وهبت لما علم الله تعالى من جعلها وابنها آية للعالمين، وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجل في قوله تعالى: (والله أعلم بما وضعت) (٣) وهى لا تعرف مقدار شرفه واللام في الذكر والأنثى للعهد، وهذا كله قول الزمخشري وتماه في الكشف، وقال الفقيه أبو الليث: قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أى وليس الذكر

(١) سورة آل عمران ٣٧.

(٢) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) تقتضى.

(٣) سورة آل عمران ٣٦.

كالأنثى يا محمد، وقال بعضهم: هو من كادام أم مريم.
فإن قيل: كيف نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب
وأجابها وهو فى الصلاة كما قال تعالى: (فنادته الملائكة وهو قائم
يصلى فى المحراب) (١)؟

قلنا: المراد بقوله يصلى أى يدعو لقوله تعالى: (ولا تجهر بصلاتك
ولا تخافت بها) (٢) أى بدعائك.

فإن قيل: ما فائدة تخصص يحيى عليه الصلاة والسلام بقوله: (إن
الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) (٣) وكل واحد من
المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى؟

قلنا: معناه مصدقاً بعبسى الذى كان وجوده بكلمة من الله، وهى كن
من غير واسطة أب، وكان تصديق يحيى بعبسى أسبق من تصديق
كل أحد فى الوجود أو فى المرتبة.

فإن قيل: زكريا سأل الله الولد بقوله: (هب لى من لدنك ذرية
طيبة) (٤) والله تعالى بشره بيحيى على لسان الملائكة، فكيف أنكر
(بعد) (٥) هذا كله قدرة الله على إعطائه الولد حتى قال: (وب أنى
يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وأمرأتى عاقراً) (٦)؟

قلنا: أنما قاله على سبيل الاستفهام والتعجب من عظيم قدرة الله

(١) سورة آل عمران ٢٩.

(٢) سورة الإسراء ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ٣٩.

(٤) سورة آل عمران ٢٨.

(٥) فى نسخة (ب).

(٦) سورة آل عمران ٤٠.

تعالى، لا عن طريق الإنكار والاستبعاد، أو اشتبه عليه هل يعطى الولد وهو شيخ وأمراته عاقر أو تزول عنهما هاتان الصفتان، فسأل لكشف الحال فتقديره «أنى يكون لى غلام (١) وقد بلغنى الكبر وأمرأتى عاقر» ولقائل أن يقول آخر الآية لا يناسب هذا الجواب.

فإن قيل: ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء فى قوله تعالى: (أن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك) (٢)؟

قلنا: الاصطفاء الأول للعبادة التى هى خدمة البيت المقدس، وتخصيصها بقبولها فى النذر مع كونها أنثى، والاصطفاء الثانى لولادة عيسى عليه الصلاة والسلام أو أعيد ذكر الاصطفاء ليقيد بقوله: «على نساء العالمين» فيندفع وهم أنها مصطفىة على الرجال. فإن قيل: كيف نفى حضور النبى عليه الصلاة والسلام فى زمن مريم بقوله: (ما كنت لديهم إذ يلقون أفلانهم... الآية) (٣)، وذلك معلوم عندهم ولا شك فيه، وترك نفى استماعه ذلك الخبر من حافظه، وهو الذى كانوا يتوهمونه؟

قلنا: كان معلوماً أيضاً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل القراءة والرواية، وكانوا منكرين للوحى فلم يبق إلا المشاهدة والحضور، وهى فى غاية الاستحالة فنفيت (٤) على طريق التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية، ونظيره قوله تعالى:

(١) وفى نسخة (ب) أو قد بلغنى.

(٢) سورة آل عمران ٤٢.

(٣) سورة آل عمران ٤٤.

(٤) وفى نسخة (ب) فبقيت.

(وما كنت بجانب الغربي) (١) (وما كنت بجانب الطور) (٢).
فإن قيل: كيف قال: (أسمه المسيح عيسى بن مريم) (٣)
والخطاب مع مريم وهى تعلم أن الولد الذى بشرت به ابنها؟
قلنا: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته
إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه.
فإن قيل: أى معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام فى تكليم الناس
كهلا وأى خصوصية له فى هذا حتى قال: (ويكلم الناس فى المهد
وكهلا) (٤)

قلنا: معناه يكلم الناس (٥) فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير
تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التى يستحكم فيها العقل،
وينبأ (٦) فيها الأنبياء، فكأنه قال: ويكلم الناس فى المهد كما يكلمهم
كهلا، وقال الزجاج: هنا خرج مخرج البشارة لمريم أنه عليه
الصلاة والسلام يبقى إلى زمن الكهولة، فهو بشارة لها بطول عمره،
وقيل: المقصود منه أن الزمان يؤثر فيه كما يؤثر فى غيره، وينقله
من حال إلى حال ولو كان إلهاً لم يجز عليه التغيير.
فإن قيل: كيف قال: (أنى متوفيك ورافعك إلى) (٧) والله تعالى
رفعه ولم يتوفه؟

(١) سورة القصص ٤٤.

(٢) سورة القصص ٤٦.

(٣) سورة آل عمران ٤٥.

(٤) سورة آل عمران ٤٦.

(٥) ماقط من نسخة (ب).

(٦) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) وينبأ.

(٧) سورة آل عمران ٥٥.

قلنا: لما هده اليهود بالقتل بشره بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب ليلزم من الآية موته قبل رفعه، الثاني: أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره أنى رافعك ومتوفيك، الثالث: أن معناه قابضك من الأرض تاماً وافيأً في أعضائك وجسدك لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيت حتى على فلان إذا استوفيته تاماً وافيأً، الرابع أن معناه أنى متوفيك نفسك بالنوم من قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها) (١) ورافعك إلى وأنت نائم حتى لا تخاف، بل تستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب.

فإن قيل: كيف قال: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) (٢) وآدم (خلق من التراب، وعيسى من الهواء) (٣)، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم؟

قلنا: المراد به التشبيه فى وجوده بغير واسطة، والتشبيه لا يقتضى المماثلة من جميع الوجوه بل من بعضها.

فإن قيل: كيف خص أهل الكتاب بأن منهم أميناً وخائناً بقوله: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك... الآية) (٤)

والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك منهم الأمين والخائن؟ قلنا: إنما خصهم باعتبار واقعة الحال، فإن سبب نزول الآية إن عبدالله بن سلام أودع ألفاً ومائتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها،

(١) سورة الزمر ٤٢.

(٢) سورة آل عمران ٥٩.

(٣) ساقط من نسخة (ب).

(٤) سورة آل عمران ٧٥.

وفنحاص بن عازوراء أودع ديناراً فخانته، ولأن خيانة أهل الكتاب المسلمين يكون عن استحلال بدليل آخر الآية، بخلاف خيانة المسلم المسلم فلذلك خصهم بالذكر.

فإن قيل: كيف قال: (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) (١) وأكثر الجن والأنس كفر؟

قلنا: المراد بهذا الاستسلام والانقياد، لما قضاه عليهم وقدره من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف قال: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن نقبل توبتهم) (٢) ومعلوم أن المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه مقبول التوبة؟

قلنا: الآية نزلت في قوم ارتدوا ثم أظهروا التوبة بالقول لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم، قاله ابن عباس وقيل: نزلت في قوم تابوا من ذنوبهم غير الشرك، وقيل: معناه لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت.

فإن قيل: كيف قال: (أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) (٣) وكم من بيت بنى قبل الكعبة من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام؟

قلنا: معناه أنه أول بيت وضع قبلة للناس ومكان عبادة لهم، أو وضع مباركاً للناس، ولأن ابن عباس قال: أول من بناه آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط من السماء أوحى الله إليه: ابن لي بيتاً في

(١) سورة آل عمران ٨٢.

(٢) سورة آل عمران ٩٠.

(٣) سورة آل عمران ٩٦.

الأرض وأصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي،
فبناه وجعل يطوف بطرف حوله.

فإن قيل: كيف قال: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (١) ولم يقل
أنتم خير أمة؟

قلنا: معناه كنتم في سابق علم الله، أو كنتم يوم أخذ الميثاق على
الذرية فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة
أو معناه خلقتهم ووجدتهم فهي كان التامة، وخير أمة نصب على
الحال وتمام الكلام في كان ذكرناه في قوله تعالى: (أنه كان فاحشة
ومقتاً) (٢).

فإن قيل: كيف قال: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) (٣)
ولا يصح أن يقال هذا خير من ذلك إلا إذا كان في كل واحد منهما
خير؟

قلنا: معناه إيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام، مع إيمانهم بموسى
عليه الصلاة والسلام، مع إيمانهم بـعيسى عليه الصلاة والسلام خير
من إيمانهم بموسى وعيسى فقط.

فإن قيل: كيف قال: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل
ريح فيها صر... الآية) (٤) والمقصود تشبيه نفقة الكفار أموالهم
في تحصيل المفاز وطلب الصيت والسمعة أو ما ينفقونه في
الطاعات مع وجود الكفر أو ما ينفقونه في عداوة رسول الله صلى

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النساء ٢٢.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) سورة آل عمران ١١٧.

الله عليه وسلم بالزرع الذى أصابته ريح شديدة البرد فأهلكته فضاع ولم ينتفع به، فالتشبيه فى الحقيقة بالزرع، وفى لفظ الآية بالريح؟

قلنا: فيه أضرار تقديره مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح، ونظيره قوله تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة... الآية) (١) وقوله: (مثل الذين كفروا كمثل الذى ينفق... الآية) (٢) وقال ثعلب: فيه تقديم وتأخير تقديره كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابتهم (٣) ريح فيها صر فأهلكته.

فإن قيل: كيف قال: (إن تمسكم حسنة نسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) (٤) فوصف الحسنة بالمس والسيئة بالاصابة؟

قلنا: المس مستعار بمعنى الاصابة، فكان المعنى واحد ألا ترى إلى قوله تعالى: (إن تصبك حسنة نسوهم وإن تصبك مصيبة) (٥) وقوله: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٦) وقوله: (إن الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) (٧).

(١) سورة البقرة ٢٦١.

(٢) سورة البقرة ١٧١.

(٣) وفى نسخة (ب) أصابته.

(٤) سورة آل عمران ١٢٠.

(٥) سورة التوبة ٥٠.

(٦) سورة النساء ٧٩.

(٧) سورة المعارج ٢١.

فإن قيل: كيف قال: (وسارعوا إلى مغفرة) (١) والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن؟ قلنا: قد استثنى النبى عليه الصلاة والسلام خمسة مواضع فقال: إلا فى التوبة من الذنب، وقضاء الدين الحال، وتزويج البكر البالغة، ودفن الميت، وإكرام الضيف إذا نزل، والمسارة المأمور بها فى الآية هى المسارة إلى التوبة وما فى معناها من أسباب المغفرة.

فإن قيل: كيف قال: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) (٢) عطفه عليهم بكلمة أو فعل الفاحشة داخل فى ظلم النفس وهو (من) (٣) أبلغ أنواع ظلم النفس؟

قلنا: أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس، وهو الزنا أو كل كبيرة فخص بهذا الاسم تنبيهاً على زيادة قبحه، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب.

فإن قيل: كيف قال هنا: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) (٤) وقال فى موضع آخر: (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) (٥)؟

قلنا: معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: (فإن مات أو قتل) (٦) وهذا اقتصر على

(١) سورة آل عمران ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) سورة آل عمران ١٢٥.

(٥) سورة الشورى ٢٧.

(٦) سورة آل عمران ١٤٤.

قوله «أفإن مات»، وكان القتل يدخل فيه، فإنه موت؟ قلنا: القتل وإن كان موتاً، ولكن إذا أطلق الميت في العرف لا يفهم منه المقتول فلذلك عطف أحدهما على الآخر.

فإن قيل: كيف قال: (ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة) (١) وقال في موضع آخر: (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) (٢)؟

قلنا: معناه يأتي به مكتوباً في ديوانه أو يأتي حاملاً لإثمه، ومعنى فرادى منفردين عن الأموال والأهل أو عن الشركاء في الغنى أو عن الآلهة المعبودة من دون الله، وتام الآية يشهد للكل.

فإن قيل: جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن الغال يأتي يوم القيامة حاملاً عين ما غله على عنقه صامتاً كان أو ناطقاً» هذا معنى الحديث، فاندفع الجواب؟

قلنا: على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل تعتزون (٢) بهما وتستنصرون، ويشهد بصحته تمام الآية.

فإن قيل: كيف قال: (هم درجات عند الله) (٤) والعبيد ليسوا نفس الدرجات؟

قلنا: فيه إضمار تقديره هم ذو درجات، أو أهل درجات فحذف المضاف لعدم الالتباس، وقيل: المراد بالدرجات الطبقات فلا يكون

(١) سورة آل عمران ١٦١.

(٢) سورة الأنعام ٩٤.

(٣) وفي نسخة (ب) يعتزون.

(٤) وفي نسخة (ب) يستنصرون.

فيه اضرار، بل معناه أنهم طبقات عند الله تعالى يتفاوتون كتفاوت الدرجات (١).

فإن قيل: كيف جعل لكلا الفريقين درجات، وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات؟

قلنا: الدرجات تستعمل في الفريقين بدليل قوله تعالى في سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين: (ولكل درجات مما عملوا) (٢) وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذاباً فمكانه فيها أعلى، وبعضهم أشد عذاباً فمكانه فيها أسفل ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الجنة لقوله: (هم درجات) (٣) فيكون راجعاً إليهم خاصة تقديره: أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن بآء بسخط من الله وهم دركات؟ إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه.

فإن قيل: (الذين قالوا أن الله فقير ونحن أغنياء) (٤) كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) (٥) فكيف قال: (سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء) (٦) أي ونكتب قتلهم الأنبياء وهم لم يقتلوا أنبياء قط؟

قلنا: لما رضوا بقتل أسلافهم الأنبياء كان كأنهم باشرُوا ذلك فأضيف

(١) وفي نسخة (ب) متقاربون كتقارب الدرجات.

(٢) سورة الأحقاف ١٩.

(٣) سورة آل عمران ١٦٢.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة البقرة ٢٤٥.

(٦) سورة آل عمران ١٨١.

إليهم، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً.
فإن قيل: كيف قال: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (١) وظلام
صيغة مبالغة من الظلم، ولا يلزم منه نفى الظالم، وعلى العكس يلزم
فهذا قال: ليس بظالم ليكون أبلغ في نفى الظلم عن ذاته المقدسة؟
قلنا: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم كما قال
تعالى: (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (٢) وقال: (عَالِمُ الْغَيْبِ) (٣)
و (عَلَامُ الْغُيُوبِ) (٤) لما أفرد (٥) المفعول لم يأت بصيغة المبالغة،
ولما جمعه أتى بصيغة المبالغة، ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده
وعمرو ظالم لعبيده فهما في الظلم سيان، وكنا قال تعالى: (مُخَلِّقِينَ
رُؤُوسَكُمْ) (٦) فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل، والثاني: أن
العذاب من العظيم التقدير الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش
وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر (كثير) (٧) العدل فيطلق
عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره،
فحاصله أن صيغة المبالغة (تارة) (٨) تكون باعتبار زيادة ذات الفعل

(١) سورة آل عمران ١٨٢.

(٢) سورة الكهف ٤٩.

(٣) سورة الأنعام ٧٢، سورة التوبة ٩٤ - ١٠٥، سورة الرعد ٩، سورة
المؤمنون ٩٢، سورة السجدة ٦، سورة سبأ ٢، سورة الزمر ٤٦، سورة
الحشر ٢٢، سورة التغابن ١٨، سورة الجن ٢٦.

(٤) سورة المائدة ١٠٩ - ١١٦، سورة التوبة ٧٨، سورة سبأ ٤٨.

(٥) وفي نسخة (ب) تفرد.

(٦) سورة الفتح ٢٧.

(٧) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) الكثير.

(٨) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) زيادة.

وتارة باعتبار صفته (١) ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبده باعتبار زيادة وصف القبح ونظيره قوله تعالى: (وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (٢) على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله.

فإن قيل: فى قوله تعالى: (فإن كذبتك فقد كذب رسل من قبلك) (٣) من حق الجزاء أن يتعقب الشرط، وهذا سابق له؟ قلنا: معناه وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك، وضاعاً للسبب وهو تكذيبهم موضع السبب وهو التأسى بهم.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ولا تكتمونه) فى قوله: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) (٤) والأول مغن عن الثانى؟

قلنا: معناه ليبينه فى الحال ويدومون على ذلك البيان فلا يكتمونه فى المستقبل، الثانى: أن الضمير الأول للكتاب، والثانى لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وذكره، فإنه قد سبق ذكر النبى عليه الصلاة والسلام قبيل هذا.

فإن قيل: متى بينوا الكتاب لزم بيانه بيان صفة النبى صلى الله عليه وسلم وذكره، لأنه من جملة الكتاب الذى هو التوراة والانجيل فتقوله بعد ذلك «لا تكتمونه» تكرار؟ قلنا: على هذا يكون تأكيداً.

(١) وفى نسخة (ب) صيفته.

(٢) سورة الأحزاب ٧٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٧.

فإن قيل: كيف قال: (ربنا أنك من تدخل النار فقد أخزيته) (١) وقال في موضع آخر: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) (٢) ويلزم من هذا أن لا يدخل المؤمنون النار كما قالت المعتزلة والخوارج (٣)؟

قلنا: أخزيته بمعنى أذلته وأهنته من الخزي، وهو الذل والهوان، وقوله: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) من الخزية وهي النكال والفضيحة فكل من يدخل النار يذل، وليس كل من دخلها ينكل به ويفضح أو المراد بالآية الأولى ادخال الإقامة والخلود، لا ادخال تحلة القسم المدلول عليها بقوله تعالى: (وإن منكم إلا واردة) (٤) أو ادخال التطهير الذي يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم، وقيل: أن قوله تعالى: (يوم لا يخزي الله النبي) كلام تام وقوله: «والذين آمنوا معه» كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله.

فإن قيل: كيف قال: (سمعنا منادياً) (٥) والمسموع نداء المنادى وقوله، لا نفس المنادى؟

قلنا: لما قال منادياً ينادى صار تقديره نداء مناد كما يقال سمعت زيدا يقول كذا أي سمعت قول زيد.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (ربنا فاعف لنا ذنوبنا وكفر عنا

(١) سورة آل عمران ١٩٢.

(٢) سورة التحريم ٨.

(٣) في نسخة (أ) و(ب) الخارجية.

(٤) سورة مريم ٧١.

(٥) سورة آل عمران ١٩٢.

سيناقنا) (١) وتكفير السيئات داخل في غفران الذنوب؟
قلنا: الغفران مجرد فضل، والتكفير محو السيئات بالحسنات.
فإن قيل: ما فائدة قولهم: (وقوفنا مع الأبرار) (٢) (مع أنهم لا
ينفعهم توفيتهم مع الأبرار) (٣) بل النافع لهم كونهم مع الأبرار
سواء توفاهم معهم أو قبلهم أو بعدهم؟

قلنا: معناه وتوفنا مخصصين بصحبتهم معدودين في جملتهم، كما
يقال: أعطاني الأمير مع أصحاب الخلع والجوائز أي جعلني من
جملتهم، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر.

فإن قيل: كيف قالوا: (وآفنا ما وعدتنا على رسلك) (٤) أي على
لسان رسلك دعوة بانجاز الوعد مع علمهم وقولهم أيضاً: (إفك لا
تخلف الميعاد) (٥)؟

قلنا: الوعد من الله تعالى على السنة الرسل للمؤمنين عام يحتمل أن
يراد به الخصوص، كما في أكثر عمومات القرآن، فسألوا الله تعالى
أن يجعلهم من الداخلين في حكم الوعد. الثاني: سألوا تعجيل النصر
الذي وعدوا، فإنه تعالى وعدهم النصر على أعدائهم غير مؤقت
بوقت خاص.

فإن قيل: كيف يجوز أن يغتر الرسول بنعمة الذي كفروا حتى نهى

(١) سورة آل عمران ١٩٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٢.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة آل عمران ١٩٤.

(٥) سورة آل عمران ١٩٤.

عنه بقوله: (لا يغرنك قلب الذين كفروا فى البلاد) (١) أى تصرفهم فيها بالتجارات متنعمين؟

قلنا: معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب (٢) بشيء والمراد به أتباعه وجماعته، الثانى: أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مغتر بحالهم فقيل له ذلك تأكيداً لما كان عليه وتثبيتاً على الدوام عليه، كما قيل له: (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (٣) (ولا تكونن من المشركين) (٤) (فلا قطع للكاذبين) (٥).

فإن قيل: كيف نهى عن التقلب وهو ليس مما ينهى (٦)؟ قلنا: معناه لا تغتر بتقلبهم فيكون تقلبهم قد غرك، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأن تقلبهم لو غره لأغتر به، فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه، فيمتنع المسبب وهو اغتراره بتقلبهم. فإن قيل: كيف قال: (لا يغرنك قلب الذين كفروا فى البلاد) (٧) ولم يقل: «لا يغرنك نعمهم وأموالهم» والذي يحتمل أن يغر الرسول والمؤمنين النعم والأموال لا التقلب فى البلاد؟ قلنا: المراد بتقلبهم تصرفهم فى التجارات والتنعيم والتلذذ بالأموال، والفقير انما يتألم وينكسر قلبه إذا رأى الغنى يتقلب فى النعمة

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) فى نسخة (ب) يجاب.

(٣) سورة القصص ٨٦.

(٤) سورة الأنعام ١٤.

(٥) سورة القلم ٨.

(٦) وفى نسخة (ب) وهو مما ليس بنهى.

(٧) سورة آل عمران ١٩٦.

ويتمتع بها، فلذلك ذكر القلب، وقيل: معناه لا يغرثك تقلبهم في المعاصي غير مأخوذين بذنوبهم.

فإن قيل: كيف قال: (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) (١) وقوله لهم «أجرهم عند ربهم» موضع البشارة بالثواب وسرعة الحساب، إنما تذكر في موضع التهديد والعقاب؟ قلنا: معناه (لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً) (٢) خوفاً من حسابه، فإنه سريع الحساب، فهو راجع إلى ما قبله.



(١) سورة آل عمران ١٩٩.

(٢) سورة آل عمران ١٩٩.

سورة النساء

فإن قيل: في قوله تعالى: (وخلق منها زوجها) (١) إذا كانت حواء مخلوقة من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضاً، تكون حواء إلى آدم نسبة الولد لأنها متفرعة منه، فتكون أختاً لنا لا أما؟

قلنا: قال بعض المفسرين (من) لبيان الجنس لا للتبعيض، فمعناه وخلق من جنسها زوجها، كما في قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) (٢) الثاني: وهو الذي عليه الجمهور أنها للتبعيض، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء، فلا يلزم منه ثبوت حكم البنتية والأختية فيها.

فإن قيل: كيف قال: (وآتوا اليتامى أموالهم) (٣) واليتيم لا يعطى ماله حتى يبلغ اتفاقاً؟

قلنا: المراد به إذا بلغوا وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ما كان، كما تسمى الناقة عشراء بعد الوضع، وقد يسمى البالغ يتيماً باعتبار ما كان، كما يسمى الحي ميتاً والغنب خمراً باعتبار ما يكون، قال الله تعالى: (إنك ميت وأنت ميتون) (٤) وقال: (أنى أدانى أعصر خمراً) (٥)، ومنه قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم بعد ما نبأه الله تعالى «يتيم أبى طالب».

فإن قيل: أكل مال اليتيم (حرام وحده) (٦) ومع أموال الأوصياء،

(١) سورة النساء ١.

(٢) سورة التوبة ١٢٨.

(٣) سورة النساء ٢.

(٤) سورة الزمر ٣٠.

(٥) سورة يوسف ٢٦.

(٦) في نسخة. (ب).

فلم ورد النهى مخصوصاً عن أكله معها بقوله تعالى: (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) (١) أى معها؟

قلنا: لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح، فلذلك خص بالنهى، ولأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه، فجاء النهى على ما وقع بينهم.

فإن قيل: لما قال: (مما ترك الوالدان والأقربون) (٢) دخل فيه القليل والكثير فما فائدة قوله: (مما هل منه أو أكثر) (٤)؟

قلنا: إنما قال ذلك على وجه التأكيد والإعلام أن كل تركة يجب قسمتها، لئلا يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر، فلا يقسم وينفرد به بعض الورثة.

فإن قيل: كيف قال: (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) (٥) مع أنه لو كان الولد بنتاً فلاذب الثلث؟

قلنا: الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب، وليس للأب مع البنت بالفرض إلا السدس.

فإن قيل: كيف قطع على العاصي بالخلود فى النار بقوله: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) (٦)؟

قلنا: أراد به من يعصى الله ببرد أحكامه وجحودها وذلك كفر،

(١) سورة النساء ٢.

(٢) وفى نسخة (ب) منهم.

(٣) سورة النساء ٧.

(٤) سورة النساء ٧.

(٥) سورة النساء ١١.

(٦) سورة النساء ١٤.

والكافر يستحق الخلود فى النار.

فإن قيل: كيف قال: (حتى يتوفاهن الموت) (١) والتوفى والموت بمعنى واحد فصار كأنه قال: حتى يميتهن الموت؟ قلنا: معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت، الثانى معناه حتى يأخذهن الموت ويستوفى أرواحهن.

فإن قيل: كيف قال: (أنما التوبة على الله) (٢) ولم يقل إنما التوبة على العبد، مع أن التوبة واجبة على العبد؟ قلنا: معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف، الثانى: أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة، لأن التوبة فى اللغة الرجوع.

فإن قيل: كيف قال: (بجهالة) (٣) ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته؟

قلنا: معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها، لا بكونها معصية وذنباً، وكل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية، معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان.

فإن قيل: كيف قال: (ثم يتوبون من قريب) (٤) مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد قبلت توبتهم؟

قلنا: معناه قبل معاينة سلطان الموت، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنه.

(١) سورة النساء ١٥.

(٢) سورة النساء ١٧.

(٣) سورة النساء ١٧.

(٤) سورة النساء ١٧.

فإن قيل: كيف قال: (وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا... الآية) (١) مع. أن حرية الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطها المهر، بل كان في ذمته أو في يده؟

قلنا: المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما في قوله تعالى: (إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا اتَّيْتُمْ) (٢) أى ما ضمنتمم والتزمتم.

فإن قيل: كيف قال: (أَتَاخُذُونَهُ بِهَتَانًا) (٣) وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان، لأن البهتان الكذب؟

قلنا: قال ابن عباس وابن قتيبة: المراد بالبهتان الظلم، وقال الزجاج المراد به الباطل، والمشهور في كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره مالم يفعله، قالوا فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوصل بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها، وقيل: المراد به إنكاره أن لها مهرأ في ذمته.

فإن قيل: كيف قال: (وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) (٤) نهى عن الفعل في المستقبل و«إلا ما قد سلف» ماض فكيف يصبح استثناء الماضي من المستقبل؟

قلنا: قيل إن «إلا» هنا بمعنى بعد كما في ثوله تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) (٥) وقيل: هو استثناء من محذوف تقديره فأنكم تعذبون به إلا ما قد سلف، وقيل: فيه تقديم

(١) سورة النساء ٢٠.

(٢) سورة البقرة ٢٢٢.

(٣) سورة النساء ٢٠.

(٤) سورة النساء ٢٢.

(٥) سورة الدخان ٥٦.

وتأخير تقديره «أنه كان فاحشة ... الآية» إلا ما قد سلف.
فإن قيل: كيف قال: (إنه كان فاحشة) (١) بلفظ الماضى مع أن
نكاح منكوحه الأب فاحشة فى الحال وفى المستقبل إلى يوم القيامة؟
قلنا: (كان) تارة تستعمل للماضى المنقطع كقولك: كان زيد غنياً،
وكان الخنزف طيناً، وتارة تستعمل للماضى المستمر المتصل ويقال
للحال (كقول أبى جندب الهذلى) (٢):
وكنست إذا جارى دعا لمضوفة

أشمر حتى ينصف الساق ميزرى

أى وإنى الآن، لأنه إنما يمتدح بصفة ثابتة له فى الحال لا بصفة
زائلة ذاهبة، والمضوفة بالفاء الأمر الذى يشفق منه، والقاف
تصحيف، ومنه قوله تعالى: (وكان الله بكل شىء
عليماً) (٣)، (وكان الله على كل شىء قديراً) (٤) وما أشبه
ذلك وما نحن فيه من هذا القبيل، وسيأتى تمام الكلام فى كان بعد
هذا إن شاء الله تعالى فى قوله تعالى: (إن الصلاة كانت على
المؤمنين كتاباً موقوتاً) (٥).

فإن قيل: كيف قال: (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) (٦) قيد
التحريم بكون الربيبة فى حجر زوج أمها، والحرمة ثابتة مطلقاً

(١) سورة النساء ٢٢.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة الأحزاب ٤٠، سورة الفتح ٢٦.

(٤) سورة الأحزاب ٢٧، سورة الفتح ٢١.

(٥) سورة النساء ١٠٢.

(٦) سورة النساء ٢٢.

وإن لم يكن فى حجره؟

قلنا: أخرج ذلك مخرج العادة والغالب لا مخرج القيد والشرط، ولهذا اكتفى فى موضع الإحلال بنفى الدخول فتأمل.

فإن قيل: لما قال: (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) (١) ثم قال فى آخر الآية: (وأحل لكم ما وراء ذلكم) علم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل بأمرها، فما فائدة قوله: (فإن لم تكوفوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) (٢)؟

قلنا: فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب لا مخرج الشرط كما فى قيد الحجر.

فإن قيل: كيف قال فى نكاح الإمام: (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن) (٣) والمهر ملك المولى، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة؟

قلنا: لما كانت الأمة وما فى يدها ملك المولى كان أداؤه إليها كأدائه إلى المولى، الثانى: أن معناه وأتو مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف.

فإن قيل: كيف قال: (ذلك لمن خشى العنت منكم) (٤) وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء؟ قلنا: فيه إضمار وتقديره: ذلك أصوب وأصلح لمن خشى العنت منكم، فيكون شرطاً لما هو الأرشد والأصلح، كما فى قوله تعالى:

(١) سورة النساء ٢٢.

(٢) سورة النساء ٢٢.

(٣) سورة النساء ٢٥.

(٤) سورة النساء ٢٥.

(فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) (١).

فإن قيل: كيف قال: (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ) (٢) والإرادة إنما تقرن بأن، يقال: أريد أن تفعل وقال الله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ) (٣)؟

قلنا: قد ورد في الكتاب العزيز اللام بمعنى (أن) كثيراً، قال الله تعالى: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (٤) وقال: (وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ) (٥) وقال: (يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ) (٦) وقال في موضع آخر: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا) (٧) كذلك هذا.

فإن قيل: كيف خص التجارة بالذكر في قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ) (٨) مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها تقتضي الحل أيضاً كالتجارة؟

قلنا: إنما خصها بالذكر لأن معظم تصرف الخلق في الأموال إنما هو بالتجارة، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلقة بها.

فإن قيل: قوله تعالى: (لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ) (٩) قالوا معناه أنهم يتمنون يوم القيامة أن يجعلوا تراباً كما جاء في آخر سورة النبأ

(١) سورة النور ٢٢.

(٢) سورة النساء ٢٦.

(٣) سورة النساء ٢٨.

(٤) سورة الشورى ١٥.

(٥) سورة الأنعام ٧١.

(٦) سورة الصف ٨.

(٧) سورة التوبة ٢٢.

(٨) سورة النساء ٢٩.

(٩) سورة النساء ٤٢.

وظاهر اللفظ يعطى أنهم يتمنون أن نجعل الأرض مثلهم ناماً كما تقول سويت زيداً بعمره، ومعناه جعلت زيداً وهو المسوى مثل عمرو وهو المسوى به؟

قلنا: سويت هذا بهذا له معنيان أحدهما: اجراء حكم الثانى على الأول كقولك: سويت زيداً بعمره كما تقول ساويت والثانى: أن يكون المسوى (مفعولاً والمسوى به) (١) آلة كقولك سويت القلم بالسكين، والثوب بالمقراض بمعنى أصلحته به، فقوله: «لو تسوى بهم الأرض» يحتمل الوجهين أن يكون بمعنى ساويت، ويكون من المقلوب أى لو يسوون بالأرض، يجعلهم تراباً كقوله تعالى: (لننوا بالعصبة) (٢) وقوله: (وامسحوا برؤوسكم) (٣) فى قول من لم يجعل الباء زائدة، وقولهم: أدخلت الخاتم فى أصبعى ونحوه، وإن يكون بمعنى الآلة ودوا لو تهد بهم الأرض وتوطد بأن يجعلوا تراباً، ويبثوا فى وهاذا وحضيضها لتساوى بقاعها وأكامها وقوله تعالى: (لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً) (٤) أى لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية السطح فجعلها متساوية السطوح إن كان قبل البعث، فإذا بعث الموتى من قبورهم خلت منهم قبورهم وحفرهم، فحصل فى الأرض تفاوت، وأن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمنى سابقاً على جعلها متساوية السطوح.

(١) فى نسخة (ب).

(٢) سورة القصص ٢٨.

(٣) سورة المائدة ٦.

(٤) سورة طه ١٠٧.

فإن قيل: قولنا هذا خير من ذلك يقتضى أن يكون فى كل واحد منهما خير حتى يصح تفضيل أحدهما على الآخر، لأن خيراً فى الأصل (من) أفعّل التفضيل، فكيف قال: (لكان خيراً لهم وأقوم) (١) بعد ما سبق من قولهم فى أول الآية؟

قلنا: المراد بالخير هنا الخير الذى هو ضد الشر لا الذى هو أفعّل التفضيل كما تقول: فى فلان خير.

فإن قيل: كيف قال: (وكان أمر الله مفعولاً) (٢) والمفعول مخلوق وأمر الله تعالى وقوله غير مخلوق؟

قلنا: ليس المراد بهذا الأمر ما هو ضد النهى، بل المراد به ما يحدثه من الحوادث، فإن الحادثة تسمى أيضاً أمراً، ومنه قوله تعالى: (فعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) (٣) وقوله: (أفأهـا أمرنا ليلاً أو نهاراً) (٤).

فإن قيل: كيف قال: (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (٥) مع أن شرك السامى والمكره والتائب مغفور؟

قلنا: المراد به شرك غير هؤلاء المخصوصين من عموم الآية بأدلة من خارج أو نقول قيد المشيئة متعلق بالفعلين المنفى والمثبت، كأنه قال: «إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر ما دونه لمن يشاء».

(١) سورة النساء ٤٦.

(٢) سورة النساء ٤٧.

(٣) سورة الطلاق ١.

(٤) سورة يونس ٢٤.

(٥) سورة النساء ٤٨.

فإن قيل هذه الآية (تدل) (١) على أن غير الشرك من الذنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته، بل يرجى مغفرته، وقوله تعالى: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً) (٢) يدل (٣) على الققطع بانتفاء المغفرة في الكفر والظلم، وهما غير الشرك فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: المراد بالظلم هنا الشرك قاله مقاتل، والشرك يسمى ظملاً، قال الله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) (٤) فكأنه قال إن الذين أشركوا، الثانى: أن قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٥) وليس قطعاً بالمغفرة لغير المشرك، بل هو تعلية للمغفرة بالمشيئة، ثم بين في الآية الأخرى أن الكافر ليس داخلًا فيمن يشاء المغفرة له، فتعين دخوله فيمن لا يغفر له، لأنه لا واسطة بينهما، الثالث: أنه عام خص بالآية الثانية كما خص قوله تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) (٦) بالآية الأولى ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء في عدم المغفرة والتخليد في النار، وقوله تعالى: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هن نار جهنم خالدين فيها) (٧).

(١) في نسخة (ب).

(٢) سورة النساء ٦٨، ٦٩.

(٣) نسخة (ب) تدل.

(٤) سورة لقمان ١٣.

(٥) سورة النساء ٤٨.

(٦) سورة الزمر ٥٢.

(٧) سورة البينة ٦.

فإن قيل: كيف قال: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء) (١) ذمهم على ذلك وقال أيضاً: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) (٢) وقد زكى النبي عليه الصلاة والسلام نفسه فقال: «والله أنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض» ويوسف عليه الصلاة والسلام قال: (اجعلنى على خزانى الأرض أنى حفيظ عليم) (٣)؟

قلنا: إنما قال ذلك حين قال المنافقون اعدل فى القسمة، تكذيب لهم حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة، وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإنما قال ذلك ليتوصل به إلى ما هو وظيفته الأنبياء، وهو إقامة العدل وبسط الحق، وإمضاء أحكام الله تعالى، ولأنه علم أنه لا أحد فى ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل، فكان متعيناً عليه، فلذلك طلبه وأثنى على نفسه، ومع ذلك كله فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزانى الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة».

فإن قيل: كيف قال: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) (٤) إلى أن قال: (أولئك الذين لعنهم الله) (٥) حصر لعنته فيهم لأن هذا الكلام للحصر، وليست

(١) سورة النساء ٤٩.

(٢) سورة النجم ٣٢.

(٣) سورة يوسف ٥٥.

(٤) سورة النساء ٥١.

(٥) سورة النساء ٥٢.

لعنة الله منحصرة فيهم، بل هي شاملة لجميع الكفار؟ قلنا: قوله (أولئك) إشارة إلى القائلين (للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) (١) وهذا القول موجود من جميع الكفار فكانت اللعنة شاملة للجميع.

فإن قيل: كيف قال: (كلما فضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) (٢) أخبر أنه يعذب جلوداً لم تعص مكان الجلود العاصية وتعذيب البريء ظلم؟

قلنا: الجلود المجددة، وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب، وهي غير مجددة، بل هي العاصية باعتقاد الشرك ونحوه، والثاني: أن المراد تبديلها إعادة النضيج على نضيج والجلود هي الجلود بعينها، كما قال تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) (٣) وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات كما قال الشاعر:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم

وما الدار بالدار التي كنت أعهد

فإن قيل: كيف قال: (وندخلهم ظلاً ظليلاً) (٤) وليس في الجنة شمس ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل؟

قلنا: هو مجاز عن المستقر والمستلذ المستطاب لأن بلاد الحجاز شديدة الحر، فأطيب ما عندهم موضع الظل، فخطبهم بما يعقلون

(١) سورة النساء ٥١.

(٢) سورة النساء ٥٦.

(٣) سورة إبراهيم ٤٨.

(٤) سورة النساء ٥٧.

ويفهمون، كما قال: (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) (١) وليس في الجنة طلوع شمس ولا غروبها ليكون فيها بكرة وعشياً، لكن لما كان في عرفهم تمام النعمة والغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضراً مهيباً في طرفي النهار عبر عن حضوره وتهينته بذلك.

فإن قيل: كيف قال: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (٢) وهنا مدح لمن يطع الله والرسول وعادة العرب في صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى، وهذا عكسه لأنه نزل من الوصف الأعلى إلى الأدنى؟

قلنا: هذا ليس من الباب الذي ذكرتموه، بل هذا كلام مقصود (٣) منه الاخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون (٤) يوم القيامة مع الأشراف والخواص، ثم كأن سائلاً سأل من الأشراف والخواص، ففصلوا له زيادة في الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله: «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم» وبدأ في تفضيلهم بذكر الأشراف فالأشرف (٥) والأخص فالأخص إذ هو الغالب في تقدير الأشراف والخواص، كما في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) (٦) وقوله: (شهد الله أنه

(١) سورة مريم ٦٢.

(٢) سورة النساء ٦٩.

(٣) وفي نسخة (ب) المقصود.

(٤) وفي نسخة (ب) يكون.

(٥) وفي نسخة (ب) الأشراف فالأشرف.

(٦) سورة النساء ٥٩.

لا إله إلا هو... الآية) (١) والدليل على أن المراد من الآية الاخبار جملة لا تفصيلا إنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى أرشدهم إلى طلبه مجملا بقوله: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) (٢).

فإن قيل: كيف قال: (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (٣) وقال في حق النساء: (إن كيدكن عظيم) (٤) ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النسوان؟

قلنا: المراد أن كيد الشيطان ضعيف في جنب نصرته الله تعالى وحفظه لأوليائه والمخلصين من عباده، كما قال: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) (٥) وقال حكاية عن إبليس: (إلا عبادك منهم المخلصين) (٦) والمراد بالآية الأخرى إن كيد النسوان (٧) عظيم بالنسبة إلى الرجال، الثاني: أن القائل إن كيدكن (٨) عظيم هو عزيز مصر لا الله تعالى فلا تناقض ولا معارضة.

فإن قيل: كيف غاب على المشركين والمنافقين قولهم: (وإن نصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن نصبهم سيئة يقولوا هذه

(١) سورة آل عمران ١٨.

(٢) سورة الفاتحة ٦، ٧.

(٣) سورة النساء ٧٦.

(٤) سورة يوسف ٢٨.

(٥) سورة الحجر ٤٢.

(٦) سورة الحجر ٤٠.

(٧) وفي نسخة (ب) النسوة.

(٨) وفي نسخة (ب) كيدهن.

من عندك) (١) ورد عليهم ذلك بقوله: (قل كل من عند الله) (٢) ثم قال بعد ذلك: (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٣) أخبره بعين قولهم المردود عليهم؟

قلنا: قيل إن الثانى حكاية قولهم أيضاً وفيه إضمار تقديره: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً» فيقولون «ما أصابك ... الآية» وقيل معناه ما أصابك أيها الانسان من حسنة أى رجاء ونعمة فمن فضل الله، وما أصابك من سيئة أى (قحط) (٤) وشدة فبشوم فعلك ومصيبتك لا بشوم محمد كما زعم المشركون ويؤيده قوله تعالى: (وما أصابك من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) (٥).

فإن قيل: كيف يقال (٦): إن الشر والمعصية بإرادة الله تعالى والله تعالى يقول: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)؟

قلنا: ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلف فيه العلماء ألا ترى أنه قال: ما أصابك) ولم يقل: ما عملت من حسنة وما عملت من سيئة.

فإن قيل: قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من

(١) سورة النساء ٧٨.

(٢) سورة النساء ٧٨.

(٣) سورة النساء ٧٩.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الشورى ٢٠.

(٦) وفى نسخة (ب) قال.

عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١) السؤال فيه من وجهين أحدهما: أنه يدل من حيث المفهوم على أن في القرآن اختلافاً قليلاً، وإلا لما كان للتقييد بوصف الكثرة فائدة، الثاني: أنه (إنما) (٢) يدل (٣) عدم الاختلاف الكثير (٤) في القرآن على أنه من عند الله أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير، وليس الواقع كذلك، لأن المراد بالاختلاف إما الكذب أو التناقض أو التفاوت بين بعضه وبعضه في الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة؟

قلنا: الجواب عن السؤال الأول إن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل، وليس فيه اختلاف كثير ولا قليل (٥) فكيف يكون من عند غير الله فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لا أن القرآن اشتمل على اختلاف قليل، وعن السؤال الثاني: إن كل كتاب في فن من العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة يعرف ذلك بالامتناء، والقرآن جامع (لفنون) (٦) من علوم شتى فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما، فيصير

(١) سورة النساء ٨٢.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) وفي نسخة (ب) يدل على.

(٤) وفي نسخة (ب) الكثيرة.

(٥) وفي نسخة (ب) قليل لا كثير.

(٦) في نسخة (ب).

مجموع الاختلاف اختلافاً كثيراً.

فإن قيل: كيف قال: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) (١) استثنى القليل على تقدير انتفاء الفضل والرحمة، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء؟

قلنا: الاستثناء راجع إلى ما تقدم تقديره اذاعوا به إلا قليلاً، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً، وقيل: معناه: ولولا فضل الله عليكم بارسال الرسول لاتبعتم الشيطان في الكفر والضلال إلا قليلاً منكم كانوا يهتدون بقولهم (٢) إلى معرفة (٣) الله تعالى وتوحيده، كما فعل قيس بن ساعدة ونحوه قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص، وهو الرسول اتباع الشيطان، ونفي الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم في حق الرسول لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان؟

قلنا: لا نسلم أنه لم يرسل إليه رسول بل أرسل إليه الملك، وأنه رسول، الثاني: أن التقدير (٤) في الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون في حق الأمة، أما في حق الرسل ومن آمن بغير رسول يكون اللفظ باقياً على ظاهره.

(١) سورة النساء ٨٢.

(٢) وفي نسخة (ب) بقولهم.

(٣) وفي نسخة (ب) مفقرة.

(٤) وفي نسخة (ب) التقييد.

فإن قيل: هذه الآية تقتضى وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس الشيطان، مع أن الواقع خلافه، فإن أكثر الناس كفر، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام الامسلم فى الكفر كالشجرة البيضاء فى الثور الأسود؟

قلنا: الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس.

فإن قيل: إذا كان الخطاب خاصاً للمؤمنين فما معنى الاستثناء، فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصى فأكثر المؤمنين متبوعون له فى ذلك ولو فى العمر مرة واحدة فى بعض الكبائر، وإن كان المراد به اتباعه فى دعائه إلى الكفر فأحد من المؤمنين لم يتبعه فى الكفر؟

قلنا: معناه ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول لاتبعتم الشيطان فى الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك إلا قليلا منكم كقيس بن ماعدة وورقة بن نوفل ونحوهما، فأنهم لولا الفضل والرحمة بالرسول لما اتبعوا الشيطان لفضل ورحمة خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة. فإن قيل: كيف قال: (ومن أصدق من الله حديثاً) (١) مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق فى كونه صدقاً كما فى القول والعلم لا يقال هذا القول أقول، ولا هذا العلم أعلم ولا هذا الصدق أصدق لأن الصدق عبارة عن الاخبار المطابق للواقع، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان؟

قلنا: أصدق هنا صفة للقال لا صفة للقول، والقائلان متفاوتان (٢)

(١) سورة النساء ٨٧.

(٢) وفى نسخة (ب) يتفاوتان.

فى الصدق فى نفس الأمر وإن يتساويا فى قضية واحدة أخبرا بها، وكان كل واحد منهما صادقاً فيها، وحاصله أن هذا الاستفهام معناه النفى كما فى قوله تعالى: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) (١) أى لا أحد يغفرها إلا الله، فمعناه هنا: لا أحد أصدق فى حديثه من الله، فيكون ترجيحاً للمحدث على المحدث فى الصدق، لا ترجيحاً لأحد الصديقين على الآخر، ولا شك أنه لا أحد أصدق فى حديثه من الله، لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلاً، ويقع منه أيضاً ولو نادراً والله تعالى منزّه عن الأمرين جميعاً.

فإن قيل: قوله تعالى: (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) (٢) وأركسه أى رده فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها، وهو تكرار؟

قلنا: جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار، وصار المعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه، وقلبيهم بشؤم نفاقهم، فالرد الأول بمعنى الدعاء والركس بمعنى الرد، والنكس.

فإن قيل: كيف قال: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) (٣) مع أنه ليس له أن يقتله خطأ؟

قلنا: إلا بمعنى ولا، كما فى قوله تعالى: (إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم) (٤) وقوله تعالى: (لئلا يكون للناس

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) سورة النساء ٩١.

(٣) سورة النساء ٩٢.

(٤) سورة النمل ١٠، ١١.

عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) (١)، الثاني: معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن، وهو في صف المشركين وإن كان في نفس الأمر مؤمناً. فإن قيل: كيف يقال: إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار والله تعالى يقول: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) (٢)؟

قلنا: معناه متعمداً قتله بسبب إيمانه، والذي يفعل ذلك يكون كافراً، الثاني: أن المراد بالخلود طول المكث، لأن الخلود إذا لم يؤكد بالأبد يطلق على طول المكث، كما يقول خلد السلطان فلاناً في الحبس إذا أمال حبسه.

فإن قيل: كيف قال: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) (٣) ثم قال: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه) (٤)؟

قلنا: المراد بالأول التفضل على القاعدين عن (٥) الغزاة بعذر، فإن لهم فضلاً لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح، ولهذا قال: (وكلا وعد الله الحسنى) (٦) يعنى الجنة أى كلا من

(١) سورة البقرة ١٥٠.

(٢) سورة النساء ٩٢.

(٣) سورة النساء ٩٥.

(٤) سورة النساء ٩٥ - ٩٦.

(٥) وفي نسخة (ب) على.

(٦) سورة النساء ٩٥.

المجاهدين والقاعدين بعذر، والمراد بالثاني: التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر، وأولئك لا فضل لهم بل هم مقصرون مسيئون فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم.

فإن قيل: كيف صح قولهم: **(كنا مستضعفين في الأرض)** (١) جواباً لقول الملائكة: «فيم كنتم» والجواب المطابق أن يقولوا كنا في كذا أو لم نكن (٢) في شيء؟

قلنا: معنى «فيم كنتم» التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا، فصار قولهم «فيم كنتم» مجازاً عن قولها (٢) (لم) (٤) تركتم الهجرة؟ فقالوا كنا مستضعفين في الأرض اعتذاراً عما وبخو به تعللاً، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم: **(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)** (٥) يعني أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم، التي تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام.

فإن قيل: كيف قال: **(فقد وقع أجره على الله)** (٦) أي وجب، والعبد لا يستحق على مولاه أجراً، لأنه ليس بأجير له إنما هو عبد قن؟

(١) سورة النساء ٩٧.

(٢) وفي نسخة (ب) يكن.

(٢) وفي نسخة (ب) قوله.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) سورة النساء ٩٧.

(٦) سورة النساء ١٠٠.

قلنا: معناه وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، والخلف (١) في وعده عز وجل محال، فالواجب من هذه الجهة، مع أن كل ذلك الوعد ابتداء فضل منه.

فإن قيل: كيف شرط في إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله: (وإذا ضربتم في الأرض... الآية) (٢) والقصر جائز مع أمن المسافر؟

قلنا: خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط، وغالب أسفار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يخل (٣) من خوف العدو، فصار نظير قوله تعالى: (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) (٤) الثاني: أن الكلام قد تم عند قوله: (أن تقصروا من الصلاة) وقوله: (إن خفتهم) كلام مستأنف، وجوابه محذوف تقديره: فاحتاطوا وتأهبوا، الثالث: أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك، لا من عدد الركعات وذلك القصر مشروط بالخوف.

فإن قيل: كيف قال: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (٥) وكان لفظ دال على المضي، والصلاة في الحال وإلى يوم القيامة أيضاً على المؤمنين فرض مؤقت؟

(١) وفي نسخة (ب) الحق.

(٢) سورة النساء ١٠١.

(٣) وفي نسخة (ب) تغل.

(٤) سورة النور ٢٢.

(٥) سورة النساء ١٠٣.

قلنا: (كان) فى القرآن العزيز على خمسة أوجه: كان بمعنى الأزل والأبد، كما فى قوله تعالى: (وكان الله عليماً حكيماً) (١) وكان بمعنى الماضى المنقطع كما فى قوله تعالى: (وكان فى المدينة تسعة رهط) (٢) وهو الأصل فى معانى كان كما تقول: كان زيد صالحاً أو فقيراً أو مريضاً ونحو ذلك، وكان بمعنى الحال كما فى قوله تعالى: (كنتم خير أمة) (٣) وقوله: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (٤) وكان بمعنى الاستقبال كما فى قوله تعالى: (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) (٥)، وكان بمعنى صار كما فى قوله تعالى: (وكان من الكافرين) (٦).

فإن قيل: كيف قال: (وترجون من الله ما لا يرجون) (٧) والكافرون أيضاً يرجون الثواب فى محاربة المؤمنين، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق، وأنهم ينصرون دين الله ويذبون عنه ويقاتلون أعداءه، كما يعتقدون (٨) المؤمنون فالرجاء مشترك؟

قلنا: قيل أن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقاراً) (٩) وقوله تعالى: (قل للذين آمنوا يغفروا

(١) سورة النساء ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، سورة الفتح ٤.

(٢) سورة النمل ٤٨.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) سورة النساء ١٠٢.

(٥) سورة الانسان ٧.

(٦) سورة البقرة ٢٤، سورة ص ٧٤.

(٧) سورة النساء ١٠٤.

(٨) وفى نسخة (ب) تعتقد.

(٩) سورة نوح ١٢.

للذين لا يرجون أيام الله)، وقول الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وعلى قول من قال: أنه بمعنى الأمل تقول: قد بشر الله المؤمنين في القرآن، ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد في سائر الكتب فافترقا، وقيل: إن الرجاء ما يكون مستنداً إلى سبب صحيح ومقدمات حقة، والطمع ما يكون مستنداً إلى خلاف ذلك، فالرجاء للمؤمنين، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (أو يظلم نفسه) (١) بعد قوله: (ومن يعمل سوءاً) (٢) وظلم النفس من عمل سوء، فهذا اقتصر على الأول لأن الثاني داخل فيه؟

قلنا: (أو) بمعنى الواو فمعناه ويظلم نفسه بذلك سوء، حيث دساها بالمعصية، وقيل: المراد بعمل سوء ما دون الشرك، وبظلم النفس الشرك، وقيل: المراد بعمل سوء الذنب المتعدى ضرره إلى الغير، وبظلم النفس الذنب المقتصر ضرره على فاعله.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهت طائفة منهم أن يضلوك) (٣) ظاهره ينفي وجود الهم منهم باضلاله، والمنقول في التفاسير أنهم هموا باضلاله وزادوا على الهم الذي هو القصد القول المضل أيضاً، يعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم

(١) سورة النساء ١١٠.

(٢) سورة النساء ١١٢.

(٣) سورة النساء ١١٢.

بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر
الله) (١)

قلنا: قوله: (لهمت) ليس جواب لولا بل هو كلام مقدم على لولا،
وجوابها في التقدير مقول (٢) على طريق القسم، وجواب لولا
محذوف تقديره لقد همت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله
عليك ورحمته (٣) لأضلوك.

فإن قيل: النجوى فعل (٤) ومن اسم فكيف صح استثناء الأسم من
الفعل في قوله تعالى: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر
بصدقة) (٥)؟

قلنا: فيها إضمار تقديره: إلا نجوى من أمر بصدقة، فيكون استثناء
الفعل من الفعل ونظيره قوله تعالى: (ولكن البر من آمن بالله
واليوم الآخر) (٦) تقديره بر من آمن بالله.

فإن قيل: كيف قال: (إلا من أمر) ثم قال: (ومن يفعل ذلك)؟
قلنا: ذكر الأمر بالخير ليدل به على خيرية الفاعل له بالطريق
الأولى (٧) ثم ذكر الفاعل ووعد الأجر العظيم اظهاراً لفضل الفاعل
المؤتمر على الأمر، الثاني: أنه أراد ومن أمر بذلك، فعبر عن الأمر
بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل، وإذا كان الأمر موعوداً

(١) سورة النساء ١٠٥.

(٢) وفي نسخة (ب) فيقول.

(٣) وفي نسخة (ب) ورحمته.

(٤) وفي نسخة (ب) النجوى من فعل.

(٥) سورة النساء ١١٤.

(٦) سورة البقرة ١٧٧.

(٧) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) الأول.

بالأجر العظيم كان الفاعل موعوداً به بالطريق الأولى.
فإن قيل: كيف قال: (إن يدعون من دونه إلا إفناءً) (١) أى ما
يعبدون من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها، وهى مؤنثة،
ثم قال: (وإن يدعون إلا شيطناً مريباً) (٢) أى ما يعبدون إلا
الشيطان؟

قلنا: معناه أن عبادتهم للأصنام هى فى الحقيقة عبادة للشيطان، أما
لأنهم أطاعوا الشيطان فيما سول لهم وزين من عبادة الأصنام
(بالاغواء والاضلال أو لأن الشيطان موكل بالأصنام) (٣)، يدعو
الكفار إلى عبادتها شفاهاً، ويتزيا للسنة فيكلمهم ليضلهم.

فإن قيل: كيف يقال أن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد
الإيمان، والله سبحانه وتعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر
قوله: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري
من تحتها الأنهار) (٤) وقوله: (ومن يعمل من الصالحات من
ذكر أو أنثى وهو مؤمن) (٥) وإلا لما كان للتقييد فائدة؟

قلنا: إن المراد بالعمل الصالح الاخلاص فى الإيمان، وقيل الثبات عليه
إلى الموت، وكلاهما شرط فى كون الإيمان سبباً لدخول الجنة.
فإن قيل: كيف قال: (من يعمل سوءاً يجز به) (٦) والتائب المقبول
التوبة غير مجزى بعمله، وكذلك من عمل سيئة ثم أتبعها حسنة،

(١) سورة النساء ١١٧.

(٢) سورة النساء ١١٧.

(٣) فى نسخة (ب) ص ٥٠٠.

(٤) سورة النساء ٥٧، ١٢٢.

(٥) سورة النساء ١٢٤.

(٦) سورة النساء ١٢٣.

لأنها مذهب لها وماحية بنص القرآن؟

قلنا: المراد من يعمل سوءاً ويموت مصراً (عليه) (١)، الثاني أن المؤمن يجازى فى الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب والمحن كما جاء فى الحديث، والكافر يجازى فى الآخرة. فإن قيل: كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله: (ومن يعمل من الصالحات... الآية) (٢) مع أن غيرهم لا يظلم أيضاً؟

قلنا: قوله: (ولا يظلمون فقيراً) (٣) راجع إلى الفريقين عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين، الثانى: أن يكون من باب الإيجاز والاختصار، فاكفى بذكره عقيب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقيب ذكر الفريق الآخر فلا يظلم المؤمنون بنقصان ثواب طاعاتهم (٤)، ولا الكافرون بزيادة عقاب معاصيهم (٥)، الثالث: أن المراد بالظلم المنفى نقصان ثواب الطاعات، وهو مخصوص بالمؤمنين لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه.

فإن قيل: طلب الإيمان من المؤمن تحصيل الحاصل فكيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله... الآية) (٦)؟

(١) فى نسخة (ب).

(٢) سورة النساء ١٢٤.

(٣) سورة النساء ١٢٤.

(٤) وفى نسخة (ب) أعمالهم.

(٥) وفى نسخة (ب) ذنوبهم.

(٦) سورة النساء ١٣٦.

قلنا: يا أيها الذين آمنوا بعبسى آمنوا بالله ورسوله محمد، وقيل: معناه يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن، وقيل: معناه يا أيها الذين آمنوا علانية آمنوا سرأ.

فإن قيل: قوله تعالى: (الذين يترصبون بكم فإن كان لكم فتح من الله هالوا ألم نكن معكم) (١) وإن كان للكافرين لم سمى ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً؟

قلنا: تعظيماً لشأن المسلمين وتحقيراً لحظ الكافرين، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم، لأنه متضمن نصره دين الله، وعزة أهله، وتفتح له أبواب السماء حتى ينزل على أولياء الله، وظفر الكافرين ليس إلا حظاً دنيا وعرضاً من متاع الدنيا يصيبونه، وليس بمتضمن شيئاً مما ذكرناه.

فإن قيل: كيف قال: (وإن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) (٢) وقد نصر الكافرين على المؤمنين فى يوم أحد وفى غيره أيضاً إلى يومنا هذا؟

قلنا: المراد بالسبيل الحجة والبرهان والمؤمنون غالبون بالحجة دائماً. فإن قيل: كيف كان (٢) المنافق أشد عذاباً من الكافرين (٤) حتى قال الله تعالى فى حقه: (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) (٣) مع أن المنافق أحسن حالاً من الكافر، بدليل أنه معصوم الدم وغير محكوم عليه بالكفر، ولهذا قال الله تعالى فى حقهم:

(١) سورة النساء ١٤١.

(٢) سورة النساء ١٤١.

(٣) وفى نسخة (ب) قال.

(٤) وفى نسخة (ب) الكافر.

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) (١) فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين؟

قلنا: المنافق وإن كان في الظاهر أحسن حالا من الكافر إلا أنه عند الله تعالى وفي الآخرة أسوأ حالا منه، لأنه شاركه في الكفر، وزاد عليه الاستهزاء بالاسلام وأهله، والمخادعة لله وللمؤمنين.

فإن قيل: الجهر بالسوء غير محبوب (٢) لله تعالى أصلاً، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز، فكيف قال: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) (٣) أي إلا جهر من ظلم؟

قلنا: معناه ولا جهر من ظلم، فإلا بمعنى ولا، وقد سبق نظيره وشامده في قوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) (٤).

فإن قيل: كيف جاز دخول بين على أحد في قوله تعالى: (ولم يفارقوا بين أحد منهم) (٥) وبين تقتضي اثنين فصاعداً، يقال: فرقت بين زيد وعمر أو بين القوم، ولا يقال فرقت بين زيد؟ قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: (عوان بين ذلك) (٦) وفي آخر سورة البقرة أيضاً.

(١) سورة النساء ١٤٢.

(٢) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) المحبوب.

(٣) سورة النساء ١٤٨.

(٤) سورة النساء ٩٢.

(٥) سورة النساء ١٥٢.

(٦) سورة البقرة ٦٨.

فإن قيل: ما فائدة إعادة الكفر فى الآية الثانية بقوله تعالى: (وبكفرهم) (١) بعد قوله: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله... الآية) (٢)؟

قلنا: لأنه تكرر الكفر منهم (٣) فإنهم كفروا بموسى وعيسى ثم بمحمد، فعطف بعض كفرهم على بعض.

فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف أقروا أنه رسول الله بقولهم: (إننا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) (٤)؟

قلنا: قالوه على طريق الاستهزاء، كما قال فرعون: (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) (٥).

فإن قيل: كيف وصفهم بالشك بقوله: (وإن الذين اختلفوا فيه لفسى شك منه) (٦) ثم وصفهم بالظن بقوله: (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) (٧) والشك تساوى الطرفين، والظن مرجحاً أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين، وكيف استثنى الظن من العلم، وليس الظن فرداً من أفراد العلم بل هو قسيمه؟

قلنا: استعمل الظن بمعنى الشك مجازاً لما بينهما من المشابهة فى انتقاء الجزم، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير

(١) سورة النساء ١٥٥.

(٢) سورة النساء ١٥٥.

(٣) وفى نسخة (أ) بينهم.

(٤) سورة النساء ١٥٧.

(٥) سورة الشعراء ٢٧.

(٦) سورة النساء ١٥٧.

(٧) سورة النساء ١٥٧.

الجنس، كما في قوله تعالى: (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) (١) وما أشبهه.

فإن قيل: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما (نصبه) (٢) لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال: (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٣)؟

قلنا: الرسل والكتب منبهة من الغفلة، وباعثة على النظر في أدلة العقل، ومفصلة لمجمل الدين وأحوال التكليف، التي لا يستقل العقل بمعرفتها، فكان إرسالهم إزاحة للعلّة، وتتميماً لالزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له.

فإن قيل: كيف قال: (أنزله بعلمه) (٤) ولم يقل أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدره (٥)؟ قلنا: معناه أنزله وفيه علمه، أي معلومة أو (٦) معلمة من الشرائع والأحكام، وقيل: معناه أنزله عليك بعلم منه أنك أولى بانزاله عليك من سائر خلقه.

(١) سورة مريم ٦٢.

(٢) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) نصبهم.

(٣) سورة النساء ١٦٥.

(٤) سورة النساء ١٦٦.

(٥) وفي نسخة (ب) لا يفعل عن علم وقدره.

(٦) وفي نسخة (أ) أي.

فإن قيل: كدام الله تعالى صفة قديمة (قائمة) (١) بناته وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق حادث، فكيف صح إطلاق الكلمة عليه في قوله تعالى: (وسول الله وكلمته) (٢)؟

قلنا: معناه أن وجوده في بطن أمه كان بكلمة الله تعالى، وهي قوله: (كن) (٣) من غير واسطة، بخلاف غيره من البشر، وقيل المراد بالكلمة الحجة.

فإن قيل: على الوجه الأول لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى عليه الصلاة والسلام لهذا المعنى يصح إطلاقها على آدم عليه الصلاة والسلام، لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل، لأنه وجد بهذه الكلمة من غير (٤) واسطة أب ولا أم أيضاً؟

قلنا: لا نسلم أنه لا يصح إطلاقها عليه بهذا المعنى بل يصح. فإن قيل: لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء في حق عيسى عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: إنما جاء به، لأن المجيء به في حق عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان للرد على من أفتى عليه، وعلى أمه ونسبه إلى أب، ولم يوجد هذا المعنى في حق آدم عليه الصلاة والسلام، لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى الأب ولا إلى الأم.

٣٧ @

(١) وفي نسخة (ب) أو.

(٢) سورة النساء ١٧١.

(٣) سورة البقرة ١١٧، سورة آل عمران ٤٧، سورة مريم ٢٥.

(٤) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) بنهر.

سورة المائدة

فإن قيل: كيف وجه الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (١) وقوله: (أحللت لكم بهيمة الأنعام) (٢)؟

قلنا: المراد بالعقود (٢) عهود الله تعالى عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه. فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله: (أحللت لكم بهيمة الأنعام) (٤) وقوله بعده: (حرمت عليكم الميتة... الآية) (٥).

فإن قيل: ما أكله السبع عدم، وتعذر أكله فكيف يحسن فيه التحريم حتى قال: (وما أكل السبع) (٦)؟

قلنا: معناه وما أكل منه السبع يعني الباقي بعد أكله.

فإن قيل: قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٧) يدل من حيث المفهوم عرفاً على إنه لم يرض لهم بالإسلام ديناً قبل ذلك اليوم وليس كذلك، فإن الإسلام لم يزل ديناً مرضياً للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عند الله تعالى منذ أرسله عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: قوله: «اليوم» ظرف للجملتين الأوليين لا للجملتين الثالثة، لأن

(١) سورة المائدة ١.

(٢) سورة المائدة ١.

(٣) وفي نسخة (ب) بالعقود عليه.

(٤) سورة المائدة ١.

(٥) سورة المائدة ٢.

(٦) سورة المائدة ٣.

(٧) سورة المائدة ٣.

الواو الأولى للعطف، والثانية للإبتداء، فالجملة الثالثة مطلقة غير مؤقتة.

فإن قيل: قوله تعالى: (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) (١) كيف صلح جواباً لسؤالهم، والطيبات غير معلومة، ولا متفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع؟ قلنا: المراد بالطيبات هنا الذبائح والعرب تسمى الذبيحة طيباً، وتسمى الميتة خبيثاً، فصار المراد معلوماً، لكنه عام مخصوص كغيره من العمومات.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (مكلبين) (٢) بعد قوله تعالى: (وما علمتم من الجوارح) (٣) والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد؟ قلنا: قد جاء في تفسير المكلب أيضاً أنه المسرى للجراح والمغرى له، فعلى هذا لا يكون ذلك تكراراً، وعلى القول الأول إنما عمم ثم خص فقال: «مكلبين» بعد قوله: «وما علمتم من الجوارح» لأن غالب (٤) سيدهم كان بالكلاب، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم. فإن قيل: ظاهر قوله تعالى: (وما علمتم من الجوارح مكلبين) تقتضى إباحة الجوارح المعلمة وهى حرام؟ قلنا: فيه إضمار تقديره: وصيد ما علمتم من الجوارح، ويؤيده ما

فى تمام الكلام من قوله: (فكلوا مما أمسكن عليكم) (٥).

(١) سورة المائدة ٤.

(٢) سورة المائدة ٤.

(٣) سورة المائدة ٤.

(٤) وفى نسخة (أ) الغالب.

(٥) سورة المائدة ٤.

فإن قيل: المؤمن به هو الله تعالى لقوله: (قولوا آمنا بالله) (١) فالمكفور به يكون هو الله أيضاً، ويؤيده قوله تعالى: (كيف تكفرون بالله) (٢) وإذا ثبت هذا فكيف قال: (ومن يكفر بالإيمان) (٣) مع أنه لا يصح أن يقال: آمن بالإيمان فكذلك ضده؟

قلنا: المراد به ومن يرتد عن الإيمان، يقال كفر فلان بالإسلام إذا ارتد عنه، فكفر بمعنى ارتد، لأن الردة نوع من الكفر، والباء بمعنى عن كما في قوله تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع) (٤) وقوله تعالى: (فسأل به خبيراً) (٥) وقيل: المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر، كما في قوله تعالى: (أحل لكم صيد البحر) (٦) أي مصيده، وقولهم ضرب الأمير ونسج اليمن.

فإن قيل: كيف قال: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) (٧) ولم يقل وعملوا السيئات، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات؟

قلنا: كل أحد لا يخلوا عن سيئة صغيرة أو كبيرة، وإن كان ممن يعمل الصالحات، وهى الطاعات فالمعنى أن من آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته، كما قال: (إن الحسنات يذهبن السيئات) (٨).

(١) سورة البقرة ١٣٦.

(٢) سورة البقرة ٢٨.

(٣) سورة المائدة ٥.

(٤) سورة المعارج ١.

(٥) سورة الفرقان ٥٩.

(٦) سورة المائدة ٩٦.

(٧) سورة المائدة ٩.

(٨) سورة هود ١١٤.

فإن قيل: كيف قال في آخر قوله تعالى: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل... الآية) (١) (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) (٢) (مع أن الذين كفروا قبل ذلك أيضاً فقد ضلوا سواء السبيل) (٣)؟

قلنا: نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح، لأن قبح الكفر بقدر عظم النعمة المكفورة، فلذلك خصه بالذكر.

فإن قيل: كيف قال: (ومن الذين قالوا إنا نصارى) (٤) ولم يقل ومن النصارى؟

قلنا: لأن هؤلاء كانوا كاذبين في دعواهم (٥) أنهم نصارى، وذلك أنهم إنما سمو أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعده نسطوريه ويعقوبية وملكانية أنصاراً للشيطان، فقال ذلك توبيخاً لهم.

فإن قيل: كيف قال: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير) (٦) يعنى يتجاوز عن كثير مما كنتموه من الكتاب فلا يظهره، ولا يبين كتمانكم إياه، فكيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يمسك عن إظهار حق كنتموه مما في كتابهم؟

(١) سورة المائدة ١٢.

(٢) سورة المائدة ١٢.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة المائدة ١٤.

(٥) في نسخة (ب).

(٦) سورة المائدة ١٥.

قلنا: انما لم يبين البعض لأنه كان يتبع (١) الأمر، ولا يفعل شيئاً من الأمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتباعاً للوحى، فما أمر ببيانه بينه، وما لم يؤمر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازاً عن الترك، فيكون قد أعلمه الله تعالى به، وأطلع عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك بيانه لهم، الثانى: أن ما كان فى بيانه إظهار حكم شرعى كصفته ونعته والبشارة به وآية الرجم ونحوها بينه، وما لم يكن فى بيانه حكم شرعى، ولكن فيه افتضاحهم وهتك استارهم فإنه عفا عنه، الثالث: أن عقد الذمة اقتضى تقديرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم إلا ما كان فى إظهار (٢) معجزة له وتصديق لنبوته من صفته ونعته، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه كحكم الزنا ونحوه.

فإن قيل: كيف قال: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهdy به الله من اتبع رضوانه) (٣) مع أن العبد ما لم يهده الله أولاً لا يتبع رضوانه فيلزم الدور؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: يهdy به الله من علم أنه يتبع رضوانه أو ليهdy به الله من يريد أن يتبع رضوانه كما قال: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٤) أى والذين أرادوا سبل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا.

فإن قيل: لم نر ولم نسمع أن قوماً من اليهود والنصارى قالوا نحن

(١) وفى نسخة (ب) لاتبع.

(٢) وفى نسخة (ب) اظهاره.

(٣) سورة المائدة ١٥، ١٦.

(٤) سورة العنكبوت ٦٩.

أبناء الله، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك؟
 قلنا: المراد بقولهم أبناء الله خاصة الله، كما يقال أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، وقيل: فيه إضمار تقديره أبناء أنبياء الله.
 فإن قيل: كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى: (فلن لعنهم يعذبكم بذنوبكم) (١) مع أنه ينكرون تعذيبهم بذنوبهم، ويدعون أن ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل، وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار؟
 قلنا: هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يوماً، وهى مدة عبادتهم العجل فى غيبة موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه، ولذلك (قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) (٢) وقيل: أراد به العذاب الذى أوقعه ببعضهم فى الدنيا من مسخهم قرده، كما فعل بأصحاب السبت، وخسف الأرض بهم كما فعل بقارون، وهذا لا ينكرونه، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضى فى قوله: (فلن يعذبكم) (٣) والاضافة إليهم بمعنى الاضافة إلى آبائهم، كأنه قال: فلم عذب آباءكم.
 فإن قيل: قوله تعالى: (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) (٤) إن اريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى، ويعذب من يشاء، يلزم جواز المغفرة لهم، وأنه غير جائز لقوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (٥) وإن أريد

(١) سورة المائدة ١٨.

(٢) سورة البقرة ٨٠.

(٣) سورة المائدة ١٨.

(٤) سورة المائدة ١٨.

(٥) سورة النساء ٤٨، ١١٦.

به يغفر لمن يشاء من المؤمنين، ويعذب من يشاء، لا يصلح جواباً لقولهم؟

قلنا: المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر، وقيل: يغفر لمن يشاء ممن خلق وهم المؤمنون، ويعذب من يشاء وهم المشركون. فإن قيل: كيف قال: (يا قوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) (١) ولم يكن قوم موسى عليه الصلاة والسلام ملوكاً؟

قلنا: المراد جعل فيكم ملوكاً، وهم ملوك بني إسرائيل، اثنا عشر ملكاً لاثني عشر سبطاً، لكل سبط ملك، وقيل: المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة المواقفة والخادم والبيت فسامهم ملوكاً لذلك.

فإن قيل: من أين علم الرجلان أنهم غالبون حتى قالوا: (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) (٢)؟

قلنا: من جهة وثوقهم (٢) باخبار موسى عليه الصلاة والسلام بذلك بقوله: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) (٤) وقيل: علما ذلك بغلبة الظن، وما عهداه من صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه.

فإن قيل: قوله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٥)

(١) سورة المائدة ٢٠.

(٢) سورة المائدة ٢٢.

(٣) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) وقوفهم.

(٤) سورة المائدة ٢١.

(٥) سورة المائدة ٢٢.

يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمناً، وإلا لضاع التعليق وليس كذلك؟

قلنا: (إن) هنا بمعنى إذ فتكون بمعنى التحليل كما في قوله تعالى: (وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) (١).

فإن قيل: كيف التوفيق بين قوله تعالى: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) (٢) وبين قوله: (فإنها محرمة عليهم) (٣)؟

قلنا: معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلما أبوا الجهاد قيل: (فإنها محرمة عليهم) (الثاني: أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص فالكتابة (٤) للبعض وهم المطيعون، والتحريم على البعض وهم العاصون الثالث: أن التحريم مؤقت بأربعين سنة، والكتابة غير مؤقتة فيكون المعنى أن بعد مضي الأربعين تكون لهم، وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة وجعلها ظرفاً لها، فأما من جعل الأربعين ظرفاً لقوله: (يتيهون) مقدماً عليه، فإنه جعل التحريم مؤبداً فلا يتأتى على قوله هذا الجواب، لأن التقدير عنده فإنها محرمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون، والفراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرمة ويتيهون، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة، ونقل أن التحريم كان مؤبداً، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين، ونقل

(١) سورة البقرة ٢٧٨.

(٢) سورة المائدة ٢١.

(٣) سورة المائدة ٢٦.

(٤) وفي نسخة (ب) بالكتابة.

غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقى منهم، وذرية من مات منهم، ويعضد الوجه الأول كون الغالب فى الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذى هو عدد لا تأخره عنه، يقال: سافر زيد أربعين يوماً، وأقام أربعين يوماً وما أشبه ذلك وقلما يقال على العكس.

فإن قيل: كيف قال: (إذ هوبا هوباناً) (١) ولم يقل قربانين، والذى قرباه كان قربانين، لأن كل واحد منهما قرب قرباناً؟

قلنا: أراد به الجنس فعبّر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى: (والملك على أوجائها) (٢) الثانى: أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين، وعليه جاء قوله تعالى: (عن اليمين وعن الشمال فعبد) (٣).

وقال الشاعر (ضبانى بن الحارث البرجمى
فمن يك أمسى بالمدينة رحلة (٤))

فبانى وقيار بها لغريب

فإن قيل: كيف صلح قوله: (إنما يتقبل الله من المتقين) (٥)
جواباً لقوله: «لأقتلك»؟

قلنا: لما (كان) (٦) الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمّله على توعدّه بالقتل قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب تعريضاً معناه إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من

(١) سورة المائدة ٢٧.

(٢) سورة الحاقة ١٧.

(٣) سورة ق ١٧.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة المائدة ٢٧.

(٦) فى نسخة (ب).

قبلى فلم تقتلنى؟

فإن قيل: كيف قال هابيل لقابيل: (أنى أريد أن تبوء باثمى واثمك) (١) أى تتصرف بهما، مع أن ارادة سوء والوقوع فى المعصية للأجنبى حرام فكيف للأخ؟

قلنا: فيه إضمار حرف النفى تقديره: أنى أريد أن لا تبوء باثمى واثمك، كما فى قوله تعالى: (وألقى فى الأرض دواسى أن تميد بكم) (٢) أى أن لا تميد، وقوله تعالى: (قالله ففتؤ) (٣) يعنى لا يزال تذكر يوسف، وقال أمرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

(ولو قطعوا رأسى لنديك وأوصالى) (٤)

الثانى: أن فيه حذف المضاف تقديره: أنى أريد انتفاء أن تبوء باثمى واثمك، كما فى قوله تعالى: (وأشربوا فى قلوبهم العجل) (٥) أى حب العجل، الثالث: أن معناه أنى أريد ذلك إن قتلنى لا مطلقاً، الرابع إنه كان ظالماً وجزاء الظالم تحسن ارادته من الله تعالى فتحسن من العبد أيضاً.

فإن قيل: قوله تعالى: (فأصبح من الندامين) (٦) يدل على أن قابيل كان تاباً لقوله عليه الصلاة والسلام: «الندم التوبة» فلا

(١) سورة المائدة ٢٩.

(٢) سورة النحل ١٥.

(٣) سورة يوسف ٨٥.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة البقرة ٩٢.

(٦) سورة المائدة ٢١.

يستحق النار؟

قلنا: لم يكن ندمه على قتله أخيه، بل على حمله على عنقه سنة أو على عدم اهتدائه إلى الدفن الذي تعلمه من الغراب، أو على فقد أخيه لا على المعصية، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه، ولكن يجوز أن الندم لم يكن توبة في شريعته بل في شريعتنا أو نقول التوبة تؤثر في حقوق الله تعالى لا في حقوق العباد والدم من حقوق العباد، فلا تؤثر فيه التوبة.

فإن قيل: كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل، وإحياء الواحد كإحياء الكل، والدليل يأباه من وجهين أحدهما أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح، فتناسب زيادة الإثم والعقوبة هذا هو مقتضى العقل والحكمة، الثانى: أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوى قتل الواحد والكل فى الإثم والعقوبة أو تقاربهما، وأياً ما كان (١) يلزم منه أنه إذا قتل الثانى أو الثالث وهلم جرا لا يكون عليه إثم آخر، ولا يستحق عقوبة أخرى لأنه إثم إثم قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل بمجرد قتل الأول أو الأول والثانى، لأن قتل الواحد إذا كان يساوى قتل الكل أو يقاربه، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا، ولو قتل الكل لما ازداد على إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكل، وبقتل الكل إثم قتل الكل؟

قلنا: أقرب ما قيل فيه أن المراد أن من قتل نفساً واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه فى الدنيا إن لم يكن له ولى، وفى الآخرة

(١) وفى نسخة (ب) وإنما كان.

مطلقاً لأنهم من أب وأم واحدة، وقيل: معناه من قتل نفساً نبياً أو إماماً عادلاً فهو كمن قتل الناس جميعاً من حيث إبطال المنفعة على الكل لأن منفعتيها عامة للكل، وقيل: المراد بمن قتل هو قابيل فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أول من سن القتل، فكل قتل يوجد بعده يلحقه شيء من وزره، بعلّة التسبب لقوله عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة حسنة ... الحديث» (١) وهذا حسن في المعنى، ولكن اللفظ لا يساعد عليه وهو قوله تعالى: (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) (٢) لأن هذا المعنى إن أريد به قابيل لا تختص كتابته ببنى إسرائيل.

فإن قيل: كيف وجه قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله... الآية) (٣) وحقيقة المحاربة بين العبد والرب متمنعة؟ قلنا: فيه إضمار تقديره يحاربون أولياء الله، وقيل: أراد بالمحاربة المخالفة.

فإن قيل: كيف قال: (إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به) (٤) ولم يقل بهما والمذكور شيئاً؟

قلنا: قد سبق جواب مثله قبيل هذا فى قوله تعالى: (إذ هربا هرباً) وهما جواب آخر وهو أن يكون وضع الضمير موضع (ه)

(١) رواه مسلم فى كتاب العلم والنسائى فى كتاب الزكاة وأحمد فى مسنده

ج٤ ص ٢٥٧ - ٢٦١.

(٢) سورة المائدة ٢٢.

(٣) سورة المائدة ٢٣.

(٤) فى نسخة (ب) مع وهو خطأ.

(٤) سورة المائدة ٢٦.

اسم الإشارة كأنه قال: ليفتدوا بذلك، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنيين والجمع.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (فإن جاءك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم) (١) وحال النبي عليه الصلاة والسلام مع أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه لا يخلوا من هذين القسمين، لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم؟

قلنا: فائدته تخير النبي عليه الصلاة والسلام بين الحكم بينهم وعدمه، ليعلم أنه لا يجب عليه أن يحكم بينهم، كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه، وقيل: إن هذا التخير منسوخ بقوله تعالى: (فاحكم بينهم بما أنزل الله) (٢) يعنى بما أنزل الله عليك وهو القرآن، يدل عليه أول الآية (ولا يتبع أهواءهم) فى الحكم بالتوراة.

فإن قيل: لما أنزل الله تعالى القرآن صار الانجيل منسوحاً به، فكيف قال: (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) (٣)؟

قلنا: معناه ولما أنزلنا الانجيل، قلنا: وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه، وقيل: معناه وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه من (٤) صدق نبوة (٥) محمد عليه الصلاة والسلام بعلاماته المذكورة فى

(١) سورة المائدة ٤٦.

(٢) سورة المائدة ٤٨.

(٣) سورة المائدة ٥٧.

(٤) وفى نسخة (ب) فمن.

(٥) وفى نسخة (ب) بنبوة.

الانجيل وذلك غير منسوخ (١).

فإن قيل: كيف قال: (فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم

ببعض ذنوبهم) (٢) مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم؟

قلنا: أراد (به) (٣) عقوبتهم في الدنيا، وهو ما عجله من اجلاء

بنى النضير، وقيل بنى قريظة، وذلك جزاء بعض ذنوبهم، لأنه

جزاء منقطع، وأما جزاؤهم (على شركهم فهو الخلود في النار

وذلك جزاء) (٤) دائم لا يتصور وجوده في الدنيا، وقيل: أراد

بذلك البعض، ذنب التولي عن الرضا بحكم القرآن، وإنما أبهمه

تفخيماً له وتعظيماً.

فإن قيل: حسن حكم الله تعالى وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة

إلى الموقنين وغير الموقنين، فكيف قال: (ومن أحسن من الله

حكماً لقوم يوقنون) (٥)؟

قلنا: لما كان الموقنون أكثر انتفاعاً به من غيرهم، بل هم المتفعون

به في الحقيقة لا غير كانوا أخص به فأضيف إليهم لذلك، ونظيره

قوله تعالى: (إنما أنت منذر من يخشاها) (٦).

فإن قيل: قوله تعالى: (ومن ينولهم منكم فإنه منهم) (٧) يقتضى

(١) وفي نسخة (أ) وغير ذلك منسوخ.

(٢) سورة المائدة ٤٩.

(٣) وفي نسخة (ب) وفي نسخة (أ) بهم.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) سورة المائدة ٥٠.

(٦) سورة النازعات ٤٥.

(٧) سورة المائدة ٥١.

أن يكون من واد (١) أهل الكتاب، وصادقهم كافراً، وليس كذلك لقوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين... الآية) (٢)؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «ومن يتولهم منكم» المنافقون، لأنها نزلت في شأنهم وهم كانوا من الكفار في الدنيا ضميراً واعتقاداً، أو معناه أنه منهم في الآخرة (جزاء) (٣) وعقاباً بل أشد.

فإن قيل: كيف قال: (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) (٤) وكم من ظالم هداه الله تعالى، فتأب وأقلع عن ظلمه؟

قلنا: معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم، الثاني: إن معناه لا يهدي من قضى في سابق علمه أنه يموت ضالاً، الثالث: إن معناه لا يهدي الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة أى المشركين.

فإن قيل: كيف قال: (أذلة على المؤمنين) (٥) ولم يقل أذلة للمؤمنين، وإنما يقال ذل له، لا ذل عليه؟

قلنا: لأنه ضمن الذل بمعنى الحنو والعطف، فعدها تعديته، كأنه قال حانين على المؤمنين عاطفين عليهم.

فإن قيل: كيف قال: (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (٦) وكم مرة غلب حزب الله تعالى في

(١) وفي نسخة (أ) قاد.

(٢) سورة المائدة ٨.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة المائدة ٥١.

(٥) سورة المائدة ٥٤.

(٦) سورة المائدة ٥٦.

زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وبعده إلى يومنا هذا؟
قلنا: المراد به الغلبة بالحجة والبرهان لا بالدولة والصولة، وحزب
الله هم المؤمنون غالبون بالحجة أبداً.
فإن قيل: المثوبة مختصة بالاحسان فكيف قال: (هل هل أنبئكم بشر
من ذلك مثوبة من عند الله... الآية) (١)؟

قلنا: لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالاحسان، بل هو الجزاء
مطلقاً بدليل قوله تعالى: (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) (٢)
أى هل جوزوا، وقوله تعالى: (فأتابكم غمّاً بغم) (٣) وهو كلفظ
البشارة لا اختصاص له لغة بالخبر السار بل هو عام شامل، قال الله
تعالى: (فنبشروهم بعذاب أليم) (٤).

فإن قيل: ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين
قال في حقهم: (وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك
طغياناً وكفراً) (٥)؟

قلنا: فائدته إلزام الحجة عليهم، الثانى: تبجيل الكتاب والرسول،
فإن الخطاب بالكتاب إذا كان عاماً، والرسول إذا كان مرسل إلى الخلق
كلهم، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل...)

(١) سورة المائدة ٦٠.

(٢) سورة المطففين ٣٦.

(٣) سورة آل عمران ١٥٣.

(٤) سورة آل عمران ٢١، سورة التوبة ٣٤، سورة الانشقاق ٢٤.

(٥) سورة المائدة ٦٤.

الآية) (١) يقتضى تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه وليس كذلك، فإن كثيراً من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها مما لم ينسخ عيشتهم فى الدنيا مكدر ورزقهم مضيق؟ قلنا: هذا التعليق خاص فى حق أهل الكتاب، لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا: (يد الله مغلولة) (٢) فأخبرهم الله تعالى إن ذلك التضيق عقوبة لهم بشؤم (٣) معاصيهم وكفرهم والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة فى حق بعض عباده، ونقمة فى حق بعضهم، وكذلك الرخاء والسعة فيعاقب بهما على المعصية ويثيب بهما على الطاعة، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص فلا يلزم من توسع (٤) الرزق الإكرام ولا من تضيقه الاهانة، ولا يلزم عكسه أيضاً، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله: (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه وبه) (٥) إلى قوله: (كلا) أى ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع (٦) الرزق دليل الكرامة، وتضييقه دليل الاهانة، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الاهانة هو الاضلال والخذلان وحرمان التوفيق.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من

(١) سورة المائدة ٦٦.

(٢) سورة المائدة ٦٤.

(٣) وفى نسخة (ب) لشؤم.

(٤) وفى نسخة (ب) توسيع.

(٥) سورة الفجر ١٥.

(٦) وفى نسخة (ب) توسع.

دبك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (١) ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة؟ قلنا: المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه (٢) من معائب اليهود ومثالبهم، فالمعنى بلغ الجميع فإن كتبت منه حرفاً كنت فى الاثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئاً البتة، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل، وقيل: هو أمر بتعجيل التبليغ كأنه عليه الصلاة والسلام كان عازماً على تبليغ جميع ما أنزل إليه إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفاً على نفسه (٣)، وحذراً مع عزمه على تبليغه فى ثانى الحال فأمر بتعجيل التبليغ ويؤيد هذا القول قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) (٤).

فإن قيل: كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله: (والله يعصمك من الناس) (٥) ثم أنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته؟ قلنا: المراد به العصمة من القتل لا من جميع أنواع الأذى، فإن العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم جامعون لمكارم الأخلاق، ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى، الثانى: أن هذه الآية نزلت بعد يوم أحد لأن سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن.

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) وفى نسخة (ب) إليه.

(٣) وفى نسخة (ب) بعضه.

(٤) سورة المائدة ٦٧.

(٥) سورة المائدة ٦٧.

فإن قيل: كيف قال: (وما للظالمين من أنصار) (١) مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فيكون ناصراً لهم؟ قلنا: المراد بالظالمين هنا المشركون، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها.

فإن قيل: ما فائدة قوله: (وضلوا عن سواء السبيل) (٢) بعد قوله: (قد ضلوا من قبل) (٣)؟ قلنا: المراد بالضلال الأول ضلالتهم عن الإنجيل، وبالضلال الثاني ضلالتهم عن القرآن.

فإن قيل: كيف قال: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) (٤) والنهي عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له؟ قلنا: فيه حذف مضاف تقديره: كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما يرى الإنسان إمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهياً فينكر، ويجوز أن يراد بقوله: «لا يتناهون» لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه وينامون، يقال تنهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد أى امتنع عنه وتركه.

فإن قيل: كيف قال: (ولكن كثيراً منهم فاسقون) (٥) والمراد

(١) سورة المائدة ٧٢.

(٢) سورة المائدة ٧٧.

(٣) سورة المائدة ٧٧.

(٤) سورة المائدة ٧٩.

(٥) سورة المائدة ٨١.

بقوله: «منهم» المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين، وكلهم فاسقون؟

قلنا: المراد به فسقهم بموالاتة المشركين ودس الاخبار اليهم لا مطلق الفسق، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم، وهم المذكورون فى الآية فى قوله تعالى: (تولى كثيراً منهم) (١) لا شاملا لجميعهم. فإن قيل: كيف قال: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) (٢) وهذه الأعيان كلها مخلوقات الله تعالى فأين عمل الشيطان فى وجودها؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما تعاطى الخمر والميسر ... إلى آخره أو مباشرته.

فإن قيل: مع هذا الإضمار كيف قال: (من عمل الشيطان) (٣) وتعاطى الخمر والقمار ونحوهما من عمل الانسان حقيقة؟

قلنا: إنما أضيف إلى الشيطان مجازاً، لأنه هو السبب فى وجود الفعل بواسطة وسوسته وتزيينه ذلك للفساق وصار كما لو أغرى رجل رجلاً بضرب (٤) آخر، فإنه يجوز أن يقال للمغرى: هذا من عملك، ونظيره قوله تعالى: (فوكزه موسى فنقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان) (٥).

فإن قيل: كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فى الآية

(١) سورة المائدة ٨٠.

(٢) سورة المائدة ٩٠.

(٣) سورة المائدة ٩٠.

(٤) وفى نسخة (ب) ففرض.

(٥) سورة القصص ١٥.

الأولى ثم خص الخمر والميسر بالذكر فى الآية الثانية؟ قلنا: لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيراً بسبب الخمر والميسر، وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة بخلاف الأنصاب والأزلام، فإن هذه المفاسد لا توجد فيها وإن كان فيها مفسد آخر، وقيل: إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط لأن الخطاب للمؤمنين بدليل قوله: (يا أيها الذين آمنوا) (١) وهم إنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فقط، وإنما جمع الأربعة فى الآية الأولى ليعين للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية، وأنه لا فرق بين من عبد صنماً أو أشرك بالله بدعوى علم الغيب، وبين من شرب الخمر أو قامر مستحلاً لهما.

فإن قيل: كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلاً يتوصل به إلى تحصيل علم حتى قال: (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب) (٢)؟

قلنا: معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس، وقيل: معناه ليعلم الخوف واقعاً كما علمه منتظراً.

فإن قيل: كيف قال: (ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم) (٣) ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء، فإنه لو قتله ناسياً أو مخطئاً وجب الجزاء أيضاً؟

قلنا: عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

(١) سورة المائدة ٩٠.

(٢) سورة المائدة ٩٤.

(٣) سورة المائدة ٩٥.

وصف العمدية شرط لوجوب الجزاء، فلا يرد عليهم السؤال، وأما عن قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية لأن الواقعة التي كانت سبب نزول الآية كانت عمداً على ما روى أنه عن الصحابة حمار وحش بالحديبية، وهم محرومون قطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت الآية، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع لا مخرج الشرط، وقال الزهري: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنة بالوجوب في الخطأ.

فإن قيل: كيف قال: (هدياً بالغ الكعبة) (١) مع أن الشرط بلوغه إلى الحرم لا غير؟

قلنا: لما كان المقصود من بلوغ الهدى إلى الحرم تعظيم الكعبة ذكر الكعبة تنبيهاً على ذلك، وقيل: معناه بالغ حرم الكعبة.

فإن قيل: قوله تعالى: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم) (٢) أى دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما فى السموات وما فى الأرض وبكل شىء؟

قلنا: ذلك إشارة إلى كل ما سبق ذكره من الغيوب فى هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود، لا إلى المذكور فى هذه الآية، الثانى: أن العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال، فإذا دخل الشهر الحرام أو دخلوا إلى البلد الحرام كفوا عن ذلك، فعلم الله تعالى أنه لو لم يجعل لهم زماناً ومكاناً يقتضى عنهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا فظهرت المناسبة.

فإن قيل: كيف قال: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ...) (١) والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى: (وجعل منها زوجها) (٢) وقوله: (وجعل الظلمات والنور) (٣) وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى؟

قلنا: المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر أى ما أوجبها ولا أمر بها، وقيل: المراد بالجعل التحريم.

فإن قيل: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) (٤) يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما واجبان؟

قلنا: معنى قوله: «أنفسكم» أهل دينكم كما قال تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم) (٥) أى أهل دينكم، وقيل: المراد به آخر الزمان عند فساد الناس، وتعذر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو زماننا هذا.

فإن قيل: كيف تقول الرسل: (لا علم لنا) (٦) إذا قال الله تعالى لهم (ماذا أجبتكم) وهم عالمون بماذا أجيبوا؟

قلنا: هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم نعوذ بالله منها، ومثله لا يفيد نفي العلم ولا اثباته، الثانى: أنهم قالوا ذلك تعريضاً بالتشكى من قومهم وإظهاراً للدلتجاء إلى الله

(١) سورة المائدة ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام ١٨٩.

(٣) سورة الأنعام ١.

(٤) سورة المائدة ١٠٥.

(٥) سورة النساء ٢٩.

(٦) سورة المائدة ١٠٤.

تعالى فى الانتقام منهم، كأنهم قالوا أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب، الثالث: معناه لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به، لأننا نعلم ظاهره وأنت تعلم ظاهره ومضمرة، ويؤيده ما بعده.

فإن قيل: أى معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام فى تكليم الناس كهلا حتى قال: **(وتكلم الناس فى المهد وكهلا) (١)؟**

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة آل عمران مستقصى.

فإن قيل: كيف قال الجواريون: **(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) (٢)** شكوا فى قدرة الله تعالى على بعض الممكنات، وذلك كفر، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه، لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين به بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: **(قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) (٣)؟**

قلنا: هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة، كما يقول الفقير للغنى القادر، هل تقدر أن تعطينى شيئا وهذه تسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة.

فإن قيل: لو كان المراد هذا المعنى لما أنكر عليهم عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله: **(انقوا الله إن كنتم مؤمنين) (٤)؟**

قلنا: إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذى لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته وإن كانوا لم يريدوه.

(١) سورة المائدة ١١٠.

(٢) سورة المائدة ١١٢.

(٣) سورة المائدة ١١١.

(٤) سورة المائدة ١١٤.

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه الصلاة والسلام: (ولا أعلم ما فى نفسك) (١) وكل ذى نفس فهو ذو جسم، لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير، والله تعالى منزّه عن الجسم؟

قلنا: النفس تطلق على معنيين أحدهما هذا، والثانى حقيقة الشىء وذاته كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة أى ذاتهما والمراد به فى الآية ثانياً (٢) هذا المعنى.

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه الصلاة والسلام: (ما هلت لهم إلا ما أمرتني به... الآية) (٣) مع أنه قال لهم كثيراً من الكلام المباح غير الأمر بالتوحيد؟

قلنا: معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإله.

فإن قيل: إذا كان عيسى لم يمت وإنما هو حى فى السماء فكيف قال: (فلما توفيتنى) (٤)؟

قلنا: أراد بالتوفى اتمام مدة اقامته بينهم فى الأرض، وتماه قد سبق مرة فى قوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك) (٥) والسؤال إنما يتوجه على قول (٦) من قال إن السؤال والجواب وجد يوم رفعه إلى السماء، وأما من قال: إن السؤال إنما يكون يوم القيامة

(١) سورة المائدة ١١٦.

(٢) وفى نسخة (ب) ثانيهما.

(٣) سورة المائدة ١١٧.

(٤) سورة المائدة ١١٧.

(٥) سورة آل عمران ٥٥.

(٦) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) أقوال.

- وعليه الجمهور - فالجواب مطابق ولا إشكال فيه .
فإن قيل: لو قال عيسى عليه الصلاة والسلام: (إن تعذبهم فإنك أنت
العزیز الحكيم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك) كان أظهر
مناسبة (١)؟

قلنا: معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك، وتصرف المالك المطلق الحقيقي
في عبيده متاح (٢) أى تصرف كان، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزیز
الحكيم الذى لا ينقص من عزه شيء بترك العقوبة والانتقام ممن
عصاه، الحكيم فى كل ما يفعله من العذاب والمغفرة.

فإن قيل: كيف قال: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) (٣) يعنى
يوم القيامة، والصدق نافع فى الدنيا والآخرة، ولفظ الآية فى قوة
الحصر،؟

قلنا: لما كان نفع الصدق فى الآخرة هو الفوز فى الجنة والنجاة من
النار، ونفعه فى الدنيا دون ذلك، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه فى
الآخرة، فلم يعتد به فى مقابلته.

فإن قيل: قوله: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) (٤) إن أراد به
صدقهم فى الآخرة، فالآخرة ليست بدار عمل، وإن أراد به صدقهم
فى الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، وهو الشهادة لعيسى عليه
الصلاة والسلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟

قلنا: أراد به الصدق المستمر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم، وعن

(١) انظر سورة المائدة ١١٨.

(٢) وفى نسخة (ب) مباح.

(٣) سورة المائدة ١١٩.

(٤) سورة المائدة ١١٩.

قتادة رضى الله عنه متكلمان صدقا يوم القيامة فنفع أحدهما صدقه دون الآخر، أحدهما إبليس قال: (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم... الآية) (١) فصدق يومئذ ولم ينفعه صدقه، لأنه كان كاذباً قبل ذلك، والآخر عيسى عليه الصلاة والسلام كان صادقاً في الدنيا والآخرة فنفعه صدقه.

فإن قيل: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء فقال الله تعالى: (له ملك السموات والأرض ومن فيهن) (٢)؟ قلنا: لأن كلمة (ما) تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً بأصل الوضع، و(من) لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال (ما) في هذا الموضع أولى.



(١) سورة إبراهيم ٢٢.

(٢) انظر سورة المائدة ١٢٠.

سورة الأنعام

فإن قيل: كيف جمع الظلمة وأفرد النور في قوله تعالى: (وجعل الظلمات والنور) (١)؟

قلنا: ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله، فإنه يدل عليه كما في ترك جمع الأرض أيضاً استغناء عنه بجمع السماء قبله في قوله تعالى: (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) (٢) والثاني: الظلمة اسم، والنور مصدر نقله المفصل، والمصادر لا تجمع.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وجهركم) (٣) بعد قوله: (يعلم سرهم) (٤) ومعلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى؟

قلنا: إنما ذكره للمقابلة كما في قوله تعالى: (فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه) (٥) في بعض الوجوه.

فإن قيل: كيف خص السكون بالذكر دون الحركة في قوله تعالى: (وله ما سكن عن الليل والنهار) (٦) على قول من فسره بما يقال الحركة؟

قلنا: لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد أو لأن الساكن من المخلوقات أكثر عدداً من المتحرك أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس أو لأن السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة، وقيل: فيه إضمار تقديره: ما سكن

(١) سورة الأنعام ١

(٢) سورة الأنعام ٢

(٣) سورة الأنعام ٢

(٤) سورة الأنعام ٢

(٥) سورة البقرة ٢٠٢

(٦) سورة الأنعام ١٢

وتحرك فاكتمنى بأحدهما اختصاراً لدلالته على مقابله كما فى قوله تعالى: (سرابيل قتيكم الحر) (١) أى والبرد.

فإن قيل: كيف قال: (وهو يطعم ولا يطعم) (٢) ولم يقل وهو ينعم ولا ينعم عليه، وهذا أعم لتناوله الاطعام وغيره؟

قلنا: لأن الحاجة إلى الرزق أمس فخص بالذكر، الثانى: أن كون المعبود أكلاً متفوطاً أقبح من كونه منعماً عليه، فذلك ذكره.

فإن قيل: قوله تعالى: (قل أى شىء أكبر شهادة هل الله) (٣) يقتضى أن يسمى الله تعالى شيئاً ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحى والقيوم ونحوهما؟

قلنا: صحة ندائه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح، وصفة الكمال كالحى والقيوم ونحوهما، لا بكل ما يصح إطلاقه عليه، ألا ترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى، ولا يصح نداؤه به كذا هذا.

فإن قيل: استشهاد المدعى بالله لا يكفى فى صحة دعواه وثبوتها شرعاً حتى لو قال المدعى: الله شاهدى، لا يكفيه هذا، فكيف صح ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (قل الله شهيد بينى وبينكم) (٤)؟

قلنا: إنما لم يصح ذلك من غير النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لا يقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له، والنبى عليه

(١) سورة النحل ٨١.

(٢) سورة النعام ١٤.

(٣) سورة الأنعام ١١٩.

(٤) سورة الأنعام ١١٩.

الصلاة والسلام أقام الدليل على ذلك بقوله: (وأوحى إلى هذا القرآن) (١) لأنه معجزة.

فإن قيل: في قوله تعالى: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) (٢) كيف يكذبون (٣) يوم القيامة بعد معاناة حقائق الأمور، وقد بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور؟

قلنا: المبلى يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره، لعدم التمييز بسبب الحيرة والدهش كحال المبلى المعذب في الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلم بما يضره، ألا تراهم يقولون: ربنا أخرجنا منها، وقد أيقنوا بالخلود فيها، وقالوا: (يا مالك ليقتض علينا وبك) (٤) وقد علموا أنه لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: (ولا يكتُمون الله حديثا) (٥)؟

قلنا: للقيامة (٦) مواقف مختلفة ففي بعضها لا يكتُمون، وفي بعضها يحلفون كاذبين، كما قال تعالى: (فؤوبك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (٧) وقال تعالى: (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أحد

(١) سورة الأنعام ١١.

(٢) سورة الأنعام ٢٢.

(٣) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) يكون مكذبين.

(٤) سورة الزخرف ٧٧.

(٥) سورة النساء ٤٢.

(٦) وفي نسخة (ب) القيامة.

(٧) سورة الحجر ٩٢.

ولا جان) (١) وقيل: إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم، (ولا يكتمون الله حديثاً) يكون بعد شهادتها عليهم.

فإن قيل: كيف قال: (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) (٢) وهو خير لغير المتقين أيضاً كالأطفال والمجانين؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث إن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم.

فإن قيل: كيف قال لمحمد عليه الصلاة والسلام: (فلا تكونن من الجاهلين) (٣) فخطبه بأفحش (٤) الخطابين وقال لنوح عليه الصلاة والسلام: (أنى أعظك أن تكون من الجاهلين) (٥) فخطبه بالين الخطابين، مع أن محمداً صلى الله عليه وسلم أعظم رتبة وأعلى منزلة؟

قلنا: لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان معذوراً في جهله، لأنه تمسك بوعد الله تعالى في إنجاء (٦) أهله، وظن أن ابنه من أهله، ومحمد صلى الله عليه وسلم ما كان معذوراً لأنه كبر عليه كفرهم مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى، وأنهم لا يهتدون إلا أن يهديهم الله.

فإن قيل: إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إليه

(١) سورة الرحمن ٢٩.

(٢) سورة النعام ٢٢.

(٣) سورة الأنعام ٢٥.

(٤) وفي نسخة (أ) بأحسن.

(٥) سورة هود ٤٦.

(٦) وفي نسخة (ب) وإنجاء.

بالحياة بعد الموت، فما فائدة قوله: (والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) (١)؟

قلنا: المراد به وقوفهم (٢) بين يديه للحساب والجزاء، وذلك غير البعث، وهو أحيائهم بعد الموت فلا تكرر فيه.

فإن قيل: قوله تعالى: (وهائلوا لولا نزل عليه آية من ربه هل إن الله قادر على أن ينزل آية) (٣) لو صح من النبي عليه الصلاة والسلام هذا الجواب لصح لكل من ادعى النبوة وطولب بآية أن يقول إن الله قادر على أن ينزل آية؟

قلنا: إذا أثبت نبوته بما شاء الله من المعجزة يصح له أن يقول ذلك، بخلاف ما إذا لم يثبت نبوته، والنبي صلى الله عليه وسلم كان (٤) قد ثبتت نبوته بالقرآن وانشقاق القمر وغيرهما.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض) (٥) والدابة لا تكون إلا فى الأرض، لأن الدابة فى اللغة اسم لما يدب على وجه الأرض، وما فائدة قوله: (ولا طائر يطير بجناحيه) (٦) والطيران لا يكون إلا بالجناح؟

قلنا: فيه فوائد، الأولى: التأكيد كقولهم: هذه نعمة أنشئ، وقولهم: كلمته بلسانى، ومشيت إليه برجلي، وكما قال الله تعالى: (لا تتخذوا

(١) سورة الأنعام ٢٦.

(٢) وفى نسخة (أ) وقفهم.

(٣) سورة النعام ٢٧.

(٤) وفى نسخة (ب) كانت.

(٥) سورة الأنعام ٢٨.

(٦) سورة الأنعام ٢٨.

إلهين اثنين) (١) وقال: (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) (٢)، الثانية: نفى توهم المجاز فإنه يقال: طار فلان من أمر كذا إذا أسرع فيه، وطار الفرس إذا أسرع الجري، الثالثة: زيادة التعميم والاحاطة، كأنه قال جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة.

فإن قيل: قوله تعالى: (هل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أنتكم الساعة) (٣) إلى أن قال: (فيكشف ما تدعون إليه) (٤) ومن جملة ما ذكر الدعاء فيه عذاب الساعة، وهو لا يكشف عن المشركين؟

قلنا: لم يجبرا (٥) عن الكشف مطلقاً بل مقيداً بشرط المشيئة، وعذاب الساعة لو ساء كشفه عن المشركين لكشفه.

فإن قيل: قوله تعالى: (هل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) (٦) كيف ذكر القول في الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره في الجملة الثانية؟

قلنا: لما كان الاخبار بالغيب كثيراً ما يدعيه البشر كالكهنة والمنجمين وواضعي الملاحم، ثم أن كثيراً من الجاهل يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون (٧) بمقتضى أخبارهم بالغ في سلبه عن نفسه بسلب حقيقته عنه بخلاف الألوهية والملكية، فإن انتفاءهما عنه وعن

(١) سورة النحل ٥١.

(٢) سورة الفتح ١١.

(٣) سورة الأنعام ٤٠.

(٤) سورة الأنعام ٤١. (٥) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) لم يجز.

(٦) سورة الأنعام ٥٠. (٧) وفي نسخة (ب) يعلمون.

غيره من البشر ظاهر فاكتفى في (١) نفيهما بنفى القول، إذ غير الدعوى فيهما لا يتصور في نفس الأمر، ولا في زعم الناس بخلاف علم الغيب فافترقا، والمراد بقوله: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) (٢) أى لا أدعى الألوهية كذا قال بعض المفسرين.

فإن قيل: في قوله تعالى: (وكذلك ففصل الآيات ولتستبين سبل المجرمين) (٣) كيف ذكر سبل المجرمين، ولم يذكر سبل المؤمنين، وكلاهما محتاج إلى بيانه؟، ((الأول)) أنه إذا ظهر سبل المجرمين ظهر سبل المؤمنين أيضاً.

قلنا: بالضرورة أن السبل سبلان لا غير، الثانى: أن سبل المؤمنين يراد تقديرأ، وإنما حذف اختصاراً لدلالة المذكور عليه، كما في قوله تعالى: (سرابيل تقيكم الحر) (٤) أى والبرد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويعلم ما جرحتم بالنهار) (٥) أى ما كسبتم وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهاراً؟

قلنا: لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار، لأنه زمان حركة الانسان، والليل زمان سكونه لقوله تعالى: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) (٦) بعد قوله: (من إله غير الله يأتاكم بليل تسمنون فيه).

(١) وفي نسخة (ب) من.

(٢) سورة الأنعام ٥٠.

(٣) سورة الأنعام ٥٥.

(٤) سورة النحل ٨١.

(٥) سورة النعام ٦٠.

(٦) سورة القصص ٧٢.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (١) يعنى جميع الخلاق، وقال فى موضع آخر: (وأن الكافرين لا مولى لهم) (٢)؟

قلنا: المولى الأول يعنى المالك أو الخالق أو المعبود، والمولى الثانى بمعنى الناصر، فلا تنافى بينهما.

فإن قيل: كيف خص كون قوله الحق، وله الملك يوم القيامة فقال: (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور) (٣) مع أن قوله الحق فى كل وقت، وله الملك فى كل زمان؟

قلنا: لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه، وفى الدنيا لغيره ملك خلافة عنه أو هبة منه، وأنعاماً بدليل قوله تعالى فى حق داود عليه الصلاة والسلام: (وأفاه الله الملك والحكمة) (٤) وقوله تعالى: (والله يؤتى ملكه من يشاء) (٥) وقوله فى ذلك اليوم: هو الحق الذى لا يدفعه أحد من العباد، ولا يشك فيه شاك من أهل العناد، لانكشاف الغطاء فيه للكل، وانقطاع الدعاوى والخصومات، ونظيره قوله تعالى: (والأمر يومئذ لله) (٦) وإن كان الأمر له فى كل زمان، وكذا قوله تعالى: (للمن الملك اليوم) (٧).

فإن قيل: كيف قال فى معرض الامتنان: (ووهبنا له اسحاق

(١) سورة الأنعام ٦٢.

(٢) سورة محمد ١١.

(٣) سورة الأنعام ٧٢.

(٤) سورة البقرة ٢٥١.

(٥) سورة الانططار ١٩.

(٦) سورة البقرة ٢٤٧.

(٧) سورة غافر ١٦.

ويعقوب) (١) ولم يذكر اسماعيل مع أنه كان هو الابن الأكبر ؟
قلنا: لأن اسحاق وهب له من حرة، واسماعيل من أمة، واسحاق
وهب له من عجوز عقيم، فكانت المنة فيه أظهر.

فإن قيل: كيف قال في وصف القرآن: (والذين يؤمنون بالآخرة
يؤمنون به) (٢) وكثير ممن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى
وغيرهم لا يؤمنون به ؟

قلنا: معناه والذين يؤمنون بالآخرة إيماناً نافعاً مقبولاً هم الذين
يؤمنون به، إما تصديقاً به قبل إنزاله كما بشر به موسى وعيسى
عليهما الصلاة والسلام، أو اتباعاً له بعد إنزاله، والأمر كذلك فإن من
لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام في بشارتهما بمحمد
صلى الله عليه وسلم والقرآن، أو كان بعد بعثه ولم يؤمن به فإيمانه
بالآخرة غير معتد به ولا معتبر.

فإن قيل: كيف أفرد قوله تعالى: (أو هال أوحى إني) (٣) بالذكر
بعد قوله: (ومن أضل ممن افترى على الله كذباً) (٤) وذلك
أيضاً افتراء ؟

قلنا: لأن الأول عام والثاني خاص، والمقصود الإنكار فيهما، ولا
يلزم من وجود العام وجود الخاص، قلت في هذا الجواب مغالطة
لأنه مسلم أنه لا يلزم من وجود العام وجود الخاص، ولكن يلزم من
الذم على العام وإنكاره الذم على الخاص، وإنكاره لا محالة، وما نحن

(١) سورة الأنعام ٨٤.

(٢) سورة الأنعام ٩٢.

(٣) سورة الأنعام ٩٢.

(٤) سورة الأنعام ٩٢.

فيه من هذا القبيل فالجواب المحقق أن يقال أن هذا الخاص لما كان مخصوصاً بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء، خصه بالذكر تنبيهاً على مزيد العقاب فيه والاثم.

فإن قيل: في قوله تعالى: (بديع السموات والأرض... الآية) (١) ما فائدة قوله: (خالق كل شيء) (٢) بعد قوله: (وخلق كل شيء) (٣)؟

قلنا: ذكره أولاً استدلالاً به على نفى الولد، ثم ذكره ثانياً توطئة وتهيداً لقوله تعالى: «فاعبدوه» فإن كونه خالق كل شيء يقتضى تخصيصه بالعبادة والطاعة فكانت الإعادة لفائدة جديدة.

فإن قيل: في قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) (٤) كيف خص بإدراكه لها ولم يقل وهو يدرك كل شيء، مع أنه أبلغ في التمدح؟

قلنا: لوجهين أحدهما مراعاة المقابلة اللفظية فإنه نوع من البلاغة، الثانى: أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار، إنه يدركها بمعنى الاحاطة بها، وهى لا تدركه، فأما غيره فما يدرك الأبصار فهى تدركه أيضاً، فلهاذا خصها بالذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) (٥) ولم يقل وهو الذى أنزل إلى مع أن الله تعالى قال:

(١) سورة الأنعام ١٠١.

(٢) سورة الأنعام ١٠٢.

(٣) سورة الأنعام ١٠١.

(٤) سورة الأنعام ١٠٣.

(٥) سورة الأنعام ١١٤.

(وأنزلنا إليك الكتاب) (١) ؟

قلنا: لما كان انزاله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به كان في الحقيقة منزلاً إليهم، لكن بواسطة النبي عليه الصلاة والسلام فصح إضافة الانزال إليه وأليهم.

فإن قيل: في قوله تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) (٢) كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها، والكون من المؤمنين حاصل، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً ؟

قلنا: المراد اعتقاد الحل لأنفس الأكل، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة.

فإن قيل: كيف أبهم فاعل التزيين هنا فقال: (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) (٣) وقال في آية أخرى: (زيننا لهم أعمالهم) (٤) وقال في آية أخرى: (وزين لهم الشيطان أعمالهم) (٥) فمن هو مزين الأعمال للكفار في الحقيقة ؟

قلنا: التزيين من الشيطان بالاغواء والاضلال والوسوسة وإيراد الشبه، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك فصحت الاضافتان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم

(١) سورة المائدة ٤٨.

(٢) سورة الأنعام ١١٨.

(٣) سورة الأنعام ١٢٢.

(٤) سورة النمل ٤.

(٥) سورة النمل ٢٤.

رسول منكم) (١) والرسول إنما كانت من الانس خاصة ؟ قلنا: المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبي عليه الصلاة والسلام ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال الله تعالى: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن... الآية) (٢)، الثاني أنه كقوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (٣) والمراد من أحدهما لأنه إنما يخرج من الملح، الثالث: أنه (٤) بعث إليهم رسول منهم قاله الضحاك ومقاتل.

فإن قيل: كيف كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم في قوله تعالى: (يا معشر الجن والانس... الآية) (٥) والمعنى فيهما واحد ؟

قلنا: المعنى في المشهود به متعدد، وإن كان في الشهادة واحداً، لأنهم في الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم، وفي الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر في الدنيا وهما متغييران.

فإن قيل: كيف أقروا في هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه في قولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) (٦) ؟

قلنا: مواقف القيامة ومواطنها مختلفة، ففي بعضها يقرون وفي بعضها يجحدون، أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى: (اليوم نختم على أفواههم

(١) سورة الأنعام ١٢٠.

(٢) سورة الأحقاف ٢٩.

(٣) سورة الرحمن ٢٢.

(٤) وفي نسخة (أ) إنهم بعث.

(٥) سورة الأنعام ١٢٠.

(٦) سورة الأنعام ٢٣.

وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم (١).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (سفهأ بغير علم) (٢) والسفه لا يكون إلا عن جهل (٣)؟

قلنا: معنى قوله: «بغير علم» بغير حجة، وقيل: بغير علم بمقدار قبحه، ومقدار العقوبة فيه (٤) وعلى الوجهين لا يكون مستفاداً من الأول.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وما كانوا مهتدين) (٥) بعد قوله: (قد ضلوا)؟

قلنا: فائدته الإعلام بأنهم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى، فإن من الناس من يضل ثم يهتدي بعد ضلله.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (إذا أثمر) (٦) بعد قوله: (كلوا من ثمره) (٧) ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر؟

قلنا: فائدته نفى توهم توقف الاباحة على الادراك (٨) والنضج بدلالته على الاباحة من أول اخراج الثمر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قل لا أجد فيما أوحى إلي

(١) سورة يس ٦٥.

(٢) سورة الأنعام ١٤٠.

(٣) وفي نسخة (ب) جهالة.

(٤) وفي نسخة (ب) عليه.

(٥) سورة الأنعام ١٤٠.

(٦) سورة الأنعام ١٤١.

(٧) سورة الأنعام ١٤١.

(٨) وفي نسخة (ب) ادراك.

محرمًا... الآية) (١) وفي القرآن تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك؟

قلنا: (يعنى كان) (٢) محرمًا مما كانوا يحرمونه فى الجاهلية، وقيل: مما كانوا يستحلونه فيها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) (٣) والموضع موضع العقوبة، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك؟

قلنا: إنما قال ذلك تفيًا للاغترار بسعة رحمته فى الاجترار على معصيته، وذلك أبلغ فى التهديد، معناه لا تغتروا بسعة رحمته فإنه (مع) (٤) ذلك لا يرد عذابه عنكم، وقيل: معناه فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين ولا يرد عذابه عن العاصين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) (٥) ثم فسر بعشرة أحكام خمسة منها واجبة والتلاوة وصف للفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة؟

قلنا: قوله: (أتل ما حرم ربكم عليكم) (٦) لا ينفى تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضاً، الثانى إن فيه إضمار تقديره: أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب.

(١) سورة الأنعام ١٤٥.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة الأنعام ١٤٧.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الأنعام ١٥١.

(٦) سورة الأنعام ١٥١.

فإن قيل: كيف خص مال اليتيم بالنهي عن قربانه بغير الأحسن، ومال البالغ كذلك أيضاً؟

قلنا: إنما خصه بالنهي لأن طمع الطامعين فيه أكثر، لضعف ماله وعجزه، وقلة الحافظين له، والناصرين، بخلاف مال البالغ، الثاني: أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن، ووجوب قربانه بالأحسن، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن ماله، ومجموع الحكمين مخصوص بمال اليتيم، وهذا هو الجواب عن كونه منفياً ببلوغ الأشد، لأن المجموع ينتفى ببلوغ الأشد، لانتفاء الحكم الثاني، وقيل: إن الغاية لمحذوف تقديره: حتى يبلغ فسلموه إليه.

فإن قيل: كيف خص العدل بالقول فقال تعالى: (وإذا فعلتم فاعدلوا) (١) ولم يقل وإذا فعلتم فاعدلوا، والحاجة إلى العدل في الفعل أمس، لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلي أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولي؟

قلنا: إنما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل في الفعل بالطريق الأولى، كما قال تعالى: (فلا تقل لهما أف) (٢) ولم يقل: ولا تشتمهما ولا تضر بهما لما قلنا.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (ولا تزد وازدة وزر أخرى) (٣) وبين قوله: (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع

(١) سورة الأنعام ١٥٢.

(٢) سورة الإسراء ٢٢.

(٣) سورة الأنعام ١٦٤.

أُنْزَالَهُمْ (١) وقوله: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢)
وقوله: (وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) (٣) وقد جاء في
الحديث المشهور «فعليه وزرها ووزر من عمل بها»؟
قلنا: المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافاً إليها بمباشرة أو
تسبب (٤) لتحقيق اضافته إلى غيرها على الكمال، أما إذا لم يكن
كذلك فهو وزرها من وجه فتزرها، وقيل: معناه لا تزرها طوعاً كما
زعم المشركون بقولهم للنبي عليه الصلاة والسلام: ارجع إلى ديننا
ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة في دينك، وقول الذين كفروا
للذين آمنوا (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) إلى قوله
تعالى: (عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (٥) ومعنى باقى النصوص أنها تحمله
كرهاً فلا تنافى بينهما.



(١) سورة العنكبوت: ١٣.

(٢) سورة النحل: ٢٥.

(٣) سورة النحل: ٢٥.

(٤) وفي نسخة (أ) تسبب.

(٥) سورة العنكبوت: ١٣.

سورة الأعراف

فإن قيل: النهي في قوله تعالى: (فلا يكن في صدورك حرج

منه) (١) متوجه إلى الحرج فما وجهه؟

قلنا: هو من باب قولهم: لا أرينك هنا معناه لا تقم هنا، فإنك إن أقمت رأيتك، فمعنى الآية، فكن على يقين منه ولا تشك فيه، لأن المراد بالحرج الشك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أهلكناها فجاجها بأسنا) (٢) والهلاك إنما هو بعد مجيء البأس وهو العذاب؟

قلنا: معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى: (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) (٣) وقوله تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) (٤).

فإن قيل: ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى: (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) (٥)؟

قلنا: إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال، وقيل: إنما جمعه لأنه ميزان تقوم مقامه موازين ويفيد فائدتها، لأنه يوزن به ذرات الأعمال، وما كان منها في عظم الجبال.

فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض لا ثقل لها ولا جسم، والوزن من خواص الأجسام؟

(١) سورة الأعراف ٢.

(٢) سورة الأعراف ٤.

(٣) سورة المائدة ٦.

(٤) سورة النحل ٩٨.

(٥) سورة الأعراف ٨، ٩.

قلنا: الموزون صحائف الأعمال، الثانى: أنه قد ورد أن الله تعالى يحيلها فى جواهر وأجسام فتتصور أعمال المطيعين فى صورة (١) حسنة، وأعمال العاصين فى صورة (٢) قبيحة ثم يزنها، والله على كل شيء قدير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) (٢) وكلمة ثم للترتيب، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا؟

قلنا: المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف، وقيل: المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم فى ظهره، والقول الأول أظهر.

فإن قيل: كيف قال تعالى لإبليس: (فأهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) (٤) أى فى السماء، وليس له ولا لغيره أن يتكبر فى الأرض أيضاً؟

قلنا: لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لا توجد (٥) منهم معصية أصلا كان وجود المعصية بينهم أقبح، فلذلك خص مقرهم بالذكر.

فإن قيل: كيف أجيب إبليس إلى الانتظار، وإنما طلب الانتظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم؟

(١) وفى نسخة (أ) صور.

(٢) وفى نسخة (أ) صور.

(٣) سورة الأعراف ١١.

(٤) سورة الأعراف ١٢.

(٥) وفى نسخة (ب) يوجد.

قلنا: لما في ذلك من ابتلاء العباد، ولما في مخالفته من عظيم الثواب، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع المأذ والمأهى وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ودى عنهما من سوأتهما) (١) ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهم، بل إخراجهم من الجنة، ويؤيده قوله تعالى في سورة البقرة: (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) (٢)؟ قلنا اللام في قوله: «ليبدى» لام العاقبة والضرورة، لا لام كي كما في قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) (٣)، وقول الشاعر: لدوا للموت وابنوا للخراب.

فإن قيل: أى آية لله في اللباس والكسوة حتى قال في آية اللباس والكسوة: (ذلك من آيات الله) (٤)؟

قلنا: معناه أن خلق اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوان، وقيل: معناه ذلك من نعم الله.

فإن قيل: كيف قوله تعالى في حق إبليس: (ينزع عنهما لباسهما) (٥) ونازع لباسهما هو الله تعالى؟

(١) سورة الأعراف ٢٠.

(٢) سورة البقرة ٢٦.

(٣) سورة القصص ٨.

(٤) سورة الأعراف ٢٦.

(٥) سورة الأعراف ٢٧.

قلنا: لما كان ذلك بسبب وسوسة الشيطان واغوانه أضيف النزع إليه كما يقال: أشبعنى الطعام، وأروانى الشراب، المشبع والمروى فى الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب.

فإن قيل: كيف قال: (كما بدأكم تعودون) (١) وهو بدأنا أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً كما ذكر، ونحن لا نعود عند الموت ولا عند البعث بعد الموت على ذلك الترتيب؟

قلنا: معناه كما بدأكم أولاً من تراب كذلك تعودون تراباً، وقيل: معناه كما أوجدكم أولاً بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم، فالتشبيه فى نفس الاحياء والخلق لا فى الكيفية والترتيب، وقيل: معناه كما بدأكم سعداء وأشتياء كذلك تعودون، ويؤيده تمام الآية، وقيل: معناه كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تعودون، كما قال تعالى: (ولقد جئتمونا فرادى... الآية) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى مخبراً عن الزينة والطيبات من الرزق: (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) (٣) مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: قل هى للذين آمنوا غير خالصة فى الحياة الدنيا، لأن المشركين شاركوهم فيها، خالصة للمؤمنين فى الآخرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) (٤) والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى حى؟

(١) سورة الأعراف. ٢٩.

(٢) سورة الأنعام. ٩٤.

(٣) سورة الأعراف. ٢٢.

(٤) سورة الأعراف. ٤٢.

قلنا: هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث والموروث عنه، وذلك أن الله تعالى خلق في الجنة منازل للكفار على تقدير الإيمان، فمن لم يؤمن منهم جعل منزله لأهل الجنة، الثاني: أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير عوض فأشبه بالميراث، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ألا له الخلق والأمر) (١) أما الخلق بمعنى الإيجاد والاحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى، وأما الأمر فلغيره أيضاً بديل قوله تعالى: (تأمرون بالمعروف) (٢) وقوله تعالى: (وأمر بالمعروف) (٣) وقوله تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة) (٤)؟

قلنا: المراد بالأمر هنا قوله تعالى: (كن) (٥) عند خلق الأشياء، وهذا الأمر الذي به الخلق (٦) مخصوص به كالخلق، الثاني: أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما في هذه الآية، وهو خلق السموات والأرض، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر، وذلك مخصوص به عز وجل.

فإن قيل: لم قال نوح عليه السلام: (ليس بي ضلالة) (٧) بالتاء ولم

(١) سورة الأعراف ٥٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة لقمان ١٧.

(٤) سورة طه ١٣٢.

(٥) سورة البقرة ١١٧، سورة آل عمران ٤٧ - ٥٩، سورة النعام ٧٢، سورة

النحل ٤٠، سورة مريم ٣٥، سورة يس ٨٢.

(٦) في نسخة (أ) الحق ص ٥٤.

(٧) سورة الأعراف ٦١.

يقول ليس بى ضلال، كما وصفه قومه به، وذلك أشد مناسبة ليكون نافياً عين ما أثبتوه؟

قلنا: الضلالة أقل من الضلال فكان نفيها أبلغ نفي الضلال عنه، كأنه قال: ليس بى شيء من الضلال، كما لو قيل: ألك تمر؟ (١) فقلت: مالى ثمرة (٢) كان ذلك أبلغ فى النفي من قولك ما لى تمر (٣).
فإن قيل: كيف وصف الملائ بالذين كفروا فى قصة هود دون قصة نوح؟

قلنا: لأنه كان فى أشرف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول، فلم يكن كل الملائ من قومه قائلين له: (إنا لنراك فى سفاهة) (٤) بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن فيهم من آمن به عند قولهم: (إنا لنراك فى ضلال مبين) (٥) فكان كل الملائ قائلين ذلك، هكذا أجاب بعض العلماء، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى فى سورة هود فى قصة نوح: (فقال الملائ الذين كفروا من قومك) (٦) وكذا فى سورة المؤمنين، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن تقول كان مرتين، المرة الثانية بعد إيمان بعضهم.

فإن قيل: كيف قال صالح لقومه بعدما أخذتهم الرجفة وماتوا: (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن

(١) وفى نسخة (ب) ثمر.

(٢) وفى نسخة (ب) ثمرة.

(٣) وفى نسخة (ب) ثمر وفى نسخة (أ) ثمرة.

(٤) سورة الأعراف ٦٦.

(٥) سورة الأعراف ٦٠.

(٦) سورة هود ٢٧.

لا تحبون الناصحين) (١) ولا يحسن من الحى مخاطبة الميت لعدم الفائدة؟

قلنا: هذا مستعمل فى العرف، فإن من نصح انساناً فلم يقبل منه حتى قتل أو صلب ومر به ناصحه فإنه يقول له: كم نصحتك يا أخى فلم تقبل حتى أصابك هذا، وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذى لم يقبل النصيحة حتى هلك.

فإن قيل: لم قال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) (٢) وهم ما زالوا كافرين مفسدين لا مصلحين؟

قلنا: معناه بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل، وقيل: معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف، وقيل: معناه بعد الإصلاح فيها أى بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، فأضافته كأضافة قوله تعالى: (بل مكر الليل والنهار) (٣) يعنى بل مكرهم فى الليل والنهار.

فإن قيل: كيف خاطبوا شعيباً عليه الصلاة والسلام بالعود فى الكفر بقولهم: (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) (٤) وهو أجابهم بقوله: (إن عدنا فى ملتكم

(١) سورة الأعراف ٧٩.

(٢) سورة الأعراف ٨٥.

(٣) سورة سبأ ٢٣.

(٤) سورة الأعراف ٨٨.

بعد إذ نجانا الله منها (١) وهو لم يكن فى ملتهم قط، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم شيء من الكبائر، خصوصاً الكفر؟

قلنا: العرب تستعمل عاد بمعنى صار ابتداءً، ومنه قوله تعالى: (حتى عاد كالعرجون القديم) (٢)، الثانى: أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد، لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم، فجعلوهم عاندين جميعاً اجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه الصلاة والسلام جوابه، ومراده عود قومه المعطوفين عليه.

فإن قيل: لم قال فرعون: (فأت بها) بعد قوله: (إن كنت جننت بآية) (٣)؟

قلنا: معناه إن كنت جننت من عند الله تعالى بآية فاتنى بها، أى أحضرها عندى.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) (٤) وقال فى سورة الشعراء: (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم) (٥) فنسب هذا القول إلى فرعون؟

قلنا: قاله هو، وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم هنا.

فإن قيل: السحرة إنما سجدوا لله تعالى طوعاً لما تحققوا من

(١) سورة الأعراف ٨٩.

(٢) سورة يس ٢٩.

(٣) سورة الأعراف ١٠٦.

(٤) سورة الأعراف ١٠٩.

(٥) سورة الشعراء ٢٤.

معجزة موسى عليه الصلاة والسلام فكيف قال تعالى: (وألقى السحرة ساجدين) (١)؟

قلنا: لما زالت كل شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيه، اضطرمهم ذلك إلى مبادرة السجود، فصاروا من غاية المبادرة كأنهم ألقوا للسجود تصديقاً لله تعالى ولرسوله.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون: (قالوا آمنا برب العالمين) إلى قوله تعالى: (وتوفنا مسلمين) (٢) ثم حكى عنهم هذا المعنى في سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارتهم فيها؟

قلنا: الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلفظهم لا باللغة العربية، وحكى الله تعالى ذلك عنهم باللغة العربية مراراً، لحكمة اقتضت التكرار والإعادة، نبينهما في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى فمرة حكاه مطابقاً للفظهم (٣) في الترجمة رعاية للفظ (٤)، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جرياً على عادة العرب في التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه لئلا يمل إذا تمحض تكراره.

فإن قيل: كيف قالوا: (مهما فأقنا به من آية لتسحرنا بها) (٥) سموها آية ثم قالوا: «لتسحرنا بها»؟

(١) سورة الأعراف ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف ١٢١ - ١٢٦.

(٣) وفي نسخة (ب) للفظ.

(٤) وفي نسخة (ب) أو عناية للفظ.

(٥) سورة الأعراف ١٢٢.

قلنا: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، بل حكاية لتسمية موسى عليه الصلاة والسلام على طريق الاستهزاء والسخرية.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) (١) أى أهلكنا، وقوله تعالى: (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك أورثناها بنى إسرائيل) (٢)؟

قلنا: معناه ودمرنا أى أبطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والكيد فى حق موسى عليه الصلاة والسلام، (وما كانوا يعرشون) أى يبنون من الصرح الذى أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته إلى السماء، لأن التدمير يكون بمعنى الاهلاك ويكون بمعنى الإبطال، وقيل: هو على ظاهره لأن الله تعالى أورث ذلك بنى إسرائيل مدة ثم دمره جميعه.

فإن قيل: قوله تعالى: (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) (٣)، قوله: «وفى ذلكم» إن كان إشارة إلى الانجاء فليس فيه بلاء، بل هو محض نعمة، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر فإضافته إلى آل فرعون لقوله تعالى: «وفى ذلكم بلاء» من آل فرعون عظيم أشد مناسبة لسياق الآية وهو الامتنان ولهذا قال: «يقتلون ويستحيون» فأضاف إليهم الفعلين؟

قلنا: البلاء مشترك بين النعمة والمحنة، لأنه من الابتلاء وهو

(١) سورة الأعراف ١٣٧.

(٢) سورة الشعراء ٥٩.

(٣) سورة الأعراف ١٤١.

الاختبار، يقال بلاده وابتلاه أى اختبره والله تعالى يختبر شكر عباده بالنعمة، ويختبر صبرهم بالمحنة، ويؤيده قوله تعالى: (وبلونا هم بالحصنات والسيئات) (١) وقوله تعالى: (ونبلوكم بالشو والخير فتنة) (٢) فمعنى الآية وفى ذلك الانجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم (وتجوز أن تكون الإشارة إلى المجموع معناه وفى الانجاء اختبار عظيم لشكر من أنجى، واختبار عظيم لصبر من قتل ولده أو أسر) (٣).

فإن قيل: قوله تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأقمناها بعشر) (٤) الواعدة كانت أمره بالصوم فى هذا العدد، فكيف ذكر الليالى مع أنها ليست محلا للصوم، بل يقع فى القلب ان ذكر الأيام أولى لأنها محل الصوم الذى وقعت به المواعدة؟ قلنا: العرب فى أغلب تواريخها إنما تذكر الليالى وإن كان مرادها الأيام، لأن الليل هو الأصل فى الزمان، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة فى الوجود على النور، وقيل: إنه كان فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام جواز صوم الليل.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (هتتم ميقات ربه أربعين ليلة) (٥) وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين

(١) سورة الأعراف ١٦٨.

(٢) سورة الأنبياء ٣٥.

(٣) ساقط من نسخة (ب).

(٤) سورة الأعراف ١٤٢.

(٥) سورة الأعراف ١٤٢.

ليلة وأتممناها بعشر) (١)؟

قلنا: فيه فوائد أحدها التأكيد الثانية: أن يعلم أن العشر ليال لا ساعات، الثالثة: أن لا يتوهم أن العشر التي وقع بها الالتزام كانت داخلة في الثلاثين، يعنى كانت عشرين واطممت بعشر (٢) كما فى قوله تعالى: (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) (٣) على ما ذكرناه مشروحاً فى سورة حم السجدة.

فإن قيل: لم قال موسى عليه الصلاة والسلام: (وأنا أول المؤمنين) (٤) وكان قبله كثيراً من المؤمنين، وهم الأنبياء ومن آمن بهم؟

قلنا: معناه وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى بالحاسة الفانية من الجسد الفانى فى دار الفناء، وقيل: معناه وأنا أول المؤمنين من بنى اسرائيل فى زمانى، وقيل: أراد بالأول الأقوى والأكمل فى الإيمان يعنى لم يكن مطلبى الرؤية لشك عندى فى وجودك أو لضعف فى إيمانى، بل لطلب مزيد الكرامة.

فإن قيل: كيف قال: (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) (٥) وهم مأمورون بالعمل بكل ما فى التوراة؟

قلنا: معناه بحسنها وكلها حسن، الثانى: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، ففعل الخير أحسن من ترك الشر، الثالث: أن فيها

(١) سورة الأعراف ١٤٢.

(٢) وفى نسخة (ب) أتمت.

(٣) سورة فصلت ١٠.

(٤) سورة الأعراف ١٤٢.

(٥) سورة العراف ١٤٥.

حسناً وأحسن كالاقتصاص والعفو، والانتصار والصبر، والواجب والمندوب والمباح، فأمرُوا بالأخذ بالعزائم والفضائل، وما هو الأكثر ثواباً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار) (١) واتخاذهم العجل إنما كان في زمن موسى عليه الصلاة والسلام بالنقل (٢) وفي سياق الآيات (٣) ما يدل على ذلك؟

قلنا: معناه من بعد ذهابه إلى الجبل، وقيل: من بعد عهده عليهم أن لا يعبدوا غير الله.

فإن قيل: كيف عبر عن الندم بالسقوط في اليد في قوله تعالى: (ولما سقط في أيديهم) (٤) وأى مناسبة بينهما؟

قلنا: لأن من عادة من اشتد ندمه وحسرتة (٥) على فائب أن يعض يده غماً، فتصير يده مستقوفاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها، وسقط مسنداً إلى قوله: «في أيديهم» وهو من كنايات العرب كقولهم للناثم: ضرب على أذنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (غضبنا أسفاً) (٦) وهما متقاربان في المعنى؟

(١) سورة الأعراف ١٤٨.

(٢) وفي نسخة (ب) بالفعل.

(٣) وفي نسخة (ب) الآية.

(٤) سورة الأعراف ١٤٩.

(٥) وفي نسخة (ب) جزئه.

(٦) سورة الأعراف ١٥٠.

قلنا: الأسف الحزين، وقيل: الشديد الغضب ففيه فائدة جديدة.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (أخذ الألواح وفي نسختها) (١) ولم يقل وفيها، وإنما يقال نسختها لشيء كتب مرة ثم نقل، فأما أول مكتوب لا يسمى نسخة، والألواح لم تنقل (٢) من مكتوب آخر؟
قلنا: لما ألقى الألواح قيل: إنه انكسر منها لوحان، فنسخ ما فيهما في لوح ذهب، وكان فيهما الهدى والرحمة، وفي باقى الألواح تفصيل كل شيء، وقيل: إنما قال: «وفي نسختها» لأن الله تعالى لقن موسى عليه الصلاة والسلام التوراة ثم أمره بكتابتها فنقلها من صدره إلى الألواح فسامها نسخة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واتبعوا النور الذى أنزل معه) (٣) يعنى القرآن والقرآن إنما أنزل مع جبريل عليه السلام لا مع النبى؟
قلنا: (معه) أى مقارناً لزمانه، وقيل: (معه) أى عليه، وقيل: (معه) أى إليه، ويجوز أن يتعلق (معه) باتبعوا، لا بأنزل، معناه واتبعوا القرآن المنزل مع أتباع النبى عليه الصلاة والسلام والعمل بسنته أو واتبعوا القرآن كما اتبعه هو مصاحبين له فى اتباعه.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) (٤) وهم إنما بدلوا القول (٥) الذى قيل لهم، وهو (قولوا حطة) فقالوا حنطة؟

(١) سورة الأعراف ١٥٤.

(٢) وفى نسخة (ب) الألواح تنقل.

(٣) سورة الأعراف ١٥٧.

(٤) سورة الأعراف ١٦٢.

(٥) وفى نسخة (أ) القرآن.

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.
فإن قيل: كيف قال: (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (١) وانتقالهم
من صور البشر إلى صور القردة ليس في قدرتهم؟
قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة.
فإن قيل: الحليم من صفات الله تعالى فكيف قال: (إن ربك لسريع
العقاب) (٢) وسرعة العقاب تنافي صفة الحلم، لأن الحليم هو الذي
لا يعجل بالعقوبة على العصاة؟
قلنا: معناه شديد العقاب وقيل: معناه سريع العقاب إذا جاء وقت
عقابه لا يورده عنه أحد.
فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل (٣) على كل عبادة، ومنها إقامة
الصلاة فكيف قال تعالى: (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا
الصلاة) (٤)؟
قلنا: إنما خصها بالذكر إظهاراً لمزيتها، لكونها عماد الدين بالحديث،
وناهية عن الفحشاء المنكر يالآية.
فإن قيل: قوله تعالى: (فمثلته كمثل الكلب) (٥) تمثيل لحال بلعام،
فكيف قال بعده: (ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا) (٦)
والمثل لم يضرب إلا لواحد؟

(١) سورة الأعراف ١٦٦.

(٢) سورة الأعراف ١٦٧.

(٣) وفي نسخة (أ) يشمل.

(٤) سورة الأعراف ١٧٠.

(٥) سورة الأعراف ١٧٦.

(٦) سورة الأعراف ١٧٧.

قلنا: المثل في الصورة وإن ضرب لبلعام، ولكن أريد به كفار مكة كلهم، لأنهم صنعوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه الصلاة والسلام، الثاني: أن «ساء مثلاً القوم» راجع إلى قوله تعالى: «ذلك مثل القوم» لا إلى أول الآية.

فإن قيل: كيف قال: (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١) وهو عليه الصلاة والسلام كان نذيراً وبشيراً للناس كافة، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (٢)؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» لقوم كتب لهم في الأزل أنهم يؤمنون، وإنما خصهم بالذكر لأنهم هم المتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم، فكانه نذير وبشير لهم خاصة، كما قال تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مَنذُورٌ مِّنْ بَیْخِشَاهُمَا) (٣) ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفاً تقديره: إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِّلْكَافِرِينَ وبشير لقوم يؤمنون، فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر، كما استغنى بالجملة عن التفصيل في تلك الآية، لأن المعنى وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا لِّلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِّلْكَافِرِينَ.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: حكاية عن آدم وحواء: (جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) (٤) وقال: (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٥)

(١) سورة الأعراف ١٨٨.

(٢) سورة مَبَا ٢٨.

(٣) سورة النازعات ٤٥.

(٤) سورة الأعراف ١٩٠.

(٥) سورة الأعراف ١٩٠.

والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر فضلا عن الشرك الذي هو أكبر الكبائر؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «جعل له» أى جعل أولادهما بطريق حذف المضاف وكذا قوله تعالى: (فَإِذَا آتَاهُمَا) (١) أى فيما أتى أولادهما، ويؤيد هذا قوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٢) حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل يشركان، ومعنى اشراك أولادهما فيما آتاها الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس ونحو ذلك مكان عبدالله وعبدالرحمن وعبدالرحيم وقيل: الضمير فى (جعلاً) للولد الصالح وهو السليم الخلق، وإنما قال: «جعلاً» لأن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكراً وأنثى، وقيل: المراد بذلك تسميتهما إياه عبدالحارث والحارث كان اسم إبليس فى الملائكة، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية، وإنما قال (شركاء) إقامة للواحد مقام الجمع، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه، بل قصداً أنه كان سبب نجاته، وقال جمهور المفسرين قوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٣) فى مشركى العرب خاصة، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء.

(١) سورة الأعراف ١٩٠.

(٢) سورة الأعراف ١٩٠.

(٣) سورة الأعراف ١٩٠.

سورة الأنفال

فإن قيل: قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) (١) إلى آخر الآيتين يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات لا يكون مؤمناً، لأن كلمة إنما للحصر،؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: إنما المؤمنون إيماناً كاملاً، أو إنما الكاملون الإيمان، كما يقال الرجل من يصبر على الشدائد يعنى الرجل الكامل، ونظيره قوله تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا... الآية) (٢) وقوله تعالى: (وأن المساجد لله) (٣).

فإن قيل: قوله تعالى: (أولئك هم المؤمنون حقاً) (٤) ينفي ارادة ما ذكرتم؟

قلنا: معناه أولئك هم المؤمنون إيماناً كاملاً حقاً، وقيل: إن حقاً متعلق (٥) بما بعده لا بما قبله، والمؤمنون تمام الكلام.

فإن قيل: كيف يقال أن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال الله تعالى: (وإذا قلبت عليهم آياته زادتهم إيماناً) (٦)؟

قلنا: المراد بالإيمان آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك، لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخاً في العقائد وثبوتاً، فإما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحداية الله تعالى كما أم الإلهية والوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان فكذا

(١) سورة الأنفال ٢.

(٢) سورة الفرقان ٦٣.

(٣) سورة الجن ١٨.

(٤) سورة الأنفال ٤.

(٦) سورة الأنفال ٢.

(٥) وفي نسخة (ب) يتعلق.

الاقرار بها.

فإن قيل: قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) (١)

تشبيهه فأين المشبه والمشبه به؟

قلنا: معناه أمضى على ما رأيته صواباً من تنفيل الغزاة في قسمة الغنائم، وإن كرهوا، كما مضيت في خروجك من بيتك للحرب بالحق وهم كارهون، وقيل: معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق خيراً لهم وهم كارهون، وقيل: معناه أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليحق الحق ويبطل الباطل) (٢)

وكلاهما متعذر لأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا: المراد بالحق الإيمان، وبالباطل الشرك، فاندفع السؤال.

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: (ويريد الله أن يحق

الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق) (٣)؟

قلنا: إنما ذكره أولاً لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التي كانت فيها الغنيمة، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التي قهرها نصره الدين، فذكره أولاً للتمييز بين الإرادتين، ثم ذكره ثانياً لبيان الحكمة في قطع دابر الكافرين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلنم قتلوهم ولكن الله قتلهم وما

(١) سورة الأنفال ٥.

(٢) سورة الأنفال ٨.

(٣) سورة الأنفال ٧.

رمىته إذ رميت ولكن الله رمى) (١) ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار، ورماهم النبي عليه الصلاة والسلام بكف من حصا الوادى فى وجوههم، وقال: شامت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا وقع فى عينيه شئ من ذلك، فشغلوا فى عيونهم وانهزموا، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون؟

قلنا: لما كان السبب الأقوى فى قتلهم إنما هو مدد الملائكة، وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين، وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم، وذلك كله فعل الله تعالى ونسبه إليه، يعنى إن كان ذلك فى الصورة منكم، فهو فى الحقيقة منى، فسيلكم الشكر دون العجب والفخر، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يوجد مثله عن رمى البشر فعل الله تعالى، ونظير هذا قولك لمن صدر عنه قول حسن أو فعل مكروه، بتسليط من هو أعلا رتبة منه: هذا ليس قولك ولا فعلك، وقيل: معنى قوله تعالى: «وما رميت إذ رميت» وما رميت الرعب فى قلوبهم إذ رميت الحصا فى وجوههم، ولكن الله رمى الرعب فى قلوبهم، ولأهل الحقيقة فى هذه الآية ونظائرها من الكتاب والسنة مباحث لا يحتملها هذا المختصر، وهى مستقصاة فى كتب التصوف. فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) (٢) تثنى فى الأمر ثم أفرد فى النهى؟

قلنا: كما يذكر فى لغة العرب الاسم المفرد، ويراد به الاثنان والجمع، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين

(١) سورة الأنفال ١٧.

(٢) سورة الأنفال ٢٠.

كقولهم: إنعام فلان ومعروفه يغشيني، والإنعام والمعروف لا ينفع مع فلان، وعليه جاء قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه) (١) أى أن يرضوهما، فكنا هنا معناه ولا تولوا عنهما، الثانى: أن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله لما كانت سبباً واحداً حكماً لقوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢) وقوله تعالى: (إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله) (٣) كان الاعراض عن الرسول إعراضاً عن الله تعالى، فاكتفى بذكره، الثالث: أن معناه ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله، فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام، الرابع: أنه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبى عليه الصلاة والسلام عند نهيهِ للكفار فى قرآنهِ بين اسمه واسم الله تعالى فى ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله، كما روى أن خطيباً خطب فقال: من أطاع الله ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام: بنس خطيب القوم أنت، هلا قلت: ومن عصى الله ورسوله فقد غوى).

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم... الآية) (٤)؟

قلنا: معناه ولو علم الله فيهم تصديقاً وإيماناً فى المستقبل لأنطق لهم

(١) سورة التوبة ٦٢.

(٢) سورة النساء ٨٠.

(٣) سورة الفتح ١٠.

(٤) سورة الأنفال ٢٢.

الموتى يشهدون بصدق (١) نبوتك كما طلبوا، أو قيل: معنى (لأسمعهم) ليرزقهم الفهم والبصيرة، ولو أسمعهم وحالهم هذه الحال، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير لتولوا وهم معرضون. فإن قيل: التولى والاعراض واحد فما فائدة قوله تعالى: (وهم معرضون) (٢)؟

قلنا: لتولوا عن الإيمان، وهم معرضون عن البرهان، فلا تكرار. فإن قيل: ما فائدة ذكر السماء في قوله: (فأمطر علينا حجارة من السماء) (٣) والمطر إنما يكون من السماء؟

قلنا: المطر المطلق إنما يكون من السماء، ولكن المطر المضاف هنا هو مطر الحجارة قد يكون من رؤوس الجبال، ومن حيطان المساكن والقصور وستوفها، فكان ذكر السماء مفيداً لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثر ضرراً، الثانى: أنه لما كانت الحجارة المسومة (٤) للعذاب وهى السجيل معهودة النزول من السماء ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود (٥) من الحجارة، كأنه قال: فأمطر علينا حجارة من سجيل، فوضع قوله: من السماء موضع قوله: من سجيل كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد، يعنى درعاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) (٦)

(١) وفى نسخة (ب) بتصديق.

(٢) سورة الأنفال ٢٢.

(٣) سورة الأنفال ٢٢.

(٤) وفى نسخة (ب) مسومة.

(٥) وفى نسخة (ب) المفهوم.

(٦) سورة الأنفال ٢٢.

ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر وهو فيهم؟
قلنا: معناه وأنت مقيم بمكة وكان كذلك لأن النبي عليه الصلاة
والسلام ما دام بمكة لم يعذبوا، فلما أخرجوه من مكة، وخرجوا
لحربه عذبوا، وقيل: معناه وما كان الله ليعذبهم عذاب
الاستئصال (١) وأنت فيهم، وقيل: معناه وما كان الله ليعذبهم العذاب
الذى طلبوه وهو إبطار الحجارة.

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: (وما كان الله ليعذبهم وأنت
فيهم... الآية) ثم قال: (وما لهم ألا يعذبهم الله) (٢) وهو يوهم
التناقض؟

قلنا: معناه ومالهم أن لا يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم وخروج
المؤمنين والمستغفرين، وقيل: المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال
وبالثاني عذاب غير الاستئصال، وقيل: المراد بالأول عذاب الدنيا
وبالثاني عذاب الآخرة (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء
وتصدية) (٤) والمكاء الصفير والتصدية التصفيق وهما ليسا بصلاة؟
قلنا: معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة، كما يقول القائل
زرت فلاناً فجعل الجفاء صلتى أى أقام الجفاء مقام الصلة ومنه قول
الفرزدق:

(١) وفي نسخة (ب) استئصال.

(٢) سورة الأنفال ٢٤.

(٣) وفي نسخة (ب) خلط بين التولين الأخوين وألفاظ ماقطة.

(٤) سورة الأنفال ٢٥.

أخاف زياداً أن يكون عطاوله

أدام سوداً ومحدرجة سمرا

أراد بالأدام القيود، وبالمحدرجة السياط، ووضعهما موضع العطاء.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (فل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا) (١) وهم لم ينتهوا عن الكفر، فكيف قال (وإن تعودوا) والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والاقلاع عنه؟ قلنا: معناه إن تنتهوا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربتة يغفر لهم ما قد سلف من ذلك، وإن تعودوا إلى قتاله وعداوته فقد مضت سنة الأولين منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية، وقيل: معناه إن ينتهوا عن الكفر فالإيمان يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الإسلام يجب ما قبله»، وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ما أسلموا فقد مضت سنة الأولين من الأمم في أخذهم بعذاب الاستئصال.
فإن قيل: الفائدة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة، وهي زوال الرعب من قلوب المؤمنين، وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال، فما فائدة تقليل المؤمنين في أعين الكفار حتى قال الله تعالى: (ويقللهم في أعينهم) (٢) مع أن في ذلك يقال: زوال الرعب من قلوب الكافرين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال؟

قلنا: فائدته أن لا يستعد الكفار كل الاستعداد، وأن يجترئوا على

(١) سورة الأنفال ٢٨.

(٢) سورة الأنفال ٤٤.

المؤمنين معتمدين على قلتهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا، وأن يكون ذلك سبباً يتنبه به المشركون على نصرة الحق إذا رأوا المؤمنين مع قلتهم في أعينهم منصورين عليهم، وفي التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ويحكم) (١) يدل على حرمة المنازعة والجدل أيضاً لأنه منازعة فكيف تجوز (٢) المناظرة وهي منازعة وجدل؟

قلنا: المراد بالمنازعة هنا المنازعة في أمر الحرب والاختلاف فيه، لا المنازعة في إظهار الحق بالحجة والبرهان، والدليل عليه أن ذلك مأمور به، قال الله تعالى: (وجادلهم بالتى هي أحسن) (٣) لكن لجواز المناظرة شروط يندر وجودها في زماننا هذا، أحدها: أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أى الخصمين كان، كما كانت مناظرة السلف، وعلامة ذلك أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر مما يفرح بظهوره على لسان خصمه.

فإن قيل: كيف قال إبليس: (إنى أخاف الله) (٤) وهو لا يخاف الله تعالى، لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده؟

قلنا: قال قتادة صدق عدو الله في قوله: (إنى أرى ما لا ترون) (٥)

(١) سورة الأنفال ٤٦.

(٢) وفي نسخة (أ) يجوز.

(٣) سورة النحل ١٢٥.

(٤) سورة الأنفال ٤٨.

(٥) سورة الأنفال ٤٨.

يعنى جبريل (وملائكة معه) (١) نازلين من السماء لنصرة المؤمنين (٢) يوم بدر، وكذب فى قوله: (إنى أخاف الله) (٣) والله ما به مخافة الله ولكنه (٤) علم أنه لا قوة له بهم، وقيل: أنه لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يرها قط، خاف قيام الساعة التى هى غاية إنظاره فيحل به العذاب الموعود، وقيل: معنى أخاف الله أعلم صدق (٥) وعده لنبيه بالنصر، وقد جاء الخوف بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) (٦) ويحتمل عندى أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة ما دون الإهلاك من الأدنى (٧) إن لم يخف الإهلاك، ثم أقول: كيف تؤخذ (٨) عليه كذبة واحدة، وهو أفسق الفسقة وأكفر الكفرة، فلا عجب فى كذبه، وإنما العجب فى صدقه؟

فإن قيل: أى مناسبة بين الشرط والجزاء فى قوله تعالى: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (٩)؟

قلنا: لما أقدم المؤمنون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله، وقال المنافقون: غر

(١) وفى نسخة (أ) والملائكة.

(٢) وفى نسخة (ب) المسلمين.

(٣) سورة الأنفال ٤٨.

(٤) وفى نسخة (ب) ولكن.

(٥) وفى نسخة (ب) بصدق.

(٦) سورة البقرة ٢٢٩.

(٧) وفى نسخة (أ) الأدنى.

(٨) وفى نسخة (ب) يؤخذ.

(٩) سورة الأنفال ٥٩.

هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عدداً وأكثر، قال الله تعالى رداً على المنافقين، وتثبيتاً للمؤمنين: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (١) أى غالب القليل الضعيف على الكثير القوى، وينصره عليه، حكيم فى جميع أفعاله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأن الله ليس بظلام للعبيد) (٢) ولم يقل بظالم وهو أبلغ فى نفى الظلم عن ذاته المقدسة؟ قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة آل عمران.

فإن قيل: قوله تعالى: (ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣) وذلك إشارة إلى هلاك كفار مكة وآل فرعون، ولم تكن لهم حال مرضية غيروها؟

قلنا: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة غير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم عباد أصنام، فلما بعث الرسول إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وسعوا فى قتله غيروا حالهم إلى أسوأ منها، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (فهم لا يؤمنون) (٤) بعد قوله: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) (٥)؟

قلنا: مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا، واستمروا على

(١) سورة الأنفال ٤٩.

(٢) سورة الأنفال ٥١.

(٣) سورة الأنفال ٥٢.

(٤) سورة الأنفال ٥٥.

(٥) سورة الأنفال ٥٥.

الكفر إلى وقت الموت.

فإن قيل: ما فائدة تكرار المعنى الواحد في مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده في قوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) إلى قوله: (والله مع الصابرين) (١)؟

قلنا: فائدته الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحد لا يتفاوت، بل كما ينصر الله تعالى العشرين على المائتين، ينصر المائة على الألف، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين. فإن قيل: كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة ونحن نشاهد الأمر بخلافها فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين، بل المائتين في بعض الأحوال؟

قلنا: إنما أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة بشرط الصبر، الذي هو الثبات في مواقف الحرب أو الذي هو الموافقة بين المسلمين ظاهراً وباطناً، فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قتلهم لا محالة، ولقائل: أن يقول: إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة، كان النبي عليه الصلاة والسلام أحدهم ومياق الآية يدل عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والله يورث الآخرة) (٢) مع أنه أراد الدنيا أيضاً، لأنه لولا إرادته إياها لما وجدت، فما فائدة هذا التخصيص؟

قلنا: المراد بالارادة هنا الاختيار والمحبة لا إرادة الوجود والكون، فالمعنى تحبون عرض الدنيا وتختارونه، والله يختار ما هو سبب الجنة، وهو اعزاز الاسلام بالاثخان في القتل.

(١) سورة الأنفال ٦٥ - ٦٦.

(٢) سورة الأنفال ٦٧.

سورة التوبة

فإن قيل: لأى سبب تركت كتابة البسملة فى أول هذه السورة بخلاف سائر السور؟

قلنا: لما تشابهت هى والأنفال، واختلفت الصحابة فى كونهما سورتين أو سورة واحدة، تركت بينهما فرجة عملا بقول من قال: هما سورتان، وتركت البسملة بينهما عملا بقول من قال هما سورة واحدة، وممن قال بذلك قتادة رضى الله عنه، الثانى: أن اسم الله تعالى سلام وأمان فلا تناسب كتابته النبذ والمحاربة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن كنتم أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فأنلوا أنمة الكفر) (١) خص الأمر بالقتال بأنمة الكفر، مع أن النكث والظعن ليس مخصوصاً بهم، بل هو مسند إلى جميع المشركين؟

قلنا: المراد بأنمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم، وقيل: كفار مكة لأنهم كانوا قدوة جميع العرب فى الكفر، فكان النكث والظعن لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه، فلذلك خصهم بالذكر.

فإن قيل: كيف قال: (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) (٢) ونحن نسأل اليهود والنصارى ذلك فينكرونه ويجحدونه؟

قلنا: طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كلهم، فالألف واللام للعهد لا للجنس أو أطلق اسم الكل وأراد البعض كما قال تعالى: (وإذا قالت الملائكة يا مريم) (٣) وإنما قال لها

(١) سورة التوبة ١٢.

(٢) سورة آل عمران ٤٢.

(٣) سورة التوبة ٢٠.

جبريل وحده.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ذلك هو لهم بأفواههم) (١) وقول كل أحد إنما يكون بقمه؟

قلنا: معناه أنه قول لا يعضده حجة وبرهان، إنما هو مجرد لفظ لا أصل له، وقيل: ذكر ذلك للمبالغة في الرد عليهم، والانكار لقولهم، كما يقول الرجل لغيره: أنت قلت لى ذلك بلسانك.

فإن قيل: دين الحق هو من جملة الهدى فما فائدة عطفه على الهدى في قوله تعالى: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) (٢)؟

قلنا: المراد بالهدى هنا القرآن، ودين الحق الإسلام، وهما متغايران، الثانى: أنه وإن كان داخلاً فى جملة الهدى، ولكنه خصه بالذكر تشريفاً له وتفضيلاً كما فى قوله تعالى: (حافظوا على الصلوة والصلاة الوسطى) (٣) وقوله تعالى: (وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليظهره على الدين كله) (٥) ولم يقل على الأديان كلها، مع أنه أظهره على الأديان كلها؟

قلنا: المراد بالدين هنا اسم الجنس، واسم الجنس المعروف باللام يفيد معنى الجمع، كما فى قولهم: كثر الدرهم فى أيدي الناس.

(١) سورة التوبة ٢٠.

(٢) سورة التوبة ٢٢.

(٣) سورة البقرة ٢٢٨.

(٤) سورة البقرة ٩٨.

(٥) سورة التوبة ٢٢.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا ينفقونها في سبيل الله) (١) والمذكور الذهب والفضة فأعاد الضمير على أحدهما؟ قلنا: أعاد الضمير على الفضة لأنها أقرب المذكورين، أو لأنها أكثر وجوداً في أيدي الناس، فيكون كنزها أكثر، ونظيره قوله تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة) (٢)، الثاني: أنه أعاد الضمير على المعنى، لأن المكنوز دنائير ودراهم وأموال، ونظيره قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) (٣) لأن كل طائفة مشتملة على عدد كثير، وكذا قوله تعالى: (هذان خصمان اختصموا في ربهم) (٤) يعني المؤمنين والكافرين، الثالث: أن العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان في المعنى تكتفى بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن ذكر الآخر لمعرفة السامع باشتراكهما في المعنى (ومنه قول حسان بن ثابت) (٥):

إن شرخ الشباب والشعر الأسود

ما لم يعاص كان جنوناً

ولم يقل ما لم يعاصيا وقول الآخر (٦):

فمن يك أمسى بالمدينة رحلة

فإنى وقيار بها لغريب

(١) سورة التوبة ٢٤.

(٢) سورة البقرة ٤٥.

(٣) سورة الحجرات ٩.

(٤) سورة الحج ١٩.

(٥) في نسخة (ب).

(٦) وهو ضابئ بن الحارث البرجمي.

ولم يقل لغريبان، ومنه قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه) (١) وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) (٢) وليس قوله تعالى: (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) (٣) ولا قوله تعالى: (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) (٤) من هذا القبيل، لأن الأخبار ثم عن أحدهما لوجود لفظه أو هي لإثبات أحد المذكورين، فمن جعله نظير هذا فقد مها إلا أن يثبت أن أو في هاتين الآيتين بمعنى الواو، وفي هاتين الآيتين لطيفة وهي أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده في الآية الأولى على التجارة، وأن كانت أبعد ومؤنثة أيضاً لأنها أنجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من الله، بدليل أن (هـ) المشتغلين بها أكثر من المشتغلين بالله أو لأنها أكثر نفعاً من الله أو لأنها كانت أصلاً والله تبعاً لأنه ضرب بالطبل لتدومها على ما عرف من تفسير الآية، وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً) (٦) وهي عند الناس كذلك أيضاً في كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية؟

(١) سورة التوبة ٦٦.

(٢) سورة الأنفال ٢٠.

(٣) سورة الجمعة ١١.

(٤) سورة النساء ١١٢.

(٥) وفي نسخة (ب) لأن.

(٦) سورة التوبة ٣٦.

قلنا: فادته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس ولبتدعوه بعقولهم من ذات (١) أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله تعالى في كتبه على السنة رسله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (٢) خص الأربعة الحرم بذلك، وظلم النفس منهى عنه في كل زمان؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما الضمير في قوله تعالى: «فيهن» راجع إلى قوله: «إثنا عشر شهراً» لا إلى الأربعة الحرم فقط، فاندفع السؤال، الثانى: أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم، أما لأنها أقرب أو لما قاله الفراء إن العرب تقول في العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون، وأيام خلون وهن وهؤلاء، فإذا جاوزت العشرة قالت: خلت، ومضت للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها، وبين الكثير وهو ما زاد عليها، ولهذا قال في: الاثنى عشر منها، وقال في الأربعة فيهن، فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر، إما لمزيد فضلها وحرمتها عندهم في الجاهلية، فيكون ظلم النفس فيها أقبح، ونظيره قوله تعالى: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) (٣) وإن كان ذلك منهيًا عنه في غير الحج أيضاً أو لأن المراد بالظلم النسب وهو كان مخصوصاً بها، أو قتال الكفار فيها ابتداء، أو ترك قتالهم إذا ابتدوا، وكل ذلك مخصوصاً بها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: «فيهن» والشهر مذكر فقياسه فيها؟ قلنا: الضمير بالهاء والنون لا يختص بال مؤنث، ولو اختص فالمراد

(١) وفي نسخة (ب) ذوات.

(٢) سورة التوبة ٣٦.

(٣) سورة البقرة ١٩٧.

بقوله تعالى: «فيهن» ساعات الأشهر وهي مؤنثة.
 فإن قيل: كيف قال تعالى: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» والانسان لا
 يظلم نفسه بل يظلم غيره؟
 قلنا: لا نسلم أنه لا يظلم نفسه، قال الله تعالى: (ومن يعمل سوءاً
 أو يظلم نفسه) (١) وقال تعالى: (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم
 نفسه) (٢) الثاني: أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضاً كما قال
 تعالى: (وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم) (٣)
 وقال: (فتوبوا إلى بارئكم فافتلوا أنفسكم) (٤) وقال: (ولا
 تلمزوا أنفسكم) (٥)، الثالث: أن معناه فلا تنتقصوا حظ أنفسكم من
 الآخرة بالمعصية، فإن من عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها،
 وتوجيه العقاب والذم إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (ومن يتعد
 حدود الله فقد ظلم نفسه) (٦) الرابع: أن كل ظالم لغيره فهو
 ظالم لنفسه في الحقيقة، لأن ضرر ظلمه في حق المظلوم
 منقطع (٧) عن قريب، لأنه لا يتعدى الدنيا، وضرر ظلمه في حق
 نفسه يراه في الآخرة، حيث لا ينقطع، أو يكون أشد وأدوم.
 فإن قيل: قوله تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر) (٨) يدل

(١) سورة النساء. ١١٠.

(٢) سورة الطلاق ١.

(٣) سورة البقرة ٨٤.

(٤) سورة البقرة ٥٤.

(٥) سورة الحجرات ١١.

(٦) سورة الطلاق ١.

(٧) وفي نسخة (ب) ينقطع.

(٨) سورة التوبة ٣٧.

على قبول الكفر للزيادة (١) والنقصان، فكذلك الإيمان الذي هو ضده، فيكون حجة للشافعي رحمة الله عليه في قوله: الإيمان يقبل الزيادة والنقصان؟

قلنا: معناه زيادة معصية في الكفر.

فإن قيل: قوله تعالى: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) (٢) إن كان نهياً فأين الجزم؟ وإن كان نفيًا فقد وقع المنفى، لأن كثيراً من المؤمنين المخلصين استأذنوه في التخلف عن الجهاد لعذر، ويعضده قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) (٣)، قيل: إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا معه عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوه؟

قلنا: هو نهى بصيغة النفي كقوله تعالى: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) (٤) الثاني: قال ابن عباس رضى الله عنهما هي منسوخة بقوله تعالى: (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) (٥) الثالث: أن المراد بقوله تعالى: «يستأذنك... الآية»، الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر وكذا المراد بالآية التي بعدها، ويقول: «لم يذهبوا حتى يستأذنوه» إباحة الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ، لأمكان العمل بالآيتين، لأن محل الحكم مختلف، وهو

(١) وفي نسخة (ب) بالزيادة.

(٢) سورة التوبة ٤٤.

(٣) سورة النور ٦٢.

(٤) سورة البقرة ١٩٧.

(٥) سورة النور ٦٢.

وجود العذر وعدمه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقيل اعدوا مع القاعدین) (١) أخبر أنهم أمروا بالتعود، وذمهم على التخلّف عن الخروج للجهاد والاستئذان فى التعود؟

قلنا: ليس فى الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الأمر لهم، فقيل: الأمر لهم بذلك هو الشيطان بالموسمة والتزين، والثانى: أن بعضهم أمر بعضاً، الثالث: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك غضباً عليهم، الرابع: أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم، كقوله تعالى: (أعملوا ما شئتم) (٢) ويعضده قوله تعالى: «مع القاعدین» أى مع النساء والصبيان والذى، الذين شأنهم التعود والجشوم فى البيوت.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد علم (أن) (٣) المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم إلا خبالاً أى فساداً، ولأوضعوا خلالهم (٤) أى ولأشرعوا السعى بينهم بالنمائم، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين؟

قلنا: أمرهم بالخروج لإلزامهم بالحجة، ولإظهار نفاقهم.

فإن قيل: قوله تعالى: (قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين) (٥) يدل على أن الفسق يمنع قبول

(١) سورة التوبة ٤٦.

(٢) سورة فصلت ٤٠.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) وفى نسخة (ب) خلالكم.

(٥) سورة التوبة ٥٢.

الطاعات؟

قلنا: المراد بالفسق هنا الفسق بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق، وذلك محبط للطاعات، ومانع من قبولها، ويعضده قوله تعالى: (وما منهم أن يقبل منهم نفقاتهم... الآية) (١).

فإن قيل: لما عدل في آية الصدقات عن اللام إلى (في) في المصارف الأربعة الأخيرة؟

قلنا: للتنبيه على أنهم أقوى في استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره، لأن (في) للظرفية والوعاء، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع (٢) فيهم الصدقات، ويجعلوا نصيباً لها، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الدين من التخليص والانقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج الفقير بين الفقر (٣) ومثل هذه العبادة الشاقة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، ولا يرد المؤلفة قلوبهم لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفوا النية في الإسلام، فكيف يعارض بهم من ذكرنا، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب اعطائهم سينسخ، فلذلك جعلهم في القسم المقدم الذي هو أضعف (٤).

فإن قيل: لم كرر (في) في الأربعة الأخيرة، ولم تكرر (ه) اللام في الأربعة الأولى؟

(١) سورة التوبة ٥٤.

(٢) وفي نسخة (ب) يوضع.

(٣) وفي نسخة (ب) الفقير.

(٤) وفي نسخة (ب) أضعفهم.

(٥) وفي نسخة (ب) يكرر.

قلنا: للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الآخرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة وتأکید كقولك: مررت بزيد وعمرو.

فإن قيل: لم عدى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء، وإلى المؤمنين باللام في قوله تعالى: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) (١)؟ قلنا: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به، فعده بالباء كما يعدى ضده بها، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم صادقين عنده، فعده بما يعدى به التسليم والانقياد، وبعضه قوله تعالى: (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) (٢) وقوله تعالى: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) (٣) وقوله تعالى: (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) (٤) وقوله تعالى: (أؤمن لك واتبعك الأرذلون) (٥) وأما قوله تعالى: (قال أؤمنتم له قبل أن آذن لكم) (٦) مشترك (٧) الدلالة، لأنه قال في موضع آخر: (قال فرعون أؤمنتم به) (٨) وقال ابن قتيبة في الجواب عن أصل السؤال إن الباء واللام زائدتان، والمراد بالإيمان التصديق فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنين.

(١) سورة التوبة ٦١.

(٢) سورة يوسف ١٧.

(٣) سورة البقرة ٧٥.

(٤) سورة يونس ٨٣.

(٥) سورة الشعراء ١١١.

(٦) سورة طه ٧١، سورة الشعراء ٤٩.

(٧) وفي نسخة (ب) فمشترك.

(٨) سورة الأعراف ١٢٢.

فإن قيل: قوله تعالى: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها) (١) يدل على تخليد أصحاب الكبائر في النار، لأن المراد بالمحاددة المخالفة والمعادة؟

قلنا: قوله تعالى: «ألم يعلموا» خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم، فيكون المراد بالمحاددة بالكفر والنفاق، وذلك موجب للتخليد في النار.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (يحذر المنافقين أن تنزل عليهم سورة) (٢) وسور القرآن إنما تنزل على النبي عليه الصلاة والسلام لا على المنافقين؟

قلنا: معناه أن تنزل فيهم، فعلى هنا بمعنى في، كما في قوله تعالى: (على ملك سليمان) (٣) وقولهم: كان ذلك على عهد فلان، الثاني: أن الإنزال هنا بمعنى القراءة فمعناه أن تقرأ عليهم.

فإن قيل: الحذر في هذه الآية واقع على أنزال السورة فكيف قال تعالى: (قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون) (٤) ومناسب أول الآية منزل ما تحذرون؟

قلنا: قوله: «مخرج ما تحذرون» أي مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة، وهو مناسب لقوله تعالى: (قنبهم بما في قلوبهم) (٥)، الثاني: أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من أنزال السورة.

(١) سورة التوبة ٦٢.

(٢) سورة التوبة ٦٤.

(٣) سورة البقرة ١٠٢.

(٤) سورة التوبة ٦٤.

(٥) سورة التوبة ٦٤.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فنبئهم بما فى قلوبهم) (١) وانبأهم بما فى قلوبهم تحصيل الحاصل، لأنهم عالمون به فما فائدته؟ قلنا: معناه تنبيههم بأسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة، وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم، ولا يطلع عليه سواهم، وهذا ليس تحصيل الحاصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) (٢) وقال بعده: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) (٣) وكلمة (من) أدل على المشابهة والمجانسة من حيث إنها تقتضى الجزئية والبعضية، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى، لأنهم أشد تشابهاً وتجانساً فى الصفات والأخلاق؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «بعضهم من بعض» أى بعضهم (٤) على دين بعض، أى على عاداتهم وخلقهم بإضمار لفظة الدين والخلق ونحوه، لأن (من) تأتى بمعنى (على)، ومنه قوله تعالى: (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) (٥) وقوله تعالى: (للمذين يؤثون من فسائهم) (٦) أى يحلفون على وطء نسائهم، وهذا المعنى هو المراد فى قوله عليه الصلاة والسلام: فمن رغب عن سنتى فليس منى، وقوله عليه الصلاة والسلام: من غشنا فليس منا، والمراد بقوله

(١) سورة التوبة ٦٤.

(٢) سورة التوبة ٦٧.

(٣) سورة التوبة ٧١.

(٤) وفى نسخة (ب) دينهم.

(٥) سورة الانبياء ٧٧.

(٦) سورة البقرة ٢٢٦.

تعالى: «بعضهم أولياء بعض» أى أنصارهم وأعوانهم فى الدين، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين، إلا أنه يخص المنافقين بتلك العبارة تكذيباً لهم فى حلفهم السابق فى قوله تعالى: (ويحلفون بالله أنهم لمنكم) (١) وتقريراً لقوله تعالى: (وما هم منكم) (٢).

فإن قيل: أى فائدة فى قوله تعالى: (فاستمعوا بخلافهم) (٣) مع أن قوله تعالى: (فاستمعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم) (٤) بوضع الظاهر موضع المضمر مفعن عنه، كما قال تعالى: (وخضتم كالذى خاضوا) (٥) من غير تكرار؟

قلنا: فائدته تصدير التشبيه بذم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا، واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة، وطلب الفلاح فى الآخرة، وتهجين حالهم، وتقبيح صفتهم ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ فى ذم المشبهين بأولئك الأولين، كما تريد أن تشبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق، ويظلم ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله، وأما قوله تعالى: (وخضتم كالذى خاضوا) (٦) فإنه لما كان معطوفاً على ما قبله وهو التشبيه (٧) المصدر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة

(١) سورة التوبة ٥٦.

(٢) سورة التوبة ٥٦.

(٣) سورة التوبة ٦٩.

(٤) سورة التوبة ٦٩.

(٥) سورة التوبة ٦٩.

(٦) سورة التوبة ٦٩.

(٧) وفى نسخة (ب) تشبيه.

تلك المقدمة المذكورة للتقييح والتهجين (١).

فإن قيل: قوله تعالى: (أولئك حببوا أعمالهم في الدنيا والآخرة) (٢) حببوا العمل إن كان عبارة عن بطلان ثوابه، فذلك إنما يكون في الآخرة، وإن كان عبارة عن بطلان منفعة فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلية المنفعة، لأنهم ينتفعون بها في حقن (٣) دمانهم وأموالهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم؟

قلنا: المراد بالأعمال إن كان نوعي أعمالهم الدينية والدنيوية، فالجواب في الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم (الذي) (٤) كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى، ودفع آياته وبيناته، (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (٥) فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه من إبطال دين الله تعالى، ومستر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والحبوط في الآخرة راجع إلى أعمالهم (٦) الدينية وهي عباداتهم وطاعاتهم، لأنهم فعلوها نفاقاً ورياء، فبطل ثوابها في الآخرة، وإن المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية، فحبوطها في الدنيا هو عدم قبولها، لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا ثم يشيب عليها في الآخرة، فالمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها، وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها كالعبادة

(١) وفي نسخة (ب) التهجين.

(٢) سورة التوبة ٦٩.

(٣) وفي نسخة (ب) حق.

(٤) وفي نسخة (أ) الذين.

(٥) سورة التوبة ٣٢.

(٦) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) أعمال.

والقربة والحسنة ونحو ذلك، وهنا ضد قوله تعالى: (وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (١) فدل على أن للطاعات أجراً معجلاً في الدنيا غير الأجر المؤخر إلى الآخرة، وهو القبول وحسن الثناء، والذكر والتقاء المحبة في قلوب الخلق كما قال الله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) (٢) قيل: معناه يحبهم ويحببهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يفيضهم ويفيضهم إلى عباده من غير سبب بينهم يوجب البغض.

فإن قيل: قوله تعالى: (ما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) (٣) لم خص الأرض بالنفى، مع أن المنافقين ليس لهم ولي ولا نصير من عذاب الله تعالى في الأرض، ولا في السماء في الدنيا، ولا في الآخرة؟

قلنا: لما كان المنافقون لا يعتقدون الوحدانية، ولا يصدقون بالآخرة، كان اعتقادهم وجود الولي والنصير مقصوراً على الدنيا، فعبر عن الدنيا بالأرض، وخصها بالذكر لذلك، الثاني: أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة، فكأنه قال: وما لهم في الدنيا والآخرة من ولي ولا نصير.

فإن قيل: لم خص السبعين بالذكر في قوله تعالى: (إن تسنغفر لهم

(١) سورة المنكبوت ٢٧

(٢) سورة مريم ٩٦

(٣) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) يحبونه.

(٤) سورة التوبة ٧٤

سبعين مرة فقلن يغفر الله لهن (١) مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة بدليل قوله تعالى: (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) (٢) ولأنهم مشركون، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به؟

قلنا: جرت عادة العرب بضرب المثل في الأحاد بالسبعة، وفي العشرات بالسبعين، وفي المئات بسبعمائة استعظاماً لها واستكثاراً، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر، ومنه قوله تعالى: (والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر) (٣) وقوله تعالى: (كمثل حبة أُنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) (٤) فكأنه قال إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها قلن يغفر الله لهن، ويعضده ما ذكره بعد ذلك من بيان الصارف عن المغفرة في قوله: (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) (٥).

فإن قيل: لو كان المراد ما ذكرتم لما خفى ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام وهو أفصح العرب، وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيالاته، حتى قال لما أنزلت هذه الآية: إن الله تعالى قد رخص لي، فسأزيد على السبعين، وفي رواية أخرى: فاستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله يغفر لهم؟

قلنا: لم يخف عليه ذلك، وإنما أراد بما قال إظهار غاية رحمته

(١) سورة التوبة ٨٠.

(٢) سورة المنافقون ٦.

(٣) سورة لقمان ٢٧.

(٤) سورة البقرة ٢٦١.

(٥) سورة التوبة ٨٠.

ورأفته بمن بعث إليهم، كما وصفه الله تعالى بقوله: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم... الآية) (١) وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة والرأفة لطيف لأمته، وحث لهم على التراحم، وشفقة بعضهم على بعض وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (ومن عصاني فإنك غفور رحيم) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) (٣) والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين؟

قلنا: معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين، لأنهم قد مندوا باحسنهم طريق العقاب والذم، فليس عليهم سبيل فيهما، الثاني: أن المحسن من الناس وإن تنأى في إحسانه لا يخلوا عن إساءة بينه وبين الله تعالى أوبينه وبين الناس، لكنه إذا (٤) أحسن باجتناب الكبائر غفر الله له صفائر سيئاته ورحمه كما قال تعالى: (إن فجتنبوا كبائر ما تنهون عنه... الآية) (٥).

فإن قيل: قوله تعالى: (وسيرى الله عملكم ورسوله) (٦) أى سيعلم لأن السين للاستقبال، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم، والله تعالى

(١) سورة التوبة ١٢٨.

(٢) سورة إبراهيم ٢٦.

(٣) سورة التوبة ٩١.

(٤) وفي نسخة (ب) إن.

(٥) سورة النساء ٢١.

(٦) سورة التوبة ٩٤.

عالم بعملهم حالا ومآلاً؟

قلنا: معناه سيعلمه واقعاً موجوداً كما علمه غيباً، لأن الله تعالى يعلم كل شيء على ما هو عليه، فيعلم المنتظر منتظراً، ويعلم الواقع واقعاً، وأما في حق الرسول صلى الله عليه وسلم فهو على ظاهره.

فإن قيل: إن كان الله تعالى قد وصف العرب بالجهل في القرآن بقوله تعالى: (وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) (١) فكيف يصح الاحتجاج بالفاظهم وأشعارهم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: هذا وصف من الله تعالى لهم بالجهل في أحكام القرآن لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام، بل نحتج بلغتهم في بيان معاني الألفاظ، لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم.

فتن قيل: كيف قال تعالى هنا في صفة المنافقين: (مردوا على النفاق) (٢) (لا تعلمهم نحن نعلمهم) (٣) وقال في موضع آخر: (ولتعرفنهم في لحن القول) (٤)؟

قلنا: هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض، لأنه نفى علمه بهم في زمان ثم أثبتته بعد ذلك في زمان آخر.

فإن قيل: قوله تعالى: (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) (٥) قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فأين المخلوط به؟

قلنا: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به، لأن معناه خلطوا كل

(١) سورة التوبة ٩٧.

(٢) سورة التوبة ١٠١.

(٣) سورة محمد ٢٠.

(٤) سورة التوبة ١٠٢.

واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه من المبالغة ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء، كما في قولهم: بعث الشاتان بدرهمان يعنون كل شاة بدرهم. فإن قيل: كيف قال تعالى: (والناهون عن المنكر) (١) بالواو وما قبلها من الصفات بغير واو؟

قلنا: لأنها صفة ثامنة، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيداناً بتمام العدد، فإن السبعة عندهم هي العقد التام كالعشرة عندنا، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه (٢) ونظيره قوله تعالى: (وفامنهم كلبهم) (٣) بعد ما ذكر (٤) العدد مرتين بغير واو، وقوله تعالى في صفة الجنة: (وفتحت أبوابها) (٥) بالواو، ولأنها ثمانية، وقال في صفة النار نعوذ بالله منها: (فتحت أبوابها) (٦) بغير واو لأنها سبعة، وليس قوله تعالى: (ثيبات وأبكارا) (٧) من هنا القبيل، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين، وقيل: إنما دخلت الواو على

(١) سورة التوبة ١١٢.

(٢) وفي نسخة (ب) بين المعطوفين عليه.

(٣) سورة الكهف ٢٢.

(٤) وفي نسخة (ب) ذكرُوا.

(٥) سورة الزمر ٧٢.

(٦) سورة الزمر ٧١.

(٧) سورة التحريم ٥.

الناهين عن المنكر إعلاماً بأن الأمر بالمعروف ناه عن المنكر في حال أمره بالمعروف، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقى الصفات المذكورة، فإنها ليست متلازمة، ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: (الراكون الساجدون) (١) لأنهما ليستا صفتين متلازمتين، لأن السجود يلزم الركوع، أما الركوع لا يلزم السجود بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر، والزمخشري بعمله لم يتكلم على هذه الواو. فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليجزيه الله أحسن ما كانوا يعملون) (٢) أى بأحسن الذى كانوا يعملون، بإضمار حرف الجر مع أنهم يجزون بحسنه أيضاً لقوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) (٣)؟

قلنا: معناه بحسن الذى كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها لا بسيئة وهو المعاصى، فالأحسن هنا بمعنى الحسن، وسيأتى فى سورة الروم فى قوله تعالى: (وهو أهون عليه) (٤) ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى، الثانى: أن معناه ليجزيه الله أحسن من الذى كانوا يعملون. فإن قيل: قوله تعالى: (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) (٥) يدل على أن الإيمان يقبل بالزيادة؟

قلنا: قال مجاهد رحمه الله: معناه فزادتهم علماً، لأن العلم من ثمرات الإيمان، فجعل مجازاً عنه، والله أعلم.

(١) سورة التوبة ١١٢.

(٢) سورة التوبة ١٢١.

(٣) سورة الزلزلة ٧.

(٤) سورة الروم ٢٧.

(٥) سورة التوبة ١٢٤.

سورة يونس عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يفصل الآيات لقوم يعلمون) (١) والله تعالى يفصل (٢) الآيات للعلماء والجهال أيضاً؟ قلنا: لما كان يقع تفصيل الآيات مخصوصاً بالعلماء أو لتتفاهم بالتفصيل أكثر أضاف التفصيل إليهم وخصهم به. فإن قيل: كيف قال تعالى: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) (٣) مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها، لأن الجنة دار الخلود؟

قلنا: معناه وآخر دعائهم في كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتعظيم والتلذذ بالتسبيح والذكر. فإن قيل: قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته في قولهم: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) (٤) ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه بقوله: لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية، فلا تقيموا على حدها، فكيف قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو شاء الله ما قلوته عليكم) (٥)؟

قلنا: النبي عليه الصلاة والسلام قال هذه الحجة بأمر الله، لأن الله تعالى قال له: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة وما أورثتموه كذلك.

(١) سورة يونس ٥.

(٢) وفي نسخة (ب) فصل.

(٣) سورة يونس ١٠.

(٥) سورة يونس ١٦.

(٤) سورة الأنعام ١٤٨.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) (١) والبغى لا يكون إلا بغير الحق، لأن البغى هو التعدى والفساد، من قولهم: بغى الجرح إذا فسد، كذا قاله الأصمعي فما فائدة التقييد؟

قلنا: قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم، وقطع أشجارهم، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ببني قريظة.

فإن قيل: كيف شبه تعالى الحياة الدنيا بماء السماء، دون ماء الأرض فقال: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) (٢)؟ قلنا: لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه، ولا حيلة، كما أن الحياة كذلك لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها، الثانى: أن ماء السماء يستوى فيه جميع الخلائق الوضيع والشریف والغنى والفقير، وغيرها أيضاً كالمدد والحجر والشوك والثمر، كما أن الحياة كذلك، فكان تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) (٣) وقال فى موضع آخر: (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) (٤)؟

قلنا: يوم القيامة مواقف ومواطن، ففى موقف لا يكلمهم، وفى

(١) سورة يونس ٢٢.

(٢) سورة يونس ٢٤.

(٣) سورة يونس ٢٨.

(٤) سورة البقرة ١٧٤.

موقف يكلمهم، ونظيره قوله تعالى: (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنفس ولا جان) (١) وقوله: (فأوردك لنسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون) (٢)، الثاني: أن المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام بل كلام توبيخ وتقريع.

فإن قيل: قوله تعالى: (فل من يوزنكم من السماء والأرض... الآية) (٣) يدل على أنهم معترفون بأن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدير لجميع المخلوقات، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام؟

قلنا: كانوا في عبادة الأصنام يتأولون عبادة الله، فطائفة كانت تقول نحن لا نتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة لعظمته وجلاله ونقصنا وحقارتنا، فجعلوا الأصنام وسانط، كما قالوا: (ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى) (٤) وطائفة كانت تقول نتخذ أصناماً على هيئة الملائكة ونعبدها، لتشفع لنا الملائكة عند الله، وطائفة كانت تقول الأصنام قبلتنا في عبادة الله، كما أن الكعبة قبلتنا في عبادته، وطائفة وهى الأكثر كانت تقول على كل صنم شيطان موكل به من عند الله تعالى، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه (٥) على وفق مراده بأمر الله، ومن قصر فى عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله، فكل الطوائف من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه، ولكن بطرق مختلفة.

(١) سورة الرحمن ٢٩

(٢) سورة الحجر ٩٢

(٤) سورة الزمر ٢

(٣) سورة يونس ٢١

(٥) وفى نسخة (ب) حاجاته.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) (١) وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلاً، لا من الله ولا من غيره؟

قلنا: لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها، وهو القدرة على ابتداء الخلق، والإعادة أهون بالنسبة إلينا لزمهم الاعتراف بها، فصار كأنهم مسلمون وجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) (٢) رتب كونه شهيداً على أفعالهم على رجوعهم إليه في القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة؟

قلنا: ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء، كأنه قال ثم الله معاقب على ما يفعلون أو مجاز على ما يفعلون كما قال: (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) (٣) ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (بياتاً أو نهاداً) (٤) ولم يقل ليلاً أو نهاراً وهو أظهر في المطابقة، وأكثر استعمالاً مع النهار في القرآن العزيز وغيره؟

قلنا: المعهود المألوف من كلام العرب عند ذكر البطش والهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أو لا، فلذلك لم يقل ليلاً.

(١) سورة يونس ٣٤.

(٢) سورة يونس ٤٦.

(٣) سورة البقرة ١٩٧.

(٤) سورة يونس ٥٠.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ماذا يستعجل منه المجرمون) (١) ولم

يقول ماذا يستعجلون منه، وأول الخطاب للمواجهة؟

قلنا: أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال، وهو الاجرام، لأن حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويفزع من مجيئه، وإن إبطاء فضلا عن أن يستعجله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (هل بفضل الله وبرحمته فبذلك هليفرحوا) (٢) ولم يقل فبذنيك والمشار إليه اثنان الفضل والرحمة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة في قوله تعالى: (عوان بين ذلك) (٣).

فإن قيل: قوله تعالى: (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) (٤) تهديد، لأن فيه محذوفاً تقديره: وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم (٥)، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده: (إن الله لذو فضل على الناس) (٦)؟

قلنا: هو مناسب لأن معناه إن الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل والوحي والهداية وتأخير العذاب وفتح باب التوبة، فكيف يفترون عليه الكذب مع (٧) توافر نعمه عليهم.

(١) سورة يونس ٥٠.

(٢) سورة يونس ٥٨.

(٣) سورة البقرة ٦٨.

(٤) سورة يونس ٦٠.

(٥) وفي نسخة (ب) بذكرهم.

(٦) سورة يونس ٦٠.

(٧) وفي نسخة (ب) بعد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما تكون هي شأن وما قتلوا منه من قرآن) (١) فأفرد ثم قال: (ولا تعملون من عمل) (٢) فجمع

والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم في الفعلين الأولين، وقال غيره: المراد بالفعل الثالث أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام وحده، وإنما جمع تفخيماً له وتعظيماً كما في قوله تعالى: (أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم) (٣) على قول ابن عباس، وكما في قوله تعالى: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) (٤) والمراد به النبي عليه الصلاة والسلام كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، واختاره ابن قتيبة والزجاج.

فإن قيل: كيف قدم تعالى الأرض على السماء في قوله تعالى: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) (٥) وقدم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ: (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) (٦) (٧)؟

(١) سورة يونس ٦١.

(٢) سورة يونس ٦١.

(٣) سورة البقرة ٧٥.

(٤) سورة المؤمنون ٥١.

(٥) سورة يونس ٦١.

(٦) سورة سبأ ٢.

(٧) لقد حدث في النسختين (أ) و(ب) خطأ في التقديم والتأخير يعرف بأدنى تأمل فيه.

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقاً لأنها أشرف، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شئون أهل الأرض، وأقوالهم وأعمالهم، ثم أردفه بقوله تعالى: (وما يعزب عن ربك) ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء، الثاني: أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها فلا يعطى رتبة كالتثنية.

فإن قيل: كيف قال تعالى - هنا - : (إن العزة لله جميعاً) (١) وقال في موضع آخر: (ولله العزة ولرسوله والمؤمنين) (٢)؟

قلنا: أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة، وفي حق الرسول عليه الصلاة والسلام علو كلمته وإظهار دينه، وفي حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم، وقوله تعالى: (إن العزة لله جميعاً) (٢) أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عز الألوية والخلق والإمامة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلا تنافى.

فإن قيل: إذا كانت السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما كل ذلك ملك لله تعالى ملكاً وخلقاً، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى: (ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) (٤)؟ قلنا: إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيداً لله وهو ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا للشركة معه، فما وراءهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب

(١) سورة يونس ٦٥.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) سورة يونس ٦٥.

(٤) سورة يونس ٦٦.

ونحوهما أحق أن لا تكون له نداً ولا شريكاً.

فإن قيل: كيف قال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا) (١) على طريق الاستفهام، وهم إنما قالوا ذلك عن طريق الاخبار والتحقيق المؤكد بأن واللام على طريق الاستفهام قال الله تعالى: (فلما جاءهم الحق من عندنا هَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) (٢)؟

قلنا: فيه اضممار تقديره: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ (إن هذا لسحر مبين) (٣) ثم قال: «أَسْحَرُ هَذَا» أنكر ما قالوه فالاستفهام من قول موسى عليه الصلاة والسلام، لا مفعول لقولهم.

فإن قيل: كيف نوع الخطاب في قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعِلُوا بُيُوتَكُمْ مُبَلَّغًا وَاقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (٤) فثنى أولاً ثم جمع ثم أفرد؟

قلنا: خوطب أولاً موسى وهارون أن يتبوأا لقومهما بيوتاً ويختاراهما للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه الصلاة والسلام بالبشارة تعظيماً لها وتعظيماً له عليه السلام.

(١) سورة يونس ٧٧.

(٢) سورة يونس ٧٦.

(٣) سورة يونس ٧٧.

(٤) سورة يونس ٨٧.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (قد أجيبنا دعوتكما) (١) أضافها إليهما، والدعوة إنما صدرت من موسى عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى: (وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه... الآية) (٢)؟ قلنا: نقل أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يدعو، وهارون كان يؤمن على دعائه، والتأمين دعاء في المعنى، فلهذا أضاف الدعوة إليهما، الثاني: أنه يجوز أن يكون هارون قد دعا أيضاً مع موسى عليه الصلاة والسلام إلا أن الله تعالى خص موسى عليه الصلاة والسلام بالذكر، لأنه كان أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصاً فيها.

فإن قيل: لو كان كذلك لقال تعالى دعوتكما بالثنائية؟ قلنا: لو كانت الدعوة مصدراً أكتفى بذكرها في موضع الأفراد والثنائية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر، ونظيره قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك) (٤) وإن إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود، وشك النبی عليه الصلاة والسلام في القرآن منتف قطعاً؟ قلنا: الخطاب ليس للنبي عليه الصلاة والسلام بل لمن كان شاكاً في القرآن، وفي نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فكأنه قال: فإن كنت

(١) سورة يونس ٨٩.

(٢) سورة يونس ٨٨.

(٣) سورة البقرة ٧.

(٤) سورة يونس ٩٤.

أيها الانسان فى شك...

فإن قيل: قوله تعالى: (مما أنزلنا إليك) (١) يدل على أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام لا لغيره؟

قلنا: لا يدل، قال تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) (٢) وقال: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) (٣)، الثانى: أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد غيره كما فى قوله تعالى: (يا أيها النبي أتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) (٤) ويعضد بقوله تعالى: (إن الله كان بما تعملون خبيراً) (٥) ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده: (قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دىنى) (٦)، الثالث: أن يكون (إن) بمعنى (ما) تقديره: فما كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل، المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك، لأنك فى شك منه، بل لتزداد بصيرة و يقيناً وطمأنينة، الرابع: أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام مع انتفاء الشك منه قطعاً، والمراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) (١) وهو عالم بانتفاء هذا القول منه،

(١) سورة يونس ٩٤.

(٢) سورة النساء ١٧٤.

(٣) سورة التوبة ٦٤.

(٤) سورة الأحزاب ١.

(٥) سورة الأحزاب ٢، سورة النساء ٩٤.

(٦) سورة يونس ١٠٤.

(٧) سورة المائدة ١١٦.

لإلزام الحجة على النصارى.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) (١) ما فائدة قوله: «جميعاً» بعد قوله: «كلهم» وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا: كل يفيد الشمول والإحاطة، ولا يدل على (وجود إيمان منهم بصفة الاجتماع، وجميعاً يدل على) (٢) وجوده منهم فى حالة واحدة كما تقول: جاء القوم كلهم جميعاً، أى مجتمعين، ونظيره قوله تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) (٣).

فإن قيل: قوله تعالى: (قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض) (٤) كيف يصح هذا، مع إنا لا نعلم جميع ما فيهما ولا نراه؟

قلنا: هو عام أريد به ما ندركه بالبصر أو البصيرة مما فيهما كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان ونحو ذلك، مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته فنستدل به على ما وراءه.

فإن قيل: قوله تعالى: (وإن يمسسك الله بضر... الآية) (٥) ما الحكمة فى ذكر المس فى أحدهما والإرادة فى الآخر؟

قلنا: إنما عدل عن لفظ المس المذكور فى سورة الأنعام إلى لفظ

(١) سورة يونس ٩٩.

(٢) هذا كما فى نسخة (أ) وهو ساقط من نسخة (ب).

(٣) سورة الحجر ٢٠.

(٤) سورة يونس ١٠١.

(٥) سورة يونس ١٠٧.

الإرادة لأن الجزاء هنا قوله تعالى: (فلا راد لفضله) (١) والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد، والمس إنما يكون فيما وقع، فلهذا قال: (وإن بمسك بخير فهو على كل شيء قدير) (٢) معناه فإن شاء أدام ذلك الخير، وإن شاء أزاله، فلا (طلب) (٣) دوامه وزيادته إلا منه.



(١) سورة يونس ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام ١٧.

(٣) في نسخة (ب).

سورة هود عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) (١) مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار؟

قلنا: المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة، كذا قاله مقاتل، وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة، الثاني: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، الثالث: قال الفراء (ثم) هنا بمعنى الواو، فلا تفيد ترتيباً فاندفع السؤال.

فإن قيل: من لم يستغفر ولم يتب فإن الله تعالى يمتعه متاعاً حسناً إلى أجله أي يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس أو يعمره كما قال ابن قتيبة، فما فائدة قوله تعالى: (وَأَن تَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) (٢)؟

قلنا: قال غيرهما: المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة هو الحياة في الطاعة والقناعة، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقى.

فإن قيل: قوله تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) (٣) كيف لم يقل على الأرض مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة، فإنها ما يدب على وجه الأرض؟

قلنا: في هنا بمعنى على كما في قوله تعالى: (فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) (٤) وقوله تعالى: (أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ) (٥).

(١) سورة هود ٢.

(٢) سورة هود ٢.

(٣) سورة هود ٦.

(٤) سورة طه ٧١.

(٥) سورة الطور ٣٨.

الثانى: أن (فى) أعم وأشمل لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض، وكل دابة فى باطن الأرض بخلاف (على).

فإن قيل: كيف خص تعالى الدابة بذكر ضمان الرزق، والطير كذلك رزقه على الله تعالى، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه) (١)؟

قلنا: إنما خص الدابة بالذكر لأن الدواب أكثر من الطيور عدداً، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت، فيكون أحوج إلى الرزق فلذلك خصه بالذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إلا على الله رزقها) (٢) وعلى للوجوب، والله تعالى لا يجب عليه شيء، وإنما يرزقها (٣) تفضلاً وكرماً؟

قلنا: (على) هنا بمعنى من، كما فى قوله تعالى: (الذين إذا اكثالوا على الناس يستوفون) (٤)، الثانى: أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة فى حصوله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليبيلوكم أياكم أحسن عملاً) (٥) والخطاب عام للمؤمنين والكافرين، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهى عن المعصية، وأعمال الكافرين هى التى تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال الفريقين فتفاوتتهما إلى حسن وقبيح؟

(١) سورة الأنعام ٣٨.

(٢) سورة هود ٦.

(٣) وفى نسخة (ب) يرزقنا.

(٤) سورة المطففين ٢.

(٥) سورة هود ٧.

قلنا: قوله تعالى: «ليبلوكم» عام أريد به خاص، وهم المؤمنون تشریفاً لهم وتخصيصاً فصح قوله: «أحسن عملاً».

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وضائق به صدورك) (١) ولم يقل: وضيق؟

قلنا: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدراً، ونظيره قولك: زيد سائد، وجائد، إذا أردت أن السيادة والجود حادث فيه وعارض له، فإن أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين قلت: زيد سيد، وجواد كما قال الزمخشري.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فأتوا بعشر سور مثله مفتریات) (٢) أمرهم بالأتیان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله، لأن ما يأتون به مفترى، والقرآن ليس بمفترى؟

قلنا: أراد به مثله في البلاغة والفصاحة، وإن كان مفترى، وقيل: معناه مفتریات كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم فيتمثالان. فإن قيل: كيف قال تعالى: (قل فأتوا) (٣) فأفرد ثم جمع فقال: (فإنكم يستجيبون لكم فاعلموا) (٤)؟

قلنا: الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في الكل، ولكنه جمع في قوله: «لكم فاعلموا» تفخيماً له وتعظيماً، الثاني: أن الخطاب الثاني للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام

(١) سورة هود ١٢.

(٢) سورة هود ١٢.

(٣) سورة هود ١٢.

(٤) سورة هود ١٤.

وأصحابه كانوا يتحدثونهم بالقرآن، وقوله تعالى في موضع آخر: **(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ)** (١) يعضد الوجه الأول، الثالث: أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين، والضمير في «يستجيبوا» لمن استطعتم يعني فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المظاهرة على معارضته لعجزهم، فاعلموا أيها المشركون إنما أنزل بعلم الله، وهذا وجه لطيف.

فإن قيل: قوله تعالى: **(وَحَبِطْ مَا صَنَعُوا فِيهَا)** (٢) يدل على بطلان أعمالهم، فما فائدة قوله بعده: **(وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** (٣)؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: **(وَحَبِطْ مَا صَنَعُوا فِيهَا)** أي بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا، **(وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** من الرياء فيها.

فإن قيل: كيف قال نوح عليه الصلاة والسلام: **(وَمَا قَوْمٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ)** (٤) بالواو، وقال هود عليه الصلاة والسلام: **(يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ)** (٥) بغير واو؟

قلنا: لأن الضمير في قولهما عليهما الصلاة والسلام لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين، ولكن في قصة نوح عليه الصلاة والسلام وقع الفصل بين الضمير وما هو عائد عليه بكلام

(١) سورة القصص ٥٠.

(٢) سورة هود ١٦.

(٣) سورة هود ١٦.

(٤) سورة هود ٢٩.

(٥) سورة هود ٣١.

آخر، فجاء بواو الابتداء، وفي قصة هود عليه الصلاة والسلام لم يقع بينهما فصل، فلم يحتاج إلى واو الابتداء، هذا ما وقع لي فيه، والله تعالى أعلم.

فإن قيل: قوله تعالى: (لا عاصم اليوم من أمر الله) (١) لا يناسبه المستثنى في الظاهر، وهو قوله: (إلا من رحم) (٢) لأن المرحوم معصوم، فظاهره يقتضى لا معصوم إلا من رحم، أى لا معصوم من الفرق بالطوفان إلا من رحمه الله بالانجاء فى السفينة؟ قلنا: عاصم هنا بمعنى معصوم كقوله تعالى: (من ماء دافق) (٣) أى مدفوق، وقوله: (فى عيشة راضية) (٤) أى مرضية، وقول العرب: سر كاتم أى مكتوم، الثانى: أن معناه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم أى إلا الراحم، وهو الله تعالى، وليس معناه إلا المرحوم، فكأنه قال: لا عاصم إلا الله، الثالث: أن معناه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ونجاهم، وهو السفينة، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى: (وقال أركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) (٥)، وهذا لأن ابن نوح لما جعل الجبل عاصماً من الماء رد نوح عليه الصلاة والسلام عليه ذلك، ودله على العاصم وهو الله تعالى، أو المكان الذى أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة.

(١) سورة هود ٤٢.

(٢) سورة هود ٤٢.

(٣) سورة الطارق ٦.

(٤) سورة الحاقة ٢١، سورة القارعة ٧.

(٥) سورة هود ٤١.

فإن قيل: كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى: (وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أفلقي) (١) وهما لا يعقلان، والأمر والنهي إنما يكون لمن يعقل، ويفهم الخطاب؟ قلنا: الخطاب لهما في الصورة، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلة بتدبيرهما، الثاني: أن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب، وفي أمر الإيجاد لا يشترط العقل والفهم، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى، ومنه قوله تعالى: (إنما أمرنا لمشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (٢) وقوله تعالى: (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) (٣) كل ذلك أمر إيجاد.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا: (ونادى نوح ربه فقال رب) (٤) بالفاء، وقال في قصة زكريا: (إذ نادى ربه نداء خفياً قال رب) (٥) بغير فاء؟ قلنا: أراد بالنداء هنا أرادة النداء، فجاء بالفاء الدالة على السببية، فإن أرادة النداء سبب للنداء، فكأنه قال: وأراد نوح نداء ربه فقال: كيت وكيت، وأراد به في قصة زكريا حقيقة النداء، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضى السببية.

(١) سورة هود ٤٤.

(٢) سورة النحل ٤٠.

(٣) سورة فصلت ١١.

(٤) سورة هود ٤٥.

(٥) سورة مريم ٢ - ٤.

فإن قيل: هو كان رسولا ولم (١) يظهر معجزة، ولهذا قال له قومه: (يا هود ما جئتنا ببينة) (٢) فبأى شيء لزمتمهم رسالته؟ قلنا: إنما يحتاج إلى المعجزة من الرسل من يكون صاحب شريعة لتنقاد أمته إلى شريعته، فإن في كل شريعة أحكام غير معقولة، فيحتاج الرسول الآتى بها إلى معجزة تشهد بصدقه، فأما الرسول الذى لا تكون له شريعة، ولا يأمر إلا بالعقليات فلا يحتاج إلى معجزة، لأن الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل، وهو كان كذلك، الثانى: أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر فإنها كانت مسخرة له.

فإن قيل: على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه (إلى) (٣) الجنون بقولهم: (يا هود ما جئتنا ببينة... الآية) (٤)؟

قلنا: إنما صدر ذلك القول من قاصرى العقول والمعاندين والمكابرين (٥) كما قيل ذلك لكل رسول بعد اتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات.

فإن قيل: هلا قيل (٦) أنى أشهد الله وأشهكم لتناسب الجملتان؟

(١) وفى نسخة (ب) لا يظهر.

(٢) سورة هود ٥٢.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) سورة هود ٥٢.

(٥) وفى نسخة (أ) الكاذبين.

(٦) وفى نسخة (ب) قال.

قلنا: لأن أشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك اشهاد صحيح مفيد (١) تأكيد التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون، ودلالة على قلة المبالاة، لأنهم ليسوا أهلاً للشهادة، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون، كما يقول الرجل لصاحبه: إذ لا حجة أشهد أنى لأحبك، تهكماً واستهانة له.

فإن قيل: قوله تعالى: (فإن قولوا فقد أبلغتكم) (٢) جعل التولى شرطاً والابلاغ جزاء، والابلاغ كان سابقاً على التولى؟ قلنا: ليس الابلاغ جزاء للتولى، بل جزاؤه محذوف تقديره: فإن تولوا لم أعاتب على تفريط في الابلاغ أو تقصير فيه، ودل على الجزاء المحذوف قوله: «فقد أبلغتكم» الثاني: قال مقاتل تقديره: فإن تولوا فقل لهم قد أبلغتكم.

فإن قيل: ما فائدة تكرار التنجية في قوله تعالى: (ونجيناهم من عذاب غليظ) (٣)؟

قلنا: أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود، وهو سموم أرسلها (٤) الله تعالى عليهم، فقطعتهم عضواً عضواً، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقه (٥) قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه وأشد.

(١) وفي نسخة (ب) مفيد صحيح.

(٢) سورة هود ٥٧.

(٣) سورة هود ٥٨.

(٤) وفي نسخة (ب) أرسله.

(٥) وفي نسخة (ب) استخسه.

فإن قيل: «بعداً» معناه عند العرب الدعاء بالهلاك، كذا نقله
الزمخشري فما معنى الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم؟
قلنا: معناه الدلالة على أنهم مستأهلون (١) له وحقيقون به، ونقيضه
قول الشاعر:

إخوتى لا يبعدوا أبداً وبلى والله قد بعدوا
أراد بالدعاء لهم بنفى الإهلاك بهد هلاكهم، الإعلام بأنهم لم يكونوا
مستأهلون له ولا حقيقين به.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولا تنقصوا المكيال والميزان) (٢) نهى
عن النقص فيهما، والنهى عن النقص أمر بالإيفاء معنى، فما فائدة
قوله تعالى بعد ذلك: (وبا قوم أوفوا المكيال والميزان
بالقسط) (٣)؟

قلنا: صرح أولاً بنهيهم عن النقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة
فى تقبيحه وتغييرهم إياه، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذى هو
أحسن عقلا لزيادة الترغيب فيه والحث عليه.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) (٤) العثو
الفساد، فيصير المعنى ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة، وجواب
آخر معناه: ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بالكفر وأنتم مفسدون
بنقص المكيال والميزان.

(١) وفى نسخة (ب) مستأهلون.

(٢) سورة هود ٨٤.

(٣) سورة هود ٨٥.

(٤) سورة هود ٨٥.

فإن قيل: كيف قال: (بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) (١) شرط الإيمان فيه كون البقية خيراً لهم (وهي خير لهم) (٢) مطلقاً لأن المراد ببقية الله لهم ما يبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن، وذلك خير لهم وإن كانوا كفاراً لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف؟

قلنا: إنما شرط الإيمان في خيرية البقية، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب، ومع فقد الإيمان أخفى الانغماس صاحبها في عذاب الكفر الذي هو أشد العذاب، الثاني: أن المراد إن كنتم مصدقين إلى فيما أقول لكم وأنصح.

فإن قيل: كيف قال: (وما قوم لوط منكم ببعيد) (٣) ولم يقل ببعيدين، والقوم اسم لجماعة الرجال، وما جاء في القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة، قال الله تعالى: (أن أنذر قومك من قبل أن يأتبهم) (٤) وقال: (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) (٥)؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: وما أهلاك قوم لوط، أو وما مكان قوم لوط، وما كان قوم لوط كان قريباً منهم، وأهلكهم أيضاً كان قريباً من زمانهم، الثاني: أن فعلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع، قال

(١) سورة هود ٨٦.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة هود ٨٩.

(٤) سورة نوح ١.

(٥) سورة الحجرات ١١.

الجوهري: يقال ما أنتم منا ببعيد، وقال الله تعالى: (والملائكة بعد ذلك ظهير) (١) وقال: (عن اليمين وعن الشمال شعيد) (٢).

فإن قيل: قولهم: (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) (٣) كلام واقع فيه وفي رهطه، وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: (أرهطى أعز عليكم من الله) (٤)؟

قلنا: تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان (٥) رهطه أعز عليهم من الله، ألا ترى إلى قوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٦) وقوله: (إن الذين يبایعونك إنما يبایعون الله) (٧).

فإن قيل: قد ذكر عملهم على مكانتهم، وعمله على (٨) مكانته، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه، ومن هو صادق، حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم، ومن هو صادق إليه؟

قلنا: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً، قال: ومن هو كاذب، يعنى فى زعمكم ودعواكم تجهيلا لهم.

(١) سورة التحريم ٤.

(٢) سورة ق ١٧.

(٣) سورة هود ٩١.

(٤) سورة هود ٩٢.

(٥) وفى نسخة (ب) لأن رهطه.

(٦) سورة النساء ٨٠.

(٧) سورة الفتح ١٠.

(٨) وفى نسخة (ب) من مكانته.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إذا أخذ القرى وهي ظالمة) (١) والقرى لا تكون ظالمة، لأن الظلم من صفات من يعقل أو من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا: هو من الاسناد المجازي، والمراد به أهلها، كما قال تعالى في موضع آخر: (أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) (٢) لكن لما أمن اللبس أسند الظلم إلى القرية لفظاً كما في قوله تعالى: (وأسأل القرية) (٣).

فإن قيل: كيف توفيق بين قوله تعالى: (يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه) (٤) وقوله: (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) (٥) وقوله: (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) (٦) فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفي الأذن، وتناقض الآيتين جميعاً بنفي النطق؟

قلنا: أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر، لأن معناه تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفي الإذن إن قلنا إن الاستثناء من النفي ليس باثبات لأن الآية الأولى لا تقتضي (٧) وجود الإذن حينئذ بل تقتضي نفي

(١) سورة هود ١٠٢.

(٢) سورة النساء ٧٥.

(٣) سورة يوسف ٨٢.

(٤) سورة هود ١٠٥.

(٥) سورة المرمات ٣٦.

(٦) سورة النحل ١١١.

(٧) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) يقتضي.

الكلام عند انتفاء الإذن، فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفي اثبات ناقض الآية الثالثة الأولى، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكتفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم، وتتكلم (١) أيديهم وتشهد أرجلهم، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات (٢) ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى: (هذا يوم لا ينطقون) (٣) نفي للنطق (٤) عنهم يوم القيامة، فيقتضي انتفاؤه في جميع أجزاء ذلك الزمان، عملاً بعموم النفي، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا: لا وجود لزيد في الدار، فاندفع الجواب بخلاف المواقف والبواطن، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فمنهم شقى وسعيد) (٥) وكلمة (من) للتبعية، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقى أو سعيد، فما معنى التبعية هنا؟

قلنا: التبعية هنا على حقيقته، لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام شقى وسعيد وهم أهل النار والجنة، كما ذكر في هذه الآية مفصلاً، وقسم لا شقى ولا سعيد وهم أهل الأعراف، الثاني: أن معنى الكلام فمنهم

(١) وفي نسخة (ب) تكلمهم.

(٢) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) الآية.

(٣) سورة المرسلات ٣٥.

(٤) وفي نسخة (ب) النطق.

(٥) سورة هود ١٠٥.

شقى ومنهم سعيد وهذا يقتضى أن يكون الشقى بعض الناس، والسعيد بعض الناس، والأمر كذلك، ولا يقتضى أن يكون الشقى والسعيد كلاهما بعض الناس، بل كل واحد منهما بعض، وكلاهما كل كما تقول: من الحيوان إنسان، ومن الحيوان غير إنسان، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما دامت السموات والأرض) (١) وأراد به بيان دوام الخلود، لأن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيهما خلوداً لا نهاية له، والسموات والأرض دوامهما منقطع، لأنهما يوم القيامة تنهدمان، قال الله تعالى: (كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً) (٢) وقال: (وإذا السماء انفطرت) (٣) وقال: (يوم نفطوى السماء كطي السجل للكتاب) (٤) ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السموات والأرض؟

قلنا: للعرب فى معنى الأبد ألفاظ منها هذا يقولون: لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار، وما دامت السماء والأرض، وما أظلت الأبل، ويريدون بذلك لا أفعله أبداً مع قطع النظر عن كون (هـ) الموقت به له نهاية أو لا نهاية له، الثانى: أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير، الثالث: أنه أراد به كون الفريقين فى قبورهم إما منعمين أو معذبين، كما جاء فى الحديث:

(١) سورة هود ١٠٧.

(٢) سورة الفجر ٢١.

(٣) سورة الانفطار ١.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٤.

(هـ) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) الكون.

«إن القبر إما روضة من رياض الجنان (١) أو (٢) حفرة من حفرة النار» ومن كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنة، ومن كان في حفرة من حفرة النار فهو في النار، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة، الرابع: أن المراد به سموات الآخرة وأرضها قال تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) (٣) وتلك دائمة لا تزول، ولا تفسى، ولأنه لا بد لأهل الجنة مما يظلمهم ويقلهم، إما سماء يخلقها الله تعالى أو العرش كما جاء في الأخبار أن أهل الجنة تحت ظل العرش، وكل ما أظلك فهو سماء، وجاء في الأخبار أيضاً في صفة الجنة: أن ترابها زعفران، فدل على أن لها أرضاً، فالمراد تلك السماء وتلك الأرض.

فإن قيل: إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دواماً لا آخر له، فكيف يصح الاستثناء في قوله تعالى: (إلا ما شاء ربك) (٤)؟ قلنا: قال الفراء (إلا) هنا بمعنى غير وموسى فمعناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض موسى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة، فكأنه قال: خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله تعالى من الزيادة عليها إلى غير نهاية، وهذا الوجه إنما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها، قال ابن قتيبة: ومثله في الكلام قولك

(١) وفي نسخة (ب) الجنة.

(٢) وفي نسخة (ب) اما.

(٣) سورة ابراهيم ٤٨.

(٤) سورة هود ١٠٨.

لأسكنك في هذه (١) الدار حولا إلا ما شئت، تريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول، الثانى: أنه استثناء لا يفعله كما تقول لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمك على هجرانه أبداً، وهو معنى قول ابن عباس إلا ما شاء ربك، وقد شاء أن يخلدوا فيها، قال الزجاج وفائدة هذا الاستثناء إعلامنا أنه لو شاء أن لا يخلدهم لما خلدهم، ولكنه ما شاء إلا خلودهم، الثالث: أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب، فإن الأشقياء والسعداء فى ذلك الزمان كله ليسوا فى النار ولا فى الجنة، الرابع: أن (ما) بمعنى من والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط، الخامس: أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء فقط، وأهل الأعراف من السعداء لأنهم لم يدخلوا النار ولأن مصيرهم إلى الخلود فى الجنة، السادس: أنه استثناء من الخلود فى عذاب النار ومن الخلود فى نعيم الجنة، لأن الأشقياء لا يخلدون فى عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار، وكذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ما هو أجل منها، وهو الزيادة التى وعدهم الله إياها بقوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (٢)، وهو رضوان الله كما قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) فى نسخة (أ) هذا ص ٨١.

(٢) سورة يونس ٢٦.

ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) (١)
 وقوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) (٢)
 فهو المراد بالاستثناء، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعد ذكر
 الأشقياء: (إن ربك فعال لما يريد) (٣) وقوله تعالى بعد ذكر
 السعداء: (عطاء غير مجدود) (٤) يعنى أنه يفعل بأهل النار ما
 يريد من أنواع العذاب، ويعطى أهل الجنة أنواع العطاء الذى لا
 انقطاع له، فاختلفا المقتضين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا،
 فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضاً.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (غير منقوص) (٥) بعد قوله: (وإنما
 لموفوهم نصيبهم) (٦) والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيأ أى
 تاماً نقله الجوهري وغيره، والتام لا يكون منقوصاً؟
 قلنا: هو من باب التوكيد (٧).

فإن قيل: قوله تعالى: (ولذلك خلقهم) (٨) إشارة إلى ماذا؟
 قلنا: قلنا هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حال (٩) الاختلاف
 والرحمة، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة

(١) سورة التوبة ٧٢.

(٢) سورة السجدة ١٧.

(٣) سورة هود ١٠٧.

(٤) سورة هود ١٠٨.

(٥) سورة هود ١٠٩.

(٦) سورة هود ١٠٩.

(٧) الإجابة ساقطة من نسخة (ب).

(٨) سورة هود ١١٩.

(٩) وفى نسخة (ب) حالى.

للرحمة، وقد فسرہ ابن عباس رضی اللہ عنہما فقال: خلقهم فريقين فريق رحمة فلم يختلفوا، وفريقاً لم يرحمهم فاختلفوا، وقيل: هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو الترحم وعلى هذا يكون الضمير في خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا (١)، وقيل: هو إشارة إلى الاختلاف والضمير في خلقهم للمختلفين (٢)، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والضرورة لا لام كي وهي التي تسمى لام الغرض والمقصود، لأن الخلق للاختلاف في الدين لا يليق بالحكمة، ونظير هذه اللام قوله تعالى: (هالنتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) (٣)، وقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب

فكلكم يصير إلى التراب

وقيل: إنها لام التمكين والاعتقاد كما في قوله تعالى: (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) (٤) وقوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) (٥) والتمكين والاعتقاد حاصل، وإن لم يسكن بعض الناس في الليل، ولم يركب بعض هذه الدواب، ومعنى التمكين والاعتقاد هنا أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف وممكنهم منه، وقيل: اللام هنا بمعنى على، كما في قوله تعالى:

(١) ساقط من نسخة (ب) (هذا القول).

(٢) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) للمتخلفين.

(٣) سورة القصص ٨.

(٤) سورة يونس ٦٧.

(٥) سورة النحل ٨.

(وقله للجبين) (١) وقوله تعالى: (يخرون للأذقان سجداً) (٢).
فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: (وكلا نقص عليك من أنباء
الرسل) (٣) وقوله تعالى: (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل
ورسلا لم نقصصهم عليك) (٤)؟

قلنا: معناه وكل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل، هو ما نشئت به
فؤادك، فما في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف فلا يقتضى اللفظ
قص أنباء جميع الأنبياء، فلا تتناقض بين الآيتين، الثانى: أن المراد
بالكل هنا البعض كما في قوله تعالى: (ثم اجعل على كل جبل منهن
جزءاً) (٥) وقوله تعالى: (وجاءهم الموج من كل مكان) (٦)
وقوله تعالى: (وأوتيت من كل شيء) (٧) وقوله تعالى: (وكل
إنسان أئتمناه ضائره فى عنقه) (٨) (وقول لبيد) (٩):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق كانبى عليه الصلاة والسلام،
والإيمان، والجنة، وغير ذلك، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس

(١) سورة الصافات ١٠٢.

(٢) سورة الإسراء ١٠٧.

(٣) سورة هود ١٢٠.

(٤) سورة النساء ١٦٤.

(٥) سورة البقرة ٢٦٠.

(٦) سورة يونس ٢٢.

(٧) سورة النمل ٢٢.

(٨) سورة الإسراء ١٢.

(٩) فى نسخة (ب).

بزائل، وليبد صادق فى هذا البيت لقوله عليه الصلاة والسلام أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شىء... إلخ (١).
فإن قيل: ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى: (وجاءك فى هذه الحق) (٢) مع أن الحق جاءه فى كل سور القرآن؟
قلنا: قالوا: فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشريفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إياه فى ذلك، كما فى قوله تعالى: (وأن المساجد لله) (٣) وقوله: (وجبريل وميكال) بعد قوله: (وملائكته) (٤) وقوله: (والصلاة الوسطى) (٥) بعد قوله: (الصلوات) (٦) ووجه المشابهة بينهما أنه كما حمل قوله تعالى «وجبريل وميكال» على التشريف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق (٧) العداوة به لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وكذا فى المثال الآخر تعذر حمله على إيجاب المحافظة (٨) لما قلنا، وهنا تعذر حمله على حقيقته، وهو الجنس أو المعهود لأن حقيقته انحصار كل حق فى هذه، وهو منتف أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتف (٩)، وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة

(١) وفى نسخة (ب) القول.

(٢) سورة هود ١٢٠.

(٣) سورة الجن ١٨.

(٤) سورة البقرة ٩٨.

(٥) سورة البقرة ٢٣٨.

(٦) سورة البقرة ٢٣٨.

(٧) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) التعليق.

(٨) وفى نسخة (ب) إيجاد.

(٩) وفى نسخة (ب) متفق.

بوصف مشترك بينها وبين كل السور، وأنه لا يحسن كما قالوا: وجاءك في هذه آيات أو كلام الله أو كلام معجز فجعل مجازاً عن التفضيل والتشريف، وقيل: الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة، والجمهور على القول الأول، ولا يقال إنما خصت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى: (فاستقم كما أمرت) (١) والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين لأننا نقول: الأمر بالاستقامة جاء أيضاً في سورة (حم عسق) قال الله تعالى: (فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) (٢) فلا يصلح هذا علة للتخصيص.



(١) سورة هود ١١٢.

(٢) سورة الشورى ١٥.

سورة يوسف عليه السلام

فإن قيل: كيف قال: (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر) (١) ولم يقل ثلاثة عشر كوكباً وهو أوجز وأخصر، والذي رآه كان أحد عشر كوكباً غير الشمس والقمر؟

قلنا: قصد عطفهما على الكواكب تخصيصاً لهما بالذكر، وتفضيلاً لهما على سائر الكواكب، لما لهما من المزية والرتبة على الكل، ونظيره تأخير جبريل وميكايل عن الملائكة عليهم الصلاة والسلام ثم عطفهما عليهم إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة وكذا قوله تعالى: (حافظوا على الصلوة والصلاة الوسطى) (٢) إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات.

فإن قيل: ما فائدة تكرار (رأيت)؟

قلنا: قال الزمخشري: ليس ذلك تكراراً بل هو كلام مستأنف، وقع جواباً لسؤال مقدر من يعقوب عليه الصلاة والسلام كأنه قال له بعد قوله: (والشمس والقمر)، كيف رأيتهما سائلاً عن حال رؤيتهما فقال مجيباً له: رأيتهم ساجدين، وقال الزجاج: إنما كرر الفعل تأكيداً لما طال الكلام، كما في قوله تعالى: (وهم عن الآخرة هم غافلون) (٣) وقوله: (وهم بالآخرة هم كافرون) (٤)، وقال غيره إنما كرره تفخيماً للرؤية وتعظيماً لها.

فإن قيل: كيف أجريت مجرى العقلاء في قوله: «رأيتهم» وفي قوله: «ساجدين» وأصله رأيتها ساجدة؟

(١) سورة يوسف ٤.

(٢) سورة البقرة ٢٣٨.

(٣) سورة الروم ٧.

(٤) سورة يوسف ٢٧.

قلنا: لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السجود أجرى عليها حكمه، كأنها عاقلة، وهذا شائع في كلامهم أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملاحظة والمقاربة، ونظيره قوله تعالى: (فالت فملة يا أيها النمل ادخلوا) (١) وقوله تعالى في وصف السماء والأرض: (فالتا أتبنا طائعين) (٢).

فإن قيل: كيف قالوا: (فوتع وتلعب) (٣) وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضاً في قول البعض، وكيف رضى يعقوب عليه الصلاة والسلام بذلك؟

قلنا: على قراءة الياء لا إشكال، لأن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو، وذلك جائز في الشرع، ويعضد هذا قولهم: (إنا ذهبنا فستبق) (٤) وإنما سموه لعباً لأنه في صورة اللعب، ويرد على أصل السؤال أن يقال: كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد، وهو إلقاء أخيه في الجب على قصد القتل. فإن قيل: كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما قوله: (إني ليحزنني أن تذهبوا به) (٥) لأنه كان لا يصبر

(١) سورة النمل ١٨.

(٢) سورة فصلت ١١.

(٣) سورة يوسف ١٢.

(٤) سورة يوسف ١٧.

(٥) سورة يوسف ١٢.

عنه ساعة واحدة، والثاني خوفه عليه من الذنب، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا: حبه إياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقتة هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم، فأضربوا عنه صفحاً ولم يجيبوه عنه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأوحينا إليه) (١) وهو يومئذ لم يكن بالغاً، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

قلنا: المراد به وحي الإلهام لا وحي الرسالة، الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين، ونظيره قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) (٢) وقوله تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل) (٣)؟

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً) (٤) وقال في حق موسى عليه الصلاة والسلام: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً) (٥)؟

قلنا: المراد ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف في مقداره، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين سنة أو الستين، وكان إتياء كل واحد منهما الحكم والعلم في ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع.

فإن قيل: كيف وحد الباب في قوله تعالى: (استبقا الباب) (٦) بعد جمعه في قوله تعالى: (وغلقت الأبواب) (٧)؟

(١) سورة يوسف ١٥.

(٢) سورة القصص ٧.

(٣) سورة النحل ٦٨.

(٤) سورة يوسف ٢٢.

(٥) سورة القصص ١٤.

(٦) سورة يوسف ٢٥.

(٧) سورة يوسف ٢٢.

قلنا: لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار، سواء كانت كلها في جدار الدار أو لا، وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها في جدار الدار، لأن خروجه في وقت هربه لا يتصور إلا من باب واحد منها، وإن كان بعض الأبواب داخل بعض فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى موقوف على الخروج من الباب الأدنى، فلذلك وحده الباب.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وشهد شاهد من أهلها) (١) ولم يكن قوله شهادة؟

قلنا: لما أدى معنى الشهادة في ثبوت قول يوسف عليه السلام، وبطلان قولها سمي شهادة، فالمراد بقوله «شهد» أعلم وبين وحكم. فإن قيل: (قميصه قد من دبر) (٢) يدل على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته، فأما قده من قبل كيف يدل على أنها صادقة؟

قلنا: يدل من وجهين أحدهما أنه إذا كان طالبها وهي تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها فتقد قميصه من قبل بالدفع، الثاني: أنه يسرع خلفها وهي هاربة منه فيعثر في مقدم قميصه فيشقه، ويرد على الوجه الثاني أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو نتيجة الإسراع، لأنه يحتمل أن يكون اسراعاً في الهرب منها، وهي خلفه فيعثر فيقد قميصه من قبل.

(١) سورة يوسف ٢٦.

(٢) سورة يوسف ٢٧.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وهاتئذ أخرج عليهن) (١) وإنما يقال خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إلى؟ قلنا: إذا كان الخروج بتهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يعدى بعلی ومنه قولهم: خرج علينا في السفر قطاع الطريق، وقوله تعالى: (فخرج على قومه في زينته) (٢) وقوله تعالى: (فخرج على قومه من المحراب) (٣).

فإن قيل: كيف شبهن يوسف عليه الصلاة والسلام بالملك فقلن: (إن هذا إلا ملك كريم) (٤) وهن ما رأين الملائكة قط؟ قلنا: إن كن ما رأين الملائكة فقد سمعن وصفها، (الثاني) (٥): أن الله تعالى ركز في الطباع حسن الملائكة، كما ركز فيها قبح الشياطين، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن بالملك، وكل متناه في القبح بالشیطان.

فإن قيل: كيف قال يوسف عليه الصلاة والسلام: (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) (٦) وترك الشيء إنما يكون بعد ملبسته والكون فيه، يقال: ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم ألقه عنه، ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يكن على ملة الكفار قط؟

(١) سورة يوسف ٢١.

(٢) سورة القصص ٧٩.

(٣) سورة مريم ١١.

(٤) سورة يوسف ٢١.

(٥) في نسخة (ب).

(٦) سورة يوسف ٢٧.

قلنا: الترك نوعان: ترك بعد الملابس ويسمى ترك انتقال، وترك قبل الملابس ويسمى ترك إعراض كقوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام: (ويذكرك وآلهتك) (١) وموسى عليه الصلاة والسلام ما لابس عبادة فرعون ولا عبادة آلهة في وقت من الأوقات، وما نحن فيه من النوع الثاني، وسيأتى نظير هذا السؤال في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (أو لتعودن في ملتنا) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) (٣) فسر الأمر بالنهي أو بما جزؤه بالنهي وهما ضدان؟ قلنا: فيه إضمار أمر آخر تقديره أمر أمراً يقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه، وهو قوله تعالى: (فأياى فاعبدون) (٤) فإنه باعتبار تقديم المفعول فى معنى الحصر، كما فى قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) (٥) الثانى: أن فيه إضمار نهى تقديره أمر ونهى ثم فسر الأمرين بقوله: (ألا تعبدوا إلا إياه) (٦)، الثالث: أن قوله تعالى: «ألا تعبدوا» وإن كان مضاداً للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى، فلم قلت أن تفسير الشئ بما يضاده صورة ويوافقه معنى غير جائز، بيان موافقته معنى من وجهين أحدهما أن النهى عن الشئ أمر بضده، وعبادة الله تعالى ضد عبادة غير الله تعالى،

(١) سورة الأعراف ١٢٧.

(٢) سورة إبراهيم ١٢.

(٣) سورة يوسف ٤٠.

(٤) سورة العنكبوت ٥٦.

(٥) سورة الفاتحة ٥.

(٦) سورة يوسف ٤٠.

الثانى: أن معنى مجموع قوله تعالى: «ألا تعبدوا إلا إياه» اعبدوه وحده، فيكون تفسيراً للأمر المطلق بفرد من أفراد، وأنه جائز.

فإن قيل: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعظم الناس زهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة، فكيف قال يوسف عليه الصلاة والسلام: (اجعلنى على خزان الأرض) (١) طلب أن يكون معتمداً على الخزائن ومتولياً لها، وهو من أكبر مناصب الدنيا؟

قلنا: إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى امضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه، مما يبعث له الأنبياء، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعياً فى منافع العباد ومصالحهم لا لحب الملك والدنيا، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) (٢)، يعنى لو كنت أعلم أى وقت يكون القحط لأدخرت لزمن القحط طعاماً كثيراً، لا للحرص ولكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والضائقة، ويحتمل أن يكون علم تعيينه لذلك العمل فكان طلبه واجباً عليه.

فإن قيل: كيف جاز ليوسف عليه الصلاة والسلام أن يأمر المؤذن أن يقول: (أيها العير إنكم لسارقون) (٣) وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه، وتكذيب للبرىء واتهام له؟

قلنا: قوله: (إنكم لسارقون) تورية عما جرى منهم مجرى السرقة وتصويرها بصورتها من فعلهم بيوسف عليه الصلاة والسلام ما فعلوه

(١) سورة يوسف ٥٥.

(٢) سورة الأعراف ١٨٨.

(٣) سورة يوسف ٧٠.

أولاً، الثانى: أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه الصلاة والسلام كذا قال بعض المفسرين، الثالث: أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية، التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه الصلاة والسلام: (وخذ بيدك ضغثاً فأضرب به ولا تحنث) (١) وقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق زوجته: «هى أختى» لتسلم من يد الكافر، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيف تأسف يعقوب عليه الصلاة والسلام على يوسف دون أخيه بقوله: (يا أسفى على يوسف) (٢) والرزء الأحداث أشد على النفس وأعظم أثراً؟

قلنا: إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان فى العظم ولم يتساويا هنا، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده ما زال غضاً طرياً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وابيضت عيناه من الحزن) (٣) والحزن لا يحدث بياض العين لا طباً ولا عرفاً؟

قلنا: قال ابن عباس: (من الحزن) أى من البكاء، ولأن الحزن سبب للبكاء، فأطلق عليه اسم السبب وأراد به المسبب، وكثرة البكاء قد يحدث بياضاً فى العين يغطى السواد، وهكذا حدث ليعقوب عليه الصلاة والسلام، وقيل: إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبتة إلى بياض كدر.

فإن قيل: كيف قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: (إنه لا يئأس من

(١) سورة ص ٤٤.

(٢) سورة يوسف ٨٤.

(٣) سورة يوسف ٨٤.

روح الله إلا القوم الكافرون) (١) مع أن من المؤمنين من يئأس من روح الله أى من فرجه وتنفيسه أو من رحمته على اختلاف القولين، إما لشدة مصيبتة أو لكثرة ذنوبه، كما جاء فى الحديث فى قصة الذى أمر أهله إذا مات أن يحرقوه، ويذروا رماده فى البر والبحر، ففعلوا به ذلك ثم أن الله تعالى غفر له كما جاء مشروحاً فى الحديث المشهور، وهو من الصحاح مع أنه يئس من رحمة (٢) الله تعالى، وضم إلى يأسه ذنباً آخر وهو اعتقاده أنه إذا أحرق وذرى رماده لا يقدر الله تعالى على إحيائه وتعذيبه، ومع هذا كله غفر له فدل أنه لم يمت كافراً؟

قلنا: إنما يئس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية، وكل مؤمن يتحقق منه الأياس من روح الله فهو كافر فى الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله، وأما الرجل المغفور له فى الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر ثم أن الله تعالى لما أحياء فى الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى، فلذلك غفر له أو يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موته الأولى ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التى أوصى أهله بها فمات مسلماً فلذلك غفر له.

فإن قيل: كيف ذكر يوسف عليه الصلاة والسلام نعمة الله تعالى عليه فى إخراجه من السجن فقال: (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) (٣) ولم يذكر نعمته عليه فى

(١) سورة يوسف ٨٧.

(٢) وفى نسخة (ب) روح الله.

(٣) سورة يوسف ١٠٠.

إخراجه) (١) من الجب وهو أعظم نعمة، لأن وقوعه في الجب كان أعظم خطراً؟

قلنا: إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه، إحداها: أن محنة السجن ومصيبته كانت أعظم لطول مدتها، فإنه لبث فيه بضع سنين، وما لبث في الجب إلا مدة يسيرة، الثاني: أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لأخوته بعد قوله لهم: (لا تثريب عليكم اليوم) (٢)، الثالث: أن إخراجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه، فلذلك ذكره، وخروجه من الجب كان مقدمة للذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره، الرابع: أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبتها الأوباش والأرذال وأعداء الدين، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنس فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف قال يوسف عليه الصلاة والسلام: (توفني مسلماً) (٣) وهو يعلم أن كل نبي لا يموت إلا مسلماً؟ قلنا: يجوز أن يكون قد دعا بذلك في حال غلبة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم في تلك الساعة، الثاني: أنه دعا بذلك مع علمه إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليماً للأمة.

فإن قيل: كيف يجتمع الإيمان والشرك، وهما ضدان حتى قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (٤)؟

(١) هذا كما في نسخة (أ) وهو ساقط من نسخة (ب).

(٢) سورة يوسف ٩٢.

(٣) سورة يوسف ١٠١.

(٤) سورة يوسف ١٠٦.

قلنا: معناه وما يؤمن أكثرهم بأن الله خالقه ورازقه وخالق السموات والأرض قولاً إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً، الثاني: أن المراد بها المنافقون يؤمنون بالسنتهم قولاً ويشركون بقلوبهم اعتقاداً، الثالث: أن المراد بها تلبية العرب، كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يؤمنون بأول تلييتهم بنفى الشريك، ويشركون بآخرها بإثباته.

فإن قيل: هذه التلبية توحيد كلها ولا شريك فيها، لأن معنى قولهم: إلا شريكاً هو لك، إلا شريكاً هو مملوك لك، موصوفاً بأنك تملكه وتملك ما ملك؟

قلنا: اللام هنا للملك لا لعلاقة الشركة، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقياً، ويحتمل أن يكون مجازياً بيان الأول، أنا إن قلنا إن اللام حقيقة في المعنى العام في مواردنا وهو الاختصاص يكون قولهم: (لا شريك لك) عاماً في نفى كل شريك مضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما فيدخل (١) في النفي من جهة اللفظ (الشريك) المضاف لجهة المملوكية، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما، ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناء حقيقياً، وإن قلنا: أنها مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهي الملك والاستحقاق، ويقال: الاختصاص والغلبة، فقولهم: (لا شريك لك) يكون عاماً أيضاً عند من يجوز حمل المشترك على مفهوميه في حالة واحدة، فيكون الاستثناء أيضاً حقيقياً كما مر، وأما على قول من لا يجوز ذلك يكون النفي وارداً على أحد مفهوماته، وهو علاقة الشركة، فيكون الاستثناء بعده مجازياً من باب تأكيد المدح بما

(١) في نسخة (ب).

يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة المذكور في علم البيان،
وشاهده قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب

معناه إن كان (هذا) (١) عيباً ففيهم عيب، وهذا ليس بعيب فلا
يكون فيهم عيب، فكنا هنا، فلا يكون لك شريك لأن كل ما يدعى
أنه شريك لك فهو مملوك لك، وهذا المعنى هو المراد بقوله
تعالى: (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم... الآية) (٢).

فإن قيل: على الوجه الأول أنه ليس بصحيح، لأننا لو جعلنا الادم
حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد
نفي الشريك، من غير استثناء، لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى
شريك زيد وعمرو ونحوهما، وهو كفر، واللازم منتف لأنه إيمان
محض بلا خلاف؟

قلنا: إنما لم يكن كفراً مع عمومه لأن حقيقته العرفية عند عدم
الاستثناء نفي كل شريك مضاف إلى الله سبحانه وتعالى بعلاقة
الشركة، لا نفي كل شريك مضاف إليه بجهة ما، فصارت الحقيقة
اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء، والجواب عن
أصل السؤال أنه سؤال حسن محقق، وإن هذه التلبية توحيد محض
على التقديرين، فإن صح النقل أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى
عنها فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك بمقتضى الاستثناء عند
قاصري النظر، وهم غوام الناس، فلهذه المفسدة نهى عنها.

(١) في نسخة (ب).

(٢) سورة الروم ٢٨.

سورة الرعد

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) (١) ولم يقل ومن هو سارب بالنهار، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب أى ظاهر، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية، فإنه قال فى الجملة الأولى: (من أسر القول ومن جهر به) (٢)؟

قلنا: قوله تعالى: «وسارب» معطوف على (من) لا على (مستخف) فيتناول معنى الاستواء اثنين، الثانى: أنه وإن كان معطوفاً على (مستخف) إلا أن (من) هنا فى معنى التثنية كقوله: تكن مثل من يا ذنب يسطحبان

فكانه سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) (٣) أى فى ضياع وبطلان، والكفار يدعون إليه تعالى فى أوقات الشدائد والأهوال ومشارفتهم الفرق فى البحر فيستجيب لهم؟ قلنا: المراد وما عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال، ويعضده قوله تعالى قبله: (والذين يدعون من دونه) (٤) أى يعبدون.

فإن قيل: كيف طابق قولهم: (لولا أنزل عليه آية من ربه) وقوله: (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) (٥)؟

(١) سورة الرعد ١٠.

(٢) سورة الرعد ١٠.

(٣) سورة الرعد ١٤.

(٤) سورة الرعد ١٤.

(٥) سورة الرعد ٢٧.

قلنا: هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية، وراء كل آية، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط كان موضعاً للتعجب، فكانه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم.

فإن قيل: كيف المطابقة بين قوله تعالى: (أفمن هم فائض على كل نفس بما كسبت) (١) وقوله تعالى: (وجعلوا لله شركاء) (٢)؟ قلنا: فيه محذوف تقديره: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر، ويعد لكل جزاء (٣) كمن ليس كذلك، وهو الصنم، ثم ابتداء فقال: «وجعلوا لله شركاء» أو تقديره: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحده وجعلوا لله شركاء، أو تقديره: أفمن هو بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء.

فإن قيل: كيف اتصل قوله تعالى: (فل إنما أمرت أن أعبد الله) (٤) بما قبله وهو قوله تعالى: (ومن الأحزاب من ينكرو بعضه) (٥)؟

قلنا: هو جواب للمكرين (٦) معناه قل إنما أمرت فيما أنزل إلي بأن

(١) سورة الرعد ٢٢.

(٢) سورة الرعد ٢٢.

(٣) وفي نسخة (ب) جزاء.

(٤) سورة الرعد ٢٦.

(٥) سورة الرعد ٢٦.

(٦) في نسخة (ب) من ١٢.

أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده، كذا أجاب الزمخشري وفيه نظر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقد مكر الذين من قبلهم) (١) أثبت لهم مكرًا ثم نفاه بقوله تعالى: (فقل الله المكر جميعاً) (٢)؟

قلنا: معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا تضر إلا بارادته، فهذه الجهة صحت إضافة مكرهم إليه، الثانى: أنه جعل مكرهم كلاً مكر بالاضافة إلى مكره، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، وهم فى غفلة عما يراد بهم فيعكس مكرهم عليهم.



(١) سورة الرعد ٤٢.

(٢) سورة الرعد ٤٢.

سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام

فإن قيل: قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (١) هنا في حق غير النبي عليه الصلاة والسلام من الرسل مناسب، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة، ولا يبقى لهم حجة بأننا لم نفهم رسالتك، فأما النبي عليه الصلاة والسلام فإنه بعث إلى الناس كافة: (هل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) (٢) (وما أرسلناك إلا كافة للناس) (٣) فأرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية، وإن لم يكن لغير العرب حجة فلو نزل القرآن بلسان غير العرب لم يكن للعرب حجة؟

قلنا: نزله على النبي صلى الله عليه وسلم بلسان واحد كاف، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله بجميع الألسن، ويكفي التطويل كما جرى في القرآن العزيز، الثاني: أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف، الثالث: أنه لو نزل بألسنة كل الناس، وكان معجزاً في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك قريباً من القسر والالجاء، وبعثة الرسل لم تبين على قسر والجهل بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.

(١) سورة ابراهيم ٤.

(٢) سورة الأعراف ١٥٨.

(٣) سورة مائدة ٢٨.

فإن قيل: كيف قال تعالى في سورة البقرة: (يذبحون) (١) وفي سورة الأعراف: (يقتلون) (٢) بغير واو فيهما، وقال هنا: (ويذبحون) (٣) بالواو والقصة واحدة؟

قلنا: حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب، لأنه أوفى على بقية أنواعه، وزاد عليها زيادة ظاهرة، فعلى هذا يكون إثبات (٤) الواو أبليغ.

فإن قيل: ما معنى التبعض في قوله تعالى: (ليغفر لكم من ذنوبكم) (٥)؟

قلنا: ما جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله تعالى في سورة نوح: (يغفر لكم من ذنوبكم) (٦) وقوله تعالى في سورة الأحقاف: (يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) (٧) وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الصف: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم... إلى قوله (يغفر لكم ذنوبكم) (٨) وقال في آخر سورة الأحزاب: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم

(١) سورة البقرة ٤٩.

(٢) سورة الأعراف ١٤١.

(٣) سورة إبراهيم ٦.

(٤) وفي نسخة (ب) زيادة الواو.

(٥) سورة إبراهيم ١٠.

(٦) سورة نوح ٤.

(٧) سورة الأحقاف ٣١.

(٨) ماقت من نسخة (ب) ص ١٢٢.

ذنوبكم) (١) وكذا باقى الايات فى خطاب الفريقين إذا تتبعتهما، وما ذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوى بين الفريقين فى الوعد، مع اختلاف رتبتهما، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم، والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه فى سورة نوح عليه الصلاة والسلام، وفى سورة الأحقاف وعدمهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان (لا مطلقاً) (٢) وقيل: معنى التبعض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه، لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، وقيل: (من) زائدة.

فإن قيل: كيف كرر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولاً: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٢) وقال ثانياً: (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (٤)؟

قلنا: الأمر الأول لاستحداث التوكل، والثانى: لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلها كره، وقال أولاً المؤمنون، وثانياً المتوكلون.

فإن قيل: كيف قالوا لرسولهم: (أو نعوذون فى ملتنا) (٥) والرسول لم يكونوا على ملة الكفار قط، والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الانسان؟

قلنا: العود فى كلام العرب يستعمل كثيراً بمعنى الصيرورة، يقولون

(١) سورة الأحزاب ٧١.

(٢) ماقطة من نسخة (ب).

(٣) سورة إبراهيم ١١.

(٤) سورة إبراهيم ١٢.

(٥) سورة إبراهيم ١٢.

عاد فلان لا يكلمنى، وعاد لفلان ماله وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى: (حتى عاد كالعرجون القديم) (١)، الثانى: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد، واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها، الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد، ونظير هذا السؤال ما سبق فى سورة الأعراف من قوله تعالى: (أو لتعودن فى ملتنا) (٢) وفى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام من قوله: (إنى تركت ملة قوم... الآية) (٣).

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى: (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم) (٤)؟

قلنا: لما كان قول الضعفاء توبيخاً وتقريعاً وعتاباً للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم، أحالوا الذنب على الله تعالى فى ضلالهم وإضلالهم، كما قالوا: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا) (٥) وقوله: (ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) (٦) يقولون ذلك فى الآخرة، كما كانوا يقولونه فى الدنيا،

(١) سورة يس ٢٩.

(٢) سورة الأعراف ٨٨.

(٣) سورة يوسف ٢٧.

(٤) سورة إبراهيم ٢١.

(٥) سورة الأنعام ١٤٨.

(٦) سورة النحل ٣٥.

كما حكى الله تعالى عن المنافقين: (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم... الآية) (١)، وقيل: معنى جوابهم لو هدانا الله فى الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم أى لأغنيانا عنكم، وسلكتنا بكم طريق النجاة كما سلكتنا بكم طريق الهلكة فى الدنيا.

فإن قيل: كيف اتصل وارتبط قولهم: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) (٢) بما قبله؟

قلنا: اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعاً مما هم فيه، وقلقاً من ألم العذاب، فقال لهم رؤسائهم: (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) (٣) يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين عليها فى الدنيا، كأنهم قالوا للضعفاء ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة فى الصبر، فإن الأمر أطم من ذلك وأعم.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وقال الشيطان لما قضى الأمر) (٤) عبر عنه بلفظ الماضى، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد، وإنما هو مترقب منتظر يقوله يوم القيامة؟

قلنا: يجوز وضع المضارع موضع الماضى، ووضع الماضى موضع المضارع إذا أمن اللبس، قال الله تعالى: (واقبعوا ما قتلوا الشياطين

(١) سورة المجادلة ١٨.

(٢) سورة إبراهيم ٢١.

(٣) سورة إبراهيم ٢١.

(٤) سورة إبراهيم ٢٢.

على ملك سليمان (١) أى ما تلت، وقال تعالى: (فلم تقتلون
أنبياء الله من قبل) (٢) وقال الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلتقى ربه

أن الوليد أحق بالعدر

فقلوه: «على ملك سليمان» نفى اللبس، وكذا قوله تعالى: «من
قبل»، وقول الحطيئة: يوم يلتقى ربه، وقوله تعالى: «لما قضى
الأمر» لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويضل الله الظالمين) (٣) وقد رأينا
كثيراً من الظالمين هدامهم الله بالإسلام وبالتوبة، وصاروا من الأتقياء؟
قلنا: معناه أنه لا يهديهم ما داموا مصرين على الكفر والظلم،
معرضين عن النظر والاستدلال، الثانى: أن المراد منه الظالم الذى
سبق له القضاء فى الأزل أنه يموت على الظلم، فإله تعالى يشبهه
على الضلالة بخذلانه، كما يشبث الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة
التوحيد، الثالث: أن معناه (أنه) (٤) يضل المشركين عن طريق
الجنة يوم القيامة.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن
سبيله) (٥) والضلال والاضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد
وهى الأصنام، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى، كما حكى الله

(١) سورة البقرة ١٠٢.

(٢) سورة البقرة ٩١.

(٣) سورة إبراهيم ٢٧.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة إبراهيم ٢٠.

تعالى عنهم ذلك بقوله: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (١)؟

قلنا: وقد شرحنا ذلك فى سورة يونس عليه الصلاة والسلام، إذ قلنا (٢): هذه لام العاقبة والسيرورة، لا لام الغرض، والمقصود كما فى قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) (٣) وقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب
وقال الآخر:

فللموت تغدوا الوالدات مخالها

كما لخراب الدهر تبنى المساكن
والمعنى فيه أنه لما أفضى لهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الاضلال صار كأنهم اتخذوها (٤) لذلك، وكذا الالتقاط والولادة والبناء ونظائره كثيرة فى القرآن العزيز وفى كلام العرب.
فإن قيل: كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلل؟

قلنا: معناه قل لهم يقدمون من الصلاة والصدقة متجرأ يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعاوضات والصدقات التى يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية فجاءت المطابقة.
فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (لا بيع فيه ولا خلل) (٥) أى لا

(١) سورة الزمر ٢. (٢) سورة القصص ٨.

(٣) لقد وقع تداخل بين السؤال والجواب فى النسختين يعرف بقليل من التأمل.

(٤) وفى نسخة (أ) اتخذوها. (٥) سورة إبراهيم ٣١.

صداقة، وفى يوم القيامة خلال لقوله تعالى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (١) ولقوله عليه الصلاة والسلام: المرء مع من أحب؟

قلنا: معناه لا خلال فيه لمن لم يقيم الصلاة ولم يؤد الزكاة، فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء، وبينهم خلال يوم القيامة لما تلونا من الآية.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وسخر لكم الشمس والقمر ذابيين وسخر لكم الليل والنهار) (٢) والمسخر للانسان هو الذى يكون فى طاعته يصرفه كيف يشاء فى أمره ونهيه كالدابة والعبد والفاك، كما قال الله تعالى: (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) (٣) وقال تعالى: (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) (٤) وقال تعالى: (وسخر لكم الفلك) (٥) ويقال فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعاً له ممتثل لأوامره ونواهيه؟

قلنا: لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً مستمراً اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة وتنخرم سواء شئت هذه المخلوقات أم أبيت، أشبهت المسخر المقهور فى الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما، الثانى: أن معناه أنها مسخرة لله تعالى لأجلنا ولمنافعنا، فإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا

(١) سورة الزخرف ٦٧.

(٢) سورة ابراهيم ٢٢.

(٣) سورة الزخرف ١٢.

(٤) سورة الزخرف ٢٢.

(٥) سورة ابراهيم ٢٢.

فصحت الاضافتان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) (١) والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضاً من كل فرد مما سألناه؟ قلنا: معناه وأتاكم بعضاً من جميع ما سألتموه، لا من كل فرد فرد. فإن قيل: لا يصح هذا المحمل لوجهين: أحدهما: أنه لا يحسن الامتنان به، الثانى: أنه لا يناسبه قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٢)؟

قلنا: إذا كان البعض الذى أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه، وهو الأصلح والأنتفع لنا فى معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذى منعه عنا لمصالحتنا أيضاً، لم لا (٢) يحسن الامتنان به، ويكون مناسباً لما بعده، وجواب آخر عن أصل السؤال أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم جميعهم، وبهذا المقدار (يصح) (٤) الاخبار فى الآية، وأن لم يعط كل واحد من السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم، وإيضاح ذلك أن يكون قد أعطى هذا شيئاً مما سألهم ذلك، وأعطى ذاك شيئاً مما سألهم هذا على ما اقتضته الحكمة والمصلحة فى حقهما، كما أعطى النبى صلى الله عليه وسلم الرؤية ليلة المعراج، وهى مؤل موسى عليه الصلاة والسلام وما أشبه ذلك.

(١) سورة إبراهيم ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم ٢٤.

(٣) وفى نسخة (ب) لما لم.

(٤) ساقط من نسخة (ب).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (١) والاحتساء والعدد بمعنى واحد، كنا نقله الجوهري، فيكون المعنى وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها، وأنه متناقض كقولك: إن تر زيدا لا تبصره، وإذا الرؤية والابصار واحد؟

قلنا: بعض المفسرين فسر الاحتساء بالحصص، فإن صح ذلك لغة اندفع السؤال، ويؤيد ذلك قول الزمخشري: لا تحصوها أى لا تحصروها ولا تطبقوها عدداً وبلوغ آخرها، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره: وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: «لا تحصوها» وهو يوهم أن نعمة الله تعالى علينا غير متناهية، وكل نعمة (ممتن) (٢) بها علينا فهي مخلوقة، وكل مخلوق متناه؟

قلنا: لا نسلم أنه يوهم أنها لا تتناهى، وذلك لأن المفهوم منه منحصر فى أنا لا نطبق عددها أو حصر عددها، ويجوز أن يكون الشيء متناهياً فى نفسه، والإنسان لا يطبق عدده كرمال القفار، وقطر البحار، وورق الأشجار، وما أشبه ذلك.

فإن قيل: كيف قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (وأجنبني وبنى أن نعبد الأصنام) (٣) وعبادة الأصنام كفر، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة، فكيف حسن منه هذا السؤال؟

قلنا: إنما سأل هذا السؤال فى حالة خوف أنه من ذلك العلم، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلم الناس بالله، فيكونون أخوفهم منه

(١) سورة إبراهيم ٢٤.

(٢) وفى نسخة (ب) يمتن.

(٣) سورة إبراهيم ٢٥.

فيكون معذوراً بسبب ذلك، وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يبتلى نبياً من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون متضرعاً إلى ربه طالباً منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

فإن قيل: كيف قال: (وب إنهن أضللن كثيراً من الناس) (١) جعل الأنعام مضلة، والمضل ضال، وقال في موضع آخر: (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) (٢) ونظائره كثيرة فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: إضافة الاضلال إليها مجاز بطريق المشابهة، ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم، كما يقال: فتنهم الدنيا وأغرتهم أي أفتنوا بسببها وأغتروا، ومثله قولهم دواء مسهل، وسيف قاطع، وطعام مشبع وماء مروي، وما أشبه ذلك، معناه حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال: (أفئدة من الناس) (٣) ولم يقل أفئدة الناس، وقوله قلوب الناس أظهر استعمالاً من قوله: قلوباً من الناس؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: لو قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه أفئدة الناس لحجت جميع الملل وازدحم عليه الناس حتى لم يبق لمؤمن فيه موضع، مع أن حج غير الموحدين لا يفيد، والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين، وقيل: الجماعة من الناس.

فإن قيل: إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد، فلم سأل إبراهيم

(١) سورة إبراهيم ٢٦.

(٢) سورة يونس ١٨.

(٣) سورة إبراهيم ٢٧.

عليه الصلاة والسلام الرزق لذريته فقال: (وارزقهم من الثمرات) (١)؟ قلنا: الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذي لا بد للإنسان منه، ما دام حياً ولكن لم يضمن كونه ثمرأ أو حبأ أو نوعاً معيناً، فالسؤال كان لطلب الثمر عيناً.

فإن قيل: قوله: (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق) (٢) شكر على نعمة الولد فكيف يناسب قوله بعده: (إن ربي لسميع الدعاء) (٣)؟

قلنا: لما كان قد دعا ربه لطلب الولد بقوله: (وبه هب لي من الصالحين فاستجاب له) (٤) نامب قوله بعد الشكر: «إن ربي لسميع الدعاء» أي لمجيبه، من قولهم: سمع الملك كلام فلان إذا أجابه وقبله، ومنه قولهم في الصلاة: سمع الله لمن حمده، أي أجابه وإثابة.

فإن قيل: كيف قال: (وبنا اغفر لي ولوالدي) (٥) استغفر لوالدية، وكانا كافرين والاستغفار للكافرين لا يجوز، ولا يقال إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه... الآية) (٦) لأن المراد بذلك استغفار لأبيه خاصة بقوله: (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) (٧) والموعدة التي

(١) سورة إبراهيم ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم ٢٩.

(٣) سورة إبراهيم ٣٩.

(٤) سورة الصافات ١٠٠.

(٥) سورة إبراهيم ٤١.

(٦) سورة التوبة ١١٤.

(٧) سورة الشعراء ٨٦.

وعدها إياه كانت له خاصة بقوله: (سأستغفر لك ربى) (١) ولهذا قال الله تعالى: (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرك) (٢) ؟ قلنا: هذا الاستغفار لهما (كان) (٣) مشروطاً بإيمانهما تقديراً كأنه قال ولوالدى إن آمنا، الثانى: أراد بهما آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام، وقرأ ابن مسعود وأبى والنخعى والزهرى «ولولدى» (يعنى) (٤) اسماعيل وإسحاق، ويعضد هذه القراءة ما سبق ذكرهما، ولا اشكال على هذه القراءة، وقيل: إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة كان زلة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإليها أشار بقوله: (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) (٥).

فإن قيل: الله تعالى منزّه ومتعال عن السهو والغفلة، والنبي عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بصفات جلاله وكماله، فكيف يحسبه النبي عليه الصلاة والسلام غافلاً حتى نهاه عن ذلك بقوله تعالى: (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) (٦) ؟

قلنا: يجوز أن يكون هذا نهياً لغير النبي عليه الصلاة والسلام ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته، وقوله تعالى بعده: (وأفذر الناس) (٧) لا يدل قطعاً على أن الخطاب الأول للنبي عليه الصلاة والسلام، لجواز أن يكون ذلك النهى لغيره مع أن هذا الأمر له،

(١) سورة مريم ٤٧.

(٢) سورة الممتحنة ٤.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الشعراء ٨٢.

(٦) سورة إبراهيم ٤٢.

(٧) سورة إبراهيم ٤٤.

الثاني: أنه مجاز معناه: ولا تحسبن الله مهمل الظالمين، وتاركهم سدى لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم، الثالث: أن النهي وإن كان حقيقة والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله تعالى: (ولا تكونوا من المشركين) (١) وقوله تعالى: (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) (٢) ونظير هذا النهي من الأمر قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) (٣) وقول بعض المفسرين إن معنى الآية يا أيها الذين آمنوا بموسى أو بعيسى آمنوا بمحمد لا يخرج الآية عن كونها نظيراً، لأن الاستدلال بالإيمان بالله باق فتأمل.

(١) سورة الروم ٣١.

(٢) سورة القصص ٨٨.

(٣) سورة النساء ١٣٦.

سورة الحجر

فإن قيل: كيف قالوا: (يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) (١) اعترفوا بنبوته لأن الذكر هو القرآن المنزل عليه، ثم وصفوه بالمجنون؟

قلنا: إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لا تصديقاً ولا اعترافاً، كما قال فرعون لقومه: (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) (٢) وكما قال قوم شعيب له: (إنك لأنت الحليم الرشيد) (٣)، ونظائره كثيرة، الثاني: أن فيه اضراراً تقديره: يا أيها الذي يدعى أنه نزل عليه الذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) (٤) والوارث هو الذي يتجدد له الملك، بعد فناء المورث، والله تعالى إذا مات الخلاق لم يتجدد له ملك لأنه لم يزل مالكا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه؟

قلنا: الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره، سواء تجدد له بعده ملك (هـ) أو لا، ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدا مات وترك ورثة، هل ترك لهم مالا أو لا؟ فيكون معنى الآية: ونحن الباقون بعد فناء الخلاق، الثاني: أن الخلاق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون، ويسمون بذلك أيضاً مجازاً أو خلافة عن الله تعالى كالعباد المأذون والمكاتب أو يدل عليه قوله تعالى: (تؤتى الملك من

(١) سورة الحجر ٦.

(٢) سورة الشعراء ٢٧.

(٣) سورة هود ٨٧.

(٤) سورة الحجر ٢٢.

(هـ) وفي نسخة (ب) «ملك بعده».

قضاء) (١) فإذا مات الخلاق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة، ونظير هذا قوله تعالى: (لمن الملك اليوم) (٢) والملك له أزلا وأبداً.

فإن قيل: قوله تعالى: (فسجد الملائكة كلهم) (٣) دل على الشمول والاحاطة وأفاد التوكيد فما فائدة قوله تعالى: «أجمعون»؟

قلنا: قال سيبويه (٤) والخليل هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل تكون نسبة «أجمعون» إلى «كلهم» كنسبة «كلهم» إلى أصل الجملة، وقال المبرد: قوله تعالى: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في زمان السجود، و«كلهم» يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد، واختار ابن الأنباري هذا القول، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه، وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان «أجمعون» حالاً لوجود حد الحال فيه، وليس بحال لأنه مرفوع، ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التأكيد.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) بما قبله من قوله تعالى: (نبيء عبادي... الآياتان) (٥)؟

قلنا: لما أنزل الله تعالى: «نبيء عبادي... الآياتان» ولم يعين أهل المغفرة، وأهل العذاب، غلب الخوف على الصحابة رضى الله عنهم

(١) سورة آل عمران ٢٦.

(٢) سورة غافر ١٦.

(٣) سورة الحجر ٢٠.

(٤) سورة الحجر ٥١.

(٥) سورة الحجر ٤٩ - ٥٠.

فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ليزول خوف الصحابة، وتسكن قلوبهم، فإن ضيف إبراهيم) (١) جاءوا ببشارة للولى وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه الصلاة والسلام، فكذا تنزيل الآيتين المقدمتين على الولى والعدو لا على الولى وحده، الثانى: أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع فى المغفرة، لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعد ما شاخ وبلغ مائة سنة أو قريباً منها.

فإن قيل: كيف قالت الملائكة: (هدونا إنها لمن الغابرين) (٢) أى قضينا، والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا: هو مجاز كما يقول خواص الملك دبرنا كذا أو أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) (٣) وأصحاب الحجر قوم صالح، والحجر اسم واديههم أو مدينتهم على اختلاف القولين، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبونهم؟

قلنا: من كذب رسولا واحداً فكأنما كذب الكل (٤)، لأن كل الرسل متفقون فى دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

(١) ماقط من نسخة (ب).

(٢) سورة الحجر ٦٠.

(٣) سورة الحجر ٨٠.

(٤) وفى نسخة (ب) الرسل.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (فَووبِكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١) وقال في سورة الرحمن: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسِي وَلَا جَانٌ) (٢)؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين أحدهما قد ذكرناه في مثل هذا السؤال في سورة هود، الثاني: أن المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال لم فعلتم؟ والمراد ثم إنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال هل فعلتم؟

(١) سورة الحجر ٩٢ - ٩٤.

(٢) سورة الرحمن ٢٩.

سورة النحل

فإن قيل: لم قدمت الراحة وهي مدخرة في الواقع على السروح وهو مقدم في الواقع في قوله تعالى: (حين يريحون وحين تسرحون) (١)؟

قلنا: لأن الأتعام في وقت الراحة وهي ردها عشيأ إلى المراح تكون أجمل وأحسن، لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية في مشيها يتبع بعضها بعضاً، بخلاف وقت السرح وهو إخراجها إلى المراعى، فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) (٢) إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس، فلا امتنان فيه وإن أريد لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس، فهم لا يبلغون عليها أيضاً إلا بشق الأنفس، وهو مشتقتها فما فائدة ذلك؟

قلنا: معناه وتحمل أثقالكم إلى أجسامكم وأمتعتكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلا بجهد ومشقة، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم؟ والمراد بالمشقة: المشقة التي تنشأ من المشيء، أو من المشيء مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقة السفر، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل، فظهر فائدة ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) (٣) يقتضى حرمة أكل لحم الخيل، كما اقتضاها في البغال والحمير، من حيث إنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير الركوب والزينة،

(١) سورة النحل ٦.

(٢) سورة النحل ٧.

(٣) سورة النحل ٨.

ومن حيث إن التعليل بعلّة تقتضى الانحصار فيها، كقولك: فعلت هذا لكذا، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أو له مع غيره إلا إذا كان أحدهما جهة من الآخر؟

قلنا: ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه.

فإن قيل: إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى: **(والأنعام خلقها لكم فيها دماء ومنافع)** (١) والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفاً لا كل منفعة، فثبت مثل ذلك في الخيل والبغال والحمير؟

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته في الأنعام لثبت حل الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام، لما ثبت، لأنه لو ثبت في الخيل لثبت في البغال والحمير كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتاً شاملاً للكل بالقياس على ثبوته في الأنعام، الجواب على الجهة الثانية في الأصل السؤال، أن هذه ليست لام التعليل بل لام التمكين كقوله تعالى: **(جعل لكم الليل لتسكنوا فيه)** (٢) ومع هذا يجوز في الليل غير السكون.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف السماء: **(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات)** (٣) ولم يقل كل الثمرات مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء؟

قلنا: كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما ينبت في الدنيا بعض

(١) سورة النحل ٥.

(٢) سورة يونس ٦٧، سورة غافر ٦١.

(٣) سورة النحل ١١.

منها نموذجاً وتذكراً، فالتبعض بهذا الاعتبار، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا، ومن يجوز (زيادة) (١) (من) في الآيات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق) (٢) المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل قوله تعالى بعده: (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) (٣) فكيف جرى بمن المختصة بأولى العلم والعقل؟

قلنا: خاطبهم على معتقدهم، لأنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولى العلم، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضاً: (ألهم أوجل يمشون بها... الآية) (٤) أجرى عليهم ضمير أولى العلم والعقل لما قلنا، ويرد على هذا الجواب أن يقال: إذا كان معتقدهم خطأ وباطلاً فالحكمة تقتضى أن ينزعوا عنه ويقلعوا لا أن يبقوا عليه ويقرؤا في خطابهم على معتقدهم إيهام لهم أن معتقدهم حق وصواب، وجوابه أن الغرض من الخطاب الافهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومنهومهم فقال: أفمن يخلق كما لا يخلق، لاعتقدوا أن المراد بالثاني غير الأصنام من الجهاد، الثاني: قال ابن الأنباري إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه في اقتضاء (من) كما غلب على الدواب في قوله تعالى: (فمنهم من يمشي

(١) في نسخة (ب).

(٢) سورة النحل ١٧.

(٣) سورة النحل ٢٠.

(٤) سورة الأعراف ١٦٥.

على بطنه... الآية) (١) وكما فى قول العرب: اشتبه على الراكب،
وجمله فما أدرى من ذا ومن ذا.

فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام، وسموها آلهة تشبيهاً بالله
فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضى أن يقال
لهم: إفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلنا: لما سوا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى فى تسميتها
باسمه، وعبادتها كعبادته، فقد سوا بين خالقها وبينها قطعاً فصح
الإنكار بتقديم أيهما كان، وإنما قدم فى الإنكار عليهم ذكر الخالق،
أما لأنه أشرف، أو لأنه هو المقصود الأصلى من هذا الكلام (تنزيهاً
له) (٢) وتكريماً وإجلالاً وتعظيماً.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى فى وصف الأصنام (غير أحياء) بعد
قوله تعالى: (أموات) (٢)؟

قلنا: فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة كالنطف والبيض
والأجساد الميتة وذلك أبلغ فى موتها، كأنه قال أموات فى الحال
غير أحياء فى المآل، الثانى: أنه ليس وصفاً لها بل لعبادها، معناه:
وعبادها غير أحياء القلوب، الثالث: أنه إنما قال «غير أحياء» ليعلم
أنه أراد أموات فى الحال، لا أنها ستموت كما فى قوله تعالى: (إنك
ميت وإنهم ميتون) (٤).

فإن قيل: كيف عاب الأصنام أو عبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث،

(١) سورة النور ٤٥.

(٢) فى نسخة (ب).

(٢) سورة النحل ٢١.

(٤) سورة الزمر ٢٠.

فقال تعالى: (وما يشعرون أيمان يبعثون) (١) والمؤمنون الموحدون كذلك؟

قلنا: معناه وما تشعر الأصنام متى يبعث عبادها، فكيف تكون آلهة مع الجهل؟ أو معناه وما يشعر عبادها وقت بعثهم لا مفصلاً ولا مجملاً لأنهم ينكرون البعث، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملاً أنه يوم القيامة وأن لم يشعروه مفصلاً.

فإن قيل: قوله تعالى: (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) (٢) كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى بالسؤال المعاد في ضمن الجواب، ثم يقولون: هو أساطير الأولين؟ قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال، وجوابه في سورة الحجر في قوله تعالى: (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) (٤) وقال في موضع آخر: (لا تزد وزرًا ووزر أخرى) (٥)؟

قلنا: معناه ومن أوزار اضلال الذين يضلونهم، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة، ووزر كفر من أضلوا تسبباً فقوله تعالى: (أوزارهم

(١) سورة النحل ٢١.

(٢) سورة النحل ٢٤.

(٣) سورة الحجر ٦.

(٤) سورة النحل ٢٥.

(٥) سورة الأنعام ١٦٤، سورة الإسراء ١٥، سورة فاطر ١٨، سورة الزمر ٧.

كاملة) (١) يعنى أوزار الذنوب التى باشروها، وأما قوله تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» معناه وزر لا مدخل لها فيه، ولا تعلق له بها مباشرة ولا تسبياً، وتظير هاتين الآيتين الأخريان فى قوله تعالى: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطايكم) إلى قوله تعالى: (وأثقالا مع أثقالهم) (٢) وجوابهما مثل جواب هاتين الآيتين.

فإن قيل: قوله تعالى: (إنما هو لنا شئء... الآية) (٣) يدل على أن المعدوم شئء، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز، والأول منتف عند أكثر العلماء، والثانى منتف بالاجماع؟

قلنا: أما تسميته شيئاً فمجاز باعتبار ما يزول إليه، ونظيره قوله تعالى: (إن زلزلة الساعة شئء عظيم) (٤) وقوله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون) (٥) وأما الثانى فإن هذا الخطاب للتكوين يظهر به أثر المقدرة، فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب، لأنه يكون بالخطاب، فلا يسبقه بخلاف خطاب الأمر والنهى.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة) (٦) كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على

(١) سورة النحل ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت ١٢ - ١٣.

(٣) سورة النحل ٤٠.

(٤) سورة الحج ١.

(٥) سورة الزمر ٢٠.

(٦) سورة النحل ٤٩.

غيرهم، كما فى قوله تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء... الآية) (١) بل أولى، لأنه وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ (من) وهو الحية والأنعام، وهنا لو قال من فى السموات ومن فى الأرض لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه وتعيينه بلفظ من بل المجموع؟

قلنا: لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها، فجاء بما التى تعم النوعين وتشملها، ولو جاء بمن لخص العقلاء.

فإن قيل: قوله تعالى: (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) (٢) يقتضى أنه لو أخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدواب غير الناس، ومواخذة البرىء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الكفر، وبالدابة الدابة الظالمة وهى الكافر، كذا قاله ابن عباس، وقيل: معناه لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء، الثانى: أنه لم لا يجوز أن يكون (بمعنى) يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة فى إعدام الظلم ونفى وجود أثره، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم، ودليل جواز ذلك ما وجد فى زمان نوح عليه الصلاة والسلام فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض إلا من نجا فى السفينة، فلم تبقى على ظهر الأرض دابة، وكذا قال الله تعالى: (واقفوا فتنه لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) (٣) ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التى اقتضت فعله

(١) سورة النور ٤٥.

(٢) سورة الأنفال ٢٥.

(٣) سورة النحل ٦١.

عوض البريء فى الآخرة ما هو خير وأبقى، الثالث: أن كل انسان مكلف، فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره، لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضاً لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس، فإذا أعدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها.

فإن قيل: لا نسلم أن غير الانسان من الحيوان مخلوق لمصالح الانسان، وسنده أنه كان مخلوقاً قبل خلق الانسان بالنقل عن كتب الشريعة وغيرها، وقد جاء مصرحاً به فى الحديث فى باب الخلق من جامع الأصول: سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الانسان لكن هلاك غير الانسان معه يخفف عليه (١) ألم المصيبة، لا سيما إذا كان الهالك معه من جنسه، ولهذا قيل المصيبة إذا عمت طابت، سلمنا أن إهلاكه غيره معه مؤلم له، لكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته فأهلك تبعاً لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام فالنبات أيضاً خلق لمصلحته على قولكم فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للانسان أولى من إهلاك النبات، ولم يقل ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شيء؟

قلنا: الجواب عن الأول قوله تعالى: (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) (٢) وخلقته قبل الانسان لا ينفى خلقه لمصلحة الانسان، كما يعد (٣) عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والثياب لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم، (وعن) (٤) الثانى:

(١) وفى نسخة (ب) عنه.

(٢) سورة البقرة ٢٩.

(٣) وفى نسخة (ب) يشيد.

(٤) فى نسخة (ب).

أنا لا ندعى أنه يهلك مع الانسان، بل قبله لتؤلمه مشاهدة هلاك محبوبه ومآلوفه، (وعن) (١) الثالث: أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر، فيعدم النبات ثم يعدم بواسطة عدمه غير الانسان من الحيوان، ثم يعدم الانسان كذا جاء فى تفسير هذه الآية والآية التى فى آخر سورة فاطر، وهذا الترتيب أبلغ فى العذاب، وأعظم فى العقاب من تقديم إهلاك الحيوان على النبات لأن الانسان إذا بقى حيوانه بلا غلف كان أوجع له، مما إذا أبقى غلفه بلا حيوان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (من الجبال بيوتاً ومن الشجر) (٢) ولم يقل فى الجبال وفى الشجر والاستعمال إنما هو بفى يقال اتخذ فلان بيتاً فى الجبل أو فى الصحراء ونحو ذلك؟ قلنا: قال الزمخشري إنما أتى بلفظة (من) لأنه أراد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها فى كل جبل وكل الشجر ولا فى كل مكان من الجبل والشجر، وأنا أقول: إنه إنما ذكره بلفظة (من) لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما يشاهد ويرى من بناء بيوت النحل، لأنه اتخذ من طين أو عيدان فى الجبل والشجر كما تتخذ الطيور، فلو أتى بلفظة فى لم تدل على هذا المعنى ونظيره قوله تعالى: (وتفتحون الجبال بيوتاً) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) (٤) وأزواجنا ليست من أنفسنا لأنهن لو كن من أنفسنا

(١) فى نسخة (ب).

(٢) سورة النحل ٦٨.

(٣) سورة الأنعام ٧٤.

(٤) سورة النحل ٧٢.

لكن حراماً علينا ، فإن المتفرعة من الانسان لا يحل له نكاحها ؟
قلنا: المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء ، كما قال
تعالى: ((الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)) (١)
الثانى: أن المراد من جنسكم كما قال تعالى (٢): (لقد جاءكم
رسول من أنفسكم) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم
رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) (٤) عبر عن
الأصنام بالواو والنون وهما من خواص (٥) من يعقل ؟
قلنا: كان (فى) (٦) من يعبدونه من دون الله من يعقل كعزير
وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام فغلبهم.

فإن قيل: لما أفرد فى قوله تعالى: «ما لا يملك» ثم جمع فى قوله:
«ولا يستطيعون» ؟

قلنا: أفرد نظراً إلى لفظ ما ، وجمع نظراً إلى معناها ، كما قال
تعالى: (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على
ظهوره) (٧) فأفرد الضمير نظراً إلى لفظ ما ، وجمع الظهور نظراً
إلى معناها .

فإن قيل: ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه والمعنى واحد ،

(١) سورة النساء ١ .

(٢) ماقطة من نسخة (ب).

(٣) سورة التوبة ١٢٨ .

(٤) سورة النحل ٧٢ .

(٥) وفى نسخة (ب) خصائص .

(٦) فى نسخة (ب) .

(٧) سورة الزخرف ١٦ - ١٣ .

لأن نفى ملك الفعل هو نفى استطاعته، والرزق هنا اسم مصدر بدليل أعماله في (شيئاً) ؟

قلنا: ليس في يستطيعون ضمير مفعول وهو الرزق، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقاً، معناه لا يملكون أن يرزقوا، أو لا استطاعة لهم أصلاً في رزق أو غيره لأنهم جماد، الثاني: أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيداً أيضاً على اعتبار كون الرزق اسماً للعين لأن الإنسان يجوز (له) (١) أن لا يملك الشيء، ولكن يستطيع أن يملكه لوجود الأهلية والقدرة على اكتساب ملكه بخلاف هؤلاء فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (مملوكاً) بعد قوله تعالى: (عبداً) (٢) وما فائدة قوله: (لا يقدر على شيء) (٣) بعد قوله: (مملوكاً) ؟

قلنا: لفظ العبد يصلح للحر والمملوك، لأن الكل عبيد الله تعالى، فإن الله تعالى قال: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) (٤) فقال مملوكاً ليميز عن الحر، وقال: «لا يقدر على شيء» ليميز عن المأذون والمكاتب فإنهما يقدران على التصرف استقلالاً.

فإن قيل: المضروب به المثل اثنان، وهما المملوك والمرزوق رزقاً حسناً، فظاهره أن يقال هل يستويان، فكيف قال تعالى: (هل يستون) (٥) ؟

(١) في نسخة (ب).

(٢) سورة النحل ٧٥.

(٣) سورة النحل ٧٥.

(٤) سورة ص ٢٠.

(٥) سورة النحل ٧٥.

قلنا: لأنه أراد جنس الممالك وجنس المالكين، لا مملوكاً معيناً ولا مالكاً معيناً، الثاني: أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع، الثالث: أن (من) تقع على الجمع، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن يصير المعنى ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً وجماعة مالكين هل يستوون، وإنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل.

فإن قيل: (أو) في الخبر للشك، والشك على الله تعالى محال، فما معنى قوله تعالى: (إلا كلمح البصر أو هو أهرب) (١)؟

قلنا: قيل (أو) هنا بمعنى بل كما في قوله تعالى: (إلى مائة ألف أو يزيدون) (٢) وقوله: (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) (٣) وقوله: (فكان قاب قوسين أو أدنى) (٤) ويرد على هذا أن بل للاضراب، والاضراب رجوع عن الأخبار وهو على الله تعالى محال، وقيل: هى بمعنى الواو فى هذه الآيات، وقيل: (أو) للشك فى الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى، وكذا فى قوله تعالى: «فكان قاب قوسين أو أدنى» يعنى بالنسبة إلى نظر النبى عليه الصلاة والسلام، وقال الزجاج ليس المراد أن الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر، ولكن المراد وصف قدرة الله تعالى على سرعة الاتيان بها متى شاء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (سرابيل تقيكم الحر) (٥) ولم يقل والبرد، مع أن السرابيل وهى الثياب تلبس لدفع الحر والبرد، وهى

(١) سورة النحل ٧٧.

(٢) سورة الصافات ١٤٧.

(٣) سورة البقرة ٧٤.

(٤) سورة النجم ٧.

(٥) سورة النحل ٨١.

مخلوقة لهما؟

قلنا: حذف ذكر إحداها لدلالة ضده عليه، كما في قوله تعالى: (بيدك الخير) (١) ولم يقل والشر، كما في قول الشاعر:

وما أدرى إذا ييمت أرضاً

أريد الخير أيهما يلينى

أى أريد الخير لا الشر أو أريد الخير وأحذر الشر.

فإن قيل: فلم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد؟ قلنا: لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه، ولأنه أكثر وجوداً في العالم من الشر، وأما الحر فلاذن الخطاب بالقرآن أول ما يقع مع أهل الحجاز، والوقاية (من الحر) (٢) أهم عندهم لأن الحر في بلادهم أشد من البرد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) (٣) مع أن كلهم كافرون؟

قلنا: قال الحسن: المراد بالأكثر هنا الجمع، وفي هذا نظر لأن بعض الناس لا يجوز إطلاق اسم البعض على الكل، لأنه ليس لازماً له بخلاف عكسه.

فإن قيل: ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام: (وبنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) (٤) والله تعالى عالم بذلك؟

(١) سورة آل عمران ٢٦.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة النحل ٨٢.

(٤) سورة النحل ٨٦.

قلنا: لما أنكروا الشرك بقولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) (١) عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: (هؤلاء شركاؤنا) (٢) أى قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب طلباً للرحمة، وفراراً من الغضب، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه إعلام من لا يعلم، الثانى: أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا: «ربنا هؤلاء شركاؤنا» رجاء أن يلزم الله تعالى الأصنام ذنوبهم، لأنهم كانوا يعتقدون لها العقل والتمييز فيخف عنهم العذاب. فإن قيل: لم قالت الأصنام للمشركين: (إنكم لكاذبون) (٣) وكانوا صادقين فيما قالوه؟

قلنا: إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنهم عبدوها فى الدنيا فظهرت فضيحتهم، حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) (٤).

فإن قيل: إذا كان القرآن تبياناً لكل شيء من أمور الدين (٥) فمن أين وقع بين الأمة فى أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض؟ قلنا: إنما وقع الخلاف بين الأمة لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور

(١) سورة الأنعام ٢٢.

(٢) سورة النحل ٨٦.

(٣) سورة النحل ٨٦.

(٤) سورة مريم ٨١ - ٨٢.

(٥) قال تعالى: (وفرننا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) سورة النحل ٨٩.

الدين ليس مبيناً في القرآن نصاً بل بعضه مبين نصاً وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال، وطرق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلاف.

فإن قيل: كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصاً ولا استنباطاً، كعدد ركعات الصلوات ومقادير ديّات الأعضاء، ومدة السفر والمسح، والحيض، ومقدار حد الشرب، ونصاب الزكاة، والسرقة، وما أشبه ذلك مما يطول ذكره (١)؟

قلنا: القرآن تبياناً لكل شيء من أمور الدين، لأنه نص على بعضها، وأحال على السنة في بعضها بقوله تعالى: (وما أناكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (٢) وقوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى) (٣) وأحال على الاجماع أيضاً بقوله: (ويتبع غير سبيل المؤمنين... الآية) (٤) وأحال على القياس أيضاً بقوله: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) (٥) والاعتبار والنظر والاستدلال فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن فصح كونه تبياناً لكل شيء.

فإن قيل: كيف وحدت القدم ونكرت في قوله تعالى: (فتنزل قدم بعد ثبوتها) (٦) ولم يقل القدم أو الأقدام وهو أشد مناسبة لجمع

(١) وهذا من أبواب الرد على بعض المستشرقين والمستغربين ممن يرون خلاف ذلك، وانظر السؤال والجواب بعده.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة النجم ٢.

(٤) سورة النساء ١١٥.

(٥) سورة الحشر ٢.

(٦) سورة النحل ٩٤.

الإيمان؟

قلنا: وحدت ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الجنة، فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قيل: (من) تناول الذكر والأنثى لغة، ويؤيده قوله تعالى: (من) جاء بالحسنة... الآية) (١) وقوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره... الآية) (٢) وقوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (٣) وقوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) (٤) ونظائره كثيرة، فكيف قال تعالى هنا: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى) (٥)؟

قلنا: إنما صرح بذكر النوعين هنا بسبب اقتضى ذلك، وهو أن النساء قلن: ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فينا خير لذكرنا به، فأنزل الله تعالى: (إن المسلمين والمسلمات... الآية) (٦) وأنزل: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى) (٧) فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات. فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلنحيينه حياة طيبة) (٨) وقد رأينا كثيراً من الصالحاء الأتقياء قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن

(١) سورة الأنعام ١٦٠.

(٢) سورة الزلزلة ٧.

(٣) سورة البقرة ١٨٥.

(٤) سورة آل عمران ٩٧.

(٥) سورة النحل ٩٧.

(٦) سورة الأحزاب ٣٥.

(٧) سورة النحل ٩٧.

(٨) سورة النحل ٩٧.

وأنواع البلاء أعتبر بالأمثل فالأمثل إلى الأنبياء؟

قلنا: المراد بالحياة الطيبة الحياة فى القناعة، وقيل: فى الرزق الحلال، وقيل: فى رزق يوم بيوم، وقيل: فى التوفيق للطاعات، وقيل: فى حلاوة الطاعات، وقيل: فى الرضا بالقضاء، وقيل: المراد به الحياة فى القبر، كما قال تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم) (١) وقيل: المراد به الحياة فى الدار الآخرة، وهى الحياة الحقيقية لأنها حياة لا موت بعدها دائمة فى النعيم المقيم، والظاهر أن المراد به الحياة فى الدنيا لقوله تعالى: (ولنجزيهم أجورهم) (٢) وعدمهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال: (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) (٤) وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين فهداهم الله تعالى إلى الإيمان؟

قلنا: المراد بهذا الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر، ويزيده ما بعد ذلك من الآيتين.

فإن قيل: ما معنى إضافة النفس إلى النفس فى قوله تعالى: (يوم تأفى كل نفس تجادل عن نفسها) (٥) والنفس ليس لها نفس

(١) سورة آل عمران ١٦٩.

(٢) سورة النحل ٩٧.

(٣) سورة آل عمران ١٤٨.

(٤) سورة النحل ١٠٧.

(٥) سورة النحل ١١١.

أخرى؟

قلنا: النفس اسم للجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير، والتقرن وقيل: هي (١) اسم لجملة الانسان لقوله تعالى: (كل نفس ذائقة الموت) (٢) وقوله تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالأنفس) (٣) والنفس أيضاً اسم لعين الشيء وذاته كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة أى عينها وذاتها فكأنه قال: يوم تأتى كل نفس تجادل عن ذاته، لا يهمه شأن غيره، كل يقول نفسى نفسى فاختلف معنى النفسين (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فأذاقها الله لباس الجوع) (٥) ولم يقل فكساها الله لباس الجوع، والأذاقة لا تناسب اللباس وإنما تناسبه الكسوة؟

قلنا: الأذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع، (من حيث إن) (٦) الجوع يقتضى الأكل فيقتضى الذوق، وإن كانت لا تناسب المستعار وهو اللباس، والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس، ولا تناسب المستعار له وهو الجوع، وكلاهما من دقائق علم البيان يسمى الأول منها تجريد الاستعارة، والثانى ترشيح الاستعارة، فجاء القرآن

(١) وفى نسخة (ب) هو وهو جائز.

(٢) سورة آل عمران ١٨٥، سورة الأنبياء ٣٥، سورة العنكبوت ٥٧.

(٣) سورة المائدة ٤٥.

(٤) ولعل الراجح أن كلمة «النفس» فى القرآن فيما يتعلق بالإنسان لم تأت إلا بمعنى الذات الإنسانية، وأما إطلاقها فى غير القرآن على الروح فمجاز، لأن الروح سبب وجود النفس، من باب إطلاق السبب على المسبب وهو جائز.

(٥) سورة النحل ١١٢.

(٦) فى نسخة (ب).

العزیز فی هذه الایة بتجريد الاستعارة، وقد ذكرنا تمام هذا فی کتابنا المسمى «روضة الفصاحة» (١) ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والتحول فهو كقوله تعالى: (ولباس التقوى) (٢) استعار اللباس لما يظهر على المتقى من أثر التقوى، وقيل: فيه إضمار تقديره فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف.

(١) وهو مخطوط موجود فی مكتبة جامعة الملك سعود، وهو مما يؤكد صحة نسبه الكتابین إليه.
(٢) سورة الأنعام ٢٦.

سورة الإسراء

فإن قيل: كيف قال تعالى: (بعده ليلاً) (١) ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنما سماه عبداً في أرفع مقاماته وأجلها وهو هذا، وقوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى) (٢) لئلا تغلط فيه أمته وتضل (فيه كما) (٣) ضلت أمة المسيح به فدعته إلهاً، وقيل: لئلا يتطرق إليه الكبر والعجب.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما فائدة ذكر الليل؟ قلنا: فائدته أنه ذكر منكراً ليدل على قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس، مسيرة أربعين ليلة، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية، ويؤيده قراءة عبدالله وحذيفة (من الليل) أي من بعض الليل كقوله تعالى: (ومن الليل فتهجد به فائتة لك) (٤) فإنه أمر بالتقيام في بعض الليل.

فإن قيل: أي حكمة من نقله عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة؟

قلنا: لأن بيت المقدس محشر الخلائق، فأراد الله تعالى أن تطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه، الثاني: أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء، فأراد الله تعالى أن

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة النجم ١٠.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة الإسراء ٧٩.

يشرفهم بزيارته عليه الصلاة والسلام، الثالث: أنه أسرى به إلى بيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة، فيدلهم اخباره بذلك مطابقاً لما رأوا وشاهدوا على صدقه في حديث الإسراء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (باركنا حوله) (١) ولم يقل باركنا عليه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله خصوصاً المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد (بها) (٢) البركة الدنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه، وقيل: أراد بالبركة الدينية، فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومتعبدهم، ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال تعالى: «باركنا حوله» لتكون بركته أعم وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركاً فيه بالطريق الأولى، خلاف العكس، وقيل: المراد البركة الدنيوية والدينية ووجهها ما مر، وقيل: المراد باركنا حوله من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض، لأن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: (إنه كان عبداً شكوراً) (٣) بما قبله ومناسبته له؟

قلنا: معناه لا تتخذوا من دوني رباً فتكونوا كافرين، ونوح كان عبداً

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة الإسراء ٢.

شكوراً وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فتأسوا به في الشكر كما تأسى به آبائكم.

فإن قيل: (وإن أسأتم فلها) (١) ولم يقل فعلها كما قال تعالى: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (٢)؟

قلنا: قيل اللام هنا بمعنى على كما في قوله تعالى: (وقلله للجبين) (٣) وقوله تعالى: (ويخرون للأذقان) (٤) وقيل: معنا فلها رجاء الرحمة أي فلها مخلص بالتوبة والاستغفار، والصحيح أن اللام هنا على بابها لأنها للاختصاص، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة، وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة البقرة في قوله تعالى: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (٥).

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (وجعلنا الليل والنهار آيتين) (٦) وقال في قصة مريم وعيسى عليهما السلام: (وجعلناها وابنها آية للعالمين) (٧) (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (٨) مع أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان وحده آيات شتى حيث كلم الناس في المهد، وكان يحيى الميت، وبريء الأكمه والأبرص، ويخلق الطير إلى غير ذلك من الآيات، وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فعل؟

(١) سورة الإسراء ٧.

(٢) سورة فصلت ٤٦، سورة البجائية ١٥.

(٣) سورة الصافات ١٠٢.

(٤) سورة الإسراء ١٠٩.

(٥) سورة البقرة ٢٨٦.

(٦) سورة الإسراء ١٢.

(٧) سورة الأنبياء ٩١.

(٨) سورة المؤمنون ٥٠.

قلنا: إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم يتم إلا بهما، وهى ولادة ولد من غير فعل، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر، الثانى: أن لفظ الآية الأخرى محذوفة إيجازاً واختصاراً تقديره: وجعلناها آية وابنها آية، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وجعلنا آية النهار مبصرة) (١) (والابصار) (٢) من صفات ما له حياة، والمراد بآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه وكلاهما غير مبصرة؟

قلنا: المبصرة فى اللغة بمعنى المضيئة، نقله الجوهري وقال غيره: معناه بينة واضحة مضيئة، ومنه قوله تعالى: (وآتيناهم النافثة مبصرة) (٣) أى آية واضحة مضيئة وقوله تعالى: (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) (٤) الثانى: معناه مبصراً بها إن كانت الشمس أو فيها إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى: (والنهار مبصراً) (٥) أى مبصراً فيه ونظيره قولهم ليل نائم ونهار صائم أى ينام فيه، ويصام فيه، الثالث: أنه فعل رباعى منقول بالهمزة عن الثلاثى الذى هو بصر بالشئ أى علم به فهو بصير أى عالم معناه أنها تجعلهم بصراء فيكون أبصره، بمعنى بصره، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى: (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) (٦) أى تبصرهم فتجعلهم بصراء، الرابع: أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر

(١) سورة الإسراء ١٢.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة الإسراء ٥٩.

(٤) سورة النمل ١٢.

(٥) سورة يونس ٦٧، سورة النمل ٨٦، سورة غافر ٦١.

(٦) سورة النمل ١٢.

وقدرة، وهو متحرك بإرادته فى امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الانسان.

فإن قيل: ما الفائدة فى ذكر عدد السنين فى قوله تعالى: (ولتعلموا عدد السنين والحساب) (١) مع أنه لو اقتصر على قوله: «لتعلموا الحساب» دخل فيه عدد السنين إذ هو من جملة الحساب؟ قلنا: العدد كله (٢) موضع الحساب كبذن الانسان موضوع الطب وادخال المكلفين موضوع الفقه، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءاً منه، كبذن الانسان ليس جزءاً من الطب، ولا أفعال المكلفين جزءاً من الفقه، فكنا العدد ليس جزءاً من الحساب، وإنما ذكر عدد السنين وقدمه على الحساب لأن المقصود الأصلى من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والأجال.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) (٣) وقال فى موضع آخر: (وكفى بنا حاسبين) (٤)؟ قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففى موقف يكل الله تعالى حسابهم إلى أنفسهم وعلمه محيط به، وفى موقف يحاسبهم هو، وقيل: هو الذى يحاسبهم لا غيره، وقال تعالى: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» أى يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك، فهو توبيخ وتقرير لا أنه تفويض لحساب العبد إلى نفسه، وقيل: من يرد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه، ومن يرد مسامحته فيه يكل

(١) سورة الإسراء ١٢.

(٢) وفى نسخة (أ) كل.

(٣) سورة الإسراء ١٤.

(٤) سورة الأنبياء ٤٧.

حسابه إليه .

فإن قيل: قوله تعالى: (ولا تزد وازدة وزد أخرى) (١) يرد ما جاء في الأخبار أن في يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمديون ويزاد في حسنات رب الدين، والشخص الذي أغتیب، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما، وكذلك جاء هذا في سائر المظالم؟

قلنا: المراد من الآية أنها لا تحمله اختياراً رداً على الكافرين حيث قالوا للذين آمنوا: (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم...الآيتان) (٢) والمراد من الخبر أنها تحمله كرهاً فلا تنافى بينهما، وقد سبق مرة (هذا) (٣) في آخر سورة الأنعام.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) (٤) وقال في آية أخرى: (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (٥)؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: أمرناهم بالطاعة ففسقوا، وقال الزجاج ومثله قولهم: أمرته ففصاني، وأمرته فخالفتني، لا يفهم منه الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة، الثاني: أن معناه كثرنا مترفيها يقال: أمرته - بالقصر والمد - بمعنى كثرته وقد قرئ بهما، ومنه الحديث: خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة، أي كثير النتائج والنسل، الثالث: أن معناه أمرنا مترفيها - بالتشديد - يقال أمرت

(١) سورة الإسراء ١٥.

(٢) سورة العنكبوت ١٢.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة الإسراء ١٦.

(٥) سورة الأعراف ٢٨.

فلاناً بمعنى أمرته أى جعلته أميراً فمعنى الآية سلطانهم بالامارة،
ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ أمرنا - بالتشديد - وقال
الزمخشري رحمه الله لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة
ففسقوا، (لأن حذف ما لا دليل عليه فى اللفظ غير جائز فكيف
يقدر حذف ما قام الدليل فى اللفظ على تقيضه، وذلك أن قوله:
«فسقوا» (١) يدل على أن المأمور به المحذوف هو الفسق وهو
كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ لا يفهم
منه إلا المأمور به، القيام والتقعود والقراءة بخلاف قولهم أمرته
فعضاني وأمرته فخالفتني حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية
والمخالفة، لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض
الأمر وينافيه مأموراً به فيكون المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول
عليه ولا منوى، والمتكلم بمثل هذا لا ينوى لأمره مأموراً به بل
كأنه قال: كان منى أمر فلم تكن منه طاعة أو فكانت منه مخالفة كما
تقول: مر زيدا يطعك، وكما تقول فلان يأمر وينهى ويعطى
ويمنع ويصل ويقطع ويضر وينفع فإنك لا تنوى فيه مفعولاً.
فإن قيل: على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم أفسقوا وهذا
لا يكون من الله تعالى، فلا يقدر الفسق محذوفاً ولا مأموراً به؟
قلنا: الفسق المحذوف المقدر مجاز عن اترافهم وصب النعم عليهم
صباً أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصى ووسيلة إلى اتباع
الشهوات، فكانهم أمروا بذلك، لما كان السبب فى وجوده الاتراف
وفتح باب النعم.

فإن قيل: لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء،

(١) ماقط من نسخة (ب).

وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم
بالطاعة ففسقوا؟

قلنا: لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريداً من
مخاطبة علم الغيب، لأنه أضمر ما لا دليل عليه في اللفظ، بل أبلغ،
لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه، وهو قوله: «ففسقوا»
فكانه أظهر شيئاً وادعى إضمار نقيضه، فكان صرف الأمر إلى ما
ذكرنا من المجاز هو الوجه، هذا كله كلام الزمخشري رحمه الله،
ولا أعلم أحداً من أئمة التفسير صار إليه غيره، ثم أنه أيده فقال
ونظيره أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده
عليه، تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك،
تريد لو شاء الإحسان لأحسن ولو شاء الإساءة لأساء، فلو ذهبت
تضمر خلاف ما أظهرت وتعنى لو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو
شاء الإحسان لأساء إليك، وتقول قد دلت حال من أسندت إليه
المشيئة أنه من أهل الإحسان دائماً أو من أهل الإساءة دائماً، فيترك
الظاهر المنطوق به ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم
تكن على بسداد.

فإن قيل: على الوجه الأول لو كان المضمرة المحذوف الأمر بالطاعة
لما كان مخصوصاً بالمترفين، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين
وغيرهم؟

قلنا: أمر الله تعالى بالطاعة وإن كان عاماً، ولكن لما كان صلاح
الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزماً لصلاح الرعية وفسادها غالباً
خصتهم بالذكر، ويؤيد هذا ما جاء في الخبر: صلاح الوالى صلاح
الرعية وفساد الوالى فساد الرعية).

فإن قيل: قوله تعالى: (من كان يريد العاجلة... الآية) (١) (يدل) (٢) على أن من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار والأمر بخلافه؟

قلنا: المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلا كافراً أو منافقاً، ولهذا قال ابن جرير هذه الآية لمن لا يوقن بالمعاد، فأما من أراد الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة كيف يكون مذموماً، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلفة وعن جميع ما فيها لا يتصور في حق البشر، ولو كانوا أنبياء، فعلم أن المراد ما قلنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما كان عطاء ربك محظوراً) (٣) أى ممنوعاً، ونحن نرى ونشاهد في الواقع أن واحد أعطاه قناطر مقلوبة وآخر منعه العطاء حتى الدانق والحبة؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرزق والله تعالى سوى في ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر والمطيع والعاصي ولم يمنع الرزق على العاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق، وإنما التفاوت بينهم في مقادير (٤) الإمداد.

فإن قيل: كيف منع الله تعالى الكفار التوفيق والهداية ولم يمنعهم الرزق؟

قلنا: لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة،

(١) سورة الإسراء ١٨.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة الإسراء ٢٠.

(٤) في نسخة (ب) مقامات.

بأن يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فآمنّا، الثّاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة، فيتعطل معنى اسمه الحليم عن معناه لأنّ الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، الثّالث: أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء والأخساء، والله تعالى منزه عن ذلك، وقيل: إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل وعدل الله تعالى عام، وهبة التوفيق والهداية فضل، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ما فائدة قوله: «عندك» في قوله تعالى: (إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ) (١)؟

قلنا: فائدته أنهما يكبران في بيته وكنفه ويكونان كالأولاد عليه لا كأهل لهما غيره، وربما تولى منهما من المشاق ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا) (٢) ولم يقل ولا تزنوا؟

قلنا: لو قال ولا تزنوا كان نهياً عن الزنا لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك، ولما قال: «ولا تقربوا» كان نهياً عنه وعن مقدماته، لأن فعل المقدمات قربان (٣) للزنا.

فإن قيل: الإشارة بقوله تعالى: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً) (٤) إلى ماذا على قراءة التنوين؟

(١) سورة الإسراء ٢٢.

(٢) سورة الإسراء ٢٢.

(٣) وفي نسخة (ب) قربان.

(٤) سورة الإسراء ٢٨.

قلنا: الإشارة إلى كل ما هو منهي عنه من جميع ما ذكر من قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) (١) إلى هذه الآية، لا إلى جميع ما ذكر، فإن فيه حسناً وميثاً، وقال أبو علي: هو إشارة إلى قوله تعالى: «ولا تقف» وما بعده لأنه لا حسن فيه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) (٢) وقوله: «من فيهن» يتناول الأدميين كلهم، والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) (٣) والتسبيح هو التنزيه من كل ما لا يليق بصفات جلاله وكماله، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك فأين تسبيحهم؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى: «ومن فيهن» راجع إلى السموات فقط، الثاني: أنه راجع إلى السموات والأرض والمراد بقوله تعالى: «ومن فيهن» يعنى من المؤمنين، فيكون عاماً أريد به الخاص، وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح المسند إلى (من فيهن) التسبيح بلسان المقال، الثالث: أن المراد به التسبيح بلسان الحال، حيث يدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عما لا يجوز عليه ولا يليق به من سوء، ويؤيده قوله تعالى بعده: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) (٤) والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال.

(١) سورة الإسراء ٢٢.

(٢) سورة الإسراء ٤٤.

(٣) سورة الإسراء ٤٤.

(٤) سورة الإسراء ٤٤.

فإن قيل: لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال: (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (١) لأن التسبيح بلسان الحال مفقوه لنا أى مفهوم ومعلوم؟

قلنا: الخطاب بقوله تعالى: (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٢) للكفار، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لا يفقهون تسبيح الموجودات على ما ذكرنا من التفسير، لأنهم لما جعلوا لله شركاء وزوجاً وولداً دل ذلك على عدم فهمهم تسبيح الموجودات وتنزيهها، وعدم اتضاح دلائل الوحدانية لهم لأن الله تعالى طبع على قلوبهم.

فإن قيل: (من فيهن) (٣) وهم الملائكة والثقلان يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازاً، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد، وهو قوله تعالى: «تسبح»؟
قلنا: التسبيح المجازى بلسان الحال حاصل من الجميع، فيحمل عليه دفعاً لما ذكرتم من المحذور.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يوم يدعوكم فيستجيبون بحمده) (٤) والمستعمل الشائع دعائه فاستجاب لأمره أو بأمره أى أجاب؟
قلنا: قال ابن عباس: المراد بقوله: «بحمده» بأمره، وقال سعيد بن جبير: إذا دعا الله الخلاق للبعث يخرجون من قبورهم، وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك، وقال

(١) سورة الإسراء ٤٤.

(٢) سورة الإسراء ٤٤.

(٣) سورة الإسراء ٤٤.

(٤) سورة الإسراء ٢٢.

غيره: وهم يقولون: (الحمد لله الذى صدقنا وعده) (١) فعلى هذا تكون الباء بمعنى مع كما فى قوله تعالى: (فنبئت بالدهن) (٢) وقوله تعالى: (وسبح بحمد ربك) (٣).

فإن قيل: كيف أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله تعالى: (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) (٤) ثم خص داود بالذكر، فقال: (وآتيناه داود زبوراً) (٥)؟

قلنا: لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء فى زمن واحد، قال الله تعالى: (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (٦) وقال تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) (٧) الثانى: قوله تعالى: (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) (٨) إشارة إلى تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: (وآتيناه داود زبوراً) (٩) دلالة على وجبة تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم، لأن ذلك مكتوب فى زبور داود عليه الصلاة والسلام وإليه الإشارة بقوله تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور من

(١) سورة الزمر ٧٤.

(٢) سورة المؤمنون ٢٠.

(٣) سورة طه ١٢٠، سورة غافر ٥٥، سورة ق ٢٩، سورة الطور ٤٨.

(٤) سورة الإسراء ٥٥.

(٥) سورة الإسراء ٥٥.

(٦) سورة ص ٢٠.

(٧) سورة ص ٢٦.

(٨) سورة الإسراء ٥٥.

(٩) سورة الإسراء ٥٥.

بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (١) يعنى محمداً عليه الصلاة والسلام وأمه.

فإن قيل: لم نكر الزبور هنا وعرفه فى قوله تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور بعد الذكر) (٢)؟

قلنا: يجوز أن يكون الزبور من الاعلام التى تستعمل بالآلف واللام وبغيرهما كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوها، الثانى: أنه نكره لأنه أراد وآتينا داود بعض الزبور وهى الكتب، الثالث: أنه نكره لأنه أراد به ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور فسمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآناً فقال تعالى: (وهزأنا هرون... الآية) (٣) وقال: (بما أوحينا إليك هذا القرآن) (٤) وأراد به سورة يوسف عليه الصلاة والسلام، وقال: (وهو أن الفجر) (٥) أى القرآن المتلو فى صلاة الفجر.

فإن قيل: قوله تعالى: (فلا يملكون كشف الضر عنكم) (٦) مفعن عن قوله تعالى: (ولا تحويلاً) (٧) لأنهم إذا لم يستطيعون كشف الضر لا يستطيعون تحويله، لأن تحويل الضر نقله من محل وإثباته فى محل آخر، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما، وكشف الضر

(١) سورة الأنبياء ١٠٥.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٥.

(٣) سورة الإسراء ١٠٦.

(٤) سورة يوسف ٢.

(٥) سورة الإسراء ٧٨.

(٦) سورة الإسراء ٥٦.

(٧) سورة الإسراء ٥٦.

مجرد إزالته ومن لا يقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الاثبات؟ والمراد بالآية كشف الفقر والمرض والقحط ونحوها؟

قلنا: التحويل له معنيان أحدهما ما ذكرتم، والثاني: التبديل، ومنه قولهم: حولت القميص قباء، والفضة خاتماً، وأريد بالتبديل هنا الكشف لأن في الكشف المنفى في الآية تبديلاً، فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة، والفقر متى كشف يبدل بالغنَى، والقحط متى كشف يبدل بالخصب، وكذا جميع الأضداد فأطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة، فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا كشفاً ما، ولهذا لم يقل ولا تحويله، وهذا الجواب مما فتح الله تعالى على به من خزائن وجوده، ونظيره ما ذكرناه في سورة النحل في قوله تعالى: (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) (١).

فإن قيل: قوله تعالى: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون... الآية) (٢) فيها أسئلة أولها: أن الله تعالى لا يمنعه عما يريد من مانع، فإن أراد إرسال الآيات كيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء، وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة، الثاني: أن الإرسال يتعدى بنفسه قال الله تعالى: (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه) (٣) فأى حاجة إلى

(١) سورة النحل ٧٢.

(٢) سورة الإسراء ٥٩.

(٣) سورة نوح ١.

الباء؟، الثالث: أن المراد بالآيات هنا ما اقترحه أهل مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جعل الصفا ذهباً، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة، وإنزال كتاب مكتوب من السماء ونحو ذلك، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدوها فكيف كذبوها؟، الرابع: تكذيب الأولين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز أن لا يكذب الآخرون، الخامس: أى مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى: (وَأَنفِصْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مَبْصُورَةً) (١)، السادس: ما معنى وصف الناقة بالابصار؟، السابع: أن الظلم يتعدى بنفسه قال الله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) (٢) فأى حاجة إلى الباء؟، وهلا قال فظلموها يعنى بالعقر والقتل؟، الثامن: أن قوله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا) (٣) يدل على الإرسال بها وقوله تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ) (٤) يدل على عدم الإرسال بها؟

قلنا: الجواب على الأول: أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، (وعن) (٥) الثانى: أن الباء لتعديّة الإرسال إلى المرسل به، لا إلى المرسل لأن المرسل محذوف وهو الرسول، تقديره: وما منعنا أن نرسل الرسول بالآيات، والإرسال يتعدى إلى المرسل نفسه وإلى المرسل به بالباء، وإلى المرسل إليه بالى قال الله

(١) سورة الإسراء ٥٩.

(٢) سورة النساء ١١٠.

(٣) سورة الإسراء ٥٩.

(٤) سورة الإسراء ٥٩.

(٥) فى نسخة (ب).

تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائته) (١) (وعن) (٢) الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: (بها) (٣) عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة كأنه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحها أهل مكة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة يريد المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم، (وعن) (٤) الرابع: أن سنة الله تعالى في عباده أن من اقترح آية على الأنبياء وأتوه بها فلم يؤمن عجل الله هلاكه، والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكة لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنه قضى وقدر في سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة، فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسل بها فيصير معنى الآية وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا فربما كذب بها قومك فأهلكوا، (وعن) (٥) الخامس: أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين منها واحدة وهي ناقة صالح عليه الصلاة والسلام، لأن آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم، (وعن) (٦) السادس: أن معنى مبصرة دالة كما

(١) سورة هود ١٦.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة الإسراء ٥٩.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) في نسخة (ب).

(٦) في نسخة (ب).

يقال: الدليل مرشد وهاد، وقيل: مبصراً بها كما يقال: ليل نائم ونهار صائم أى ينام فيه ويصام فيه، وقيل: معناه مبصرة يعنى أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه الصلاة والسلام، ويعضد هذا قراءة من قرأ مبصرة بفتح الميم والصاد أى تبصرة، وقيل: مبصرة صفة لآية محذوفة تقديره: آية مبصرة أى مضيئة بينة، (وعن) (١) السابع: أن الباء ليست لتعديّة الظلم - هنا - إلى الناقّة بل معناه فضلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها، وقيل: الظلم - هنا - الكفر، فمعناه فكفروا بها، فلما ضمن الظلم معنى الكفر عداه تعديته، (وعن) (٢) الثامن: أن المراد بالآيات ثانياً (٣) العبر والدلالات لا الآيات التى اقترحها أهل مكة.

فإن قيل: كيف قال: (والشجرة الملعونة فى القرآن) (٤) وليس فى القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة فى القرآن، الثانى: أن معناه الملعون أكلوها وهم الكفرة، الثالث: أن الملعونة بمعنى المذمومة كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما وهى مذمومة فى القرآن بقوله تعالى: (إن شجرة الزقوم طعام الأنيم) (٥) وبقوله تعالى: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) (٦)، الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار ملعون، وفى القرآن الاخبار عن

(١) فى نسخة (ب).

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) وفى نسخة (ب) آيتا.

(٤) سورة الإسراء ٦٠.

(٦) سورة الصافات ٦٥.

(٥) سورة الدخان ٤٣.

ضررها وكرهتها، الخامس: أن اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد، فالملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى، المبعد عنها، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة، لأنها في قعر جهنم، وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: (إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم) (١) وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

فإن قيل: كيف خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم بقوله تعالى: (أفمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) (٢) ولم خصهم بنفى الظلم عنهم بقوله تعالى: (ولا يظلمون فتيلاً) (٣) مع أن أصحاب الشمال يقرءون كتابهم ولا يظلمون أيضاً؟

قلنا: إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حسة اللسان، وتتعتع الكلام، والعجز عن إقامة الحروف فتكون قراءتهم كلاً قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها (٤) ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القاريء لأهل المحشر: (هاؤم أهراءوا كتابيه) (٥) وأما قوله تعالى: (ولا يظلمون فتيلاً) (٦) فهو عائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين،

(١) سورة الصافات ٦٥.

(٢) سورة الإسراء ٧١.

(٣) سورة الإسراء ٧١.

(٤) وفي نسخة (ب) أثبتها.

(٥) سورة الحاقة ١٩.

(٦) سورة الإسراء ٧١.

الثانى: أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصهم بذلك لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون، ويعتقدون (ذلك بخلاف أصحاب الشمال فإنهم يعتقدون) (١) أو يظنون أنهم يظلمون، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى: (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) (٢).

فإن قيل: كيف قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء) (٣) يعنى الآيات (إلا رب السموات والأرض بصائر) (٤) يعنى بينات وحججاً واضحات، وفرعون لم يعلم ذلك لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى: (أنى لأظنك يا موسى مسحوراً) (٥) أى مخدوعاً أو قد سحرت أو ساحراً مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال، بل كان يؤمن به، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى الرشاد (٦) ولهذا قرأ على رضى الله عنه: «لقد علمت» بضم التاء، وقال: والله ما علم عدو الله، ولكن موسى هو الذى علم، واختار الكسائى وثعلب قراءة على ونصراها بأنه لما نسب موسى إلى أنه مسحوراً علمه بصحة عقله بقوله: «لقد علمت»؟

(١) ماقط من نسخة (ب).

(٢) سورة طه ١١٢.

(٣) سورة الإسراء ١٠٢.

(٤) سورة الإسراء ١٠٢.

(٥) سورة الإسراء ١٠١.

(٦) قال تعالى: (بل دان على القلوبهم ما كانوا يكسبون) سورة المطففين

قلنا: معناه لقد علمت لو نظرت نظراً صحيحاً أو لقد علمت نظراً إلى الحجة والبرهان، ولكنك معاند مكابر تخشى قوات دعوى الألية لو صدقتني، فكان فرعون ممن أضله الله على علم، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة على رضى الله عنهما ويمينه فاحتج بقوله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (١).

فإن قيل: كيف قال موسى عليه الصلاة والسلام: (وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً) (٢) وموسى كان عالماً بذلك لا شك عنده فيه؟ قلنا: قال أكثر المفسرين: الظن هنا بمعنى العلم، كما في قوله تعالى: (الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم) (٣) وإنما أوتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه، كأنه قال إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مشبوراً، والمشبور الهالك والمصروف عن الخير أو الملعون أو الخاسر.

فإن قيل: كيف كرر تعالى الاخبار بالخرور الحاليين، وهما خروجهم في حال كونهم ساجدين، وفي حال كونهم باكين؟ قلنا: إنه أراد بالخرور الأول الخرور في حيال سماع القرآن أو قراءته، وبالخرور الثانى: الخرور في سائر الحالات وباقيها. فإن قيل: الحمد إنما يكون على نعمة أنعم الله بها على العبد كما في قوله تعالى: (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) (٤) و (الحمد

(١) سورة النمل ١٤.

(٢) سورة الإسراء ١٠٢.

(٣) سورة البقرة ٤٦.

(٤) سورة فاطر ٣٤.

لله الذى هدانا لهذا) (١) و(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) (٢) لأن فيها من المنافع لنا ما لا يعد ولا يحصى، فأى نعمة حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك ولا ناصر حتى قال تعالى: (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً... الآية) (٣) ؟

قلنا: النعمة فى ذلك أن الملك إذا كان له ولد وزوج فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده وزوجه، وإذا لم يكن له ولد وزوج كان جميع انعامه واحسانه مصروفاً إلى عبيده، فكان نفى اتخاذ الولد مقضياً مزيد الإنعام عليهم، وأما نفى الشريك فلأنه يكون أقدر على الانعام على عبيده لعدم المزاحم، وأما نفى النصير فلأنه يدل على القوة والاستغناء، وكلاهما يقتضى القدرة على زيادة الإنعام.

(١) سورة الأعراف ٤٢.

(٢) سورة الأنعام ١.

(٣) سورة الإسراء ١١١.

سورة الكهف

فإن قيل: قوله تعالى: (قيماً) (١) بمعنى مستقيماً وقوله: (ولم يجعل له عوجاً) (٢) مغن عن قوله: «قيماً» لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة، لأن العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد به هنا نفي الاختلاف والتناقض في معانيه، وأنه لا يخرج منه شيء عن الصواب والحكمة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً؟

قلنا: قال الفراء: معنى قوله تعالى: «قيماً» قائماً على الكتب السماوية كلها، مصداقاً لها شاهداً بصحتها ناسخاً لبعض شرائعها، فعلى هذا لا تكرار فيه، وعلى القول المشهور يكون الجمع بينهما للتأكيد سواء قدر قيماً مقدماً أو أقر في مرتبته ونصب بفعل مضمَر تقديره: ولكن جعله قيماً، ولا بد من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير، وإلا يصير المعنى ولم يجعل له عوجاً مستقيماً، ولكن العوج لا يكون مستقيماً.

فإن قيل: اتخذ الله تعالى ولداً محال، فكيف قال تعالى: (ما لهم به من علم) (٣) وإنما يستقيم أن يقال: فلان ما له علم بكذا إذا كان ذلك الشيء مما يعلمه غيره، أو مما يصح أن يعلم كقولنا: زيد ما له علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك؟

قلنا: معناه ما لهم به من علم، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وهذا لأن انتفاء العلم بالشيء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه،

(١) سورة الكهف ٢.

(٢) سورة الكهف ١.

(٣) سورة الكهف ٥.

وتارة لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق (١) العلم به، وما نحن فيه من هذا القبيل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) (٢) وهو عالم بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فأبعثوا أحدكم) (٣) ولم يقل واحدكم؟

قلنا: لأنه أراد فرداً منهم أيهم كان، ولو قال واحدكم لدل على بعث رئيسهم ومقدمهم، فإن العرب تقول رأيت أحد القوم أي فرداً منهم، ولا تقول رأيت واحد القوم إلا إذا (٤) أرادت المقدم المعظم.

فإن قيل: كيف جاء تعالى بسين الاستقبال في الفعل الأول دون الآخرين في قوله تعالى: (سيقولون ثلاثة) (٥)؟

قلنا: أراد دخول الفعلين الآخرين في حكم الأول بمقتضى العطف، فاقصر على ذكر السين في الأول إيجازاً واختصاراً كما تقول: زيد قد يخرج ويركب، تريد وقد يركب.

فإن قيل: كيف دخلت الواو في الجملة الثالثة دون الأوليين وهي قوله تعالى: (وثامنهم كلبهم) (٦)؟

قلنا: قال بعض المفسرين: هي واو الثمانية، وقد ذكرنا مثلها في

(١) وفي نسخة (ب) تعلم ص ١٧٢.

(٢) سورة الكهف ١٢.

(٣) سورة الكهف ١٩.

(٤) وفي نسخة (ب) إن.

(٥) سورة الكهف ٢٢.

(٦) سورة الكهف ٢٢.

آخر سورة التوبة، وقال الزجاج: دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة، فجاء القرآن بهما، وقال غيره: الواو مرادة في الجملتين الأوليين، وإنما حذفت فيهما تخفيفاً، وأتى بها في الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما، ويرد على هذا القول أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى محذوفة في الجملة الثانية والثالثة، ليدل ذكرها أولاً على حذفها بعد ذلك، كما سبق في سين الاستقبال، وقال الزمخشري وغيره: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الصفة الواقعة حالا من المعرفة، تقول: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) (١) وفاندها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه (٢) بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي أذنت، فإن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجعوا بالظن، كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله: (رجعاً بالغيب) (٣) وأتبع القول الثالث قوله: (ما يعلمهم إلا قليل) (٤) وقال ابن عباس رضى الله عنه: وقعت الواو لقطع العدد، أى لم يبق بعدها عدد عاد يلتفت إليه، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات، وقال الثعلبي: هذه واو الحكم والتحقيق، وكأن الله تعالى حكى اختلافهم فتم الكلام

(١) سورة الحجر ٤.

(٢) وفي نسخة (ب) الصاقه.

(٣) سورة الكهف ٢٢.

(٤) سورة الكهف ٢٢.

عند قوله سبعة، ثم حكم بأن ثامنهم كلبهم باستثناؤه الكلام، فحقق ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة، فعلى هذا يكون قوله: (وثامنهم كلبهم) (١) من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديرًا، ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو: (فل ربي أعلم بعدتهم) (٢) وقوله تعالى: (وما يعلمهم إلا قليل) (٣) ويدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لا مبدل لكلماته) (٤) وقال في موضع آخر: (وإذا بدلنا آية مكان آية) (٥) ويلزم من تبديل الآية بالآية تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: معنى (٦) الأول لا مغير للقرآن من البشر، وهو جواب لقولهم للنبي عليه الصلاة والسلام: (أنت بقرآن غير هذا أو بدله) (٧) الثاني: أن معناه لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه، ومعنى الثاني النسخ والتبديل من الله تعالى فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٨) إباحة وإطلاق للكفر؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنه: معناه فمن شاء ربكم فليؤمن ومن

(١) سورة الكهف ٢٢.

(٢) سورة الكهف ٢٢.

(٣) سورة الكهف ٢٢.

(٤) سورة الكهف ٢٧.

(٥) سورة النحل ١٠١.

(٦) وفى نسخة (ب) معناه.

(٧) سورة يونس ١٥.

(٨) سورة الكهف ٢٩.

شاء ربكم فليكفر، يعنى لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئة الله تعالى،
الثانى: أنه تهديد ووعيد، الثالث: أن معناه لا تتفعون الله بإيمانكم
ولا تضرونه بكفركم، فهو إظهار للغنى لا إطلاق للكفر.

فإن قيل: لبس الأساور فى الدنيا عيب للرجال، ولهذا لا يلبسها من
يلبس (١) الذهب والحريز من الرجال، فكيف وعداها الله تعالى
المؤمنين فى الجنة؟

قلنا: كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان
مخصوصين بها دون من عداهم، فلذلك وعداها الله تعالى المؤمنين فى
الجنة لأنهم ملوك الآخرة.

فإن قيل: كيف أفرد تعالى الجنة بعد التشية فقال: (ودخل
جنته) (٢)؟

قلنا: أفردا ليدل على الحصر، معناه ودخل ما هو جنته لا جنة له
غيرها، ولا نصيب له فى الجنة التى وعد المتقون، بل ما ملكه فى
الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد جنة معينة منهما (٣) بل جنس
ما كان له.

فإن قيل: كيف قال الأخ المؤمن لأخيه: (لكننا هو الله ربى ولا
أشرك برى أحدا) (٤) وهذا تعريض بأن أخاه مشرك، وليس فى
كلام أخيه ما يقتضى الشرك، بل الكفر وهو قوله تعالى: (وما
أظن

(١) وفى نسخة (ب) لبس.

(٢) سورة الكهف ٢٥.

(٣) وفى نسخة (ب) فيهما.

(٤) سورة الكهف ٢٨.

الساعة فائضة (١) ؟

قلنا: إشراك أخيه الذى عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته، ولهذا قال له: (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) (٢) ولهذا قال هو أيضاً لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهى خاوية على عروشها: (يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً) (٣) اعترف بالشرك.

فإن قيل: ما فائدة قوله: «أنا» فى قوله: (إن قرن أنا أهمل) (٤) ؟ قلنا: «أنا» فى مثل هذا الموضع يفيد حصر الخبر فى المخبر عنه، ومنه قوله تعالى: (إنى أنا ربك) (٥) وقوله: (إنى أنا الله) (٦) ونظائره كثيرة.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) (٧) وكذا كل ما أشبهه مما جاء فى القرآن العزيز، فقال تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) (٨) و(والذين اتخذوا من دونه أولياء) (٩) و(وما لكم من دون

(١) سورة الكهف ٣٦.

(٢) سورة الكهف ٣٩.

(٣) سورة الكهف ٤٢.

(٤) سورة الكهف ٣٩.

(٥) سورة طه ١٢.

(٦) سورة طه ١٤.

(٧) سورة الكهف ٤٢.

(٨) سورة مريم ٨١.

(٩) سورة الشورى ٦.

الله من ولى ولا نصير) (١) كيف تحقيق معناه؟

قلنا: دون تستعمل فى كلام العرب بمعنى غير، كقولهم: لفلان مال دون هذا، ومن دون هذا أى غير هذا ونظيره قوله تعالى: **(ولهم أعمال من دون ذلك) (٢)** أى من غيره، وتستعمل أيضاً بمعنى قبل كقولهم: المدينة دون مكة أى قبلها، ومن دونه حرط القتاد، ولا أقوم من مجلسى دون أن تجيء، ولا أفارقك دون أن تعطينى حقى، وما أعلم أنها جاءت فى القرآن العزيز بمعنى قبل، بل بمعنى غير فقط.

فإن قيل: كيف قال: **(هنالك الولاية لله الحق) (٣)** يعنى فى يوم القيامة أو فى مقام الآخرة، والولاية بكسر الواو السلطان والملك، وبفتح الواو التولى والنصرة، وكل ذلك لله تعالى فى الدنيا والآخرة، يعز من يشاء ويذل من يشاء، وينصر من يشاء ويخذل من يشاء، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه، فما فائدة تخصيص يوم القيامة؟

قلنا: فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة فى الدنيا، ويوم القيامة تنقطع كلها ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع، وقد سبق نظير هذا السؤال فى سورة الأنعام فى قوله تعالى: **(قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور) (٤)**.

فإن قيل: كيف قال تعالى: **(هو خير ثواباً وخير عقبا) (٥)** أى

(١) سورة البقرة ١٠٧.

(٢) سورة المؤمنون ٦٢.

(٣) سورة الكهف ٤٤.

(٥) سورة الكهف ٤٤.

(٤) سورة الأنعام ٧٢.

عاقبة، وغير الله تعالى لا يثيب ليكون الله تعالى خيراً منه ثواباً؟ قلنا: هذا على الفرض والتقدير معناه: لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيراً من طاعة غيره. فإن قيل: كيف قال تعالى: (وحشرناهم) (١) بلفظ الماضى، وما قبله مضارعان، وهما قوله تعالى: (ويوم نسير الجبال وترى الأرض باوذة) (٢) أى لا شيء عليها يسترها كما كان فى الدنيا؟ قلنا: للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأحوال وتلك العظائم، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك. فإن قيل: كيف قال تعالى: (مال هذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) (٣) مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر بقوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) (٤)؟

قلنا: الآية الأولى فى حق الكافرين بدليل قوله تعالى: (فتوى المجرمين) (٥) والمراد بهم هنا الكافرون، كذا قاله مجاهد، وقال غيره: كل مجرم فى القرآن فالمراد به الكافر، والآية الثانية المراد بها المؤمنون لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققاً مع وجود الكفر، الثانى: لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق الذنب لم يلزم التناقض لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة، ثم تكفر عنه

(١) سورة الكهف ٤٧.

(٢) سورة الكهف ٤٧.

(٣) سورة الكهف ٤٩.

(٤) سورة النساء ٣١.

(٥) سورة الكهف ٤٩.

فيعلم قدر نعمة العفو، فإن أكثر الذنوب (١) ينساها العبد خصوصاً الصفائر.

فإن قيل: قوله تعالى: (إِلا ابليس كان من الجن) (٢) يدل على أنه من الجن، وقوله تعالى في موضع آخر: (وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا ابليس) (٣) يدل على أنه من الملائكة، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: فيه قولان: أحدهما: أنه من الجن حقيقة عملاً بظاهر هذه الآية، ولأن (٤) له ذرية قال الله تعالى: (أَفْتَتَخَذُونَهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) (٥) والملائكة لا ذرية لهم، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله وعن المعاصي مطلقاً لأنهم عقول مجردة بغير شهوة، ولا معصية إلا عن شهوة، ويؤيده قوله تعالى: (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٦) وقال تعالى: (وَمَنْ عِنْدَهُ - يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ - لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) (٧) فكيف يكون إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع، فعلى هذا يكون استثناءه من الملائكة استثناء من غير الجنس أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لا من جنس الملائكة،

(١) وفي نسخة (ب) ذنوب العبد.

(٢) سورة الكهف ٥٠.

(٣) سورة البقرة ٢٤.

(٤) وفي نسخة (ب) وكان.

(٥) سورة الكهف ٥٠.

(٦) سورة الأنبياء ١٩ - ٢٠.

(٧) سورة التحريم ٦.

ويكون التقدير: وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس، كما تقول: أمرت اخوتي وعبدى بكنا فأطاعوني إلا عبدى، والعبد ليس من الأخوة ولا داخلا فيهم إلا من حيث شملهم الأمر بالفعل معهم، فهذا كذلك، القول الثانى: أنه كان من الملائكة قبل أن يعصى الله فلما عصاه مسخه شيطانا، روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنه فيكون معنى قوله تعالى: «كان من الجن» (صار من الجن) (١) لمخالفته فتكون كان بمعنى صار، وقيل: معناه كان من الجن فى سابق علم الله تعالى، وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية، وروى عنه أيضاً أنه كان من خزان الجنة، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن، فعلى هذا يكون قوله تعالى: (من الجن) (٢) أى من الملائكة الذين هم خزان الجنة (ففسق عن أمر ربه) (٣) بمخالفته فيكون استثناء من الجنس، وقال الزمخشري فى سورة البقرة فى قوله تعالى: (فسجدوا إلا إبليس) (٤) هو استثناء متصل لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغبوراً بهم، فغلبوا عليه فى قوله تعالى: (فسجدوا) (٥) قلت: وفى هذا التعليل نظر، ثم قال بعده: ويجوز أن يجعل منقطعاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أفنتخذونه وذريته أولياء من دونى) (٦) والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء، ويؤيده

(١) ساقط من نسخة (ب).

(٢) سورة الكهف ٥٠.

(٣) سورة الكهف ٥٠.

(٤) سورة البقرة ٢٤.

(٥) سورة البقرة ٢٤.

(٦) سورة الكهف ٥٠.

قوله تعالى: (وهم لكم عدو) (١) وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم؟

قلنا: المراد بالمولا هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي، ويوسوسون في صدورهم وطاعنهم إياهم، فالمولا مجاز عن هذا لأنه من لوازمها.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) (٢) أى لم تجب الأصنام المشركين، فنفى عن الأصنام النطق، وقال تعالى فى سورة النحل: (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فأنلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) (٣) يعنى فكذبتم الأصنام فيما قالوا فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى هنا: (نادوا شركائى الذين زعمتم) (٤) أى نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم، فدعوهم فلم يجيبوهم لذلك، فنفى عنهم النطق بالاجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم، وفى سورة النحل أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين فى (٥) دعوى عبادتهم، فلا تتناقض بين المنفى والمثبت.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: «شركائى» وقال فى سورة النحل:

(١) سورة الكهف ٥٠.

(٢) سورة الكهف ٥٢.

(٣) سورة النحل ٨٦.

(٤) سورة الكهف ٥٢.

(٥) وفى نسخة (ب) من.

«شركاءهم» ؟

قلنا: قوله تعالى: «شركائي» معناه في زعمكم واعتقادكم، ولهذا قال: «شركائي الذين زعمتم» أو أخرجه مخرج التهمك بهم كما قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الذي نزل عليه **الذكر إنك لمجنون**) (١) وقوله تعالى: «شركاءهم» يعنى آلهتهم التى جعلوها شركاء، فأضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء له، وإضافتها إليهم لجعلهم إياها شركاء، والإضافة تصح بأدنى ملازمة لفظية أو معنوية فصحت الإضافتان.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (نسيت الحوت) (٢) والناسي إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه الصلاة والسلام معتذراً: (فإنسى **نسيت الحوت**) (٣) أى قصة الحوت وخبره: (وما أنسانيه إلا **الشيطان أن أذكره**) (٤) ؟

قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازاً، والمراد أحدهما قال الفراء: نظيره قوله تعالى: (يخرج منهما **اللؤلؤ والمرجان**) (٥) وإنما يخرج من البحر المالح لا من العذب وقيل: نسي موسى عليه الصلاة والسلام تفقد الحوت، ونسى يوشع أن يخبره خبره، وذلك أنه كان حوتاً مملوحاً فى مكمل (٦) قد تزوداه، فلما أصابه من ماء عين الحوت

(١) سورة الحجر ٦.

(٢) سورة الكهف ٦١.

(٣) سورة الكهف ٦٢.

(٤) سورة الكهف ٦٣.

(٥) سورة الرحمن ٢٢.

(٦) وفى نسخة (ب) مكمل.

رشانش حى وأنسل من المكل وملك فى البحر، ووشع ىراه، وكان موسى قد ذهب لقضاء حاجة (١) فعزم وشع أن ىخبره بما رأى من أمر الحوت، فلما جاء موسى نسى أن ىخبره، ونسى موسى تفقد الحوت والسؤال عنه.

فإن قىل: هذا التفسىر ىدل على أن النسىان من وشع أو منهما كان بعد حىاة الحوت وذهابه فى البحر، وظاهر الآىة ىدل على أن النسىان كان سابقاً على ذهابه فى البحر متصلاً ببلوغ مجمع البحرىن لقوله تعالى: (فلما بلغا مجمع بىنهما نسيا حوتهما فاتخذ سبىله فى البحر سرباً) (٢)؟

قلنا: فى الآىة تقدىم وتأخىر تقدىره: فلما بلغا مجمع بىنهما اتخذ الحوت سبىله فى البحر سرباً نسيا حوتهما.

فإن قىل: كىف نسى وشع مثل هذه الأعجوبة العظىمة فى مدة سىرة بل فى لحظة، واستمر به النسىان يومه ذلك ولىته إلى وقت الغاء من الیوم الثانى، ومثل ذلك لا ىنسى مع تطاول الزمان، كىف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهما على وجدان الخضر علیه الصلاة والسلام، على ما نقل أن موسى مأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه، فأوحى الله إلیه أن خذ معك حوتاً فى مكمل فحىثما فقدت الحوت فهو ثم؟

قلنا: سبب نسیانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى علیه الصلاة والسلام، واستأنس بها، فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سبباً لقلّة اهتمامه بتلك الأعجوبة وعدم اكترائه لها.

(١) وفى نسخة (ب) حاجته.

(٢) سورة الكهف ٦١.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) (١) بغير فاء، و (حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) (٢) بالفاء؟

قلنا: جعل خرقها جزاءً للشرط فلم يحتاج إلى الفاء كقولك: إذا ركب زيد الفرس عقره، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء، قال: «أقتلت؟» كقولك: ركب زيد الفرس فعقره، قال له صاحبه: أعقرته؟

فإن قيل: كيف خولف بين القصتين؟

قلنا: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقتل الغلام تعقب لقاءه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة الغلام: (لقد جئت شيئاً فأكبر) (٣) وفي قصة السفينة: (لقد جئت شيئاً فمروا) (٤)؟

قلنا: قيل: إمرأ معناه منكراً، فعلى هذا لا فرق في المعنى، لأن النكر والمنكر بمعنى واحد، وقيل: الإمر العجب أو الداهية وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة، لأن في الأول هلاك كثيرين، وقيل: النكر أعظم من الإمر فمعناه جئت شيئاً أنكر من الأول، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد، وهذا لا يمكن تداركه.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة السفينة: (ألم أهلك) (٥)؟

(١) سورة الكهف ٧١.

(٢) سورة الكهف ٧٤.

(٣) سورة الكهف ٧٤.

(٤) سورة الكهف ٧١.

(٥) سورة الكهف ٧٢.

وفى قصة الغلام: (ألم أهل لك) (١)؟
قلنا: لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية،
وللتنبية على تكرار ترك الصبر والثبات.
فإن قيل: ما فائدة إعادة ذكر الأهل فى قوله تعالى: (استطعما
أهلها) (٢) وهلا قال: «استطعمهم» لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة؟
قلنا: فائدة إعادته التوكيد لا غير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يريد أن يعقل) (٣) نسب الإرادة إلى
الجماد، وهى من صفات من يعقل؟
قلنا: هذا مجاز بطريق المشابهة، لأن الجدار بعد مشاركته ومداناته
للائتقاض والسقوط شأن من يعقل ويريد فى تهينه للسقوط،
فظهرت منه هيئة السقوط كما يظهر ممن يعقل ويريد، فنسبت إليه
الإرادة مجازاً بطريق المشابهة فى الصورة، وقد أضافت العرب أفعال
العقلاء إلى ما لا يعقل مجازاً قال الشاعر:

يريد الرمح صدر أبى براء

ويعدل عن دماء بنى عقيل

(وقال حسان) (٤):

إن دهرأ يلف شملى بحمل

لزمان يهم بالاحسان

ومن أمثالهم: تمرد مارد وعز الأبلق، ومنه قوله تعالى: (ولما سكنت

(١) سورة الكهف ٧٥.

(٢) سورة الكهف ٧٧.

(٣) سورة الكهف ٧٧.

(٤) فى نسخة (ب).

عن موسى الغضب (١) وقوله: (فإذا عزم الأمر) (٢) وقوله: (أتينا طائعين) (٣). ونظائره كثيرة.

فإن قيل: لأى سبب لم يفارقه الخضر عليه الصلاة والسلام عند الاعتراض الأول والثانى، وفارقه عند الثالث؟

قلنا: لوجهين أحدهما أن موسى عليه الصلاة والسلام شرط على الخضر ترك مصاحبته على تقدير وجود الاعتراض الثالث، وقد وجد فكان راضياً به، الثانى: أن اعتراض موسى عليه الصلاة والسلام فى المرة الأولى والثانية كان تورعاً وصلابة فى الدين، واعتراضه فى المرة الثالثة كان لهوى نفسه وشهوة بطنه فأعقبه هواء هوانا.

فإن قيل: قوله: (فأردت أن أعيبها) (٤) علة خوف الغضب فكان حقه أن يتأخر عن علته فلم قدم عليها؟

قلنا: هو متأخر عنه لأن علة تعييبها أو علة إرادته تعييبها خوف الغضب، وخوف الغضب سابق لأنه الحامل للخضر عليه الصلاة والسلام على ما فعله، وفى قراءة أبى وعبدالله رضى الله عنهما: «كل سفينة صالحة» لا بد من إضرار هذه الزيادة على قراءة الجمهور وإلا لم يفد الخرق.

فإن قيل: الشمس فى السماء الرابعة وهى بقدر كرة الأرض (٥) مائة

(١) سورة الأعراف ١٥٤.

(٢) سورة محمد ٢١.

(٣) سورة فصلت ١١.

(٤) سورة الكهف ٧٩.

(٥) انظر رأى علماء الإسلام فى ذلك فى القرن السابع وما قبله وآراء آخرين فى القرن العشرين.

وستين مرة، وقيل مائة وخمسين مرة، وقيل مائة وعشرون مرة، فكيف تسعها عين في الأرض حتى أخبر الله تعالى عن ذي القرنين أنه: (وجدها تقرب في عين حمئة) (١) أو «حامية» على اختلاف القراءتين؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: «وجدها» أي في زعمه وظنه، كما يرى راكب البحر إذا لجج فيه وغابت عنه الأطراف والسواحل أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه فنو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة الغرب فوجد عيناً حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها.

فإن قيل: ذو القرنين كان نبياً أو تقياً حكيماً على اختلاف القولين، فكيف خفى عليه هذا حتى وقع في ظن المستحيل الذي لا يقبله العقل؟

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط والخطأ، وإن كانوا معصومين عن كبائر الذنوب ألا ترى إلى ظن موسى عليه الصلاة والسلام فيما أنكره على الخضر عليه الصلاة والسلام في القضايا الثلاث، وظنه أنه يرى الله تعالى في الدنيا، وهو من كبار الأنبياء، وكذلك يونس عليه الصلاة والسلام على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات) (٢) وكان الواقع بخلاف ظنه، الثاني: أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض، بحيث تسع عين الماء عين الشمس فلم لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك، ولم نعلم به لقصور علمنا عن

الإحاطة بذلك؟

فإن قيل: قوله تعالى: (يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) (١) يدل على أنه كان نبياً لأن الله تعالى خاطبه؟ قلنا: من قال أنه ليس نبياً يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبي الموجود في زمانه، كما في قوله تعالى: (يا بني إسرائيل) (٢) وما أشبهه.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في حق الكفار: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (٣) أي فلا ينصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات، والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) (٤) وقال في موضع آخر: (وأما من خفت موازينه فأما هاهوية) (٥) أي فسكنه النار فأثبت له ميزاناً؟

قلنا: معنى قوله تعالى: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (٦) أي لا يكون لهم عندنا قدر (ولا خاطر) (٧) لخستهم وحقارتهم، ولو كان معناه ما ذكرتم يكون المراد بقوله تعالى: (وأما من خفت موازينه فأما هاهوية) (٨) من غلبت سيئاته على حسناته من

(١) سورة الكهف ٨٦.

(٢) سورة البقرة ٤٠، ٤٧، ١٢٢.

(٣) سورة الكهف ١٠٥.

(٤) سورة الفرقان ٢٢.

(٥) سورة القارعة ٩.

(٦) سورة الكهف ١٠٥.

(٧) في نسخة (ب).

(٨) سورة القارعة ٩.

المؤمنين، فإنه يسكن فى النار، ولكن لا يخلد فيها، بل بقدر ما
يمحص عنه ذنوبه فلا تنافى بينهما.

| |
|--|
| |
|--|

سورة مريم عليها الصلاة والسلام

فإن قيل: النداء الصوت والصياح يقال ناداه نداء (١) أى صاح به، فكيف وصفه تعالى بكونه خفياً؟

قلنا: النداء هنا الدعاء، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لنأى يلام (٢) على طلب الولد بعد الشيخوخة، أو لنأى يعاديه بنو عمه ويقولوا لو كره أن نقوم مقامه بعده فسأل ربه الولد لذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يرثنى ويرث من آل يعقوب) (٣) والنبي لا يورث لقوله عليه الصلاة والسلام: نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة؟

قلنا: المراد بقوله: «يرثنى» أى يرثنى العلم والنبوة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقيل: الأخلاق، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العلم والنبوة والأخلاق دون الملك، والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث» المال، ويؤيده قوله: «ما تركناه صدقة» ويعقوب هنا أبو يوسف، وقيل: بل هو أخو زكريا، وقيل: لا بل هو أخو عمران الذى هو أبو مريم.

فإن قيل: كيف قال: (يرثنى ويرث من آل يعقوب) (٤) فعدى الفعل فى الأول بنفسه، وفى الثانى بحرف الجر وهو واحد؟

قلنا: يقال ورثه وورث منه، فجمع بين اللغتين وقيل: (من) هنا للتبعية لا للتعدية، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

فإن قيل: كيف طلب الولد بقوله: (فهب لى من لدنك

(١) وفى نسخة (ب) خفياً. (٢) وفى نسخة (ب) يلزم وهو تصحيف.

(٣) سورة مريم ٦. (٤) سورة مريم ٦.

وليا) (١) أى ولداً صالحاً، فلما بشره الله تعالى به بقوله: (يا زكريا إنا نبشرك... الآية) (٢) استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله: (أنى يكون لى غلام... الآية) (٣)؟

قلنا: لم يكن ذلك عن طريق الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب بما أجيب به فيزداد الموقنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وأخراً كان على منهاج واحد فى أن الله تعالى غنى عن الأسباب، الثانى: أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور لا تعجب إنكار واستبعاد، الثالث: قيل: إنه قال ذلك استفهاماً عن الحالة التى يهبه الله تعالى فيها الولد، أيهبه فى حالة الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب ثم يهبه، ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه الصلاة والسلام بعد استفهامه.

فإن قيل: كيف طلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى فى وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر، ويتعجل السرور، فإن الحمل لا يظهر فى أول العلق بل بعد مدة، فأراد معرفته أول ما يوجد، فجعل الله تعالى آية وجود الحمل عجزه عن الكلام، وهو سوي الجوارح ما به خرس ولا بكم. فإن قيل: كيف قالت: (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت

(١) سورة مريم ٥.

(٢) سورة مريم ٧.

(٣) سورة مريم ٨.

تقياً) (١) وإنما يتعوذ من الفاسق لا من التقى؟

قلنا: معناه إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه، فستنتهي عنى بتعوذى به منك، فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما إنه كان فى زمانها رجل اسمه تقى، ولم يكن تقياً بل كان فاجراً، فظنته إياه فتعوذت منه، والقول الأول هو الذى عليه المحققون، وقيل: هو على المبالغة معناه إنى أعوذ منك إن كنت تقياً (فكيف يكون حالى فى القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقياً)؟ (٢) وقالوا: نظير هذا ما جاء فى الخبر: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، معناه أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى، وفى قراءة أبى وابن مسعود: إلا أن تكون تقياً.

فإن قيل: اتفق العلماء على أن الوحي لم ينزل على امرأة، ولم يرسل جبريل عليه الصلاة والسلام برسالة إلى امرأة قط، ولهذا قالوا فى قوله تعالى: (وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) (٣) أنه كان وحي إلهام، وقيل: وحي منام فكيف قال تعالى: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) (٤) وقال: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) (٥)؟

قلنا: لا نسلم أن الوحي لم ينزل على امرأة قط، فإن مقاتل قال فى

(١) سورة مريم ١٨.

(٢) فى نسخة (أ) وماقط من نسخة (ب).

(٣) سورة القصص ٧.

(٤) سورة مريم ١٧.

(٥) سورة مريم ١٩.

قوله تعالى: «فأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه» أنه كان وحياً بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه الصلاة والسلام لم ينزل بوحى الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي، وهنا لم ينزل على مريم بوحى الرسالة بل بالبشارة بالولد، ولهذا جاءها على صورة البشر: (فتمثل لها بشراً سوياً) (١).

فإن قيل: ما وجه قراءة الجمهور: (لأهب لك) (٢) والواهب للولد هو الله تعالى لا جبريل عليه الصلاة والسلام (٣)؟ قلنا: قال ابن الأنباري: معناه إنما أنا رسول ربك يقول لك أرسلت رسولى إليك لأهب لك، فيكون حكاية عن الله تعالى لا من قول جبريل عليه الصلاة والسلام، فيكون فعل الهبة مستنداً إلى الله تعالى لا إليه، الثانى: أن معناه لاكون سبباً فى هبة الولد بواسطة النفخ فى الدرع، فالإضافة إليه بواسطة السببية.

فإن قيل: كيف قالت: (ولم أك بغياً) (٤) ولم يقل بغية مع أنه وصف مؤنث؟

قلنا: قال ابن الأنباري: لما كان هذا الوصف غالباً على النساء وقلما تقول العرب رجل بغى، ولم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء مجرى حائض وعافر، وقال الأزهري: لا يقال رجل بغى بل هو مختص بالمؤنث، ولام الكلمة ياء يقال بغت تبغى، فهو فعول عند المبرد

(١) سورة مريم ١٧.

(٢) سورة مريم ١٩.

(٣) لقد وقع خلط بين السؤال والجواب فى جميع النسخ يعرف بأدنى تأمل.

(٤) سورة مريم ٢٠.

أصلها بغوى، قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين اتباعاً، فهو كصبور وشكور في عدم دخول التاء، وقال ابن جنى في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقليل بغو، كما قيل هو نهو عن المنكر، ثم قيل هي فعيل بمعنى فاعل فهي كقوله تعالى: (فريب من المحسنين) (١) وقال الأخفش: هي مثل ملحفة جديد فجعلها بمعنى مفعول، وقيل: إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رؤوس الآيات.

فإن قيل: ما كان حزن مريم وقولها: (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) (٢) لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب، بل كان لخوف أن يتهمها أهلها بفعل الفاحشة؟

قلنا: كان حزنها لمجموع الأمرين هو ما ذكرتم، وجذب مكانها الذي ولدت فيه، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء يتطهر به، فكان اجراء النهر في المكان اليابس الذي لم يعهد فيه ماء، وأخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتي الحزن، أما دفع الجذب فظاهر، وأما دفع حزن التهمة فمن حيث إنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من سوء، وإن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها، فيتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها، ولا بعيد في قدرة الله تعالى المخرج في لحظة واحدة للرطب الجنى من النخلة اليابسة، (والمجرى للماء) (٣) بغية في مكان لم يعهد فيه.

فإن قيل: كيف أمرها جبريل عليه الصلاة والسلام إذا رأت إنساناً أن

(١) سورة الأعراف ٥٦.

(٢) سورة مريم ٢٢.

(٣) ساقط من نسخة (ب).

تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله: (فإنما قرين من البشر أحدا ...
الآية) (١) وذلك خلف في النذر؟

قلنا: إنما أمرها بذلك لأنه تمام نذرها، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنسى، وإذا كان تمام نذرها بقولها: (فإن أكلهم اليوم إنسيا) (٢) لا تكون مكملة للإنسى بعد تمام النذر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (من كان في المهد صبياً) (٣) وكل واحد كان في المهد صبياً؟

قلنا: كان هنا زائدة وصبياً منصوب على الحال، لا على أنه خبر كان، تقديره كيف نكلم من في المهد في حال صباه، وقيل: كان بمعنى وقع ووجد (صبياً) منصوباً على الوجه الذي مر.

فإن قيل: خطاب التكليف في جميع الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل الأمور به، وعيسى عليه الصلاة والسلام كان رضيعاً في المهد، فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال: (وأوصاني بالصلوة والزكاة ما دمت حياً) (٤)؟

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز، وعيسى عليه الصلاة والسلام كان واجداً للعقل والتمييز التام في تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على

(١) سورة مريم ٢٦.

(٢) سورة مريم ٢٦.

(٣) سورة مريم ٢٩.

(٤) سورة مريم ٢١.

ذلك، ولهذا قيل: إنه أعطى النبوة فى صباه أيضاً.
فإن قيل: الزكاة إنما تجب على الأغنياء، وعيسى عليه الصلاة والسلام لم يزل فقيراً لابس كساء مدة مقامه فى الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من حاله، فكيف أوصاه بالزكاة؟
قلنا: المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصى لا زكاة المال.

فإن قيل: كيف جاء السلام فى قصة يحيى عليه السلام منكراً، وفى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام معروفاً؟
قلنا: قد قيل إن النكرة والمعرفة فى مثل هذا سواء لا فرق بينهما فى المعنى، الثانى: أنه سبق ذكره فى قصة يحيى عليه الصلاة والسلام مرة، فلما أعيد ذكره أعيد معروفاً كقوله تعالى: (كما أرسلنا إني فروعون وسولا فعصى فروعون الرسول) (١) كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلى.

فإن قيل: كيف تكون الألف واللام فى السلام للعهد، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه الصلاة والسلام، والثانى: سلام على عيسى عليه الصلاة والسلام على نفسه؟

قلنا: التعريف راجع إلى مامية السلام ومواطنه لا إلى كونه وارداً من عند الله تعالى.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (واذكرنى الكتاب إبراهيم) (٢) وما أشبهه ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان الأمور مختاراً فى الذكر وعدمه، كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتاباً اذكرنى فى الكتاب أو

(١) سورة المزمل ١٥.

(٢) سورة مريم ٤١.

اذكر فلاناً فى الكتاب، والنبي عليه الصلاة والسلام ما كان بسبيل الزيادة أو النقصان فى الكتاب ليوصى بمثل ذلك؟ قلنا: هذا على طريق التأكيد فى الأمر بالابلاغ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالابلاغ. فإن قيل: الاستغفار للكافرين لا يجوز، فكيف وعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه بالاستغفار له بقوله: (سأستغفر لك ربى) (١)؟ قلنا: معناه سأسأل الله لك توبة بها مغفرة، يعنى الإسلام والاستغفار والاستسلام والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز، وهو أن يقال اللهم وفقه للإسلام، أو اللهم تب عليه، وأهده وارشده وما أشبه ذلك، الثانى، أنه وعده ذلك بناء على أنه يسلم فيستغفر (٢) له بعد الإسلام، الثالث: أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر، فإن تحريم ذلك قضية شرعية إنما تعرف بالسمع لا عقلية، فإن العقل لا يمنع من ذلك.

فإن قيل: الطور وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال، فكيف قوله تعالى: (مثل جانب الطور الأيمن) (٣)؟

قلنا: خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف فى استعمالهم، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشمالها، يعنون ما يلى يمين المستقبل لها وشماله، لأن القبلة لا يدلها ليكون لها يمين وشمال، وفى هذا اتساع منهم فى الكلام لعدم اللبس، فالمراد بالأيمن هنا ما عن يمين موسى عليه الصلاة والسلام من الطور لأن النداء جاء من قبل يمينه، هذا إن

(١) سورة مريم ٤٧.

(٢) وفى نسخة (ب) مستغفر.

(٣) سورة مريم ٥٢.

كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين، وإن كان من اليمن وهو البركة من قولهم: يمن فلان قومه فهو يأمن أى كان مباركاً عليهم، فلا إشكال لأنه يصير معناه من جانب الطور المبارك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) (١) وهارون كان أكبر من موسى عليهما الصلاة والسلام فما معنى هبته له؟

قلنا: معناه أن الله تعالى أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام بإجابته دعوته فيه، حيث قال: (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون... الآية) (٢) فقال: (سنشد عضدك بأخيك) (٣) فالمراد بالهبة جعله عضداً له وناصرأ ومعيناً، كذا فسر ابن عباس رضى الله عنهما.

فإن قيل: كيف (وصف) (٤) الله تعالى النبيين المذكورين فى قوله تعالى: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم... الآية) (٥) بقوله تعالى: (إذا قتلوا عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) (٦) فالمراد بآيات الرحمن القرآن، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء المذكورين؟

قلنا: آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن، بل كل كتاب أنزله الله

(١) سورة مريم ٥٢.

(٢) سورة طه ٢٩.

(٣) سورة القصص ٣٥.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة مريم ٥٨.

(٦) سورة مريم ٥٨.

تعالى ففيه آياته، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول: إن المراد بقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) (١) محمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

فإن قيل: قوله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب وآمن) (٢) يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر، لأنه شرط في توبة مضيعها الإيمان؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلوا إنكاح الأخت من الأب.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إنه كان وعده مأتيا) (٣) ولم يقل أتيا كما قال تعالى: (إن ما توعدون لآت) (٤)؟

قلنا: المراد بوعده موعوده وهى الجنة، وهى مأتية يأتيها أولياؤه، الثانى: أن مفعولا هنا بمعنى فاعل كما فى قوله تعالى: (حجاباً مستورا) (٥) أى ساترا.

فإن قيل: قوله تعالى: (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) (٦) وقوله تعالى: (وجنة عرضها السموات والأرض

(١) سورة مريم ٥٨.

(٢) سورة مريم ٦٠.

(٣) سورة مريم ٦١.

(٤) سورة الأنعام ١٢٤.

(٥) سورة الإسراء ٤٥.

(٦) سورة مريم ٦٢.

أعدت للمتقين)(١) يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لا يدخلون الجنة؟

قلنا: المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك، وكل المؤمنين سواء في ذلك.

فإن قيل: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟ قلنا: معناه أن الله تعالى يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً على قائلها لولا حلمي وإمهالي، فإني لا أعجل بالعقوبة كما قال الله عز وجل: (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا)(٢) يعني أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم، ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية: (إنه كان حليماً غفوراً)(٣)، الثاني: أن يكون استعظاماً لقبح هذه الكلمة وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانها وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في صفة الشرك: (تكاد السموات تنفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً)(٤) وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها، وقال تعالى في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في صفة كلمة الشرك: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة

(١) سورة آل عمران ١٢٢.

(٢) سورة فاطر ٤١.

(٣) سورة فاطر ٤١.

(٤) سورة مريم ٩٠.

خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (١) والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك، كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما: وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل، كذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: وصفت كلمة الشرك في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالضعف، وهنا بالتبجح فهي في غاية الضعف وفي غاية القبح والفظاعة فلا تنافى بينهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لقد أحصاهم وعدهم عددًا) (٢) والاحصاء العد على ما نقله الجوهري، أو الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير، كما سبق ذكره في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٣) فإن كان الاحصاء العد فهو تكرار، وإن كان الحصر فذكره مغن عن ذكر العد، لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد؟

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضاً، ومنه قوله تعالى: (وأحصى كل شيء عدداً) (٤) أى علم عدد كل شيء وقال الشاعر:

وكن للذي لم تحصه متعلماً

وأما الذى أحصيت منه فعلم

وهو المراد هنا، فيصير المعنى لقد علمهم أى علم أفعالهم وأقوالهم

(١) سورة إبراهيم ٢٦.

(٢) سورة مريم ٩٤.

(٣) سورة إبراهيم ٢٤.

(٤) سورة الجن ٢٨.

وكل ما يتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم فلا تكرار، ولا استغناء عن
ذكر العدد.

| |
|--|
| |
|--|

سورة طه عليه الصلاة والسلام

فإن قيل: كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه الصلاة والسلام لأهله عند رؤية النار في هذه السورة، وفي سورة النمل، وفي سورة القصص بعبارات مختلفة، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت (عبارات) (١) موسى عليه الصلاة والسلام فيها؟

قلنا: قد سبق في سورة الأعراف في قصة موسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ثم هو الجواب هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا) (٢) ظاهر اللفظ نهى من لا يؤمن بالساعة عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الإيمان بها، والمقصود هو نهى موسى عن التكذيب بها، فكيف تنزيهه؟

قلنا: معناه كن شديد الشكيمة في الدين، صليب المعجم لنلا يطمع في صدك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها، وهذا كقولهم: لا أرينك هنا معناه لا تدن مني ولا تقرب من حضرتي لنلا أراك، ففي الصورتين النهي متوجه إلى المسبب والمراد به النهي عن السبب، وهو القرب منه والجلوس بحضرته إنه سبب رؤيته وكذلك لين موسى عليه الصلاة والسلام في الدين، وسلاسة قياده سبب لصدهم إياه.

فإن قيل: ما فائدة السؤال في قوله تعالى: (وما تذكرك بيمينك يا موسى) (٢) وهو أعلم بها في يده جملة وتفصيلا؟

(١) وفي نسخة (أ) عبارة.

(۲) سورة طه ۱۷.

(۲) سورة طه ۱۶.

قلنا: فاندته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب، وهيبة الاجلال وقت التكلم معه، كما يرى أحدنا طفلاً قد داخلته هيبة واجلال وخوف وفي يده فاكهة أو غيرها فيلطفه ويؤانس به بقوله: ما هذا في يدك؟ (١) مع أنه عالم به، الثانى: أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه الصلاة والسلام ويعترف بكونها عصا، ويزداد علمه بكونها عصا رسوخاً في قلبه، فلا يحوم حوله شك إذا قلبها شعباناً إنها كانت عصا ثم انقلبت شعباناً بقدرته الله تعالى، وأن يقرر (٢) في نفسه المبينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فيتنبه على القدرة الباهرة، ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك ما هذه؟ فتقول زبرة حديد (٣) ثم يريك بعد أيام درعاً سابغة مسرورة ويقول هذه هي الزبرة صيرتها إلى ما تراه من عجب الصنعة وأنيق السرد.

فإن قيل: كيف زاد موسى عليه الصلاة والسلام على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلاء (٤) خصوصاً في مخاطبة الملوك؟ قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنه لما قال: هي عصاى مثل سؤالاً ثانياً فقيل: ما تصنع بها؟ فأجاب بباقي الآية، الثانى: (أنه) (٥) إنما عدد فوائدها وبين حاجته إليها خوفاً من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين، الثالث: (أنه) (٦) ذكر ذلك لئلا

(١) وفي نسخة (أ) ما هذا بيدك.

(٢) وفي نسخة (ب) يتقرر.

(٣) وفي نسخة (ب) زبرة من حديد.

(٤) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) شبهة.

(٥) في نسخة (ب). (٦) في نسخة (ب).

ينسب إليه العبث فى حملها.

فإن قيل: كيف نقل أنها كانت تضىء له بالليل، وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتهى الثمار فغرسها فى الأرض من ساعتها، ويركزها فينبع الماء من مركزها، فإذا رفعها نضب، وكان يستقى بها فتطول بطول البئر وتقصّر بقصرها، فهلا عدد هذه المنافع؟

قلنا: كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها، ففصل البعض وأجمل الباقي بقوله: (ولى فيها مآرب أخرى) (١) والله أعلم بما أجمله، الثانى: (أنه) (٢) ذكر المنافع التى هى ألزم له وحاجته إليها أمس، وإن كانت المنافع التى أجملها أعجب وأغرب.

فإن قيل: قد ذكر الله تعالى عصى موسى عليه الصلاة والسلام بلفظ الحية والثعبان والجان، وبين الثعبان والجان تناف، لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة، والثعبان الحية العظيمة كذا نقله الأزهرى عن الزجاج وقطرب؟

قلنا: أراد بها فى صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها، ولهذا قال: (فلما رآها فهتز كأنها جان) (٣)، الثانى: أنها كانت فى أول انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد حجمها حتى تصير ثعباناً، فأريد (٤) بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

(١) سورة طه: ١٨.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة النمل ١٠، سورة القصص ٢١.

(٤) وفى نسخة (ب) فأراد.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) (١) وهذا لا بيان فيه؟

قلنا: (أولاً) (٢): فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها بل بعضها، ثانياً: أنه للتأكيد كقوله تعالى: (فغشاها ما غشى) (٣) فكانه قال: إذ أوحينا إلى أمك إيحاء، ثالثاً: أنه أبهمه أولاً للتفخيم والتعظيم، ثم بينه وأوضحه بقوله تعالى: (أن اهذه فيه... الآية) (٤).

فإن قيل: كيف قدم هارون على موسى في قوله تعالى: (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى) (٥) وهارون كان وزيراً لموسى عليها الصلاة والسلام وتبعاً له، قال الله تعالى: (وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً) (٦)؟

قلنا: إنما قدمه ليقع موسى مؤخراً في اللفظ فتتناسب الفواصل، أعنى رؤوس الآيات.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لا يموت فيها ولا يحيى) (٧) والموت والحياة في صفات الإنسان نقيضان فكيف يرتفعان؟

قلنا: المراد لا يموت فيها موتاً يستريح به، ولا يحيى حياة تنفعه ويستلذ بها، الثانى: أن المراد لا يموت فيها موتاً متصلاً ولا يحيى

(١) سورة طه ٣٨.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة النجم ٥٤.

(٤) سورة طه ٣٩.

(٥) سورة طه ٧٠.

(٦) سورة الفرقان ٧٤.

(٧) سورة الفرقان ٢٥.

حياة متصلة، بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حياً ليزوق العذاب،
هكذا سبعين مرة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا.

فإن قيل: الخوف والخشية واحد في اللغة، فكيف قال تعالى: (لا
تخاف دركاً ولا تخشى) (١)؟

قلنا: معناه لا تخاف دركاً أى لحاقاً من فرعون، ولا تخشى غرقاً في
البحر كما تقول: لا تخاف زيدا ولا تخاف عمراً، ولو قلت: ولا
عمراً صح وكان أوجز، ولكن إذا أعدت الفعل كان أكد، وأما في
الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكوراً ذكر الفعل ثانياً ليكون دليلاً
عليه، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة، وقيل: معناه لا تخاف
دركاً على نفسك، ولا تخشى دركاً على قومك، والأول عندي
أحسن.

فإن قيل: قوله تعالى: (وأضل فرعون قومه) (٢) مغن عن قوله
تعالى: (وما هدى) (٣) ومفيد فوق فائدته، فكيف ذكر معه؟

قلنا: معناه وما هدام بعدما أضلهم، فإن المضل قد يهدى بعد إضلاله،
الثاني: أن معناه وأضل فرعون قومه وما هدى نفسه، الثالث: أن
معناه وأضل فرعون قومه عن الدين، وما هدام (٤) طريقاً في
البحر، الرابع: أن قوله: «وما هدى» تهكم به في قوله لقومه: (وما
أهديكم إلا سبيل الرشاد) (٥).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من

(١) سورة طه ٧٧.

(٢) سورة طه ٧٩.

(٣) سورة طه ٧٩.

(٥) سورة غافر ٢٩.

(٤) وفي نسخة (أ) وما هديهم.

عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن) (١) أضاف المواعدة إليهم
والمواعدة إنما كانت لموسى عليه الصلاة والسلام، واعد الله تعالى
جانب الطور الأيمن لإيتائه التوراة؟

قلنا: المواعدة وإن كانت لموسى عليه الصلاة والسلام ولكنها لما
كانت لإنزال الكتاب بسبب بنى اسرائيل وفيه بيان شريعتهم
وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم أضيفت المواعدة إليهم بهذه
الملابسة والاتصال.

فإن قيل: قوله تعالى: (وما أعجلك عن قومك يا موسى) (٢)
سؤال عن سبب العجلة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لما وعده الله
تعالى إنزال التوراة عليه فى جانب الطور الأيمن وأراد الخروج إلى
ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك
المقام (٣)، ثم سبقهم شوقاً إلى ربه، وأمرهم بلحقه فعوتب على
ذلك، فكان الجواب المطابق أن يقول: طلبت زيادة رضاك أو الشوق
إلى لقائك وتنجز وعدك، فكيف قدم ما لا يطابق السؤال، وهو
قوله: (هم أولاء على أئرى) (٤)؟

قلنا: ما واجهه به ربه تضمن شينين إنكار العجلة فى نفسها،
والسؤال عن سببها، فبدأ موسى عليه الصلاة والسلام بالاعتذار عما
أنكره عليه بأنه لم يوجد منه إلا ما تقدم يسيراً لا يعتد به فى

(١) سورة طه ٨٠.

(٢) سورة طه ٨٢.

(٣) وفى نسخة (ب) المكان ص ١٩٢.

(٤) سورة طه ٨٤.

العادة، كما يتقدم (المقدم) (١) جماعته وأتباعه، ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب.

فإن قيل: أليس أن أئمة اللغة قالوا العوج بالكسر في المعانى، وبالفتح في الأعيان، ولهذا قال ثعلب: تقول في الأمر والدين عوج، وفي العصا ونحوها عوج والجبال والأرض عين فكيف صح فيهما المكسور في قوله تعالى: (لا ترى فيها عوجاً ولا أَمناً) (٢)؟

قلنا: قال ابن السكيت: كل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عوج بالفتح والعوج بالكسر ما كان في الأرض أو دين أو معاش فعلى هذا لا إشكال، الثانى: أنه أراد به نفى الاعوجاج الذى يدرك بالقياس الهندسى، ولا يدرك بحاسة البصر، وذلك اعوجاج لاحق بالمعانى، فلذلك قال فيه عوج بالكسر ومما يوضح هذا إنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم أمرت المهندس أن يفتبرها بالمقاييس الهندسية لوجد فيها عوجاً فى غير موضع، ولكنه عوج لا يدرك بحاسة البصر، فنفى الله تعالى ذلك العوج الذى لطف ودق عن الإدراك، فكان لدقته وخفائه ملحقاً بالمعانى.

فإن قيل: إن الله تعالى أخبر أن آدم عليه الصلاة والسلام نسي عهد الله ووصيته، وأكل من الشجرة بقوله تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى) (٣) وإذا كان فعل ذلك ناسياً فكيف وصفه بالعصيان

(١) وفي نسخة (أ) المتقدم.

(٢) سورة طه ١٠٧.

(٣) سورة طه ١١٥.

وبالضلال بقوله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى) (١) وعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة، وهو الإخراج من الجنة؟

قلنا: النسيان هنا يعنى الترك، كما فى قوله تعالى: (إنما نسيناكم) (٢) أى تركناكم فى العذاب، وقوله تعالى: (نسوا الله فنسيهم) (٣) فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته فكيف يكون من النسيان الذى هو ضد الذكر، وقد جرى بينه وبين إبليس من المناظرة والمجادلة فى أكل الشجرة فصول كثيرة، منها قوله: (ها هنا كما وبكما عن هذه الشجرة... الآية) (٤) فكيف يبقى مع هذا نسيان؟

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) (٥) (ولم يقل فتشقىا) (٦) والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام؟ قلنا: لوجوه أحدها أن الرجل هو قيم أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاؤهم، كما أن سعادته تتضمن سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمناً له، الثانى: أنه إنما أسنده إليه دونهما للمحافظة على الفاصلة، الثالث: أنه أراد بالشقاء الشقاء فى طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفته الرجل دون المرأة، قال سعيد بن جبير: أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فذلك شقاؤه.

(١) سورة طه ١٢١.

(٢) سورة السجدة ١٤.

(٣) سورة التوبة ٦٧.

(٤) سورة الأعراف ٢٠.

(٥) سورة طه ١١٧.

(٦) فى نسخة (ب).

فإن قيل: هل يجوز أن يقال كان آدم عاصياً غاوياً أخذاً من قوله تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى) (١)؟

قلنا: يجوز أن يقال عصى آدم كما قال تعالى، ولا يجوز أن يقال كان آدم عاصياً، لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل، ألا ترى أنه يجوز أن يقال تبارك الله ولا يجوز أن يقال الله تبارك ونحو ذلك، ويجوز أن يقال تاب الله على آدم ولا يجوز أن يقال الله تائب ونظائره كثيرة.

فإن قيل: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها، ولهذا يقال الله عالم، ولا يقال علامة، وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم، أما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية فلم لا يجرى فيها على القياس المطرد؟

قلنا: هذا القياس ليس بمطرد في كلام البشر أيضاً ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه، وفلان يذر ويدع ولم يقولوا منهما وذر ولا واذر ولا ودع ولا وادع فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط، ولتقابل أن يقول: هذا شاذ في كلام البشر، ونادر فلا يترك لأجله القياس المطرد بل يجرى على مقتضى القياس.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكرى) (٢) (أى عن موعظتى أو القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه) (٢) (فإن له معيشة ضنكاً) (٤) أى حياة فى ضيق وشدة، ونحن نرى المعرضين عن

(١) سورة طه ١٢١.

(٢) سورة طه ١٢٤.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) سورة طه ١٢٤.

الإيمان والقرآن فى أخصب معيشة وأرغدها (١) ؟
 قلنا: (قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالمعيشة الضنك) (٢)
 ضنك الحياة فى المعصية، وإن كان فى رخاء ونعمة، وروى عن
 النبى صلى الله عليه وسلم أنها عذاب القبر، الثانى: المراد بها عيشة
 فى جهنم فى الآخرة، الثالث: أن المراد بها عيشة مع الحرص
 الشديد على الدنيا وأسبابها، وهذه الآية فى مقابلة قوله تعالى فى
 سورة النحل: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
 فلنحيينه حياة طيبة) (٣) فكل ما ذكرناه فى تفسير الحياة الطيبة
 فضده وارد فى المعيشة الضنك.

فإن قيل: أى كلمة هى الكلمة التى سبقت من الله تعالى فكانت مانعة
 من تعذيب هذه الأمة فى الدنيا عذاب الاستئصال حتى قال
 تعالى: (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً) (٤) ؟

قلنا: قيل: هى قوله تعالى: (سبقت رحمتى غضبى) ويرد عليه أنه
 لا اختصاص لهذه الكلمة بهذه الأمة، وقيل: هى قوله تعالى للنبى
 صلى الله عليه وسلم: (وما الله كان ليعذبهم وأنت فيهم) (٥)
 وقيل فى قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٦)
 يعنى لعالمى أمته بتأخير العذاب عنهم، وفى الآية تقديم وتأخير

(١) فى نسخة (ب).

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة النحل ٩٧.

(٤) سورة طه ١٢٩.

(٥) سورة الأنفال ٢٢.

(٦) سورة الأنبياء ١٠٧.

تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، وهو الأجل الذى قدره الله تعالى بقاء للعالم وأهله إلى إنقضائه، لكان العذاب لازماً أى لازماً لهم كما لزم الأمم التى قبلهم.

فإن قيل: أصحاب الصراط السوى والمهتدون واحد، فما فائدة التكرار فى قوله تعالى: (فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) (١)؟

قلنا: المراد بأصحاب الصراط السوى السالكون للصراط المستقيم السائرون عليه، والمراد بالمهتدون الواصلون إلى المنزل، وقيل: أصحاب الصراط السوى هم الذين ما زالوا على الصراط المستقيم، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه، وقيل: المراد بأصحاب الصراط السوى أهل دين الحق فى الدنيا، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة فى العقبى، فكأنه قاله: فستعلمون من المحق فى الدنيا والفائز فى الآخرة.

سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: (اقترِبْ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) (١) وصفه بالقرب، وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام ولم يوجد يوم الحساب بعد؟

قلنا: معناه أنه قريب عند الله تعالى، وإن كان بعيد عند الناس، كما قال تعالى: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَهُمْ إِعْرَافُ قَرِيباً) (٢) وقال تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ) (٣)، الثاني: أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان، كما قال صلى الله عليه وسلم: إن مثل ما بقى من الدنيا فى جانب ما مضى كمثل خيط فى ثوب، الثالث: أن المراد به قرب حساب كل واحد فى قبره إذا مات، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: من مات فقد قامت قيامته، الرابع: أن كل آت قريب وإن طالأت أوقات استقباله وترقبه، وإنما البعيد الذى وجد وانقرض، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ما ولوا أظهرهم البلد الأول، البلد الثانى أقرب، وإن كان أبعد مسافة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ) (٤) والذكر الآتى من الله تعالى هو القرآن، وهو قديم لا محدث؟

قلنا: المراد محدث إنزاله، الثانى: أن المراد به ذكر يكون غير القرآن من مواضع الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره، ونسبته إلى

(٢) سورة المعارج ٧.

(٤) سورة الأنبياء ٢.

(١) سورة الأنبياء ١.

(٢) سورة الحج ٤٧.

الله تعالى لأن موعظة كل واعظ بإلهامه وهدايته، الثالث: أن المراد بالذكر الذكر، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤيده قوله تعالى في سياق الآية: (هل هذا إلا بشر مثلكم) (١) وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: (إلا استمعوه) (٢) أي استمعوا ذكره أو موعظته.

فإن قيل: النجوى المسارة فما معنى قوله تعالى: (وأسروا النجوى) (٣)؟

قلنا: معناه بالغوا في إخفاء المسارة (٤) بحيث لم يفتن أحد لتناجيهم (٥) ومسارتهم تفصيلاً ولا إجمالاً، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساران، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به، وقد يتساران في مكان لا يراها أحد.

فإن قيل: كيف قال تعالى لمشركي مكة: (فاسئلوا أهل الذكر) (٦) يعنى فاسألوا أهل الكتاب عن مضي من الرسل، هل كانوا بشراً أم ملائكة مع أن المشركين قالوا (لن فؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) (٧)؟

قلنا: هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، ولكن النقل المتواتر من أهل الكتاب في القضية العقلية يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا

(١) سورة الأنبياء ٢.

(٢) سورة الأنبياء ٢.

(٣) سورة الأنبياء ٢.

(٤) في نسخة (ب) المسرة.

(٥) في نسخة (ب) بتناجيهم.

(٦) سورة مآ ٢١.

(٧) سورة الأنبياء ٧.

يؤمن به .

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا يستحسرون) (١) والاستحسار مبالغة في الحسور وهو الاعياء، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور أو مطلقه لا أقصاه؟

قلنا: ذكر الاستحسار إشارة إلى أن ما هم فيه من التسييح الدائم والعبادة المتصلة توجب غاية الحسور وأقصاه .

فإن قيل: قوله تعالى في وصف الملائكة: (بل عباد مكرمون) إلى قوله تعالى: (مشفقون) (٢) يدل على أنهم لا يعصون الله تعالى، كما جاء هذا مصرحاً به في قوله تعالى: (لا يعصون الله ما أمروهم) (٣) فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال الله تعالى: (وهم من خشيته مشفقون) (٤)؟

قلنا: لما رأوا ما جرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والتقدير خافوا من مثل ذلك، الثاني: أن زيادة معرفتهم بالله تعالى وقربهم في محل كرامته يوجد مزيد خوفهم، ولهذا قال أهل التحقيق: من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، ومن كان إلى الله أقرب (كان) (٥) من الله أرهب، وقال بعضهم: يا عجباً من مطيع آمن ومن عاص خائف .

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات

(١) سورة الأنبياء ١٩ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٦ - ٢٨ .

(٣) سورة التحريم ٦ .

(٤) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٥) في نسخة (ب) .

والأرض كافئا رفقاً ففتقناها) (١) وهم لم يروا ذلك؟ قلنا: معناه أو لم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده (٢) فى القرآن الذى هو معجزة فى نفسه، ونظيره قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض) (٣) وقوله تعالى: (ألم تر أن الله يزعج سبحانه... الآية) (٤) ونظائره كثيرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (٥) مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء وليسوا مخلوقين من الماء بل من النور والنار كما قال تعالى: (خلق الجن من نار) (٦) وكذا آدم مخلوق من التراب، وناقة صالح مخلوقة من الحجر؟ قلنا: المراد به البعض وهو الحيوان كما فى قوله تعالى: (وأوتيت من كل شيء) (٧) وقوله تعالى: (وجاءهم الموج من كل مكان) (٨) ونظائره كثيرة، الثانى: إن الكل مخلوق (٩) من الماء، ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة، ولهذا قيل: أنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وخلق الجن من نار خلقها من الماء، وخلق

(١) سورة الأنبياء ٣٠.

(٢) وفى نسخة (أ) بورده.

(٣) سورة النور ٤١.

(٤) سورة النور ٤٢.

(٥) سورة الأنبياء ٣٠.

(٦) سورة الرحمن ١٥.

(٧) سورة النمل ٢٢.

(٨) سورة يونس ٢٢.

(٩) وفى نسخة (ب) مخلوقون.

آدم من تراب خلقه من الماء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا تستعجلون) (١) بعد قوله تعالى: (خلق الانسان من عجل) (٢) وكأنه تكليف ما لا يطاق؟ قلنا: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندوون) (٣) مع أن الصم لا يسمعون الدعاء إذا ما ينشرون أيضاً؟ قلنا: اللام في الصم إشارة إلى المنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي) (٤) فهي لام العهد لا لام الجنس.

فإن قيل: كيف قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (بل فعله كبيرهم هذا) (٥) أحال كسر الأصنام على الصنم الكبير. وكان إبراهيم هو الكاسر لها؟

قلنا: قاله على (طريق) (٦) الاستهزاء والتهكم بهم (لا) (٧) على طريق الجد، الثاني: أنه لما كان الحامل له على كسرها اغتياضه من رؤيتها مصفوفة مرتبة (للعادة) (٨) مبجلة معظمة، وكان اغتياضه

(١) سورة الأنبياء ٢٧.

(٢) سورة الأنبياء ٢٧.

(٣) سورة الأنبياء ٤٥.

(٤) سورة الأنبياء ٤٥.

(٥) سورة الأنبياء ٦٣.

(٦) وفي نسخة (أ) طريقة.

(٧) وفي نسخة (ب).

(٨) وفي نسخة (ب) للعباد.

من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له ، أسند الفعل إليه كما يسند إلى سببه ، وإلى الحامل عليه ، الثالث : أنه أسنده إليه معلقاً بشرط منتف لا مطلقاً تقديره فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

فإن قيل : كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى : (يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) (١) والخطاب إنما يكون مع من يعقل ؟ قلنا : خطاب التحويل والتكوين لا يختص بمن يعقل ، قال الله تعالى : (يا جبال أوبى معه) (٢) وقال تعالى : (فقال لها وللأرض آتيا طوعاً أو كرهاً) (٣) وقال تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي) (٤) .

فإن قيل : كيف وصف تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين بقوله تعالى : (واسماعيل وإدريس وذا الكفل ... الآية) (٥) مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصاً في الزمن الأول ؟ قلنا : معناه أنهم من الصالحين للإدخال في الرحمة التي أريد بها النبوة على ما فسره (مقاتل أو الجنة على ما فسره) (٦) ابن عباس رضى الله عنهما ويؤيد ذلك قول سليمان عليه الصلاة والسلام : (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (٧) أى

(١) سورة النبأ ٦٩ .

(٢) سورة سبأ ١٠ .

(٣) سورة فصلت ١١ .

(٤) سورة هود ٤٤ .

(٥) سورة الأنبياء ٨٥ .

(٦) في نسخة (ب) .

(٧) سورة النمل ١٩ .

الصالحين للعمل المرضى الذى سبق سؤاله .

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (والتي أحصنت فرجها وفضلنا فيها من روحنا) (١) وقال فى سورة التحريم: (ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) (٢)؟

قلنا: حيث أنث أراد النفخ فى ذاتها، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذى هو مخرج الولد، أو جيب درعها على اختلاف القولين لأنه فرجة، وكل فرجة بين شينين تسمى فرجاً فى اللغة، وهذا أبلغ فى الشاء عليها، لأنها إذا منعت جيب درعها مما لا يحل كانت لنفسها أمتع وحيث ذكر فظاهر.

فإن قيل: قوله تعالى: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) (٣) يدل على (أنه) (٤) يجب أن يرجعوا لأن كل ما حرم أن لا يوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية؟

قلنا: معناها وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا إهلاكهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا، فالحرام هنا بمعنى الواجب، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ويؤيده قول الشاعر:

فإن حراماً لا أرى الدهر باكياً

على شجوة إلا بكيت على عمرو

وقد قيل لفظ الحرام على ظاهره، ولا زائدة، والمعنى ما سبق ذكره

(١) سورة الأنبياء ٩١.

(٢) سورة التحريم ١٢.

(٣) سورة الأنبياء ٩٥.

(٤) نسخة (ب) وفى نسخة (أ) انهم.

والحرمة هنا بمعنى المنع كما فى قوله تعالى: (وحرمنا عليه
المراضع من قبل) (١) وقوله تعالى: (إن الله حرهما على
الكافرين) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (إن الذين سبقتم لهم الحسنى
أولئك عنها مبعدون) (٣) وقال تعالى فى موضع آخر: (وإن منكم
إلا واردها) (٤) وواردوها يكون قريباً منها لا بعيداً؟

قلنا: معناه مبعدون عن آلامها وعذابها مع كونهم واردوها، أو معناه
مبعدون عنها بعد ورودها بالانجاء المذكور بعد الورود، فلا تنافى
بينهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٥)
مع أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا
على كفرهم بل نقمة، لأنه لولا إرساله إليهم ما عذبوا بكفرهم لقوله
تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٦)؟

قلنا: كان رحمة للكافرين أيضاً من حيث إن (عذاب) (٧) الاستئصال
آخر عنهم بسببه، الثانى: أنه كان رحمة عامة من حيث إنه جاء بما
يسعدهم إن اتبعوه، ومن لم يتبعه فهو الذى قصر فى حق نفسه
وضيع نصيبه من الرحمة، ومثله صلى الله عليه وسلم كمثل عين

(١) سورة القصص ١٢.

(٢) سورة الأعراف ٥٠.

(٣) سورة الأنبياء ١٠١.

(٤) سورة مريم ٧١.

(٥) سورة الإسراء ١٥.

(٦) سورة الإسراء ١٥.

(٧) فى نسخة (ب) وفى نسخة (أ) العذاب.

عذبة فجرها الله تعالى فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا، وفرط ناس فى السقى منها فضيعوا، فالعين فى نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة، وإن قصر البعض وفرطوا، الثالث: أن المراد بالرحمة الرحيم وهو صلى الله عليه وسلم كان رحيماً للفريقين (١) ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته حتى خر مغشياً عليه فلما أفاق قال: اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون؟

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (وإن أدرى أتريب أم بعيد ما توعدون) (٢) مع اخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى: (أفى أمر الله) (٣) وقوله تعالى: (اتقربت الساعة) (٤) ونحوهما؟

قلنا: معناه ما أدرى أن العذاب الذى توعدونه وتهتدون به (هـ) ينزل بكم عاجلاً أو آجلاً، وليس المراد به قيام الساعة، ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير، لأنه إن كان قبل قيام الساعة فظاهر، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتمصل بها لسرعة زمن الحساب فيكون قريباً أيضاً.

فإن قيل: إذا كان المؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لا يحكم إلا بالحق فما فائدة الأمر أو الاخبار المتعلق بقوله تعالى: (وب أحكم

(١) وفى نسخة (ب) رحمة.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٩.

(٣) سورة النحل ١.

(٤) سورة القمر ١.

(هـ) وفى نسخة (ب) يوعدون به ويهتدون به.

بالحق) (١)؟

قلنا: ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل، بل المراد به ما وعده الله تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ووعدده لا يكون إلا حقاً، فكأنه قال: عجل لنا وعدك وأنجزه ونظيره قوله تعالى: (وَبنا افئف ببننا وببن قومنا بالحق) (٢)، الثاني أنه تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل، ونظيره في عكسه من صفة (٣) الذم قوله تعالى: (ويقتلون الأنبياء بغير حق) (٤).



(١) سورة الأنبياء ١١٢.

(٢) سورة الأعراف ٨٩.

(٣) وفي نسخة (ب) صيغة.

(٤) سورة آل عمران ١١٢.

سورة الحج

فإن قيل: قوله تعالى: (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) (١) يدل على أن المعدوم شيء؟

قلنا: لا نسلم وسنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئاً لا أنها شيء الآن، ويؤيد هذا قوله تعالى: «عظيم» مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم.

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: (يوم ترونها) (٢) بلفظ الجمع ثم أفرد فقال: (وترى الناس سكارى) (٣)؟

قلنا: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة، فعجل الناس كلهم راينين لها وعلقت آخرها بكون الناس على هيئة السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم راياً لسايرهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق النضر بن الحارث: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) (٤) إلى أن قال: (ليضل عن سبيل الله) (٥) وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله، فكيف علل جداله به، وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلنا: هذه لام العاقبة والصيرورة، وقد سبق ذكرها غير مرة، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدل بالباطل جعل كالمخرج من الهدى إلى الضلال.

فإن قيل: الضر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين

(٢) سورة الحج ٢.

(١) سورة الحج ١.

(٣) سورة الحج ٣.

(٥) سورة الحج ٨ - ٩.

(٤) سورة الحج ٤.

فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبد، ولا ينفعه بنفسه إن عبده، ثم قال تعالى يعبد من يضره الله بسبب عبادته، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه.

فإن قيل: قوله تعالى: (أقرب من نفعه) (١) يدل على أن في عبادة الصنم نفعاً وإن كان فيها ضرر؟

قلنا: معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم وهو اعتقادهم أنه يشفع (٢) لهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) (٣)

أي بسبب كونهم مظلومين ولم يبين ما الشيء الذي أذن لهم فيه؟ قلنا: تقديره: أذن للذين يقاتلون في القتال، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه، ولدلالة الحال أيضاً، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم فيقول: لم يؤذن لي في ذلك، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في الأذن في القتال، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما فكان المأذون فيه ظاهراً لكونه مترقباً منتظراً (٤).

(١) سورة الحج ١٢.

(٢) وفي نسخة شفيح.

(٣) سورة الحج ٢٩.

(٤) إن ذلك من باب التخصيص لا النسخ عند علماء الأصول، وإن سمي نسخاً في مفهوم الصحابة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أذن للذين يقاتلون) (١) مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية؟ قلنا: معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا مساهم مقاتلين مجازاً باعتبار ما يؤولون إليه، كما في النظائر، وقرئ يقاتلون بفتح التاء، ولا إشكال على تلك القراءة.

فإن قيل: كيف صح الاستثناء في قوله تعالى: (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) (٢)؟ قلنا: هو استثناء منقطع، تقديره لكن أخرجوا بقولهم: ربنا الله (٣)، الثانى: أنه بمنزلة قول الشاعر:

لا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب
تقديره وإن كان فيهم عيب فهو هذا، وهذا ليس بعيب، فلا يكون فيهم عيباً.

فإن قيل: أى منة على المؤمنين فى حفظ الصوامع والبيع عن الهدم حتى أمتن عليهم بذلك فى قوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض... الآية) (٤)؟

قلنا: المنّة فى ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس فى حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم، لأن أهلها ذمة للمسلمين، الثانى: أن المراد به لهدمت صوامع وبيع فى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام أى كنائس

(١) سورة الحج ٢٦.

(٢) سورة الحج ٤٠.

(٣) ماقتل من نسخة (ب).

(٤) سورة الحج ٤٠.

فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومساجد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين .
فإن قيل: كيف قال تعالى: (وكذب موسى) (١) ولم يقل وقوم موسى كما قال تعالى فيما قبله ؟

قلنا: لأن موسى ما كذبه قومه بنو اسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، الثانى: أن يكون التنكير والابهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظيم معجزاته فما ظنك بغيره .

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (القلوب التى فى الصدور) (٢) ؟
قلنا: هو تأكيد كما فى قوله تعالى : (ولا طائر يطير بجناحيه) (٣) وقوله تعالى : (يقولون بألسنتهم) (٤) وما أشبه ذلك، الثانى: أن القلب يستعمل بمعنى العقل، ومنه قوله تعالى: (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) (٥) أى عقل فى أحد القولين، فكان التقييد مفيداً على قول من يزعم أن العقل فى الرأس (٦) ؟

فإن قيل: المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات لا لمن يعمل الصالحات والحسنات، فكيف قال تعالى: (فالذين آمنوا وعملوا

(١) سورة الحج ٤٤.

(٢) سورة الحج ٤٦.

(٣) سورة الأنعام ٣٨.

(٤) سورة الفتح ١١.

(٥) سورة ق ٢٧.

(٦) إن القلب هو مرتكز الذات، وهو مكان الخبرات الانفعالية وهو المؤشر الباطنى عند الانسان، وهنا التعادلية فى البنية عند الانسان. راجع كتاب «الانسان وخلافته فى الأرض» للمحقق.

الصالحات لهم مغفرة (١) ؟

قلنا: المراد بالعمل الصالح هنا الاخلاص في الإيمان، قال الكلبي كل موضع جاء في القرآن «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» فالمراد به الاخلاص في الإيمان، فيصير المعنى فالذين آمنوا عن اخلاص يغفر لهم سيئاتهم.

فإن قيل: ما الفرق بين الرسول والنبي مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) (٢) ؟

قلنا: الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من جمع له بين المعجزة وإنزال الكتاب عليه، والنبي فقط من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة من قبله، وقيل: الرسول من كانت له معجزة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والنبي من لم تكن له منهم معجزة، وفي هذا نظر، وقيل: الرسول من كان مبعوثاً إلى أمة، والنبي فقط من لم يكن مبعوثاً إلى أحد مع كونه نبياً، والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضماراً تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا أنبأنا من نبي أو، ولا كان من نبي (ونظيره قول الشاعر) (٣):

ورأيت زوجك في الوغى

متقلداً سيفاً ورمحاً

أي ومعتقلاً رمحاً أو وحاملاً رمح.

فإن قيل: أين المثل المضروب في قوله تعالى: (يا أيها الناس

(١) سورة الحج ٥٠.

(٢) سورة الحج ٥٢.

(٣) في نسخة (ب).

ضرب مثل) (١) والمذكور بعده قوله تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله... إلى آخره) (٢) ليس بمثل، بل كلام مبتدأ مستقل بنفسه؟

قلنا: الصفة أو القصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلاً، ومنه قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوفد فاراً) (٣) فالمعنى يشبها بصفة وهي عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه، وقيل: هو إشارة إلى قوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) (٤) وإنما أبهمه هنا لأنهم كانوا لا يصفون إلى سماع القرآن، ولهذا قالوا: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) (٥) وكانوا يحبون الأمثال، فذكر لفظ المثل استدراجاً لهم إلى سماع القرآن والاصغاء إليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (٦) مع أن قطع اليد التي تساوي خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشرة دراهم حرج في الدين، وكذا رجم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة، ووجوب شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم واحد، والمخاطرة بالنفس والمال في الحج والغزو وكل ذلك حرج بين؟

قلنا: المراد بالدين كلمة التوحيد، فإنها تكفر شرك سبعين سنة، ولا

(١) سورة الحج ٧٢.

(٢) سورة الحج ٧٢.

(٣) سورة البقرة ١٧.

(٤) سورة العنكبوت ٤١.

(٥) سورة فصلت ٢٦.

(٦) سورة الحج ٧٨.

يتوقف تأثيرها على الإيمان والاحلاص سبعين سنة، ولا على أن يكون الاتيان بها فى بيت الله أو فى زمان معين، وقيل: المراد به أن كل ما يقع فيه الانسان من الذنوب والمعاصى يجد له مخرجاً فى الشرع بتوبة أو بكفارة أو رخصة، وقيل: المراد به فتح باب التوبة للمذنبين، وفتح (أبواب) (١) الرخص للمعذورين، وشرع الكفارات والاروش والديات، وقيل: المراد به نفى الحرج الذى كان على بنى اسرائيل من الإصر والتشديد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ملء أبيكم إبراهيم) (٢) وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن أباً للأمة كلها؟

قلنا: هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أباً لأمته، لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة.

فإن قيل: متى سمانا إبراهيم عليه الصلاة والسلام المسلمين من قبل حتى قال الله تعالى: (هو سماكم المسلمين من قبل) (٣)؟

قلنا: وقت دعائه عند بناء الكعبة حيث قال: (وبنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (٤) فكل من أسلم من هذه الأمة فهو ببركة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا السؤال سئلت عنه فى المنام، وأجبت عنه بهذا الجواب فى المنام إلهاماً من الله سبحانه وتعالى.

(١) فى نسخة (ب).

(٢) سورة الحج ٧٨.

(٢) سورة الحج ٧٨.

(٤) سورة البقرة ١٢٨.

سورة المؤمنين

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والذين لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم) (١) وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لا بعلى، يقال فلان يحفظ فرجه عن الحرام، ولا يقال على الحرام؟ قلنا: (على) هنا بمعنى (عن) كما فى قول الشاعر:
إذا رضيت على بنو قشير

لعمرك الله أعجبنى رضاها

الثانى: أنه متعلق بمحذوف تقديره: فلا يرسلونها إلا على أزواجهم. فإن قيل: كيف قال تعالى: (أو ما ملكت أيمانهم) (٢) ولم يقل أو من ملكت أيمانهم، مع أن المراد من يعقل؟ قلنا: لأنه أراد من جنس العقلاء ما يجرى مجرى غير العقلاء، وهم الاناث.

فإن قيل: قوله تعالى: (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) (٣) كيف خص الاخبار عن الموت الذى لم ينكره الكفار بلام التأكيد دون الاخبار عن البعث الذى أنكروه، والظاهر يقتضى عكس ذلك؟

قلنا: لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف، ولا يلزم على هذا عدم إعادة (إن) لأنها الأصل فى التأكيد، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس.

(١) سورة المؤمنين ٥ - ٦.

(٢) سورة المؤمنين ٦.

(٣) سورة المؤمنين ١٥ - ١٦.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وشجرة تخرج من طور سيناء) (١) والمراد بها شجرة الزيتون، وهي تخرج من الجبل الذي يسمى طور سيناء ومن غيره؟

قلنا: قيل إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء، ثم نقلت إلى سائر المواضع، وقيل: إنما أضيف إلى ذلك الجبل لأن خروجها فيه أكثر من خروجها في غيره من المواضع.

فإن قيل: قوله تعالى: (أم يقولون به جنة) (٢) خبر عن (كفار مكة) (٣) فكيف قال تعالى: (بل جاءهم بالحق) (٤) أي بالتوحيد أو بالقرآن (وأكثرهم للحق كارهون) (٥)، ولم يقل وكلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم (به جنة)؟

قلنا: كان فيهم من ترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من تبليغ قومه كيلاً يقولوا ترك دين آبائهم لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب وغيره.

فإن قيل: كيف جمع تعالى فقال: (وب ادجعون) (٦) (ولم يقل ارجعني) (٧) والمخاطب واحد وهو الله تعالى؟ قلنا: هو جمع للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى: (إننا نحن نحيا الموتى) (٨) وما أشبهه.

(١) سورة المومنين ٢٠.

(٢) سورة المومنين ٢٥.

(٣) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) الكفار.

(٤) سورة المومنين ٧٠.

(٥) سورة المومنين ٧٠.

(٦) سورة المومنين ٩٩.

(٧) ماقط من نسخة (ب).

(٨) سورة يس ١٢.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (١) وقال تعالى في موضع آخر: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) (٢)؟

(قلنا: يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أحوال مختلفة ففي بعضها يتساءلون) (٢) وفي بعضها لا ينطقون لشدة الهول والفرع.

| |
|--|
| |
|--|

(١) سورة المؤمنين ١٠١.

(٢) سورة الصافات ٢٧، سورة الطور ٢٥.

(٢) ماقط من نسخة (ب).

سورة النور

فإن قيل: كيف قدمت المرأة في آية حد الزنا، وقدم الرجل في آية حد السرقة؟

قلنا: لأن الزنا إنما يتولد من شهوة الوقاع، وشهوة المرأة أقوى وأكثر، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجراءة والقوة وذلك في الرجل أكثر.

فإن قيل: كيف قدم الرجل في قوله تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) (١)؟

قلنا: لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتها على ما جنى، والمرأة هي الأصل في تلك الجنائية لما ذكرنا، والآية الثانية سبقت لذكر النكاح والرجل هو الأصل فيه عرفاً، لأنه هو الراغب والمخاطب والباديء بالطلب، بخلاف الزنا فإن الأمر فيه بالعكس غالباً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) (٢) أي لا يتزوج (والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) (٣) ونحن نرى الزاني ينكح عفيفة ومسلمة، والزانية ينكحها العفيف المسلم؟

قلنا: قال عكرمة: نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كن بمكة، وكان بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير، وكان لا يدخل عليهن إلا زان من أهل القبلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد جماعة من فقهاء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية زجراً لهم عن ذلك.

فإن قيل: ما فائدة دخول (من) في غرض البصر دون حفظ الفرج

(١) سورة النور ٣.

(٢) سورة النور ٣.

(٣) سورة النور ٣.

فى قوله تعالى: (كل للمؤمنين يفضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (١)؟

قلنا: فائدته الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج، ولهذا يحل النظر فى ذوات المحارم والاماء المسترضعات إلى عدة من أعضائهن، ولا يحل شىء من فروجهن.

فإن قيل: لأى حكمة ترك الله تعالى ذكر الأعمام والأخوال فى قوله تعالى: (ولا يبدىن زينتهن) (٢) يعنى الزينة الخفية (إلا لبعولتهن) (٣) وهم من المحارم وحكمهم حكم من استثنى فى الآية؟ قلنا: سئل الشعبى عن ذلك فقال: لنأى يصفها العم عند ابنه (وهو) (٤) ليس بمحرم لها، وكذا الخال فيقتضى إلى الفتنة، والمعنى فيه أن كل من استثنى يشترك هو وابنُه فى المحرمية إلا العم والخال وهذا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط فى سترهن، ولقائل أن يقول هذه المفسدة محتملة فى آباء بعولتهم، لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر وهو ليس بمحرم لها، وأبو البعل أيضاً نقض (٥) على قولهم أن كل من استثنى يشترك هو وابنُه فى المحرمية.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا تكرهوا هتياكم على البغاء إن

(١) سورة النور ٢٠.

(٢) سورة النور ٢١.

(٣) سورة النور ٢١.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) وفى نسخة (ب) يفض.

أردن تحصناً (١) مع أن اكراههم على الزنا حرام في كل حال؟ قلنا: لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا مع ارادتهن التحصن، (فورد النهى على صفة السبب وإن لم يكن شرطاً فيه، الثانى: أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصن) (٢) لأن الاكراه لا يتصور (إلا) (٣) عند إرادة التحصن، لأن الأمة إذا لم ترد التحصن فإنها تزنى بالطبع، لأن إرادتها الجماع مستمرة في جميع الأحوال طبعاً، ولا بد له من أحد الطرفين، الثالث: أن (إن) بمعنى إذ كما في قوله تعالى: (وذرُوا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) (٤) وقوله تعالى: (وأنتم الأعْلون إن كنتم مؤمنين) (٥)، الرابع: أن في الكلام تقديم وتأخيراً تقديره: وانكجوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصناً، ويبقى قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء» مطلقاً غير معلق.

فإن قيل: كيف مثل (الله تعالى نوره أى معرفته وهده في قلب المؤمن بنور المصباح في قوله) (٦) تعالى: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) (٧) ولم يمثله بنور الشمس، مع أن نورها أتم وأكمل؟

قلنا: المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر

(١) سورة النور ٢٢.

(٢) ماقط من نسخة (ب).

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة البقرة ٢٧٨.

(٥) سورة آل عمران ١٢٩.

(٦) في نسخة (ب).

(٧) سورة النور ٢٥.

فى البدن كالمصباح وهو الضوء: أو (١) الفتيلة وهى فى الزجاجة والزجاجة فى الكوة التى لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر، الثانى، أن نور المعرفة له آلات يتوقف على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة وغير ذلك، الثالث: أن نور الشمس يشرق متوجهاً إلى العالم السفلى لا إلى العالم العلوى، ونور المعرفة يشرق متوجهاً إلى العالم العلوى كنور المصباح، الرابع: أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح، الخامس: أن نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف.

فإن قيل: هب أنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم فكيف لم يمثله بنور الشمع، مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح؟ قلنا: إنما لم يمثله تعالى بنور (الشمع لأن فى الشمع غشاً لا محالة بخلاف الزيت الموصوف، فلو مثله تعالى بنور) (٢) الشمع لتناول المنافق المغشوش إلى استحقاق نصيب فى المعرفة، الثانى: أنه تعالى (٣) لم يمثله بنور الشمع لأنه مخصوص بالأغنياء، بخلاف نور المعرفة فإنه فى الفقراء أغلب.

فإن قيل: التجارة تشمل الشراء والبيع، فما فائدة عطف البيع عليها

(١) وفى نسخة (أ) فى.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) وفى نسخة (ب) إنما.

فى قوله تعالى: (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) (١)؟ قلنا: التجارة هى الشراء والبيع الذى يكون صناعة للانسان ومقصوداً به الربح، وهو حرفة الشخص الذى يسمى تاجراً، والبيع أعم من ذلك، وقيل: المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا كما فى قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) (٢) والمراد بالبيع مبادلة الدنيا كما فى قوله تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) (٣) وقيل: إنما عطف البيع على التجارة، لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقاً لأسم الجنس على النوع وقيل: إنما عطفه عليها للتخصيص والتمييز من حيث إنه أبلغ فى الالهاء، لأن البيع الراجح يتعقبه حصول الربح، بخلاف الشراء الراجح فإن الربح فيه مضمون مع كونه مترقباً منتظراً، وقيل: التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء) (٤) وبعض النواب ليس مخلوقاً من الماء كآدم عليه الصلاة والسلام وناقته صالح وغيرهما؟

قلنا: المراد بهذا الماء: الماء الذى هو أصل جميع المخلوقات، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الأشياء جوهرية، ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء، فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات، وقد سبق مثل هذا السؤال فى قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء

(١) سورة النور ٢٧.

(٢) سورة البقرة ١٦.

(٣) سورة الجمعة ٩.

(٤) سورة النور ٤٥.

حي) (١).

فإن قيل: إذا كان الجواب هنا فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أو تخصيص الشيء الحي؟
قلنا: إنما خص بالذكر لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها في الجماد وغيره.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فمنهم من يمشى على بطنه) (٢) وقال تعالى: (ومنهم من يمشى على أربع) (٣) وهى مما لا يعقل؟
قلنا: لما كان اسم الدابة يتناول المميز وغيره غلب المميز على غيره فأجرى عليه لفظه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (من يمشى على بطنه) (٤) وذلك إنما يسمى زحفاً لا مشياً ولا يسمى مشياً إلا ما كان بقوائمه؟
قلنا: هو مجاز بطريق المشابهة، كما يقال مشى هذا الأمر، وفلان لا يمشى له أمر، وفلان ماشى الحال.

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بقوله تعالى: (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) (٥) أى من الأحرار؟

قلنا: هو فى المعنى أمر للأباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم للأطفال.

(١) سورة الأنبياء ٣٠.

(٢) سورة النور ٤٥.

(٣) سورة النور ٤٥.

(٤) سورة النور ٤٥.

(٥) سورة النور ٥٨.

فإن قيل: كيف أباح الله للقواعد من النساء وهن العجائز التجرد من
الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى: (والقواعد من النساء ...
الآية) (١)؟

قلنا: المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذى فوق الخمار لا
جميع الثياب، وقوله تعالى: (غير متبرجات بزينة) (٢) أى غير
قاصدات بوضع الثياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسنهن، بل
التخفيف ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن.

فإن قيل: قال تعالى: (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) (٣)
مع أن انتفاء الحرج عن أكل الانسان من بيته معلوم لا شك فيه ولا
شبهة؟

قلنا: المراد بقوله (من بيوتكم) أى من بيوت أولادكم، لأن ولد
الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه فلهذا عبر عنه به، وفى الحديث أن
أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه، ويؤيد ذلك
أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد، وقيل: المراد
بقوله تعالى: (أن تأكلوا من بيوتكم) (٤) (أى أن تأكلوا من مال
أولادكم وأزواجكم الذين هم فى بيوتكم) (٥) ومن جملة عيالكم،
وقيل: المراد بقوله تعالى: «من بيوتكم» البيوت التى تسكنونها (٦)

(١) سورة النور ٦٠.

(٢) سورة النور ٦٠.

(٣) سورة النور ٦١.

(٤) سورة النور ٦١.

(٥) ساقط من نسخة (ب).

(٦) وفى نسخة (أ) التى يسكنوها.

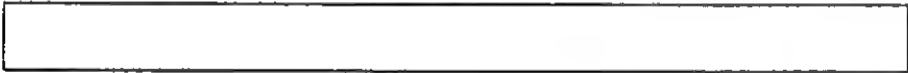
وهم فيها عيال لغيرهم، كبيت ولد الرجل وزوجه وخادمه ونحو ذلك.

فإن قيل: معنى السلام هو السلامة فإذا قال الرجل لغيره السلام عليك، كان معناه سلمت منى وأمنت، فما معنى قوله تعالى: (شاذاً دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) (١)؟

قلنا: المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلکم وعيالكم، وقيل: معناه إذا دخلتم المساجد أو بيوتاً ليس فيها أحد فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أى من ربنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) (٢) وإنما يقال خالف أمره؟

قلنا: (عن) زائدة كذا قاله الأخفش، الثانى: أن فيه إضمار تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون عن أمره أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدها تعديته.



(١) سورة النور ٦١.

(٢) سورة النور ٦٢.

سورة الفرقان

فإن قيل: الخلق هو التقدير ومنه قوله تعالى: (وإذا خلق من الطين) (١) أى تقدر فما معنى قوله تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) (٢) فكأنه قال تعالى: وقدر كل شيء فقدره تقديراً؟

قلنا: الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والاحداث، فمعناه وأوجد كل شيء مقدرأ مسوى مهياً لما يصلح له، لا زائداً على ما تقتضيه الحكمة ولا ناقصاً عن ذلك، الثانى: أن معناه وقدر له ما يقيمه ويصلحه أو وقدر له رزقاً وأجلاً أو أحوالاً تجري عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف الجنة: (المتقين كانت لهم جزاء ومصير) (٣) وهى ما كانت بعد وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر؟

قلنا: إنما قال (كانت) لأن ما وعد الله تعالى فهو فى تحقيقه كأنه قد كان، أو معناه كانت فى علم الله مكتوبة فى اللوح المحفوظ إنها جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قيل: ما فائدة تأخير الهوى فى قوله تعالى: (أوأيت من اتخذ إلهه هواه) (٤) والأصل اتخذ الهوى إلهاً كما تقول: اتخذ الصنم معبوداً؟

قلنا: هو من باب تقديم المفعول الثانى على الأول للعناية به، كما تقول علمت منطلقاً زيدا لفضل عنايتك بانطلاقه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو

(٢) سورة الفرقان ٢.

(٤) سورة الفرقان ٤٣.

(١) سورة المائدة ١١٠.

(٣) سورة الفرقان ١٥.

يعقلون) (١)؟

قلنا: قد مر مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) (٢).

فإن قيل: كيف شبههم سبحانه وتعالى بالأنعام في الضلال بقوله تعالى: (إن هم إلا كالأنعام) (٣) مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبحه بدليل قوله تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٤) وقوله تعالى: (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) (٥)؟

قلنا: المراد تشبيههم بالأنعام في الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى، بواسطة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، الثانى: أن المراد تشبيههم في الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام في ضلالها وعمائها عن أمر الدنيا.

فإن قيل: إن كانوا كالأنعام في الضلال فكيف قال تعالى: (بل هم أضل سبيلاً) (٦) وإن كانوا أضل من الأنعام فكيف قال تعالى: (إن هم إلا كالأنعام) (٧) وإن كانوا كالأنعام في الضلال وأضل منها أيضاً فكيف يجتمع الوصفان؟

(١) سورة الفرقان ٤٤.

(٢) سورة المؤمنين ٧٠.

(٣) سورة الفرقان ٤٤.

(٤) سورة الإسراء ٤٤.

(٥) سورة الجمعة ١، سورة التغابن ١.

(٦) سورة الفرقان ٤٤.

(٧) سورة الفرقان ٤٤.

قلنا: المراد بقوله تعالى: (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) (١) التشبيه فى الأصل الضلال لا فى مقداره، والثانى بيان لمقداره، وقيل: المراد بالأول التشبيه فى المقدار أيضاً ولكن المراد بالأول طائفة والثانى طائفة أخرى، ووجه كونهم أضل من الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى.

فإن قيل: قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) لنحىى به بلدة ميتا (٢) كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث، ولم يرثها كما أنشأ فى قوله تعالى: (وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمِيْتَةُ) (٣)؟ قلنا: إنما ذكرها نظراً إلى معنى البلدة، وهو البلد والمكان لا إلى لفظها.

فإن قيل: قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) لنحىى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً (٤) إنزاله موصوفاً بالطهورية، وتعليل ذلك بالاحياء والسقى يشعر (٥) بأن الطهورية شرط فى حصول تلك المصلحة، كما تقول: حملنى الأمير

(١) سورة الفرقان ٤٤.

(٢) سورة الفرقان ٤٨ - ٤٩.

(٣) سورة يس ٢٢.

(٤) سورة الفرقان ٤٨ - ٤٩. (٥) وفى نسخة (ب) يتعين.

على فرس سابق لا صيد عليه (١) الوحش وليس كذلك؟
قلنا: وصف الطهورية ذكر إكراماً للأناسي الذين شربهم من جملة
المصالح التي تنزل لها الماء، واتماماً للنعمة والمنة عليهم، لا لكونه
شرطاً في تحقيق تلك المصالح والمنافع، بخلاف النظير فإنه قصد
بكونه سابقاً الشرطية لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها.
فإن قيل: كيف خص تعالى الأنعام بذكر السقي دون غيرها من
الحيوان الصامت؟

قلنا: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء ولا يعوزها الشرب
بخلاف الأنعام، الثاني: أن الأنعام قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة
بها، فكان الأنعام يسقى الأنعام كالأنعام يسقى الأناسي، فلذلك خصها
بالذكر.

فإن قيل: كيف قدم تعالى أحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى
الأناسي؟

قلنا: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم ما هو سبب
حياتهم ومعاشهم، الثاني: أن سقى الأرض بماء المطر سابق في
الوجود على سقى الأناسي به.

فإن قيل: كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: (قل ما
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا) (٢)؟

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربّه
سبيلاً (فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه، وقيل: تقديره: لكن من

(١) وفي نسخة (ب) له.

(٢) سورة الفرقان ٥٧.

شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) (١) بانفاق ماله في مرضاته فليفعل ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (هل ما أسألكم عليه من أجر) (٢) أي أجراً لأن (من) لتأكيد النفي وعمومه وقال تعالى في آية أخرى: (هل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) (٣) فأثبت سؤال الأجر عليه؟

قلنا: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (هل ما أسألكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) (٤) رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، والصحيح الذي عليه المحققون أنها غير منسوخة، بل هو استثناء من غير الجنس تقديره: لكن أذكركم المودة في القربى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واجعلنا للمتقين إماماً) (٥) ولم يقل أئمة؟

قلنا: مراعاة لفواصل الآيات، وقيل: تقديره: واجعل كل واحد منا إماماً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويلقون فيها نحية وسلاماً) (٦) وهما بمعنى واحد، ويؤيده قوله تعالى: (تحيتهم يوم يلقونه سلام) (٧)

(١) في نسخة (ب) وساقط من نسخة (أ).

(٢) سورة الفرقان ٥٧.

(٣) سورة الشورى ٢٢.

(٤) سورة مائدة ٤٧.

(٥) سورة الفرقان ٧٤.

(٦) سورة الأحزاب ٤٤.

(٧) سورة الفرقان ٧٥.

وقوله صلى الله عليه وسلم: السلام تحية أهل الجنة في الجنة؟ قلنا: قال مقاتل: المراد بالتحية سلام بعض على بعض أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم، وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة والسلام من الله تعالى عليهم لقوله تعالى: (سلام قولا من رب رحيم) (١)، وقيل: التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف، والسلام (بالقول، وقيل: التحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة) (٢) فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض أو يلقون ذلك من الله تعالى، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة.



(١) سورة يس ٥٨.

(٢) ساقط من نسخة (ب).

سورة الشعراء

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فظلت أعناقهم لها خاضعين) (١) والأعناق لا تعقل؟

قلنا: قيل أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقولهم: ذهبت أهل اليمامة كأن الأهل غير مذكور وثله قول الشاعر:

رأت مر السنين أخذن منى

كما أخذ السرار من الهلال

أو لما وصفت (٢) الأعناق بالخضوع الذي هو من صفات العقلاء جمعت جمع العقلاء، كقوله تعالى: (والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (٣) وقيل: الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق، كما قيل لهم: الرؤوس والنواصي والوجوه، وقيل: الأعناق الجماعات يقال: جئني عنق من الناس أي جماعة، وقيل: أن ذلك لمراعاة الفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فقلوا إنا رسول رب العالمين) (٤) فأفراد، وقال تعالى في موضع آخر: (إنا رسول ربك) (٥) فثنى؟ قلنا: الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التي هي المصدر فيوصف به الواحد والاثان والجماعة، كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول

(١) سورة الشعراء ٤.

(٢) وفي نسخة (ب) وصف.

(٣) سورة يوسف ٤.

(٥) سورة طه ٤٧.

(٤) سورة الشعراء ١٦.

الشاعر:

قد كذب الواشون ما بحت عندهم

بسر ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة، (الثانى: إنهما لاتفاقهما فى الأخوة والشرعة والرسالة
جعل كنفس واحدة، الثالث: أن تقديره: إن كل واحد منا رسول
رب العالمين، الرابع: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان الأصل،
وهارون عليه الصلاة والسلام كان تبعاً له، فأفرد إشارة إلى
ذلك) (١).

فإن قيل: كيف قال موسى عليه الصلاة والسلام معترفاً عن قتل
التبطين: (فعلتها إذاً وأنا من الضالين) (٢) والنبي لا يكون
ضالاً؟

قلنا: أراد به وأنا من الجاهلين، وكذا قراءة ابن مسعود رضى الله
عنه وقيل: أراد من المخطئين لأنه ما تعبد قتله كما يقال: ضل عن
الطريق، إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ، وقيل: من الناس كقوله
تعالى: (أن فضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) (٣).

فإن قيل: كيف قال فرعون: (وما رب العالمين) (٤) ولم يقل ومن
رب العالمين؟

قلنا: هو كان أعمى القلب عن معرفة الله تعالى منكراً لوجوده،
فكيف ينكر عليه العدول عن «من» إلى «ما»، الثانى: أن «ما» لا
تختص بغير المميز بل تطلق عليهما، وقال الله تعالى: (فانكحوا ما

(١) ساقط من نسخة (ب).

(٢) سورة الشعراء ٢٠.

(٣) سورة البقرة ٢٨٢.

(٤) سورة الشعراء ٢٣.

طاب لكم من النساء) (١) وقال الله تعالى: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) (٢).

فإن قيل: كيف قال موسى عليه الصلاة والسلام: (رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) (٣) علق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين، وهذا الشرط منتف والربوبية ثابتة فكيف صح التعليق؟

قلنا: معناه إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود، الثانى: أن «إن» نافية لا شرطية.

فإن قيل: كيف ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك: (وبكم ورب آبائكم الأولين) (٤) وقوله: (رب المشرق والمغرب) (٥)؟

قلنا: أعاد ذكرها تخصيصاً لها وتمييزاً، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد (٦) وعاین من الدلائل على الصانع، والنقل من هيئة إلى هيئة ومن حال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته، ثم خص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما يستدل به على وجود

(١) سورة النساء ٢.

(٢) سورة الكافرون ٢، ٥.

(٣) سورة الشعراء ٢٤.

(٤) سورة الشعراء ٢٦.

(٥) سورة الشعراء ٢٨.

(٦) وفى نسخة (ب) ومن شاهد.

الصانع، ولظهوره انتقل خليل الله عليه الصلاة والسلام إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالأحياء والإماتة: (فبهت الذي كفر) (١).

فإن قيل: كيف قال أولاً: (إن كنتم موتهين) (٢) وقال آخراً: (إن كنتم تعقلون) (٣)؟

قلنا: لاينهم ولاطفهم أولاً، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعارض قوله: (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) (٤) بقوله: (إن كنتم تعقلون) (٥).

فإن قيل: قوله: «لأسجنك» أخصر من قوله: (لأجعلنك من المسجونين) (٦) فكيف عدل عنه؟

قلنا: كان (٧) مراده تعريف العهد، فكأنه قال لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجنى، وكان إذا سجن إنساناً طرحه في هوة عميقة جداً مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكايته.

فإن قيل: قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون والسحرة ذكرت في سورة الأعراف ثم في سورة طه ثم في هذه السورة، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص؟

قلنا: فائدته تأكيد التحدى وإظهار الإعجاز، كما أن المبارز إذا خرج

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

(٢) سورة الشعراء ٢٤.

(٣) سورة الشعراء ٢٨.

(٤) سورة الشعراء ٢٧.

(٥) سورة الشعراء ٢٩.

(٦) سورة الشعراء ٢٨.

(٧) وفي نسخة (ب) لأن.

من الصف قال: نزال نزال هل من مبارز هل من مبارز مكرراً ذلك، ولذلك (١) سمي الله تعالى القرآن مثاني لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص، الثاني: أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين في الغزوات، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحي، فكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى في بعض الأوقات بإعادة الوحي، تشريفاً لهم وتفضيلاً.

فإن قيل: كيف كرر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ قلنا: لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم من أحوال غيره منهم في إقامته الحجج وإظهار المعجزات لأهل مصر، وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه، كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلما قرأوا القرآن) (٢) والترائي تفاعل من الرؤية، فيقتضي وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر والمنقول أنهم لم ير بعضهم بعضاً (فإن الله تعالى أرسل غيماً أبيض فحال بين العسكرين حتى منع رؤية بعضهم بعضاً؟

قلنا: الترائي يستعمل بمعنى التداني والتقابل أيضاً كما قال صلى الله عليه وسلم: المؤمن والكافر لا يتراءيان أى لا يتدانيان، ويقال: دورنا تتراءى أى تتقارب وتتقابل.

فإن قيل: كيف قال: (وإذا مرضت) (٣) ولم يقل وإذا أمرضنى،

(١) وفي نسخة (ب) ولهذا.

(٢) سورة الشعراء ٦١.

(٣) سورة الشعراء ٨٠.

كما قال قبله : (خلقنى فهو يهدين) (١)؟

قلنا: لأنه كان فى معرض الثناء على الله تعالى وتعدد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظاً للأدب، وإن كان الكل مضافاً إليه ونظيره قول الخضر عليه الصلاة والسلام: (فأردت أن أعيبها) (٢) وقوله: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) (٣).

فإن قيل: هذا الجواب يبطل بقوله: (والذى يميمنى) (٤) بقول الخضر عليه الصلاة والسلام: (فأردنا أن يبدلهم) (٥)؟

قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمة من هذا الوجه، وقيل: إنما أضاف المرض إلى نفسه، لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان فى مطاعمه ومشاربه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون) (٦) والمال الذى أنفق فى طاعة الله تعالى (٧) وسبيله ينفع، والولد الصالح ينفع، والولد الذى مات صغيراً يشفع، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسنة خصوصاً قوله صلى الله عليه وسلم: إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث؟

قلنا: المراد بالآية أنهما لا ينفعان غير المؤمن، فإنه هو الذى يأتى

(١) سورة الشعراء ٧٨.

(٢) سورة الكهف ٧٩.

(٣) سورة الكهف ٨٢.

(٤) سورة الشعراء ٨١.

(٥) سورة الكهف ٨١.

(٦) سورة الشعراء ٨٨.

(٧) وفى نسخة (ب) طاعة الله تعالى ورسوله.

بقلب سليم من الكفر أو المراد بهما مال لم ينفق في طاعة الله تعالى، وولد بالغ غير صالح.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) (١) أى قربت والجنة لا تنتقل من مكانها ولا تحول؟

قلنا: فيه قلب معناه: وأزلفت المتقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج: إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا، وقيل: معناه أنها كانت محجوبة عنهم، فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريباً لها. فإن قيل: كيف جمع الشافع ووحيد الصديق في قوله تعالى: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) (٢)؟

قلنا: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، لهذا روى أن بعض الحكماء مثل عن الصديق؟ فقال: هو اسم لا معنى له، أراد بذلك عزة وجوده، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو. فإن قيل: كيف قرن بين الأنعام والبنين في قوله تعالى: (أَمْ دَكَمَ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ) (٣)؟

قلنا: لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها، فلذا قرن بينهما. فإن قيل: قوله تعالى (أَوْعِظْتَ أَوْ لَمْ تُعْظَ) أخصر من قوله: (أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (٤) فكيف عدل عنه؟

قلنا: مرادهم سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً،

(١) سورة الشعراء ٩٠.

(٢) سورة الشعراء ١٠٠ - ١٠١.

(٣) سورة الشعراء ١٢٢.

(٤) سورة الشعراء ٢٦.

وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم: أم لم تعظ.
فإن قيل: قوله تعالى: (مَعْرُوهَا هَاصِبِحَا فَاذْمِين فَآخِذْهُمْ
الْعَذَابُ) (١) كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنائيتهم، وقد
قال صلى الله عليه وسلم: الندم توبة؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: ندموا حين رأوا العذاب، وذلك
ليس وقت التوبة كما قال تعالى: (وَلَبِستِ التَّوْبَةَ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ... الآية) (٢)، وقيل: كان ندمهم ندم خوف من العقاب
العاجل لا ندم توبة، فلذلك لم ينفعهم.

فإن قيل: كيف طلب لوط عليه الصلاة والسلام تنجيته من اللواط
بقوله: (وب نجنى وأهلى مما يعملون) (٣) واللواط كبيرة
والأنبياء معصومون من الكبائر؟

قلنا: مراده رب نجنى وأهلى من (عقوبة عملهم) (٤) أو من
شؤمهم، والدليل على ذلك ضمه أهله إليه في الدعاء، واستثناء الله
تعالى أمراته من قبول الدعوة.

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة شعيب عليه الصلاة والسلام: (إِذْ
هَآلَ لَهُمْ شَعِيبُ) (٥) ولم يقتل أخوهم كما قال تعالى في حق غيره
هنا، وكما قال في حقه في موضع آخر؟

قلنا: لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم، إنما كان

(١) سورة الشعراء ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) سورة النساء ١٨.

(٣) سورة الشعراء ١٦٩.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) سورة الشعراء ١٧٧.

من نسل مدين، كذا قال مقاتل، وفي الحديث أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة، وقال ابن جرير الطبري: أهل مدين هم أصحاب الأيكة، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفاً.

فإن قيل: ما الفرق بين حذف الواو في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وإثباتها في قصة شعيب عليه الصلاة والسلام في قولهم: (ما أنفت إلا بشر مثلنا) (١) و (وما أنفت إلا بشر مثلنا) (٢)؟

قلنا: الفرق بينهما أنه عند إثبات الواو المقصود معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم التسخير والبشرية، وعند حذف الواو المقصود معنى واحد مناف لها، وهو كونه مسخراً ثم قرروا التسخير بالبشرية، كذا أجاب الزمخشري رحمه الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الكهنة والمتنبئة كشق وسطيح ومسيلمة: (وأكثرهم كاذبون) (٢) بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم، والأفاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر، ويلزم من هذا أن يكون كلهم كذابين؟

قلنا: الضمير في قوله: «وأكثرهم» عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفاك.

(١) سورة الشعراء ١٥٤.

(٢) سورة الشعراء ١٨٦.

(٣) سورة الشعراء ٢٢٢.

سورة النمل

فإن قيل: ما فائدة تنكير الكتاب في قوله تعالى: (وكتاب مبين) (١)؟

قلنا: فائدته التفخيم له والتعظيم كقوله تعالى: (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) (٢).

فإن قيل: العطف يقتضى المغايرة فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن؟

قلنا: قيل أن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ، فعلى هذا لا إشكال، وعلى القول الآخر نقول: العطف يقتضى المغايرة مطلقاً إما لفظاً أو معنى بدليل قول الشاعر:

فألنى قولها كذباً ومينا

وقولهم: جاءنى الفقيه والظريف، والمغايرة لفظاً ثابتة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم) (٣) وقال تعالى في موضع آخر: (وزين لهم الشيطان أعمالهم) (٤)؟

قلنا: تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقة الشهوة والهوى وتركيبها فيهم، وتزيين الشيطان بالوسوسة والاغواء والغرور والتمنية، فصحت الاضافتان.

(١) سورة النمل ١.

(٢) سورة القمر ٥٥.

(٣) سورة النمل ٤.

(٤) سورة النمل ٢٤.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (سَأْتِيكُمْ) (١) وقال قى سورة طه: (عَلَى آتِيكُمْ) (٢) وأحدهما قطع، والآخر ترج، والقصة واحدة؟

قلنا: قد يقول الراجي إذا قوى رجاؤه سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ) (٣) مع أنه لم يكن في النار أحد، بل لم يكن المرء ناراً، وإنما كان نوراً في قول الجمهور، وقيل: كان ناراً ثم انقلب نوراً؟

قلنا: قال ابن عباس والحسن رضى الله عنهما: معناه قدس من ناداه من النار وهو الله تعالى، لا على معنى أن الله تعالى تجلى فى شيء بل على معنى أنه أسمع النداء من النار فى زعمه، الثانى: أن «من» زائدة، والتقدير: بورك فى النار، وفيمن حولها، وهو موسى عليه السلام والملائكة، الثالث: أن معناه بورك من فى طلب النار، وهو موسى عليه السلام.

فإن قيل: إنما يقال بارك الله على كذا ولا يقال بارك الله كذا؟ قلنا: قال الفراء: العرب تقول: باركه الله، وبارك فيه، وبارك عليه، بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى اسْحَاقَ) (٤) وفى لفظ التحيات: وبارك على محمد وعلى آل محمد.

(١) سورة النمل ٧.

(٢) سورة طه ١٠.

(٣) سورة النمل ٨.

(٤) سورة الصافات ١١٢.

فإن قيل: ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى: (إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم... الآية) (١)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه استثناء منقطع بمعنى لكن، الثانى: أنه استثناء متصل، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رضى الله عنهم، ومعناه إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة، كآدم ويونس وداود وسليمان وأخوه يوسف وموسى وغيرهم عليهم السلام فإنه يخاف مما فعل مع علمه أنى غفور رحيم، فيكون تقدير الكلام إلا من ظلم منهم، فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم، ولهذا قال بعضهم: «إن» هنا وفقاً على قوله تعالى: (إلا من ظلم) (٢) وإبتداء الكلام الثانى محذوف كما قدرنا، الثالث: أن إلا بمعنى ولا كما فى قوله تعالى: (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) (٣) أى ولا الذين ظلموا منهم، الرابع: أن تقديره: أنى لا يخاف لدى المرسلون ولا غير المرسلين إلا من ظلم.

فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام: (علمنا منطق الطير وأوقينا) (٤) بنون العظمة، وهو من كلام المتكبرين؟

قلنا: لم يرد به نون العظمة، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه، الثانى: أنه كان ملكاً مع كونه نبياً فراعى سياسة الملك وتكلم بكلام الملوك.

(١) سورة النمل ١٠- ١١.

(٢) سورة النمل ١١.

(٣) سورة البقرة ١٥٠.

(٤) سورة النمل ١٦.

فإن قيل: كيف حل له تعذيب الهدمد حتى قال: (لأعذبه عذاباً شديداً) (١)؟

قلنا: لعل ذلك أبيح له خاصة كما خص بفهم منطق الطير وتسخير له وغير ذلك.

فإن قيل: كيف استعظم الهدمد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام حتى قال: (ولها عرش عظيم) (٢)؟

قلنا: يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة لحال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش، الثاني: أنه يجوز أن لا يكون لسليمان مثله، وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض الأمراء شيء لا يكون للملك مثله.

فإن قيل: كيف قال الهدمد: (وأوتيت من كل شيء) (٣) مع قول سليمان عليه السلام: (وأوتينا من كل شيء) (٤) فكأنه سوى بينهما؟

قلنا: بينهما فرق وهو أن الهدمد أراد به وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا، لأنه عطف على الملك، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا، ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهي منطق الطير.

فإن قيل: كيف سوى الهدمد بين عرشها وعرش الله تعالى في

(١) سورة النمل ٢١.

(٢) سورة النمل ٢٣.

(٣) سورة النمل ٢٢.

(٤) سورة النمل ١٦.

الوصف بالعظيم حتى قال: (ولها عرش عظيم) (١) وقال تعالى: (رب العرش العظيم) (٢)؟

قلنا: بين الوصفين بون عظيم لأنه وصف عرشها بالعظيم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله تعالى بالعظيم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض وما بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: (فأنطقه إلههم ثم قول عنهم فانظروا ماذا يرجعون) (٣) إذا تولى عنهم فكيف يعلم جوابهم؟

قلنا: معناه ثم تول عنهم مستتراً من حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون، الثاني: أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان عليه السلام تقديم اسمه في الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) (٤)؟

قلنا: لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان، فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يتع نظرها عليه، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى، وقيل: إن اسم سليمان عليه السلام كان على عنوانه واسم الله تعالى كان في أول طية.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون «أصف» وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبي يقدر على ما لا يقدر عليه النبي، وهو

(١) سورة النمل ٢٢.

(٢) سورة النمل ٢٦.

(٣) سورة النمل ٢٨.

(٤) سورة النمل ٢٠.

إحضار عرش بلقيس في طرفة عين؟

قلنا: يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها رسول، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا لم يرزق منها، وكما أن سليمان عليه السلام خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقى فقال لقومه: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان عليه السلام، وقد نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار أدعوا لنا بالنصرة، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم، ولم يكونوا أفضل منه عليه السلام مع أن كرامة التبعية من جملة كرامات المتبوع، من وجه آخر قالوا: والعلم الذي كان عنده هو اسم الله الأعظم فدعا به فأجيب في الحال، ثم قيل هو يا حي، يا قيوم، وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، وقيل: يا الله يا رحمن، وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات كلها مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة، فإنه يجاب لا محالة.

فإن قيل: كيف قالت: (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (١)

وهي إنما أسلمت بعده، على يده لا معه، لأنه كان مسلماً قبلها؟ قلنا: إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده وإن كان الواقع كذلك.

فإن قيل: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟

قلنا: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين ثم قالوا (ما شهدنا مهلك أهله) (١)، يعنون ما شهدناه وحده، كانوا صادقين لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) (٢) ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب؟

قلنا: معناه لا يعلم الغيب بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله أو جميع الغيب إلا الله، وقيل: معناه لا يعلم ضمائر أهل السموات والأرض إلا الله.

فإن قيل: قوله تعالى: (بل أدرك علمهم فى الآخرة) (٣) وأدرك على اختلاف القراءتين هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا؟ وكيف مطابقة هذا الاضراب لما قبل، ومطابقته لما بعده من الاضرابين؟ وكيف وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى؟

قلنا: مرجع الضمير فى قوله تعالى: (بل أدرك علمهم) (٤) هو الكفار فقط، وفيما قبله جميع من فى السموات والأرض، وقوله تعالى: «بل أدرك» معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى: (حتى إذا أدركوا فيها جميعا) (٥) وأصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال، وقوله تعالى: «بل أدرك» معناه بل كمل وانتهى،

(١) سورة النمل ٤٩.

(٢) سورة النمل ٦٥.

(٣) سورة النمل ٦٦.

(٤) سورة الأعراف ٢٨.

(٥) سورة النمل ٦٦.

قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد ما جهلوه فى الدنيا علموه فى الآخرة، وقال السدى: يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا، وقال مقاتل: يريد علموا فى الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه فى الدنيا، وقوله تعالى: (بل هم فى شك منها) (١) معناه بل هم اليوم فى شك من الساعة، (بل هم منها عمون) (٢) جمع عم وهو أعمى القلب ومطابقة الاضراب الأول لما قبله، إن الذين لا يشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين، فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة وهم المؤمنون، وفريق منهم لا يعلمون وقته لانكارهم أصل وجوده، أفرد الفريق الثانى بالذكر بقوله تعالى: (بل اداوك علمهم فى الآخرة) (٣) تأكيداً لنفى علمهم بها فى الدنيا كأنه قال تعالى: بل فريق منهم لا يعلمون شيئاً من أمر البعث فى الدنيا أصلاً، ثم أضرب عن الأخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث فى الآخرة، إلى الأخبار عن شكلهم فى الدنيا فى أمر البعث والساعة ثم أضرب عنه إلى الأخبار عن عمى قلوبهم فى أمر البعث والساعة مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة، وأما وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى فلا تناقض فيه لاختلاف الأزمنة أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة وهى الشعور والعلم والشك والعمى.

فإن قيل: قضاء الله تعالى وحكمه واحد فما معنى قوله تعالى: (إن ربك يقضى بينهم بحكمة) (٤) وهو بمنزلة قوله تعالى: (إن ربك

(١) سورة النمل ٦٦.

(٢) سورة النمل ٦٦.

(٣) سورة النمل ٦٦.

(٤) سورة النمل ٧٨.

يقضى بينهم) بتضائه أو يحكم بينهم بحكمه؟
قلنا: معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف، المؤلف، لأنه لا
يقضى إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً، وقيل: معناه بحكمته،
ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه، جمع حكمة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه
والنهار مبصراً) (١) ولم يراعِ المقابلة بقوله تعالى: (والنهار
مبصراً) أى ليبصروا فيه؟

قلنا: راعى المقابلة المعنوية دون اللفظية، لأن معنى مبصراً ليبصروا
فيه، وقد سبق ما يشبه هذا فى قوله تعالى: (وآتيناهم الناقة
مبصرة) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) (٣)
مع أن فى ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء؟
قلنا: إنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى
السموات) (٤) ولم يقل فيفزع وهو أظهر مناسبة؟

قلنا: أراد بذلك الاشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وإنه كائن لا محالة،
لأن الفعل الماضى يدل على الوجود والتحقيق قطعاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وكل أمّوه داخرين) (٥) أى صاغرين

(١) سورة النمل ٨٦.

(٢) سورة الإسراء ٥٩.

(٣) سورة النمل ٨٦.

(٤) سورة النمل ٨٧.

(٥) سورة النمل ٨٧.

أذلاء بعد البعث، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتوه عزيزين
مكرمين؟

قلنا: المراد به صغار العبودية والرق وذلهما لا ذل (١) الذنوب
والمعاصي، وذلك يعم الخلق كلهم، ونظيره قوله تعالى: (إن كل من
فى السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً) (٢).



(١) وفى نسخة (ب) أذلال.

(٢) سورة مريم ٩٢.

سورة القصص

فإن قيل: ما فائدة وحى الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهى ترضعه طبعاً سواء أمرت بذلك أم لا ؟
قلنا: أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى) (١) والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان (٢) صدق قولنا إذا وجد هذا الشرط وجد هذا الجزاء أيهما شئت، ويلزم من هذا صدق قوله: فإذا خفت عليه فلا تخافى، وإنه يشبه المتناقض ؟
قلنا: معناه إذا خفت عليه من القتل فألقيه فى البحر، ولا تخافى عليه من الغرق ولا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى: (ولا تخافى ولا تحزنى) (٢) ؟
قلنا: الخوف غم يصيب الانسان لأمر يتوقعه فى المستقبل، والحزن غم يصيبه لأرق وقع ومضى.

فإن قيل: كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطى الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه ؟
قلنا: إنما جعله من عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى قتله، فكان ذلك ذنباً يستغفر منه مثله قال ابن جريج: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر.

(١) سورة القصص ٧.

(٢) سورة القصص ٧.

(٢) وفى نسخة (ب) خبران.

فإن قيل: موسى عليه السلام ما سقى لابنتي شعيب طلباً للأجر، فكيف أجاب دعوتها لما قالت له: (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) (١)؟

قلنا: يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الأجر، وإن سمته هي أجراً، ويؤيد هذا ما روى أنه لما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال له شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا.

فإن قيل: كيف قال له شعيب عليه السلام: (إني أريد أن أفكحك إحدى ابنتي هاتين) (٢) ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوحة، والنبي عليه السلام لا ينكح نكاحاً فاسداً ولا يعد به؟ قلنا: إنما كان ذلك وعداً بنكاح معينة عند الواعد، وإن كانت مجهولة عتد الموعود، ومثله جائز، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (وأضمم إليك جناحك من الرهب) (٣) فجعل الجناح هنا مضموماً، وقال تعالى في سورة طه: (وأضمم يدك إلى جناحك) (٤) فجعل الجناح مضموماً إليه، والقصة واحدة؟

(١) سورة القصص ٢٥.

(٢) سورة القصص ٢٧.

(٣) سورة القصص ٢٢.

(٤) سورة طه ٢٢.

قلنا: المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة طه ما بين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى فلا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (وأضمم إليك جناحك من الـرهـب) (١)؟

قلنا: لما هرب من الحية أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع، وإنما قال تعالى: «من الـرهـب» لأنه جعل الـرهـب الذي أصابه علة وسبباً لما أمر به من ضم الجناح، قال مجاهد: كل من فزع من شيء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع (وقيل: حقيقة ضم الجناح غير مراده بل هو مجاز عن تسكين الروح) (٢) وتثبيت الجأش، قال أبو علي: لم يرد به الضم بين الشينين، وإنما أمر بالعزم والجد في الاتيان بما طلب منه، ومثله قولهم:

أشد حيازيمك للمـ وت

ليس فيه شد حقيقة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره ولي مدبراً من الـرهـب.

فإن قيل: أي فائدة تفيد تصديق هارون لموسى عليهما السلام حتى قال: (فأرسله معي رداء يصدقني) (٣)؟

قلنا: ليس مراده بقوله: «يصدقني» أن يقول له: صدقت في دعوى الرسالة، فإن ذلك لا يفيد عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه، ويبسط القول فيها ببيانه، ويجادل

(١) سورة القصص ٢٢.

(٢) سورة القصص ٢٤.

(٣) ماقط من نسخة (ب).

عنه بالحق، فيكون ذلك سبباً لتصديقه، ألا ترى إلى قوله: (وأخى هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداءً يصدقني) (١) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله صدقت، فإن سبحانه وائل وياقلاً في ذلك سواء.

فإن قيل: قوله تعالى: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) (٢) أي أحكمتنا إليه الوحي مفني عن قوله تعالى: (وما كنت من الشاهدين) (٣) أي من الحاضرين عند ذلك؟

قلنا: معناه ما كنت من الشاهدين قصته مع شيعب عليه السلام، فاختلفت القضيّتان (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن الله لا يهدي الظالمين) (٥) وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر من قد هداه الله للإسلام والتوبة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة المائدة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) (٦) وإنما يرى العذاب من كان ضالاً لا مهتدياً؟

قلنا: جواب لو محذوف تقديره: ورأوا العذاب لو أنهم كانوا مهتدين

(١) سورة القصص ٢٤.

(٢) سورة القصص ٤٤.

(٣) سورة القصص ٤٤.

(٤) وفي نسخة (ب) القصتان.

(٥) سورة القصص ٥٠.

(٦) سورة القصص ٦٤.

لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب.

فإن قيل: كيف قال تعالى في آخر آية الليل: (بضياء أفلا تسمعون) (١) وقال في آخر آية النهار: (بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) (٢)؟

قلنا: السماع والابصار المذكوران لا تعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار، فلذلك لم يقرن الابصار بالضياء، وبيانه أن معنى الآيتين أفلا تسمعون القرآن سماع تدبر وتأمل فيستدلون بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة. فإن قيل: كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: (إلا رحمة من ربك) (٣)؟

قلنا: قال الفراء: هو استثناء منقطع تقديره: ولكن ألقى إليك رحمة من ربك، أي الرحمة.



(١) سورة القصص ٧١.

(٢) سورة القصص ٧٢.

(٣) سورة القصص ٨٦.

سورة العنكبوت

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) (١) ثم قال: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) (٢)؟ قلنا: معناه وما الكافرون بحاملين شيئاً من خطايا المؤمنين التي ضمنوا حملها، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهن، وهي ذنوب ضلالتهم، وأثقالا مع أثقالهم، وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار لا خطايا المؤمنين التي نفى عنهم حملها، وقد سبق نظير هذا في قوله تعالى: (ولا تزد وازدة وزر أخرى) (٣) في آخر سورة الأنعام وفي سورة بني إسرائيل.

فإن قيل: ما فائدة العدول عن قوله تعالى: (تسعمائة وخمسين عاماً) إلى قوله تعالى: (ألف سنة إلا خمسين عاماً) (٤) مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول؟

قلنا: لما كانت القصة مسوقة لتسليّة النبي عليه السلام بذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم، كان ذكر أقصى العدد الذي لا عقد أكثر منه في مراتب العدد أفخم وأعظم وأفضى إلى الغرض المقصود، وهو استطالة السامع مدة صبره، وفيه فائدة أخرى وهي نفى وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها، فإن هذا الوهم مع الألف والاستثناء منتف أو هو أبعد.

فإن قيل: كيف جاء التمييز أولاً بالسنة وثانياً بالعام؟

(١) سورة العنكبوت ١٢.

(٢) سورة العنكبوت ١٢.

(٣) سورة الأنعام ١٦٤.

(٤) سورة العنكبوت ١٤.

قلنا: لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب في مذهب الفصحاء والبلغاء إلا لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك.

فإن قيل: كيف نكر الرزق ثم عرفه في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) (١)؟

قلنا: لأنه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله، فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غيره.

فإن قيل: كيف أضمر اسمه تعالى في قوله عز وجل: (هَلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) (٢) ثم أظهره في قوله تعالى: (ثُمَّ اللَّهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) (٣) (وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة) (٤)؟

قلنا: إنما عدل إلى ما ذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى في ذكرها، وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا) (٥) في معرض المدح أو في معرض الامتنان وأجر الدنيا، فإنه منقطع بخلاف أجر الآخرة، فإنه النعيم الباقي المقيم فكان أولى بالذكر؟ قلنا: المراد به وأتيناه أجره في الدنيا مضموماً إلى أجره في الآخرة

(١) سورة العنكبوت ١٧.

(٢) سورة العنكبوت ٢٠.

(٣) سورة العنكبوت ٢٠.

(٤) مقطع من نسخة (ب).

(٥) سورة العنكبوت ٢٧.

من غير أن ينقص من أجر الآخرة شيئاً، قال ابن جرير: وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (١) يعنى له فى الآخرة جزاء الصالحين وإفياً كاملاً وأجره فى الدنيا، قيل: هو الثناء الحسن من الناس، والمحبة من أهل الأديان كلها، وقيل: هو البركة التى بارك الله فيه وفى ذريته.

فإن قيل: كيف قالوا: (إِنَّا مَهْلُكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) (٢) يعنون مدينة قوم لوط عليه السلام، ولم يقولوا تلك القرية مع أن مدينة قوم لوط كانت بعيدة عن موضع إبراهيم عليه السلام، غائبة عند وقت هذا الخطاب؟

قلنا: إنما قالوا هذه القرية لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم، وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: كيف قالوا: (أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) (٣) ولم يقولوا أهل هذه القرى، مع أن مدائن قوم لوط كانت خمساً، فأهلكوا أربعة؟ قلنا: إنما اقتصروا فى الذكر على قرية واحدة لأنها كانت أكبر وأقرب وهى «سدوم» مدينة لوط عليه السلام، فجعلوا ما وراءها تبعاً لها فى الذكر.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (٤) أى ذوى بصائر يقال فلان مستبصر إذا كان عاقلًا لبيباً صحيح النظر ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال؟

(١) سورة العنكبوت ٢٧.

(٢) سورة العنكبوت ٢١.

(٣) سورة العنكبوت ٢١.

(٤) سورة العنكبوت ٢٨.

قلنا: معناه وكانوا مستبصرين في أمور الدنيا، وقيل: معناه وكانوا عارفين بالحق بوضوح الحجج والدلائل، ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى لقوله تعالى: **(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (١)**، وقيل: معناه وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تدبر وتفكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: **(وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (٢)** وكل أحد يعلم أن أضعف البيوت تتخذها الهوام بيت العنكبوت؟

قلنا: معناه لو كانوا يعلمون أن اتخذهم الأصنام أولياء من دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: **(ولا تعادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) (٣)** وكل أهل الكتاب ظالمون لأنهم كفرون، ولا ظلم أشد من الكفر، ويؤيده قوله تعالى: **(والكافرون هم الظالمون) (٤)**؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله، الثانى: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **(فاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... الآية) (٥)**.

(١) سورة النمل ١٤.

(٢) سورة العنكبوت ٤١.

(٣) سورة العنكبوت ٤٦.

(٤) سورة البقرة ٢٥٤.

(٥) سورة التوبة ٢٩.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ولا تخطه يمينك) (١)؟
قلنا: فائدته تأكيد النفي كما يقال في الإثبات للتأكيد هذا الكتاب مما
كتبه فلان بيده وبيمينه، ورأيت فلاناً بعيني، وسمعت هذا الحديث
بأذني ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف لم يؤكد سبحانه في التلاوة ولم يقل: وما كنت تتلوا
من قبله من كتاب بلسانك؟

قلنا: الأصل في الكلام عدم الزيادة، فكل ما جاء على الأصل لا
يحتاج إلى العلة، وإنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا) (٢) ومعلوم أن المجاهدة في الدين أو في حق الله تعالى مع
النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين كل ذلك إنما
يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى، فكيف جعل الهداية من ثمرات
المجاهدة؟

قلنا: معناه والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة
الأحكام وحققاتها، وقيل: معناه لنهدينهم طريق الجنة، وقيل: معناه
والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها
وحاصله لنزيدنهم هداية وتوفيقاً للخيرات كقوله تعالى: (والذين
اهتدوا زادهم هدى) (٣) وقوله تعالى: (ويزيد الله الذين
اهتدوا

(١) سورة النكبات ٤٨.

(٢) سورة النكبات ٦٩.

(٣) سورة محمد ١٧.

هدى) (١) وقال أبو سليمان الداراني: معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا، وعن بعض الحكماء: من عمل بما علم وفق لما لا يعلم، وقيل: أن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم.



سورة الروم

فإن قيل: كيف ذكر الضمير في قوله تعالى: (وهو أهون عليه) (١) والمراد به الإعادة لسبق قوله تعالى: (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) (٢)؟

قلنا: معناه ورجعه أو ورده أهون عليه، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ، كما في قوله تعالى: (لنحيى به بلدة ميتاً) (٣) أى بلداً أو مكاناً.

فإن قيل: كيف أخرت الصلة في قوله تعالى: (وهو أهون عليه) (٤) وقدمت في قوله تعالى: (هو على هين) (٥)؟

قلنا: لأنه هناك قصد الاختصاص، مجرى الكلام، فقيل: هو على هين، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هم وعافر، وأما هنا فلا معنى للاختصاص، فجرى على أصله، كيف والأمر مبنى على ما يعقل الناس من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وهو أهون عليه) (٦) والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى في السهولة سواء، وإنما تتفاوت في السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا؟

قلنا: معناه «وهو هين عليه» وقد جاء في كلام العرب «أفعل»

(١) سورة الروم ٢٧.

(٢) سورة الروم ٢٧.

(٣) سورة الفرقان ٤٩.

(٤) سورة الروم ٢٧.

(٥) سورة مريم ٩، ٢١.

(٦) سورة الروم ٢٧.

بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل، ومنه قولهم فى الأذان «الله أكبر» أى الله كبير فى قول بعضهم، وقال الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنا لنا (١)

بيتاً دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة، وقال معن بن أوس المزنى:

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل

على أينما تعدو المنية أول

أى وإنى لوجل، وقال الآخر:

أصبحت أمنحك الصدود وإننى

قسماً إليك مع الصدود لأميل

أى لمائل، وقال الآخر:

تمنى الرجال أن أموت وإن مت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد، الثانى: أن معناه «وهو أهون عليه» فى تقديركم وحكمكم، لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من

الابتداء، كيف وأن الابتداء من ماء والإعادة من تراب، وتركيب

الصورة من التراب أهون عندكم، الثالث: أن الضمير فى قوله

تعالى: (وهو أهون عليه) (٢) راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى

معناه أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء، لأنه يعاد دفعة

واحدة بقوله تعالى: (كن فيكون) (٣) وفى الابتداء (خلق نطفة ثم

(١) وفى نسخة (ب) لها.

(٢) سورة الروم ٢٧.

(٣) سورة البقرة ١١٧، سورة آل عمران ٤٧ - ٥٩، سورة الأنعام ٧٢. -

نقل إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى عظام ثم إلى كسوة اللحم (١)،
الرابع: أن الابتداء من قبل التفضل الذي لا مقتضى لوجوبه والإعادة
من قبيل الواجب لأنها لا بد منها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب
بحكم وعده سبحانه وتعالى.

فإن قيل: كيف معنى قوله تعالى: (وما آتيتم من
الرب... الآية) (٢) على اختلاف القراءتين بالمد والقصر؟

قلنا: قال الحسن رضى الله عنه: المراد به الربا المحرم والخطاب
لدافعي الربا لا لأخذه، معناه: وما أعطيتم أكلة الربا من زيادة
لتربو وتزكو في أموالهم فلا يربو عند الله ولا يبارك فيها، فهو
نظير قوله تعالى: (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) (٣) لا
فرق بينهما، وقال ابن عباس رضى الله عنهما والجمهور، المراد به
أن يهب غيره هبة أو يهدى إليه هدية على قصد أن يعوضه أكثر
منها، وقالوا: وليس في ذلك أجر ولا وزر، وإنما سماه ربا، لأنه
مدفوع لاجتلاب الربا وهو الزيادة فكان سبباً لها فسمى باسمها،
ومعنى قراءة المد ظاهر، وأما قراءة القصر فمعناها: وما جئتم أى
وما فعلتم من إعطاء ربا، كما تقول: أتيت خطأ وأتيت صواباً أى
فعلت وقوله تعالى: (فأولئك هم المضعفون) (٤) أى ذو الاضعاف
من الحسنات، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

- سورة النحل ٤٠، سورة مريم ٢٥، سورة يس ٨٢، سورة غافر ٦٨.

(١) ماقط من نسخة (ب).

(٢) سورة الروم ٢٩:

(٣) سورة البقرة ٢٧٦.

(٤) سورة الروم ٢٩.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (من قبله) (١) بعد قوله تعالى: (من قبل أن ينزل عليهم) (٢)؟

قلنا: فائدته التأكيد كما في قوله تعالى: (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) (٣) وقيل: الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار. فإن قيل: كيف قال تعالى: (الله الذي خلقكم من ضعف) (٤) والضعف صفة الشيء الضعيف، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة، مع علمنا أنه خلق من عين وهي الماء والتراب لا من صفة؟

قلنا: أطلق المصدر وهو الضعف، (وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف) (٥) كقولهم: رجل عدل أى عادل ونحوه، فمعناه من ضعف وهو النطفة، وقيل: معناه على ضعف، فمن بمعنى على كما في قوله تعالى: (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) (٦) والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفولته.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) (٧) وهم إنما لبثوا فى الأرض فى قبورهم؟

قلنا: معناه لقد لبثتم فى قبوركم زماناً فى علم كتاب الله أو فى خبر كتاب الله، وقيل: معناه فى قضاء الله، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم

(١) سورة الروم ٤٩.

(٢) سورة الروم ٤٩.

(٣) سورة الحجر ٢٠، سورة ص ٧٢.

(٤) سورة الروم ٥٤.

(٥) ماقط من نسخة (ب).

(٦) سورة الأنبياء ٧٧.

(٧) سورة الروم ٥٦.

البعث، وأراد بالذين أوتوا العلم في كتاب الله الذين علموه، وفهموا
كقوله تعالى: (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) (١).
فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ولا هم يستعتبون) (٢) وقال تعالى
في موضع آخر: (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) (٣) فجعلهم
مرة طالبين للإعتاب، ومرة مطلوباً منهم الإعتاب؟
قلنا: معنى قوله تعالى: (ولا هم يستعتبون) (٤) أي ولا هم يقالون
عشراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله تعالى: (وإن يستعتبوا فما هم
من المعتبين) (٥) أي وإن يستقيلوا فما هم من المقالين، هذا ملخص
الجواب وحاصله، وقد أوضحنا معناه في شرح غريب القرآن (٦).

(١) سورة المؤمنين ١٠٠.

(٢) سورة الروم ٥٧.

(٣) سورة فصلت ٢٤.

(٤) سورة الروم ٥٧.

(٥) سورة فصلت ٢٤.

(٦) إن هذا الكتاب لم نجد له إشارة في كتاب معجم المؤلفين أو في كتاب
الأعلام وغيرها ويمكن أن يضاف إلى مؤلفاته أو لعله يقصد في ذلك كتابه
«روضة في الفصاحة»، ومما يضيف هذا الاحتمال ورود الإحالة إلى كتاب
«روضة الفصاحة» باسمه في هذا الكتاب.

سورة لقمان عليه السلام

فإن قيل: كيف يحل سماع الغناء بعد قوله تعالى: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث... الآية) (١) وقد قال الواحدى فى تفسيره الوسيط: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء، وروى هو أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً مسنداً أنه قال: والذي نفسى بيده ما رفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود رضى الله عنهم: لهو الحديث) هو: والله الغناء واشتراء المغنى والمغنية بالمال، وروى أيضاً حديثاً آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم مسنداً أنه قال فى هذه الآية: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) (٢) اللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه، لا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به، وروى أيضاً حديثاً آخر مسنداً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة، قيل: وما الروحانيون؟ قال: قراء أهل الجنة، قال أهل المعانى: ويدخل فى هذا كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ ورد بالاشتراء، لأن هذا اللفظ يذكر فى الاستبدال والاختيار كثيراً، وقال قتادة - رحمه الله - حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق هذا كله نقل الواحدى - رحمه الله - وكان من كبار السلف فى العلم والعمل وقال غيره: قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير

(٢) سورة لقمان ٦.

(١) سورة لقمان ٦.

وعكرمة وقتادة رضى الله عنهم المراد بلهو الحديث: الغناء وعن الحسن رضى الله عنه مثله وعنه أنه كل ما ألهى عن الله تعالى، وفى معنى يشتري قولان: أحدهما: أنه الشراء بالمال، والثانى: أنه الاختيار كما مر، وقيل: الغناء منغدة للمال مفسدة للقلب مسخطة للرب؟

قلنا: جوابه أنهم يزولون هذه الآية ونظائرها، وهذه الأحاديث ونظائرها فيصرفونها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلاد إلى الشهوات، ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جميعات السماع فى زماننا هذا من المفساد لعلموا حرمة بلا خلاف بين المسلمين، فإن شروط إباحة السماع عند من أباحه لا تجتمع فى زماننا هذا على ما هو مسطور فى كتب المشائخ، وأرباب الطريق، ولو اشتغلنا بتفصيل مفسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا.

فإن قيل: كيف وقع قوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه ...

الآيتان) (١) فى أثناء وصية لقمان لابنه، وما الجامع بينهما؟

قلنا: هى جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيداً لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك.

فإن قيل: قوله تعالى: (حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى

عامين) (٢) كيف اعترض بين الوصية ومفعولها؟

قلنا: لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة وتعبه من المشاق والمتاعب تخصيصاً لها بتأكيد الوصية وتذكيراً لعظيم حقها بأفرادها بالذكر، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له من

(١) سورة لقمان ١٤.

(٢) سورة لقمان ١٤.

أبر: قال: أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك: ثم أباك.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (١)
فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير؟

قلنا: ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد الجنس حتى الجمع
وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وأنكر
الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب إفراده.

فإن قيل: قوله تعالى: ولو أن ما فى الأرض من شجرة
أهلام (٢) يطابقه وما فى الأجور من ماء مداد فكيف عدل عنه؟
قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله تعالى: (يمده) (٣) لأنه من قولك
مد الدواء وأمداه، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواء، والأبحر
السبعة المملوءة مداداً أبداً صبا لا ينقطع، فصار نظير ما ذكرتم
ونظيره قوله تعالى: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات
ربى... الآية) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (من شجرة) (٥) ولم يقل من شجر؟
قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيصها شجرة شجرة حتى لا يبقى
من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد برئت أقلاماً.
فإن قيل: الكلمات جمع قلة والمقصود التعظيم والتفخيم، فكان جمع
الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة؟
قلنا: جمع القلة أبلغ فيما ذكرتم من المقصود، لأن جمع القلة إذا لم

(١) سورة لقمان ١٩.

(٢) سورة لقمان ٢٧.

(٣) سورة لقمان ٢٧.

(٤) سورة الكهف ١٠٩.

(٥) سورة لقمان ٢٧.

يفن بتلك الأقلام وذلك والمداد فكيف يفنى جمع الكثرة.
فإن قيل: فى قوله تعالى: (إن الله عنده علم الساعة... الآية) (١)
كيف أضاف العلم إلى نفسه فى الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات،
ونفى العلم عن العباد فى الأمرين الآخرين، مع أن الأمور الخمسة
سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها؟
قلنا: إنما خص الأمور الثلاثة الأول بالاضافة إليه تعظيماً لها
وتفخيماً لأنها أجل وأعظم، وإنما خص الأمرين الآخرين بنفى
علمهما عن العباد لأنهما من صفاتهم وأحوالهم، فإذا انتفى عنهم علمهما
كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة الأولى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) (٢)
ولم يقل بأى وقت تموت، وكلاهما غير معلوم، بل نفى العلم بالزمان
أولى لأن من الناس من يدعى علمه وهم المنجمون بخلاف المكان، فإن
أحداً لا يدعى علمه؟

قلنا: إنما خص المكان بنفى علمه لوجهين: أحدهما: أن الكون فى
مكان دون مكان فى وسع الانسان واختياره، فيكون اعتقاده علم مكان
الموت أقرب بخلاف الزمان، الثانى: أن للمكان تأثيراً فى جلب
الصحة والسقم بخلاف الزمان أو تأثير المكان فى ذلك أكثر.

(١) سورة لقمان ٢٤.

(٢) سورة لقمان ٢٤.

سورة السجدة

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) (١) وقال تعالى في سورة المعارج: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٢)؟

قلنا: المراد بالأول مسافة عروج الملك من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا، وذلك ألف سنة، وخمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض، وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا، والمراد بالثاني مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش، الثاني: أن المراد به في الآيتين يوم القيامة، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا لقوله تعالى: (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) (٢) ومعنى قوله تعالى: «خمسين ألف سنة» أي لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى، الثالث: أنه كألف سنة في حق عوام المؤمنين، وكخمسين ألف سنة في حق الكافرين لشدة ما يكابدون فيه من الأهوال والمحن، وكساعة من أيام الدنيا في حق خواص المؤمنين، ويؤيده ما روى أنه قيل: يا رسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله، فقال: والذي نفسي بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا، وروى أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل عن هاتين الآيتين، فقال: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، وإنى أكره أن أقول في كتاب الله تعالى بما لا أعلم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (الذى أحسن كل شيء خلقه) أو (كل

(١) سورة السجدة ٥.

(٢) سورة المعارج ٤.

(٢) سورة الحج ٤٧.

شيء خلقه) (١) على اختلاف القراءتين، ومقتضى القراءتين أن لا يكون في مخلوقات الله تعالى شيء قبيح والواقع خلافه، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصي فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة؟

قلنا: أحسن بمعنى أحكم وأتقن، الثاني: أن فيه اضمار تقديره: أحسن إلى كل شيء خلقه، وهذا الجواب يخص قراءة فتح اللام، الثالث: أن أحسن بمعنى علم كما يقال: فلان لا يحسن شيئاً أى لا يعلم شيئاً، وقال على رضى الله عنه: قيمة كل أمرىء ما يحسنه أى ما يعلمه، فمعناه أنه علم خلق كل شيء أو علم كل شيء خلقه ولم يتعلمه من أحد.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (من سلافة من ماء مهيئ) (٢) وقال تعالى في موضع آخر: (سلافة من طين) (٣)؟
قلنا: المذكور هنا صفة ذرية آدم، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام يعلم ذلك من أول الآيتين فلا تنافي.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ونفخ فيه من روحه) (٤) والله تعالى منزّه عن الروح؟

قلنا: معناه ونفخ فيه من روحه مضافة إلى الله تعالى بالخلق والإيجاد، لا بوجه آخر.

(١) سورة السجدة ٧.

(٢) سورة السجدة ٨.

(٣) سورة المؤمن ١٢.

(٤) سورة السجدة ٩.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (فل يتوفاكم ملك الموت) (١) وقال تعالى في موضع آخر: (توفته رسلنا) (٢) وقال تعالى في موضع آخر: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) (٣)؟

قلنا: الله تعالى هو المتوفى بخلق الموت، وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت وهم يجذبون من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم فصحت الإضافات كلها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا... الآية) (٤) وليس المؤمنون منحصرين في من هو موصوف بهذه الصفة، ولا هذه الصفة شرط في تحقق الإيمان؟ قلنا: المراد بقوله تعالى: (ذكروا بها) (٥) أى وعظوا، والمراد بالسجود: الخضوع والخشوع والتواضع في قبول الموعظة بآيات الله تعالى، وهذه الصفة شرط في تحقق الإيمان، ونظيره قوله تعالى: (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا... الآية) (٦)، الثانى: أن معناه إنما يؤمن بآياتنا إيماناً كاملاً من اتصف بهذه الصفة، وقيل: المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة.

(١) سورة السجدة ١١.

(٢) سورة الأنعام ٦١.

(٣) سورة الزمر ٤٢.

(٤) سورة السجدة ١٣.

(٥) سورة السجدة ١٣.

(٦) سورة الإسراء ١٠٧.

فإن قيل: قوله تعالى: (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) (١) يدل على أن الفاسق لا يكون مؤمناً؟

قلنا: الفاسق بمعنى الفاجر بدليل قوله تعالى بعده: (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) (٢)، والتقسيم يقتضى كون الفاسق المذكور هنا كافراً لا كون كل فاسق كافراً، ونظيره قوله تعالى: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) (٣) وقوله تعالى: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) (٤) ولم يلزم من ذلك أن كل مجرم كافر، ولا أن كل مسيء كافر.

فإن قيل: ما فائدة الغدول عن قوله تعالى: (إنما منه منتقمون) فى قوله تعالى: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) (٥) من المجرمين منتقمون؟

قلنا: لما جعله أظلم الظلمة ثم توعد كل المجرمين بالانتقام (منه دل على أن الأظلم يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام) (٦) ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

فإن قيل: قوله تعالى: (ويقولون متى هذا الفتح) (٧) سؤال عن وقت الفتح، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين، يعنى يوم

(١) سورة السجدة ١٨.

(٢) سورة السجدة ٢٠.

(٣) سورة القلم ٢٥.

(٤) سورة العنكبوت ٢١.

(٥) سورة السجدة ٢٢.

(٦) ساقط من نسخة (ب).

(٧) سورة السجدة ٢٨.

القيامة فكيف طابقه ما بعده جواباً؟

قلنا: لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لا سؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء لا ببيان حقيقة الوقت.

فإن قيل: على قول من فسر الفتح فتح مكة أو بفتح يوم بدر كيف وجه الجواب، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم في دينك اليومين وهم الملقاء الذين آمنوا؟

قلنا: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.



سورة الأحزاب

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها النبي) (١) ولم يقل يا محمد كما قال تعالى: يا موسى ويا عيسى ويا داود ونحوه؟ قلنا: إنما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبي والرسول إجلالا وتعظيماً له كما قال تعالى: (يا أيها النبي لم تحرم) (٢) و(يا أيها الرسول بلغ) (٣).

فإن قيل: لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته في الإخبار عنه كما عدل في النداء، ولم يعدل عنه في قوله تعالى: (محمد رسول الله) (٤) وقوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) (٥)؟

قلنا: إنما عدل عن نعته في هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، ولذلك ذكره بنعته لا باسمه في غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار، كما ذكره في النداء: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) (٦)، (وقال الرسول يا رب) (٧)، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٨)، (والله ورسوله أحق أن يرضوه) (٩)، (النبي أولى

(١) سورة الأحزاب ١.

(٢) سورة التحريم ١.

(٣) سورة المائدة ٦٧.

(٤) سورة الفتح ٢٩.

(٥) سورة آل عمران ١٤٤.

(٦) سورة التوبة ١٢٨.

(٧) سورة الأحزاب ٢١.

(٨) سورة الفرقان ٢٠.

(٩) سورة التوبة ٦٢.

بالمؤمنين من أنفسهم) (١)، (إن الله وملائكته يصلون على النبي) (٢)، (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) (٣) ونظائره كثيرة.

فإن قيل: ما فائدة ذكر الجوف في قوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين فني جوفه) (٤)؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الحج في قوله تعالى: (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (٥).

فإن قيل: ما معنى قولهم: أنت على كظهر أمي؟

قلنا: أرادوا أن يقولوا: أنت على حرام كبطن أمي، فكنوا عن البطن بالظهر (لئلا يذكر البطن الذي يقارب ذكره ذكر الفرج، وإنما كنوا عن البطن بالظهر) (٦) لوجهين: أحدهما: أنه عمود البطن، ويؤيده قول عمر رضي الله عنه: يجيء به أحدهم (٧) على عمود بطنه، أي على ظهره، الثاني: أن إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرماً عندهم، وكانوا يعتقدون إنها إذا أتيت من قبل ظهرها جاء الولد أحوال، فكان المطلق في الجاهلية إذا قصد تغليظ الطلاق قال: أنت على كظهر أمي.

(١) سورة الأحزاب ٦.

(٢) سورة الأحزاب ٦.

(٣) سورة المائدة ٨١.

(٤) سورة الأحزاب ٤.

(٥) سورة الحج

(٦) ماقط من نسخة (ب).

(٧) وفي نسخة (ب) أحدهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتُهُمْ) (١) جعل أزواج النبي عليه السلام بمنزلة أمهات المؤمنين حكماً، وما جعل النبي عليه السلام بمنزلة أبيهم حكماً، كما قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) (٢) ؟

قلنا: أراد الله تعالى بقوله: (وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتُهُمْ) (٢) أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء، وأشرف أسماء النساء الأم، وأشرف أسماء النبي عليه السلام رسول الله لا الأب، الثاني: أنه تعالى جعلهن أمهات المؤمنين تحريماً لهن عليهن إجلالاً وتعظيماً له عليه السلام كيلا يطمع أحد في نكاحهن فلو جعل النبي عليه السلام أباً للمؤمنين لكان أباً للمؤمنات أيضاً فلم يحل له نكاح امرأة من المؤمنات، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه، وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة بقوله تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) (٤) فجعل أقرب إليهم من أنفسهم وأحب، وكثيراً من الآباء يتبرأ من ابنه، ويتبرأ منه ابنه أيضاً، وليس أحد يتبرأ من نفسه.

فإن قيل: كيف قدم النبي عليه السلام على نوح ومن بعده في قوله تعالى: (وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) (٥) ؟

قلنا: لأن هذا العطف من باب عطف الخاص على العام الذي هو جزء

(١) سورة الأحزاب ٦.

(٢) سورة الأحزاب ٤٠.

(٣) سورة الأحزاب ٦.

(٤) سورة الأحزاب ٦.

(٥) سورة الأحزاب ٧.

منه لبيان التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذراريهم، فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم، وفى الميثاق المأخوذ قولان: أحدهما: أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضاً، والثانى: أنه تعالى أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى، ويدعوا إلى توحيده، ويصدق بعضهم بعضاً.

فإن قيل: كيف قدم عليه نوح عليهما السلام فى نظير هذه الآية وهى قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك) (١)؟

قلنا: لأن تلك الآية سبقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، كأنه قال شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح عليه السلام فى العهد القديم، وبعث عليه محمد عليه السلام فى العهد الحديث، وبعث عليه من توسطهما من الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية.

فإن قيل: ما فائدة إعادة أخذ الميثاق فى قوله تعالى: (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) (٢)؟

قلنا: فائدته التأكيد ووصف الميثاق المذكور أولاً بالجلالة والعظم استعادة (٣) من وصف الإجرام به، وقيل: إن المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين.

(١) سورة الشورى ١٣.

(٢) سورة الأحزاب ٧.

(٣) وفى نسخة (ب) استعادة.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف حال المؤمنين التي أمتن عليهم فيها: (وبلغت القلوب الحناجر) (١) ولو بلغت القلوب الحناجر لماتوا، ولم يبق للامتنان وجه؟

قلنا: قال ابن قتيبة: معناه كادت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف، فهو مثل في اضطراب القلوب ووجيبها، ورده ابن الأنباري فقال: العرب لا تضر كاد، ولا تعرف معناه ما لم تنطق به، وقال الفراء: معناه أنهم جبنوا وجزعوا، والجبان إذا أشد خوفه انتفخت رتته، فرفعت قلبه إلى حنجرتة، وهي جوف الحلقوم وأقصاه، وكذا إذا اشتد الغضب أو الغم وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، ومن هنا قيل للجبان انتفخ منخره.

فإن قيل: كيف علق الله تعالى عذاب المنافقين بمشيتة بقوله تعالى: (ويعذب المنافقين إن شاء) (٢) وعذابهم متيقن مقطوع به لقوله تعالى: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) (٣)؟ قلنا: معناه إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النفاق، وقيل، معناه إن شاء ذلك وقد شاءه.

فإن قيل: ما حقيقة قوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٤)؟

قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أنه نفسه أسوة حسنة، أي قدوة، والأسوة اسم للمتأسي به، أي المقتدى به، كما تقول: في البيضة

(١) سورة الأحزاب ١٠.

(٢) سورة الأحزاب ٢٤.

(٣) سورة النساء ١٤٥.

(٤) سورة الأحزاب ٢١.

عشرون منا حديداً أى هى فى نفسها هذا المقدار، الثانى: أن فيه خصلة من حقها أن يؤنس بها وتتبع وهى مواساته بنفسه أصحابه، وصبره على الجهاد، وثباته يوم أحد حين كسرت رباعيته وشج وجهه.

فإن قيل: كيف أظهر تعالى الأسمين مع تقدم ذكرهما فى قوله تعالى: (ولما رأى المؤمنون الأحزاب هالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) (١)؟

قلنا: لنلا يكون الضمير الواحد عائداً على الله تعالى وغيره. فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف بنى قريظة: (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطنوها) (٢) والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعدما طنوها وظهروا عليها؟

قلنا: معناه ويورثكم بطريق وضع الماضى موضع المستقبل مبالغة فى تحقيق الموعود وتأكيداً، الثانى: أن فيه إضمار تقديره: وأرضاً لم تطنوها سيورثكم إياها، يعنى أرض مكة، وقيل: أرض فارس والروم، وقيل: أرض خيبر، وقيل: كل أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة، الثالث: أن معناه وأورثكم ذلك كله فى الأزل بكتابته لكم فى اللوح المحفوظ.

فإن قيل: كيف خص الله تعالى نساء النبى عليه السلام بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة المطلقة على الطاعة فى قوله تعالى: (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة... الآية) (٣)؟

(١) سورة الأحزاب ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب ٢٧.

(٣) سورة الأحزاب ٣٠.

قلنا: أما تضعيف العقوبة فلاذنه يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهد غيرهن، الثانى: أن فى معصيتهن أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذنوب من آذى الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من ذنب غيره، والمراد بالفاحشة النشوز، وسوء الخلق، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنه، وأما تضعيف المثوبة فلاذنه أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت الطاعة منهن أشرف كما كانت المعصية منهن أقبح ونظير ذلك الوزير والبواب فى طاعتها للملك ومعصيتهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا نساء النبی استن كأحد من النساء) (١) ولم يقل كواحدة من النساء؟

قلنا: قد سبق نظير هذا مرة فى آخر سورة البقرة فى قوله تعالى: (لا تفرق بين أحد من رسله) (٢).

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى نساء النبی عليه السلام بالزكاة فى قوله تعالى: (وأهمن الصلاة وآتین الزكاة) (٣) ولم يملكن نصاباً حولاً كاملاً؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة، والأمر أمر ندب. فإن قيل: ما الفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) (٤)؟

(١) سورة الأحزاب ٢٢.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) سورة الأحزاب ٢٢.

(٤) سورة الأحزاب ٢٥.

قلنا: المراد بالمسلم الموحد بلسانه، وبالمؤمن المصدق بقلبه.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من
رجالكم) (١) مع أنه كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم؟
قلنا: قوله تعالى: (من رجالكم) (٢) يخرجهم من حكم النفي من
وجهين: أحدهما: أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال، بل ماتوا صبياناً،
الثاني: أنه أضاف الرجال إليهم، وهم كانوا رجاله، لا رجالهم.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (وخاتم النبيين) (٣) وعيسى عليه السلام
ينزل بعده، وهو نبي؟

قلنا: معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن
نبيء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً بشريعة محمد عليه السلام
مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته.

فإن قيل: قوله تعالى: (هو الذي يصلى عليكم) (٤) معناه: يرحمكم
ويغفر لكم فما معنى قوله تعالى: (وملائكته) (٥) والرحمة والمغفرة
منهم محال؟

قلنا: جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلوا
الرحمة والمغفرة، ونظيره قولهم: حياك الله، أي أحياك، وأبقاك،
وحيا زيد عمراً أي دعا له بأن يحييه الله اتكالا منه على إجابة

(١) سورة الأحزاب ٤٠.

(٢) سورة الأحزاب ٤٠.

(٣) سورة الأحزاب ٤٠.

(٤) سورة الأحزاب ٤٣.

(٥) سورة الأحزاب ٤٣.

دعوته، ومثله قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) (١)

فإن قيل: قد فهم من قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ) (٢) أنه مأذون له في الدعاء إلى الله سبحانه، فما فائدة قوله تعالى: (بِإِذْنِهِ) (٣)؟

قلنا: معناه بتسهيله وتيسيره، وقيل: معناه بأمره، لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك.

فإن قيل: كيف شبه الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بالسراج دون الشمس والشمس أتم وأكمل؟

قلنا: قيل: إن المراد بالسراج هنا الشمس كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا الشَّمْسُ سِرَاجًا) (٤)، وقيل: إنما شبهه بالسراج لأن السراج يتفرع ويتولد منه سراج لا تعد ولا تحصى، بخلاف الشمس، والنبي عليه السلام تفرع منه بواسطة إرشاده، وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا، وهلم جرا إلى يوم القيامة، وقيل: إنما شبهه بالسراج لأنه بعثه في زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال.

فإن قيل: كيف شبهه بالسراج دون الشمع، والشمع أشرف، ونوره أتم وأكمل؟

قلنا: قد سبق الجواب عن مثل هذا في قوله تعالى: (مِثْلُ نَوْرِهِ

(١) سورة الأحزاب ٦.

(٢) سورة الأحزاب ٤٥.

(٣) سورة الأحزاب ٤٦.

(٤) سورة نوح ١٦.

كمشكاة فيها مصباح) (٥).

فإن قيل: كيف خص تعالى المؤمنين بعدم وجوب العدة في الطلاق قبل الميس في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن... الآية) (٢) مع أن حكم الكتابة كذلك أيضاً؟

قلنا: هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر، لا تخصيص.
فإن قيل: كيف أفرد سبحانه العم وجمع العمات، وأفرد الخال وجمع الخالات في قوله تعالى: (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) (٢) والمعهود في كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع؟

قلنا: لأن العم اسم على وزن المصدر الذي هو الضم ونحوه، وكذا الخال على وزن القال ونحوه، فيستوى فيه المفرد والتثنية والجمع، بخلاف العمة والخاله، ونظيره قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) (٤).

فإن قيل: هذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة النور: (أو بيوت أعمامكم أو بيوت أخوالكم) (٥)؟

قلنا: العم والخال ليسا مصدرين حقيقة بل على وزن المصدر فاعتبر هنا شبههما بالمصدر، وهناك حقيقتهما عماد بالجهتين بخلاف السمع

(١) سورة النور ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب ٥٠.

(٤) سورة البقرة ٧.

(٥) سورة النور ٦١.

فإنه لما كان مصدراً حقيقة ما جاء قط في الكتاب العزيز إلا مفرداً.
فإن قيل: كيف ذكر سبحانه الأقارب في قوله تعالى: (لا جناح
عليهن في آفاثن... الآية) (١) ولم يذكر العم والخال وحكماهما
حكم من ذكر في رفع الجناح؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة النور في قوله
تعالى: (ولا يبدین ذینتهن إلا لبعوثتهن... الآية) (٢) فالأولى أن
تستتر المرأة عن عمها وخالها لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضي
إلى الفتنة.

فإن قيل: السادة والكبراء بمعنى واحد، فكيف عطف أحدهما على
الأخر في قوله تعالى: (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) (٣)؟

قلنا: هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له مع إتحاد
معناها كقولهم: فلان عاقل لبيب، وهذا حسن جميل، وقول الشاعر:
معاذ الله من كذب ومين

فإن قيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام في قوله تعالى: (وحملها
الإنسان) (٤) فكيف قال تعالى: (إنه كان ظلوماً جهولاً) (٥)
وفعل من أوزان المبالغة فيقتضى تكرار الظلم والجهل منه، وإنه
منتف؟

(١) سورة الأحزاب ٥٥.

(٢) سورة النور ٢١.

(٣) سورة الأحزاب ٦٧.

(٤) سورة الأحزاب ٧٢.

(٥) سورة الأحزاب ٧٢.

قلنا: لما كان عظيم التقدر رفيع المحل، كان ظلمه وجهله أقبح وأفحش، فقام عظم الوصف مقام الكثرة، وقد سبق نظير هذا في سورة آل عمران في قوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ) (١)، وقيل: إنما سماه ظلوماً جهولاً لتعدى ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس، فإنهم أخرجوا من الجنة بواسطته وسلط عليهم إبليس وجنوده.

•

سورة سبا

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أو لم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) (١) ولم يقل إلى ما فوقهم وما تحتهم من السماء والأرض؟

قلنا: ما بين يدي الإنسان هو كل شيء يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه، وما خلفه هو كل شيء لا يقع نظره عليه حتى يحول وجهه إليه، فكان اللفظ المذكور أعم مما ذكرتم.

فإن قيل: هلا ذكر سبحانه الإيمان والشامل هنا كما ذكرها في قوله تعالى: (ثم لا تبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) (٢)؟

قلنا: لأنه وجد هنا ما يفنى عن ذكرها، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض، ولا كذلك ثم.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل وهي التصاوير؟

قلنا: قيل إن عمل الصور لم يكن محرماً في شريعته، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها، وذلك غير محرم في شريعتنا أيضاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان) (٣) ولم يقل آيتان جنتان، وكل جنة كانت آية أى علامة على توحيد الله تعالى؟

قلنا: لما تماثلتا في الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة

(١) سورة سبا ٩.

(٢) سورة الأعراف ١٧.

(٣) سورة سبا ١٥.

ونظيره قوله تعالى: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (١).
فإن قيل: كيف قال تعالى: (هل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) (٢) أى الذين زعمتموهم آلهة من دون الله مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلهاً دون الله، بل مع الله على وجه الشراكة؟
قلنا: النص لا يدل على زعمهم حصر الألوية فى غير الله أصلاً، بل يومهم ذلك، ولو دل فنقول فيه تقديم وتأخير تقديره: قل ادعوا الذين من دون الله زعمتم أنهم شركاء الله.

فإن قيل: ما معنى التشكيك فى قوله تعالى: (وإنا وإياكم لعلى هدى أو هنى ضلال مبين) (٣)؟

قلنا: قيل إن «أو» هنا بمعنى الواو فى الموضعين فيصير المعنى: نحن على الهدى وأنتم فى الضلال، وقيل معناه: وإنا لضالون أو مهتدون، وإنكم كذلك وهو من التعريض بضالهم، كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه: والله إن أحداً لكاذب، ويعنى به صاحبه.

فإن قيل: كيف قالت الملائكة عليهم السلام فى حق المشركين: (بل كافوا يعبدون الجن) (٤) ولم ينقل عن أحد من المشركين أنه عبد الجن؟

قلنا: معناه بل كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون، أى أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أن الملائكة بنات الله تعالى.

(١) سورة المؤمنين ٥٠.

(٢) سورة مآ ٢٢.

(٣) سورة مآ ٢٤.

(٤) سورة مآ ٤١.

سورة فاطر

فإن قيل: في قوله تعالى: (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) (١) كيف جاء «فتثير» مضارعاً دون ما قبله وما بعده؟
قلنا: هو مضارع وضع موضع الماضي كما في قوله تعالى: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) (٢).

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (وما يعمر من معمر) (٣)؟
قلنا: معناه وما يعمر من أحد، إنما سماء معمرأ بما هو سائر إليه.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (٤) وكم أمة كانت في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟
قلنا: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تدرس، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً عليهما الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف اكتفى سبحانه بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد سبق ذكرهما في أولها؟
قلنا: لما كانت النذارة مشفوعة (٥) بالبشارة لا محالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما.
فإن قيل: ما الفرق بين النصب واللغوب حتى عطف أحدهما على

(١) سورة مباء ٩.

(٢) سورة الأحزاب ٢٧.

(٣) سورة مباء ١١.

(٤) سورة مباء ٢٤.

(٥) وفي نسخة (ب) متبوعة.

الآخر؟

قلنا: **النصب: المشقة والكلفة، واللغوب: الفتور** الحاصل بسبب **النصب**، فهو نتيجة **النصب**، كنا فرق بينهما **الزمخشري**، ويرد على هذا أن يكون **انتفاء الثاني** معلوماً من **انتفاء الأول**.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: **(وبنا أخرجنا فعلم صالحاً غير الذى كنا فعلم) (١)** مع أنه يؤهم أنهم يعملون صالحاً غير الصالح الذى عملوه، وهم ما عملوا صالحاً، بل مينا؟

قلنا: هم كانوا يحسبون أنهم على مسيرة **صالحه**، كما قال تعالى: **(وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٢)** فمعناه غير الذى كنا نحسبه صالحاً فنعمله.



(١) سورة سبأ ٢٧.

(٢) سورة الكهف ١٠٤.

سورة يس عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: (إنا إليكم مرسلون) (١) وقال الله تعالى ثانياً: (إنا إليكم لمرسلون) (٢)؟

قلنا: لأن الأول ابتداء إخبار فاحتج إلى التأكيد باللام، بخلاف الثاني فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتج إلى التأكيد.

فإن قيل: كيف أضاف الفطر إلى نفسه بقوله: (فطرنى) (٣) وأضاف البعث إليهم بقوله: (وإليه ترجعون) (٤) مع علمه بأن الله تعالى فطره وفطرهم وسوف يبعثه ويبعثهم فهلا قال: فطرنا وإليه نرجع أو فطرکم وإليه ترجعون؟

قلنا: لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر، والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزجر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا حسرة على العباد) (٥) والتحسر على الله تعالى محال؟

قلنا: هو تحسر للخلق معناه قولوا: يا حسرتنا على أنفسنا لا تحسر من الله تعالى.

فإن قيل: كيف نفى سبحانه وتعالى الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه، وهو قوله تعالى: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر

(١) سورة يس ١٤.

(٢) سورة يس ١٦.

(٣) سورة يس ٢٢.

(٤) سورة يس ٢٢.

(٥) سورة يس ٢٠.

ولا الليل سابق النهار) (١)؟

قلنا: لأن سير القمر أسرع، فإنه يقطع فلكه في شهر، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفى الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره، هذا مؤال الزمخشري وجوابه، ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفى الإدراك عنه، لأنه إذا قيل: لا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره، علم بالطريق الأولى أن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها، فأما إذا قيل: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، أمكن أن يقال: إنما لم تدركه لبطء سيرها، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وآية لهم) (٢) أي لأهل مكة، (أنا حملنا ذريتهم) (٣) أي ذرية أهل مكة أو ذرية قوم نوح عليه الصلاة والسلام (فى الفلك المشحون) والذرية اسم للأولاد والمحمول فى سفينة نوح عليه السلام آباء أهل مكة لا أولادهم؟

قلنا: الذرية من الأضداد، تطلق على الآباء وعلى الأولاد بدليل قوله تعالى: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض) (٥) وصف جميع المذكورين

(١) سورة يس ٤٠.

(٢) سورة يس ٤١.

(٣) سورة يس ٤١.

(٤) سورة يس ٤١.

(٥) سورة آل عمران ٣٣.

بكونهم ذرية وبعضهم آباء، وبعضهم أبناء، فمعناه: حملنا آباء أهل مكة، أو حملنا أبناءهم لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين.
فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) (١) يعنون الوعد بالبعث والجزاء، والوعد كان واقعاً لا منتظراً؟

قلنا: معناه متى إنجاز هذا الوعد وصدقه بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعد كضرب الأمير، ونسج اليمن.
فإن قيل: قولهم: (من بعثنا من موفدنا) (٢) سؤال عن البعث فكيف مطابقه ما بعده جواباً؟

قلنا: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنباكُم به الرسل إلا أنه جيء به على هذه الطريقة تبكيثاً لهم وتوبيخاً.
فإن قيل: كيف قال تعالى في صفة أهل الجنة: (هم وأزواجهم في ظلال) (٣) والظل إنما يكون حيث تكون الشمس، ولهذا لا يقال لها في الليل ظل، والجنة لا يكون فيها شمس لقوله تعالى: (لا يرون فيها شمساً ولا ظهريراً) (٤)؟

قلنا: ظل أشجار الجنة من نور العرش لئلا تبهر أبصار أهل الجنة، فإنه أعظم من نور الشمس، وقيل: من نور قناديل العرش.
فإن قيل: كيف سمي سبحانه نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة في

(١) سورة يس ٤٨.

(٢) سورة يس ٥٢.

(٣) سورة يس ٥٦.

(٤) سورة الانسان ١٢.

قوله تعالى: (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) (١)؟

قلنا: لأن اليد كانت مباشرة، والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة، بل إقرار بما فعل، قلت: وفي الجواب نظر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما علمناه الشعر) (٢) مع أنه عليه الصلاة والسلام قد روى عنه ما هو شعر وهو قوله عليه الصلاة والسلام:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبدالمطلب

وقوله عليه الصلاة والسلام:

هل أنت إلا أصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت

قلنا: هذا ليس بشعر لأن الخليل لم يعد شطور الرجز شعراً، وقوله عليه الصلاة والسلام: هل أنت إلا أصبع دميت، من مشطور الرجز، كيف وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: ميت، ولقيت، بفتح الياء وسكون التاء، وعلى هذا لا يكون شعراً، ولكن الراوى حرفة فصار شعراً، الثانى: أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر، والقصد منتف فيما روى عنه عليه الصلاة والسلام، فكان كما يتفق وجوده فى كل كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس، ولا يعده أحداً شعراً.

(١) سورة يس ٦٥.

(٢) سورة يس ٦٩.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (مما عملت أيدينا أنعاما) (١) والله تعالى منزّه عن الجارحة؟

قلنا: هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به من غير شريك ولا معين، كما يقال في الحب وغيره من أعمال القلب هذا مما عملته يداك، ويقال لمن لا يد له: يداك أو كفاك، وكذا قوله تعالى: (لما خلقت بيدي) (٢).

فإن قيل: كيف سمى قوله: (من يحيى العظام وهي رميم) (٣) مثلاً وليس بمثل، وإنما هو استفهام وإنكار؟
قلنا: سماء مثلاً لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهو إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى مع أن العقل والنقل كلاهما يشهد بقدرته تعالى على ذلك.



(١) سورة يس ٧١.

(٢) سورة ص ٧٥.

(٣) سورة يس ٧٨.

سورة الصافات

فإن قيل: كيف جمع تعالى المشارق هنا، وثناها في سورة الرحمن، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق، وذكر ثم المغربين أيضاً، وذكر المغرب مع المشارق مجموعين في قوله تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) (١)، وذكرهما مفردين في قوله تعالى: (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) (٢)؟

قلنا: لأن القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه، ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز، فأجمل تارة بقوله تعالى: (وب المشرقين ووب المغربين) (٣) أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما على الإجمال، وفصل تارة بقوله تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) (٤) أراد جميع مشارق السنة ومغاربها، وهى تزيد على سبعمائة، وبسط مرة بقوله تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) (٥) وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى: (وب المشارق) (٦) لدلالة المذكور وهى المشارق على المحذوف وهو المغرب، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقاً فى الوجود على الغروب، أو لأن المشارق منبع الأنوار

(١) سورة المعارج ٤٠.

(٢) سورة الشعراء ٢٨.

(٣) سورة الرحمن ١٧.

(٤) سورة المعارج ٤٠.

(٥) سورة المعارج ٤٠.

(٦) سورة الصافات ٥.

والأضواء.

فإن قيل: كيف خص سبحانه وتعالى سماء الدنيا بقوله تعالى: (إنا زينا السماء الدنيا بمزينة الكواكب) (١) مع أن غير سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضاً؟

قلنا: إنما خصها بالذكر لأننا نحن نرى سماء الدنيا لا غير.
فإن قيل: لأى فائدة ذكر الله تعالى تزيين السماء الدنيا، وكان رؤيته بين السماء الدنيا ظاهراً لا يحتاج إلى ذكره بقوله: (إنا زينا السماء الدنيا) (٢) فينبغى أن يذكر لنفسه سماء غير الدنيا؟
قلنا: لا غير.

فإن قيل: كيف وجه قراءة الضم فى قوله تعالى: (بل عجب) (٣) وهى قراءة على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم، واختيار الفراء، والتعجب روعة تعترى الانسان عند استعظام الشيء، والله تعالى لا تجوز عليه الروعة؟

قلنا: أراد بالتعجب الاستعظام، وهو جائز من الله تعالى كما استعظم كيد النساء، وإنكار الكفار معجزات الأنبياء عليهم السلام، الثانى: أن معناه قل يا محمد بل عجب، وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إن الله تعالى لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم، فقال إبراهيم النخعى: إن شريحاً كان يعجبه علمه، وعبدالله أعلم منه، وكان يقرأ بالضم يريد عبدالله بن مسعود، قال الزجاج: إنكار هذه القراءة غلط، لأن التعجب من الله تعالى خلاف العجب من آدميين، ونظيره

(١) سورة الصافات ٦.

(٢) سورة الصافات ٦.

(٣) سورة الصافات ١٧.

قوله تعالى: (ومكروا ومكر الله) (١) وقوله تعالى: (سخر الله منهم) (٢) وما أشبهه، وفي الذي وقع منه العجب قولان: أحدهما كفرهم بالقرآن، والثاني: إنكارهم البعث.

فإن قيل: كيف مدح سبحانه نوحاً عليه الصلاة والسلام بقوله: (إنه من عبادنا المؤمنين) (٣) مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟

قلنا: إنما مدحه بذلك تنبيهاً لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه أو ترغيباً في تحصيله والثبات عليه، والازدياد منه كما قال تعالى في مدح إبراهيم عليه السلام: (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فنظروا نظرة في النجوم) (٥) والنظر إنما يعدى بالي، قال الله تعالى: (ولكن انظروا إلى الجبل) (٦) وقال: (فانظروا إلى آثار رحمة الله) (٧)؟

قلنا: «في» هنا بمعنى «إلى» كما في قوله تعالى: (فردوا أيديهم في أفواههم) (٨)، الثاني: أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين، ونظر الفكر إنما يعدى بـ «في» قال الله تعالى: (أو لم ينظروا

(١) سورة آل عمران ٥٤.

(٢) سورة التوبة ٧٩.

(٣) سورة الصافات ٨١.

(٤) سورة البقرة ١٢٠.

(٥) سورة الصافات ٨٨.

(٦) سورة الأعراف ١٤٢.

(٧) سورة الروم ٥٠.

(٨) سورة إبراهيم ٩.

فى ملكوت السموات والأرض) (١) فصار المعنى ففكر فى علم النجوم أو فى أحوال النجوم؟

فإن قيل: كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول: (إنى سقيم) (٢) ولم يكن سقيماً؟

قلنا: معناه سأسقم كما فى قوله تعالى: (إفك ميت) (٣) فهو من معاريض الكلام، قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم، وقال ابن الأثيرى: أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا، فلما رآه علم أنه سيسقم، وقيل: معناه أنى سقيم القلب عليكم إذا عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع، وقيل: إنه عرض له مرض، وكان سقيماً حقيقة، وقال الزمخشري: قد جوز بعض الناس الكذب فى المكيدة فى الحرب والتقية وإرضاء الزوج، والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين قال: والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرض وورى وإبراهيم عليه السلام عرض بقوله وورى، فإنه أراد أن من فى عنقه الموت سقيم، كما قيل فى المثل: كفى بالسلامة داء، وقال لبيد:

ودعوت ربى بالسلامة جامداً

ليصحنى فإذا السلامة داء

وروى أن رجلاً مات فجأة فاجتمع عليه الناس، وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابى: أصحيح من الموت فى عنقه؟.

فإن قيل: لم لا يجوز النظر فى علم النجوم مع أن إبراهيم عليه

(١) سورة الأعراف ١٨٥.

(٢) سورة الصافات ٨٩.

(٣) سورة الزمر ٢٠.

السلام قد نظر فيه، وحكم منه؟

قلنا: إذا كان المنجم كأبراهيم عليه السلام في أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر في علم النجوم والحكم منه. فإن قيل: قوله تعالى: (هَؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ ضَرْبُ الْبَلِيمِينَ فَأَهْبِلُوا إِلَيْهِ يَذْفُونَ) (١) أى يسرعون، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: (هَآلُوا مِنْ فَعْلٍ هَآذَا بَآلِهَتْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (٢) وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: يجوز أن يكون الذى عرفه وزف إليه بعضهم، والذي جهله وسأل عنه بعض آخر، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زف إليه كلهم.

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) (٣)؟ قلنا: معناه إلى حيث أمرنى ربى بالمهاجرة وهو الشام، وقيل: إلى طاعة ربى ورضاه، وقيل: إلى أرض ربى، وإنما خصها بالاضافة إلى الله تعالى تشريفاً لها وتفضيلاً لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين كما فى قوله تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) (٤)، وقوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) (٥).

(١) سورة الصافات ٩٢ - ٩٤.

(٢) سورة الأنبياء ٥٩.

(٣) سورة الصافات ٩٩.

(٤) سورة الجن ١٨.

(٥) سورة الفرقان ٦٢.

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: (سيهدين) (١) وهو كان مهتدياً؟

قلنا: معناه سيثبتني على ما أنا عليه من الهدى، ويزيدني هدى، وقيل: معناه سيهدين إلى الجنة، وقيل: إلى الصواب في جميع أحوالي، ونظيره قول موسى عليه السلام: (كلا إن معي ربي سيهدين) (٢).

فإن قيل: كيف شاور إبراهيم ولده عليهما السلام في ذبحه بقوله: (فانظر ماذا أرى) (٣) مع أنه كان حتماً على إبراهيم لأنه أمر به، لأن معنى قوله: (إني أرى في المنام أني أذبحك) (٤) أنه أمر بذبحه في المنام، ورؤيا الأنبياء حق فإذا رأوا شيئاً في المنام فعلوه في اليقظة كذا قاله قتادة، والدليل على أن منامه كان وحياً بالأمر بالذبح قوله: (يا أبت افعل ما تؤمر) (٥)؟

قلنا: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه في ذلك، ولكن ليعلم ما عنده من الصبر فيما نزل به من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح ويهونه عليها، فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب الثواب بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله، وليكون سنة في المشاورة فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكل الشجرة لما فرط منه ذلك.

(١) سورة الصافات ٩٩.

(٢) سورة الشعراء ٦٢.

(٣) سورة الصافات ١٠٢.

(٤) سورة الصافات ١٠٢.

(٥) سورة الصافات ١٠٢.

فإن قيل: كيف قيل له: (قد صدقت الرؤيا) (١) وإنما يكون مصداقاً لها لو وجد منه الذبح ولم يوجد؟

قلنا: معناه قد فعلت غاية ما فى وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله تعالى منع الشفرة أن تقطع، وقيل: إن الذى رآه فى المنام معالجة الذبح فقط، لا إراقة الدم، وقد فعل ذلك فى اليقظة فكان مصداقاً للرؤيا.

فإن قيل: أين جواب «لما» فى قوله تعالى: (فلما أسلما) (٢)؟ قلنا: قيل هو محذوف تقديره: استبشرا واغتبطا وشكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهما من الفداء، أو تقديره: سعدا أو أجزل ثوابهما، وقيل الجواب هو قوله تعالى: (فاديناها) (٣) والواو زائدة كما فى قول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى

بنا بطن خبت ذى خفاف عتقل

أى فلما أجزنا ساحة الحى انتحى، كذا نقله ابن الأنبارى فى شرحه. فإن قيل: كيف قال تعالى فى آخر قصة إبراهيم عليه السلام: (كذلك نجى المحسنين) (٤) وفى غيرها من القصص قبلها أو بعدها: (إننا كذلك نجى المحسنين) (٥)؟

قلنا: لما سبق فى قصة إبراهيم عليه السلام مرة: (إننا كذلك نجى

(١) سورة الصافات ١٠٥

(٢) سورة الصافات ١٠٣

(٣) سورة الصافات ١٠٤

(٤) سورة الصافات ١١٠

(٥) سورة الصافات ٨٠، ١٠٥، ١٢١، ١٢١

المحسنين) (١) طرحه في الثاني تخفيفاً واختصاراً واكتفاءً بذكره مرة بخلاف سائر القصص.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين) (٢) وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية؟ قلنا: قوله تعالى: (إذ نجيناه) (٣) لا يتعلق بما قبله بل يتعلق بمحذوف تقديره: وأذكر لهم يا محمد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه، وكذا السؤال في قوله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون) (٤).

فإن قيل: كيف صح في قوله تعالى: (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (٥) و«أو» كلمة شك، والشك على الله تعالى محال؟ قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى «بل» فلا شك، وقيل: بمعنى الواو كما في قوله تعالى: (أو لامستم النساء) (٦) وقوله تعالى: (عذراً أو فذراً) (٧)، وقيل: معناه أو يزيدون في تقديرهم فلو رآهم أحد منكم لقال هم مائة ألف أو يزيدون، فالشك إنما دخل في حكاية قول المخلوقين، ونظيره قوله تعالى: (فكان قاب قوسين أو أدنى) (٨).

(١) سورة الصافات ١٠٥.

(٢) سورة الصافات ١٢٢ - ١٢٤.

(٣) سورة الصافات ١٢٤.

(٤) سورة الصافات ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) سورة الصافات ١٤٧.

(٦) سورة النساء ٤٢، سورة المائدة ٦.

(٧) سورة المرات ٦.

(٨) سورة النجم ٩.

فإن قيل: ما فائدة تكرار الأمر بالتولية والإبصار في قوله تعالى: (فتول عنهم حتى حين) (١)، (وأبصرهم) (٢) الآيات؟ قلنا: فائدته تأكيد التهديد والوعيد.

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: "وأبصرهم" ثم قال ثانياً: (وأبصر) (٣)؟

قلنا: طرح ضمير المفعول تخفيفاً واختصاراً واكتفاءً بسبق ذكره مرة، وقيل: معنى الأول وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب، ومعنى الثاني وأبصر العذاب إذا نزل بهم فلا فرق بينهما في المعنى.



(١) سورة الصافات ١٧٤.

(٢) سورة الصافات ١٧٥.

(٣) سورة الصافات ١٧٩.

سورة ص

فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: (ص) والقرآن ذي الذكر (١)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدهما: أنه لما ذكر حرفاً من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الاعجاز، كما قيل في كل سورة مفتوحة بحرف، أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز، وكذلك إذا كان الحرف مقسماً به، كأنه قال: أقسمت بـ «ص» والقرآن ذي الذكر، إنه لكلام معجز، الثاني: إن (ص) (٢) خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم السورة، كأنه قال: هذه ص، يعني هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر، كما تقول: هذا خاتم والله، تريد هذا هو المشهور بالسقاء والله، الثالث: أن جواب القسم كم أهلكنا، وأصله لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذفت اللام تخفيفاً كما في قوله تعالى: (والشمس وضحاها)، (قد أفلح من ذكاهها) (٣)، الرابع: أن قوله تعالى: (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) (٤)، وهو قول الكسائي، وقال الفراء: وهذا لا يستقيم في العربية لتأخره جداً عن القسم.

فإن قيل: ما وجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى: (اصبر على ما يقولون) (٥) وبين قوله تعالى: (واذكر

(١) سورة ص ١.

(٢) سورة ص ١.

(٣) سورة الشمس ٩.

(٤) سورة ص ٦٤.

(٥) سورة ص ١٧.

عبدنا داود (١)؟

قلنا: وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه السلام على العبادة والطاعة، الثانى: أن المعنى عرفهم أن داود عليه السلام مع كرامته وشهرة طاعته، وعبادته التى منها صوم يوم دون يوم، وقيام نصف الليل كان شديد الخوف من عذابى لا يزال باكياً مستغفراً، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم؟

فإن قيل: كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام: (خصمان بغي بعضنا على بعض) (٢)، والملائكة لا يوجد منهم البغى والظلم، وكيف قال: (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعمة) (٣) إلى آخره، ولم يكن كما قال؟

قلنا: إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للسائلة، ومثل ذلك لا يعد كذباً، كما تقول فى تصوير المسائل زيد له أربعون شاة وعمره له أربعون، وأنت تشير إليهما، فخلطاهما، وحال عليها الحول، كم يجب فيها، وليس لهما شيء، وتقول لى أربعون شاة، ولك أربعون شاة فخلطناهما وما لكما شيء.

فإن قيل: كيف حكم داود عليه السلام على المدعى عليه بكونه ظالماً قبل أن يسمع كلامه؟

قلنا: لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه كذا نقله السدى إلا أنه حذف ذكر الاعتراف فى القصة اختصاراً لدلالة الحال عليه، كما تقول العرب: أمرته بالتجارة فكسب الأموال، أى فأتجر فكسب الأموال.

(١) سورة ص ١٧.

(٢) سورة ص ٢٢.

(٣) سورة ص ٢٢.

فإن قيل: ما معنى تكرار الحب في قوله عليه السلام: (أُحِبِّتُ حُبَ الْخَيْرِ) (١) وما معنى تعديته بعن وظاهره، أُحِبِّتُ حُباً مِثْلَ حُبِ الْخَيْرِ، كما تقول أُحِبِّتُ حُبَ زَيْدٍ، أَيْ أُحِبِّتُ حُباً مِثْلَ حُبِ زَيْدٍ؟

قلنا: أُحِبِّتُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى آثَرْتُ، كَمَا يَقُولُ الْمَخِيرُ بَيْنَ الشَّيْنَيْنِ: أُحِبِّتُ هَذَا، أَيْ آثَرْتَهُ، وَقَدْ جَاءَ اسْتَحْبُّ بِمَعْنَى آثَرَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) (٢) أَيْ آثَرُوهُ لِأَنَّهُ مِنْ حُبِّ شَيْئٍ فَقَدْ آثَرَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَ«عَنْ» بِمَعْنَى «عَلَى» كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ) (٣) فَيَصِيرُ الْمَعْنَى أَيْ آثَرْتُ حُبَ الْخَيْرِ عَلَى ذِكْرِ رَبِّي الثَّانِي: وَهُوَ اخْتِيَارُ الْجَرَجَانِي صَاحِبِ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَنَّ أُحِبِّتُ بِمَعْنَى قَعَدْتُ وَتَأَخَّرْتُ مَأْخُوضٌ مِنْ أَحَبَّ الْجَمْلَ إِذَا بَرَكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: دَعْتُكَ إِلَيْهَا مَقْلَتَاهَا وَجِيدَهَا

فَمَلْتُ كَمَا مَالَ الْمَحَبُّ عَلَى عَمَدٍ

فَالْمَحَبُّ هُنَا الْجَمْلُ، وَالْعَمَدُ عُلَّةٌ تَكُونُ فِي مَنَامِ الْجَمْلِ، وَكُلٌّ مِنْ تَرَكَ شَيْئاً يُحِبُّ أَنْ يَفْعَلَهُ فَقَدْ قَعَدَ عَنْهُ، فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: إِنِّي قَعَدْتُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي لِحُبِّ الْخَيْرِ، فَيَكُونُ انْتِصَابٌ حُبِّ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَهَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي

(١) سورة ص. ص. ٢٢.

(٢) سورة فصلت ١٧.

(٣) سورة محمد ٢٨.

لأحد من بعدى) (١) وهذا يشبه الحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبده بما لا يضر سليمان عليه السلام؟

قلنا: قال الحسن وقتادة رضى الله عنهما: المراد به لا ينبغي لأحد أن يسلبه منى فى حياته، كما فعل الشيطان الذى لبس خاتمه وجلس على كرسيه، الثانى: أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك، فاقترض حكمته تخصيصه به فالهمه أن يسأله تخصيصه به، الثالث: أنه أراد بذلك ملكاً عظيماً فعبّر عنه بتلك العبارة، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول لفلان ما ليس لأحد من الفضل أو من المال، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله، وإن كان فى الناس أمثاله.

فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام: (إنما وجدناه صابراً) (٢) مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ما قيل، وهو قد شكى؟

قلنا: الشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ولا تسمى جزءاً لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى، والافتقار إليه، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام: (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) (٣) مع قوله: (فصبر جميل) (٤) وقولهم: الصبر ترك الشكوى، يعنى إلى العباد، الثانى: أنه عليه الصلاة والسلام إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم

(١) سورة ص ٢٥.

(٢) سورة ص ٤٤.

(٣) سورة يوسف ٨٦.

(٤) سورة يوسف ٨٢.

الشيطان بما كان يوسوس إليهم به، ويقول: إنه لو كان أيوب نبياً لما ابتلى بما هو فيه، ولدعا إلى الله تعالى بكشف ضره، وروى أنه عليه السلام قال في مناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصرى، ولم يلهنى ما ملكت يمينى، ولم أكل إلا ومعى يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعى جائع أو عريان، فكشف الله تعالى ضره.

فإن قيل: قوله تعالى: (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) (١) يدل على أن غاية لعنة الله تعالى لإبليس هي يوم القيامة ثم تنقطع؟ قلنا: كيف تنقطع وقد قال تعالى: (فأذن مؤذن بينهم) (٢) يعنى يوم القيامة (أن لعنة الله على الظالمين) (٣) وإبليس أظلم الظلمة، ولكن مراده في الآية أن عليه اللعنة في طول مدة الدنيا، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعة من أنواع العذاب ما تنسى عنده اللعة فكانها انقطعت.



(١) سورة ص ٧٨.

(٢) سورة الأعراف ٤٤.

(٣) سورة الأعراف ٤٤.

سورة الزمر

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن الله لا يهدي من هو كذاب كفار) (١) وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق؟ قلنا: معناه لا يهديه إلى الإيمان ما دام على كفره وكذبه، وقيل: معناه لا يهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين.

فإن قيل: كيف يصلح قوله تعالى: (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لأصطفى مما يخلق ما يشاء) (٢) ردًا لقول من ادعى أن له ولدًا، وباطلا لذلك، مع أن كل من نسب إليه ولدًا قال: إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولدًا، فاليهود يدعون أنه عزيز، والنصارى يدعون أنه المسيح عليهما السلام، وطائفة من مشركى العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى؟

قلنا: هذا إن جعل ردًا على اليهود والنصارى كان معناه لأصطفى الولد من الملائكة، لا من البشر، لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود، ولا بين النصارى، وإن كان ردًا على مشركى العرب كان معناه لأصطفى له ولدًا من جنس، يخلق كل شيء يريد له ليكون ولده موصوفًا بصفته ولم يصطف من الملائكة، الذين لا يقدر على إيجاد جناح بعوضة، ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير لأنه ليس بعام، أو لأنه بمعنى التقدير من الطين، ثم الله تعالى يخلقه حيوانًا بنفخ عيسى عليه السلام إظهارًا لمعجزته.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها

(١) سورة الزمر ٢.

(٢) سورة الزمر ٤.

زوجها) (١) وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقنا منه ،
فكيف عطفه عليه بكلمة «ثم» ؟

قلنا: «ثم» هنا للعطف فى الاخبار لا فى الإيجاد كما تقول
لصاحبك: أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أس أكثر منه ، أى ثم
أخبرك بكذا ، ومنه قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه

ثم قد ساد قبل ذلك جده

الثانى: أن «ثم» متعلقة بمعنى واحدة ، وعاطفة عليه لا على
خلقكم ، فمعناه خلقكم من نفس وجدت وأفردت بالإيجاد ثم شفعت
بزوج ، الثالث: أن «ثم» على ظاهرها لأن الله تعالى خلق آدم ثم
أخرج أولاده من ظهره كالذر وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى
ظهره ثم خلق منه حواء ، فالمراد بقوله تعالى: خلقكم خلقاً يوم
أخذ الميثاق دفعة واحدة ، لا هذا الخلق الذى نحن فيه الآن بالتوالد
والتناسل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأُنزل لكم من الأنعام ثمانية
أزواج) (٢) مع أن الأنعام مخلوقة فى الأرض ، لا منزلة من السماء ؟
قلنا: قيل إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية فى الجنة ثم أنزلها على
آدم عليه السلام بعد إنزاله إلى الأرض ، الثانى: أن الله تعالى أنزل
الماء من السماء والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات ، والنبات لا
يوجد إلا بوجود الماء ، فكأن الأنعام منزلة له من السماء ، ونظيره
قوله تعالى: (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري

(١) سورة الزمر ٦.

(٢) سورة الزمر ٦.

سَوَاتِكُمْ) (١) وإنما أنزل الماء الذي لا يوجد القطن والكتان والصوف إلا به.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الذي جاء بالصدق وصدق به: (ليَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢) مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيئ أعمالهم، ويجزيهم بحسنها أيضاً؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة التوبة. فإن قيل: كيف قال تعالى: (هَلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً) (٣) مع أنه جاء في الأخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة؟

قلنا: معناه أن أحداً لا يملكها إلا بتمليكها (٤) كما قال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (٥) وقال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) (٦).

فإن قيل: كيف ذكر الضمير في: (أَوْقِيْتَهُ) (٧) وهو للنعمة في قوله تعالى: (ثُمَّ إِذَا خَوْلَنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا) (٨) قال: (إِنَّمَا أَوْقِيْتَهُ عَلَى

(١) سورة الأعراف ٢٦.

(٢) سورة الزمر ٢٥.

(٣) سورة الزمر ٤٤.

(٤) وفي نسخة (ب) تمليكك.

(٥) سورة البقرة ٢٥٥.

(٦) سورة الأنبياء ٢٨.

(٧) سورة الزمر ٤٩.

(٨) سورة الزمر ٤٩.

علم) (١) ؟

قلنا: إنما ذكره نظراً إلى المعنى لأن معنى: (نعمه منا) (٢) شيئاً من النعمه، وقسماً منها، أو لأن النعمه والإنعام بمعنى واحد. فإن قيل: كيف قال تعالى: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) (٣) والقرآن كله حسن؟

قلنا: معناه اتبعوا أحسن وحى، أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله، وقيل: أحسن القرآن الآيات المحكمات، وقيل: أحسنه كل آية تضمنت أمراً بطاعة أو إحسان، وقد سبق نظير هذه الآية فى سورة الأعراف فى قوله تعالى: (وأمرهم فأكذبوا بأحسنها) (٤) والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا، وكذا الأجوبة هنا تصلح ثم إلا الجواب الأول.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت) (٥) مع أن الموحى إليهم جماعة، ولما أوحى إلى من قبله لم يكن فى الوحى إليهم خطابه؟

قلنا: معناه ولقد أوحى إلى كل واحد منكم ومنهم لئن أشركت، الثانى: أن فيه اضممار تقديره: ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد ثم ابتداء فقال: لئن أشركت، الثالث: أن فيه تقديم وتأخيراً تقديره: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وكذلك أوحى إلى الذين من

(١) سورة الزمر ٤٩.

(٢) سورة الزمر ٤٩.

(٣) سورة الزمر ٥٥.

(٤) سورة الأعراف ١٤٥.

(٥) سورة الزمر ٦٥.

قبلك.

فإن قيل: كيف عبر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة والنار بلفظ السوق وفيه نوع إهانة؟

قلنا: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسرى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثاً وإسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان فشتان ما بين السواقين.

فإن قيل: كيف قال تعالى في صفة النار: (فتحت أبوابها) (١) بغير واو، وقال في صفة الجنة: (وفتحت أبوابها) (٢) بالواو؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنها زائدة قاله الفراء وغيره، الثاني: أنها واو الثمانية، وأبواب الجنة ثمانية، الثالث: أنها واو الحال معناه جاءوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم بخلاف أبواب النار فإنها إنما فتحت عند مجيئهم، والحكمة في ذلك من وجوه: أحدها: أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتوا النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها، الثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان فصين (٣) عنه أهل الجنة لا أهل النار، الثالث: أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقاً لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم بخلاف أهل النار.

(١) سورة الزمر ٧١.

(٢) سورة الزمر ٧٢.

(٣) وفي نسخة (ب) فيصبر.

سورة غافر*

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) (١) مع أن الذين آمنوا - أيضاً - يجادلون فيها، هل هي منسوخة أم محكمة؟ وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة؟ وهل هي مخلوقة أم قديمة؟ وغير ذلك؟

قلنا: المراد الجدل فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل، والطعن بقصد إدحاض الحق، وإطفاء نور الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى عقيب: (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) (٢).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى في وصف حملة العرش: (ويؤمنون به) (٣) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش مؤمنون بالله تعالى؟ قلنا: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء عليهم السلام بالصالح والإيمان في غير موضع من كتابه لذلك، وكما عقب أعمال (٤) الخير بقوله تعالى: (ثم كان من الذين آمنوا) (٥).

فإن قيل: في قوله تعالى: (فقالوا ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين) (٦) كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتاً إماتة؟

قلنا: هذا كما تقول سبحانه من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما تقول للحفار ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس

(*) وفي نسخة (أ) سورة المؤمن.

(١) سورة غافر ٤.

(٢) سورة غافر ٧.

(٣) سورة غافر ٥.

(٤) وفي نسخة (ب) استعجال.

(٦) سورة غافر ١١.

(٥) سورة البلد ١٧.

فيهما نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من سعة إلى ضيق، ولا من ضيق إلى سعة، وإنما أردت الانشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنقله منه.

فإن قيل: قوله تعالى: (لا يخفى على الله منهم شيء) (١) بيان وتقرير لبروزهم في قوله تعالى: (يوم هم بادزون) (٢) والله تعالى لا يخفى عليه شيء برزوا أو لم يبرزوا؟

قلنا: معناه لا يخفى على الله منهم شيء في اعتقادهم أيضاً فإنهم كانوا في الدنيا يتوهمون إنهم إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله، ويؤيده قوله تعالى: (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) (٣).

فإن قيل: كيف قال المؤمن في حق موسى عليه السلام: (وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي بعدكم) (٤) مع أنه صادق في زعم القائل لهذا القول، وفي نفس الأمر أيضاً، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم؟

قلنا: فيه وجوه: أحدهما: أن لفظة «بعض» صلة، الثاني: أنها بمعنى كل كما في قول الشاعر:

(١) سورة غافر ١٦.

(٢) سورة غافر ١٦.

(٣) سورة فصلت ٢٢.

(٤) سورة غافر ٢٨.

إن الأمور إذا الأحداث دبرها

دون الشيوخ ترى فى بعضها خلا

ومنه قول لبيد:

أو لم تكن تدرى نوار بأننى

وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قلت: ولقائل أن يقول أن لفظة «بعض» فى البيتين على حقيقتيهما، وكنى لبيد ببعض النفوس عن نفسه كأنه قال: أتركها إلى أن أموت، وكذا فسره ابن الأنبارى على أن أبا عبيدة قال: إن بعضاً فى الآية بمعنى «كل» واستدل بيت لبيد وأنكر الزمخشري على أبى عبيدة هذا التفسير على أن غير أبى عبيدة قد قال فى قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام لأمه: (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) (١) أن بعضاً فيه بمعنى «كل»، الثالث: أنها على أصلها ثم فى ذلك وجهان: أحدهما: أنه وعدم النجاة إن آمنوا، والهلاك إن كفروا فذكر لفظة «بعض» لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة، الثانى: أنه وعدمهم على كفرهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، وكان هلاكهم فى الدنيا بعضاً، فمراده يصيبكم فى الدنيا بعض الذى يعدكم، الرابع: أنه ذكر البعض بطريق التنزل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد ليسمعوا منه ولا يتهموه، فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل ومحابة بموسى عليه السلام، كأنه قال: أقل ما يصيبكم البعض، وفيه كفاية، ونظيره قول الشاعر:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته

وقد يكون من المستعجل الزلل

كانه قال: أقل ما يكون فى التأنى إدراك بعض المطلوب، وأقل ما يكون فى الاستعجال الزلل، فقد أبان فضل التأنى على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه ورده، والوجه الرابع: هو اختيار الزمخشري.

فإن قيل: التولى والإدبار واحد فما فائدة قوله تعالى: (يوم تولون مدبرين) (١)؟

قلنا: هو تأكيد كقوله تعالى: (فخر عليهم السقف من فوقهم) (٢) ونظائره كثيرة، الثانى: أنه استشارة لحمتهم واستجداب لأنفتهم لما فى لفظة «مدبرين» من التعريض بذكر الدبر، فيصير نظير قوله تعالى: (ويولون الدبر) (٣).

فإن قيل: ما فائدة التكرار فى قوله تعالى: (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) (٤) وهلا قال: لعلى أبلغ أسباب السموات، أى أبوابها وطرقها؟

قلنا: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه (٥) وتعظيماً لمكانه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها.

(١) سورة غافر ٢٢.

(٢) سورة النحل ٢٦.

(٣) سورة القمر ٤٥.

(٤) سورة غافر ٢٦ - ٢٧.

(٥) وفى نسخة (ب) لذاته.

فإن قيل: مثل السيئة سيئة فما معنى قوله تعالى: (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) (١)؟

قلنا: معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على المقدار المستحق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب كما قال تعالى في آخر الآية.

فإن قيل: قوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (٢) ينافي ذلك؟

قلنا: ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة كما قال الله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقال الذين في النار لخزنة جهنم) (٤) ولم يقل: وقال الذين في النار لخزنتها؟

قلنا: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفضيلاً، وقيل: إن جهنم هي أبعد النار فعراً وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة، فإنما قصدتهم أهل النار بطلب الدعاء منهم لذلك.

فإن قيل: كيف قال المشركون: (بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً) (٥) مع قولهم: (هولاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) (٦)؟

(١) سورة غافر ٤٠.

(٢) سورة الأنعام ١٦٠.

(٣) سورة يونس ٢٦.

(٤) سورة غافر ٤٩.

(٥) سورة غافر ٧٤.

(٦) سورة النحل ٨٦.

قلنا: معناه أن الأصنام التي كنا نعبدُها لم تكن شيئاً لأنها لا تضر ولا تنفع، الثاني: أنهم قالوا كذباً وجحوداً كقولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) (١).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وعلى الفلك حاملون) (٢) ولم يقل وفي الفلك كما قال تعالى: (فلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين) (٣)؟

قلنا: معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح في الفلك لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه، فلما صح المعنيان استقامت عبارتان معاً.



(١) سورة الأنعام ٢٢.

(٢) سورة غافر ٨٠.

(٣) سورة هود ٤٠.

سورة فصلت

فإن قيل: ما فائدة زيادة «من» في قوله تعالى: (ومن بيننا وبينك حجاب) (١) مع أن المعنى حاصل بقوله تعالى: وبيننا وبينك حجاب؟

قلنا: لو قيل كذلك لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة «من» فمعناه أن الحجاب ابتداءً منا ومنك، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قيل: قال تعالى: (أننكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) (٢) إلى قوله تعالى: (فقضاهن سبع سموات فى يومين) (٣) يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت فى ثمانية أيام، وقال تعالى فى سورة الفرقان: (الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) (٤) فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معنى قوله تعالى: (فى أربعة أيام) (٥) فى ستة أربعة أيام لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة، أو معناه كل ذلك فى أربعة أيام، يعنى خلق الأرض وما ذكر بعده فصار المجموع ستة، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين.

فإن قيل: السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف مضاعفة فما الحكمة فى أن الله خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام، والسموات وما فيها فى يومين؟

(٥) وفى نسخة (أ) حم السجدة.

(١) سورة فصلت ٥.

(٢) سورة فصلت ٩.

(٤) سورة الفرقان ٥٩.

(٣) سورة فصلت ١٢.

(٥) سورة فصلت ١٠.

قلنا: لأن السموات وما فيها من عالم الغيب، ومن عالم الملكوت، ومن عالم الأمر، والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك والخلق الأول أسرع من الثانى، ووجه آخر: وهو أنه تعالى فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل فى الأرض وما فيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة، بل كان لمصالح لا تحصل إلا بذلك، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر فى ستة أيام، والعالم الأصغر وهو الانسان فى ستة أشهر.

فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف أهل النار: **(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم)** (١) مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا فالنار مثوى لهم أيضاً؟

قلنا: فيه اضمار تقديره: **فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنار مثوى لهم** على كل حال، ولا ينفعهم الصبر فى الآخرة كما ينفع فى الدنيا، ولهذا قيل: الصبر مفتاح الفرج، وقيل: من صبر ظفر، الثانى: أن هذا جواب لقول المشركين فى حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام: **(أن امشوا واصبروا على آلهتكم)** (٢) فقال الله تعالى: **(فإن يصبروا)** (٣) يعنى على عبادة الأصنام فى الدنيا فالنار مثوى لهم فى العقبى.

فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف الكفار: **(ولنجزيهم أسوأ الذى كانوا يعملون)** (٤) أى بأسوأ أعمالهم مع أنهم يجزون بسوء أعمالهم

(١) سورة فصلت ٢٤.

(٢) سورة ص ٦.

(٣) سورة فصلت ٢٤.

(٤) سورة فصلت ٢٧.

أيضاً؟

قلنا: قد سبق نظير هذا السؤال في آخر سورة التوبة والجواب الأول هناك يصلح جواباً هنا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وَلَا لِلْقَمَرِ) (١) بعد قوله تعالى: (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ) (٢) وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى؟ قلنا: فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص.

| |
|--|
| |
|--|

(١) سورة فصلت ٢٧.

(٢) سورة فصلت ٢٧.

سورة الشورى

فإن قيل: كيف قال تعالى: (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) (١) بلفظ المضارع، والوحى إلى من قبله ماضٍ؟ قلنا: قال الزمخشري: قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة ومنته لله تعالى، وهنا لا يوجد فى لفظ الماضى، قلت: ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضى كما فى قوله تعالى: (هل الله يحييكم) (٢) أو باضمار وأوحى إلى الذين من قبلك. فإن قيل: إلى ماذا يرجع الضمير فى قوله تعالى: (يذروكم فيه) (٣)؟

قلنا: معناه فى هذا التدبير أو فى الجعل المذكور، وقيل: فى الرحم الذى دل عليه ذكر الأزواج. فإن قيل: كيف قال تعالى: (ليس كمثله شيء) (٤) وظاهره يقتضى إثبات المثل، ونفى مثل المثل، كما يقال: ليس كدار زيد دار، فإنه يقتضى وجود الدار لزيد؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن المثل فى لغة العرب كناية عن الذات، ومنه قولهم: مثلى لا يقال له كذا، ومثلك لا يليق به كذا، فمعناه ليس كهو شيء، الثانى: أن الكاف زائدة للتأكيد، والمعنى ليس مثله شيء، الثالث: أن مثل زائدة، فيصير المعنى ليس كهو شيء كما مر فى الوجه الأول، والفرق بين الوجهين أن المثل فى الوجه الأول كناية عن الذات، وفى الوجه الثالث زائد مطروح كأنه لم يذكر.

(١) سورة الشورى ٢.

(٢) سورة الباقية ٢٦.

(٣) سورة الشورى ١١.

(٤) سورة الشورى ١١.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (إلا المودة فى القربى) (١) ولم لم يقل سبحانه إلا مودة القربى، أى القرابة، أو إلا المودة للقربى؟ قلنا: جعلوا محلاً للمودة ومقراً لها للمبالغة، كأنه قال: إلا المودة الثابتة المستقرة فى القربى، كما يقال: لى فى آل فلان مودة، ولى فيهم هوى وحب شديد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) (٢) والدواب إنما هى فى الأرض فقط؟ قلنا: فيهما بمعنى فيها، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد كما فى قوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (٣) وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح، وقيل: إن الملائكة لهم ديب مع طيرانهم أيضاً، وهم مبثوثون فى السماء، ويؤيد ذلك قوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض) (٤) فتقييده بالأرض يدل على وجود الدابة فى غير الأرض من حيث المفهوم.

فإن قيل: كيف قدم سبحانه الإناث على الذكور فى قوله تعالى: (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) (٥) مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدمهم عليهن، ولم نكر الإناث وعرف الذكور؟ قلنا: إنما قدم الإناث لأن الآية إنما سبقت لبيان عظمة ملكه ونفاد مشيئته، وأنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء عبيده، فكان ذكر الإناث

(١) سورة الشورى ٢٣.

(٢) سورة الشورى ٢٩.

(٣) سورة الرحمن ٢٢.

(٤) سورة الأنعام ٣٨، سورة هود ٦.

(٥) سورة الشورى ٤٩.

اللاتى من جملة ما لا يشاؤه عبيده أهم، والأهم واجب التقديم، فلما قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء فرمان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر فقال تعالى: (ذكروا أنا) (١) كما قال تعالى: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) (٢) وقال: (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) (٣).

فإن قيل: كيف يقال إن الله تعالى كلم محمداً عليه السلام ليلة المعراج مواجهة بغير حجاب ولا واسطة، وقد حصر الله تعالى تكليمه للبشر فى طريق الوحي وهو الإلهام، كما كلم أم موسى عليه السلام، والاسماع من وراء حجاب، كما كلم موسى عليه السلام، وإرسال الرسول كما كلم الأنبياء عليهم السلام بواسطة جبريل عليه السلام، وكما كلم الأمم بواسطة الرسل عليهم السلام؟

قلنا: قيل: المراد بالوحي الأول هنا الإشارة، ومنه قولهم: وحي العين، ووحي الحاجب أى اشارتهما، وقوله تعالى: (فأوحى إليهم أن سبحوا) (٤) فتكليمه لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة.

(١) سورة الشورى ٥٠.

(٢) سورة الحجرات ١٢.

(٣) سورة القيامة ٢٩.

(٤) سورة مريم ١١.

فإن قيل: في قوله تعالى: (ما كنت قدرى ما الكتاب ولا الإيمان) (١) كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع وتوحيده، والأنبياء عليهم السلام كلهم كانوا مؤمنين بالله تعالى قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم؟ قلنا: المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه، كالصلاة والصوم ونحوهما، وقيل: المراد به الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل، كما علم الكتاب - وهو القرآن - به.



سورة الزخرف

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (إنا جعلناه قرآناً عربياً) (١) ولم يقل قلناه أو أنزلناه، والقرآن ليس بمجعول لأن الجعل هو الخلق، ومنه قوله تعالى: (وجعل الظلمات والنور) (٢) وقوله تعالى: (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) (٣)؟

قلنا: الجعل أيضاً (هنا) (٤) بمعنى القول، ومنه قوله تعالى: (ويجعلون لله البنات) (٥) وقوله تعالى: (وجعلوا لله أنداداً) (٦) أى قالوا ووصفوا لا أنهم خلقوا كذلك هنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) (٧) والنبى صلى الله عليه وسلم ما لقيهم حتى يسألهم؟ قلنا: فيه اضمار تقديره: واسأل أتباع من أرسلنا من قبلك، الثانى: أنه مجاز عن النظر فى أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك، الثالث: أن النبى صلى الله عليه وسلم حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج، فلقيهم وأمهم فى مسجد بيت المقدس، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية والأنبياء حاضرون لديه، فقال لا أسأل قد كفيت، وقيل إنه خطاب له والمراد به أمته.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وما فريهم من آية إلا هى أكبر

(١) سورة الزخرف ٢.

(٢) سورة الأنعام ١.

(٣) سورة القيامة ٢٩.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة النحل ٥٧.

(٦) سورة إبراهيم ٣٠.

(٧) سورة الزخرف ٤٥.

من أختها) (١) يعنى الآيات التسع التى جاء بها موسى صلى الله عليه وسلم، فإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مما سواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة، وإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها فأيتها هى الكبرى وأيتها هى الصغرى (٢)؟

قلنا: المراد بذلك أنهم موصوفات بالكبرى لا يكدن يتفاوتن فيه، ونظيره بيت الحماسة:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم

مثل النجوم التى يسرى بها السارى

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام لأمته: (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) (٣) والنبي المبعوث إلى أمة يبين لهم كل ما يختلفون فيه؟

قلنا: كانوا يختلفون فيما يعنيه من أمر الديانات وفيما لا يعنيه من أمور أخرى، فكان يبين لهم الشرائع والأحكام خاصة، وقيل إن البعض هنا بمعنى الكل كما سبق فى قوله تعالى: (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) (٤).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وهم لا يشعرون) (٥) بعد قوله:

(١) سورة الزخرف ٤٨.

(٢) وفى نسخة (ب) فإنها هى الكبرى وإنها هى الصغرى.

(٣) سورة الزخرف ٦٢.

(٤) سورة غافر ٢٨.

(٥) سورة الزخرف ٦٦.

(بغثة) (١) أى فجأة؟

قلنا: فاندته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم، كما قال تعالى: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) (٢) فلولا قوله تعالى: (وهم لا يشعرون) (٣) جاز أن تأتيهم بغثة وهم فطنون حذرون مستعدون لها.

فإن قيل: كيف وصف سبحانه أهل النار فيها بكونهم مبلسين، والمبلس هو الأيس من الرحمة والفرج، ثم قال تعالى: (ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك) (٤) فطلبوا الفرج بالموت؟ قلنا: تلك أزمئة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف فيها أحوالهم، فيغلب عليهم اليأس تارة فيسكنون، ويشتد ما بهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون.

فإن قيل: قوله تعالى: (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (٥) ظاهره يقتضى تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت تعددت كقولك: له على درهم ودرهم، وأنت طالق وطالق، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين؟ قلنا: الإله هنا بمعنى المعبود (بالنقل) (٦) كما فى قوله تعالى:

(١) سورة الزخرف ٦٦.

(٢) سورة يس ٤٩.

(٣) سورة الزخرف ٦٦.

(٤) سورة الزخرف ٧٧.

(٥) سورة الزخرف ٨٤.

(٦) وفى نسخة (ب) بالفعل.

(وهو الله في السموات وفي الأرض) (١) فصار المعنى: وهو الذى فى السماء معبود وفى الأرض معبود، والمغايرة ثابتة بين معبوديته فى السماء ومعبوديته فى الأرض لأن العبودية من الأمور الإضافية فيكفى فى تغايرهما التغاير من أحد الطرفين فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض صدق أن معبوديته فى السماء غير معبوديته فى الأرض مع أن المعبود واحد.



سورة الدخان

فإن قيل: الخلاف بين النبي صلى الله عليه وسلم ومنكرى البعث إنما كان في الحياة بعد الموت لا في الموت، فكيف قال تبارك وتعالى: (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى) (١) (ولم يقل إن هي إلا حياتنا الأولى) (٢)، كما قال تعالى في موضع آخر: (إن هي إلا حياتنا الدنيا) (٣) وما معنى وصف الموتة بالأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى؟

قلنا: لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك، كأنهم قالوا لا يقع في الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ما كنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلى حياة الوجود، وقيل: إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية في القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) (٤) والعذاب لا يصب، وإنما يصب الحميم كما قال في موضع آخر: (يصب من فوق رؤوسهم الحميم) (٥)؟

قلنا: هو امتعارة ليكون الوعيد أهول وأهيأ، ونظيره قوله تعالى: (فصب عليهم ربك سوط عذاب) (٦) وقوله تعالى: (أفرغ علينا صبرا) (٧) وقول الشاعر:

(١) سورة الدخان ٢٤ - ٢٥.

(٢) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) إن هي حياتنا الأولى.

(٣) سورة الأنعام ٢٩، سورة المؤمنین ٢٧.

(٤) سورة الدخان ٤٨.

(٥) سورة الحج ١٩.

(٦) سورة الفجر ١٣.

(٧) سورة البقرة ٢٥٠، سورة الأعراف ١٢٦.

صبت عليهم صروف الدهر من صيب

.....

فإن قيل: كيف وعد الله تعالى أهل الجنة لبس الاستبرق وهو غليظ الديباج مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص؟

قلنا: كما أن رقيق ديباج الجنة وهو السندس لا يماثل رقيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط، فكذلك غليظ ديباج الجنة، وقيل: السندس لباس السادة من أهل الجنة، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهاراً لتفاوت المراتب. فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف أهل الجنة: (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) (١) مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها في الجنة؟

قلنا: قال الزجاج والفراء: إلا هنا بمعنى سوى كما في قوله تعالى: (إلا ما قد سلف) (٢) وقوله تعالى: (إلا ما شاء ربك) (٣)، الثاني: إن إلا بمعنى بعد كما قال بعضهم في قوله تعالى: (إلا ما قد سلف) (٤)، الثالث: إن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم في الجنة، وتلذذوا في حال النزع بروحها وريحانها، فكانهم ماتوا في الجنة، وهذا قول ابن قتيبة.

(١) سورة الدخان ٥٦.

(٢) سورة النساء ٢٢ - ٢٣.

(٣) سورة هود ١٠٧ - ١٠٨.

(٤) سورة النساء ٢٢ - ٢٣.

سورة الجاثية

فإن قيل: كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى: (وإذا قلنا عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا افئتوا بآياتنا إن كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) (١)؟ قلنا: وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذي أحيائهم أولاً ثم يميتهم، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على جمعهم يوم القيامة، فيكون قادراً على إحياء آباؤهم. فإن قيل: كيف أضاف الكتاب إلى الأمة وإليه في قوله تعالى: (كل أمة تدعى إلى كتابها) (٢) ثم قال تعالى: (هذا كتابنا) (٣)؟ قلنا: الإضافة تصح بأدنى ملابسة وقد لا بسهم (٤). الكتاب يكون أعمالهم مثبتة فيه (٥)، ولا يسه بكونه ماله وكونه أمراً لملاذكته أن يكتبوا فيه أعمالهم.

(١) سورة الجاثية ٢٥ - ٢٦.

(٢) سورة الجاثية ٢٨.

(٣) سورة الجاثية ٢٩.

(٤) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) البسهم.

(٥) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) فيهم.

سورة الأحقاف

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) (١) مع أن حسن ما عملوا يتقبل عنهم أيضاً؟ قلنا: أحسن بمعنى حسن، وقد سبق نظيره في سورة الروم. فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الفريقين: (ولكل درجات مما عملوا) (٢) مع أن أهل النار لهم درجات لا درجات؟ قلنا: الدرجات الطبقات من المراتب مطلقاً من غير اختصاص، الثاني: إن فيه إضماراً تقديره: ولكل فريق درجات أو درجات مما عملوا إلا أنه حذفه اختصاراً لدلالة المذكور عليه. فإن قيل: كيف مطابق الجواب السؤال في قوله تعالى: (فأنتنا بما نعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله) (٣)؟ قلنا: مطابقه من حيث إن قولهم ذلك استعجال للعذاب الذي توعدهم به بدليل قوله تعالى بعده: (بل هو ما استعجلتم به) (٤) فقال لهم لا علم لى بوقت تعذيبكم، بل الله تعالى هو العالم به وحده. فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الريح: (تدمر كل شيء بأمر ربها) (٥) وكم من شيء لم تدمره؟ قلنا: معناه تدمر كل شيء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم. فإن قيل: كيف قال تعالى: (يغفر لكم من ذنوبكم) (٦) ولم يقل

(١) سورة الأحقاف ١٦.

(٢) سورة الأحقاف ١٩.

(٣) سورة الأحقاف ٢٢.

(٤) سورة الأحقاف ٢٤.

(٥) سورة الأحقاف ٢٥.

(٦) سورة الأحقاف ٢٦.

يفغر لكم ذنوبكم؟

قلنا: لأن من الذنوب ما لا يفغر بالإيمان كمظالم العباد وغيرها.

| |
|--|
| |
|--|

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) (١) ولم يسبق ضرب مثل؟

قلنا: معناه كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين، وقيل: أراد به أنه جعل أتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، وأتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو أنه جعل الاضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق الشهداء بعد ما قتلوا في سبيل الله: (سيهديهم) (٢) والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعد؟

قلنا: معناه سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير، وقيل: سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار) (٣) إلى قوله تعالى: (كمن هو خالد في

النار) (٤)؟

قلنا: قال الفراء: معناه من كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار، وقال غيره تقديره: أمثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد في النار فحذف منه ذلك إيجازاً واختصاراً.

فإن قيل: كيف قال تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (٥) وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعبه؟

(١) سورة محمد ٢.

(٢) سورة محمد ٥.

(٣) سورة محمد ١٥.

(٤) سورة محمد ١٥.

(٥) سورة محمد ١٩.

قلنا: معناه اثبت على ذلك العلم، وقال الزجاج: الخطاب له صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته كما ذكرنا في أول سورة الأحزاب.



سورة الفتح

فإن قيل: كيف جعل سبحانه فتح مكة علة للمغفرة فقال تعالى: (إِذَا

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ... الآية) (١)؟

قلنا: لم يجعله علة للمغفرة بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، وقبل الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلًا وإن كان الباقي حاصلًا، ويجوز أن يكون فتح مكة سببًا للمغفرة من حيث إنه جهاد للعدو.

فإن قيل: قوله تعالى: (مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تُأْخِرُ) (٢) إن كان

المراد بما تأخر ذنباً يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها، فكيف يغفر الذنب المعدوم، وإن كان المراد به ذنباً وجد قبل نزولها فهو متقدم فكيف سماه متأخراً؟

قلنا: المراد بما تقدم قصة مارية، وبما تأخر قصة امرأة زيد، وقيل: المراد بما تقدم ما فرط منه قبل النبوة، وبما تأخر ما فرط منه بعدها، وقيل: المراد بما تقدم ما وجد منه، وبما تأخر ما لم يوجد (منه) (٣) على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده، أو على طريق المبالغة (كقولهم: فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه، بمعنى يضرب كل أحد) (٤) فكذا هنا (٥) معناه ليغفر لك

(١) سورة الفتح ١- ٢.

(٢) سورة الفتح ٢.

(٣) ساقط من نسخة (ب).

(٤) في نسخة (ب) وفي نسخة (أ) كقوله: فلان يضرب كل أحد.

(٥) وفي نسخة (ب) هذا.

الله كل ذنب: فالحاصل أن الذنب المتأخر (عن نزولها) (١) متقدم على نزول الآية، وإن كان متأخراً بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخراً عن نزولها وهو موعود بمغفرته، أو على طريق المبالغة كما بينا.

فإن قيل: ما معنى قوله: (ويهديك صراطاً مستقيماً) (٢) وهو مهدى إلى الصراط المستقيم، ومهدى به أمته أيضاً؟ قلنا: معناه ويزيدك هدى، وقيل: ويشبكك على الهدى، وقيل: معناه ويهديك صراطاً مستقيماً في كل (أمر) (٣) تحاوله. فإن قيل: كيف يقال أن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وقد قال الله تعالى: (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) (٤)؟

قلنا: الإيمان الذي يقال أنه لا يقبل الزيادة والنقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى، كما أن إلهيته لا تقبل الزيادة والنقصان، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق (فإنه يقبلها، وهو في الآية بمعنى التصديق) (٥) لأنهم بسبب السكينة التي هي الطمأنينة وبرد (٦) اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقاً مع تصديقهم.

(١) ماقط من نسخة (ب).

(٢) سورة الفتح ٢.

(٣) ماقط من نسخة (ب).

(٤) سورة الفتح ٤.

(٥) ماقط من نسخة (ب).

(٦) وفي نسخة (ب) يزيد.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وأهلها) (١) بعد قوله: (وكافوا
أحق بها) (٢)؟

قلنا: الضمير في بها لكلمة التوحيد، وفي أهلها للتقوى فلا تكرار.
فإن قيل: ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى في اخباره
سبحانه وتعالى حتى قال: (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء
الله) (٣)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن «إن» بمعنى إذ كما في قوله
تعالى: (وذرُوا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) (٤)، الثاني:
أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليماً لعباده أن يستثنوا فيما لا
يعلمون، الثالث: أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبي صلى الله عليه
وسلم، فإنه رأى أن قائلا يقول له: (لتدخلن المسجد الحرام إن
شاء الله آمنين) (٥)، الرابع: أن الاستثناء متعلق بقوله
تعالى: (آمنين) (٦) فأما الدخول فليس فيه تعليق.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (لا تخافون) (٧) بعد
قوله: (آمنين) (٨)؟

قلنا: معناه آمنين في حال الدخول لا تخافون عدوكم أن يخرجكم

-
- (١) سورة الفتح ٢٦.
 - (٢) سورة الفتح ٢٦.
 - (٣) سورة الفتح ٢٧.
 - (٤) سورة البقرة ٢٧٨.
 - (٥) سورة الفتح ٢٧.
 - (٦) سورة الفتح ٢٧.
 - (٧) سورة الفتح ٢٧.
 - (٨) سورة الفتح ٢٧.

منه في المستقبل.

فإن قيل: قوله تعالى: (ليغيظ بهم الكفار) (١) تعليل لماذا؟ قلنا: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نباتهم وقوتهم كأنه قال: إنما كثرتهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) (٣) وكل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية فما معنى التبعض هنا؟

قلنا: من هنا لبيان الجنس لا التبعض كما في قوله تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) (٤).



(١) سورة الفتح ٢٩.

(٢) وفي نسخة (ب) خلط بين السؤال والجواب.

(٣) سورة الفتح ٢٩.

(٤) سورة الحج ٣٠.

سورة الحجرات

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) (١) والمراد به نهيه أن يتقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل، لا أن يقدموا غيرهم؟ قلنا: قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما في قولهم بين وتبين، وفكر وتفكر، ووقف وتوقف، ومنه قول الشاعر:

إذا نحن مرنا سارت الناس خلفنا

وان نحن لوأنا إلى الناس وقفوا

أي توقفوا، وقيل: معناه لا تقدموا فعلا قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ولا تجهروا له بالقول) (٢) بعد قوله سبحانه: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (٣)؟ قلنا: فائدته تحريم الجهر في مخاطبته وإن لم يتضمن رفع صوتهم على صوته، وهنا غير مستفاد من النهي الأول، الثاني: إن المراد بالثاني النهي عن مخاطبته صلى الله عليه وسلم باسمه نحو قولهم يا محمد ويا أحمد، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه في المخاطبة، وأن يقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ونحو ذلك، ونظيره قوله تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) (٤).

(١) سورة الحجرات ١.

(٢) سورة الحجرات ٢.

(٣) سورة الحجرات ٢.

(٤) سورة النور ٦٢.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ) (١) أى مخافة أن تحببط أعمالكم مع أن الأعمال إنما تحببط بالكفر لا بغيره من المعاصي، ورفع الصوت فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ليس بكفر، كيف وقد روى أن الآية نزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لما رفعوا أصواتهما بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروى أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان جهورى الصوت، فربما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوته؟ قلنا: معناه لا تستخفوا به، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده، وعمده كفر يحبط العمل، وقيل: حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة.

فإن قيل: ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى: (وَلَكِنْ اللَّهُ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ) (٢) وبين ما قبله؟ قلنا: معناه فاتركوا عادة الجاهلية فإن الله تعالى لم يترككم عليها، ولكن الله حبيب إليكم الإيمان، وقيل: معناه فثبتوا فى الأمور كما يليق بالإيمان، فإن الله حبيب إليكم الإيمان.

فإن قيل: إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد، فما فائدة الجمع بينهما، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغن عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما؟ قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالفسوق هنا الكذب، وبالعصيان بقية المعاصي، وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية.

(١) سورة الحجرات ٢.

(٢) سورة الحجرات ٧.

فإن قيل: كيف يقال إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، والله سبحانه وتعالى يقول: (فَلَمْ تَقُولُوا) (١) ولكن قولوا أسلمنا) (١)؟

قلنا: المنفى هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (٢) يعني لم تصدقوا بقلوبكم: (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) (٣) أى استسلمنا وانقدنا خوف السيف، ولا شك في الفرق بين الإيمان والامتسلام بهذا التفسير، والذي يدعى اتحادهما لا يريد به أنهما حيث استعمالا كانا بمعنى واحد، بل يريد به أن أحد معاني الإيمان هو الإسلام.

فإن قيل: كيف يقال إن العمل ليس من الإيمان، والله تعالى يقول: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا... الْآيَةُ) (٤)؟

قلنا: معناه إنما المؤمنون إيماناً كاملاً كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٥) وقوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وقولهم: الرجل من يصبر على الشدائد، ويرد على هذا الجواب أن المنفى في أول الآية عن الأعراب نفس الإيمان الكامل، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل بل نفس الإيمان.



(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) سورة الحجرات ١٤.

(٣) سورة الحجرات ١٤.

(٤) سورة الحجرات ١٥.

(٥) سورة فاطر ٢٨.

سورة ق

فإن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى: (ق) والقرآن المجيد (١)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه مضمّر تقديره: إنهم مبعثون بعد الموت، الثاني: أن قوله تعالى: (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) (٢) واللام محذوفة لطول الكلام تقديره: لقد علمنا كما في قوله تعالى: (قد أفلح من زكّاه) (٣)، الثالث: أنه قوله تعالى: (ما يلفظ من قول) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وحب الحصيد) (٥) وأراد به حب الحصيد (٦) فأضاف الشيء إلى نفسه والاضافة تقتضى المغايرة بين المضاف والمضاف إليه؟

قلنا: معناه وحب الزرع الحصيد أو النبت الحصيد، الثاني: إن إضافة الشيء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين كما في قوله تعالى: «حق اليقين» و«حب الوريد» و«دار الآخرة» و«وعد الصدق». فإن قيل: كيف قال تعالى: (عن اليمين وعن الشمال قعيد) (٧) ولم يقل قعيدان، وهو وصف للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله

(١) سورة ق ١.

(٢) سورة ق ٤.

(٣) سورة الشمس ٩.

(٤) سورة ق ١٨.

(٥) سورة ق ٩.

(٦) وفي نسخة (ب) الحب الحصيد.

(٧) سورة ق ١٧.

تعالى: (إذ يتلقى المتلقيان) (١)؟

قلنا: معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنست بما

عندك راض والرأى مختلف

وقال آخر:

رمانى بأمر كنت منه ووالدى

بريئاً ومن أجل الطوى رمانى

الثانى: إن فعلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع، قال الله تعالى: (والملائكة بعد ذلك ظهير) (٢) وقيل: إنما لم يقل قعيدان رعاية لفواصل السورة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ألقيا) (٣) والخطاب لواحد وهو مالك خازن النار؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: ما قاله المبرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باعتبار اتحادهما (حكماً) (٤) كأنه قال تعالى ألق ألق، ونظيره قول امرئ القيس: قفا نبك أى قف قف، الثانى: أن العرب كثيراً ما يرافق الرجل منهم اثنين فكثر على ألسنتهم خطاب الاثنين فقالوا: خليلى وصاحبى وقفا وأسعدنا وعوجا ونحو ذلك، قال الفراء: سمعت ذلك كثيراً من العرب قال وأنشدنى بعضهم:

(١) سورة ق ١٧.

(٢) سورة التحريم ٤.

(٣) سورة ق ٢٤.

(٤) فى نسخة (ب).

فقلت لصاحبي لا تحبسانا

بنزع أصوله واجتزشيحها

فقال لا تحبسانا والخطاب لواحد، بدليل قوله لصاحبي قال:
وأنشدني أبو ثور:

فإن تزجراني يا بن عفان أنزجر

وإن تدعاني أجم عرضاً ممنعا

وقال امرؤ القيس:

خليلى مرا بى على أم جندب

نقضى لبانات الفؤاد المعذب

ثم قال:

ألم تر أنى كلما جنت طارقاً

وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

الثالث: أنه أمر للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) (١).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (غير بعيد) (٢) ولم يقل غير بعيدة وهو وصف للجنة؟

قلنا: لأنه على زنة المصادر كالزئير والصليل، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف: أى مكاناً غير بعيد، وكلا الجوابين للزمخشرى.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (غير بعيد) (٢) بعد قوله تعالى:

(١) سورة ق ٢١.

(٢) سورة ق ٢١.

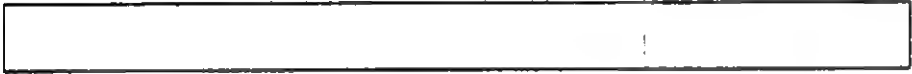
(٣) سورة ق ٢١.

(وَأُزِلْتُ) (١) بمعنى قربت؟

قلنا: فائدته التأكيد كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) (٢) وكل إنسان له قلب بل كل حيوان؟

قلنا: المراد بالقلب هنا العقل، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما، قال ابن قتيبة: لما كان القلب موضعاً للعقل كنى به عنه، الثانى: أن المراد لمن كان له قلب واع، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له، ويؤيد ذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ... الآية) (٣).



(١) سورة ق ٣١.

(٢) سورة ق ٣٧.

(٣) سورة الأعراف ١٧٩.

سورة الذاريات

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إنما توعدون لصادق) (١) والصادق وصف الواعد لا وصف الوعد؟

قلنا: قيل صادق بمعنى مصدوق كـ «عيشة راضية» و«ماء دافق» وقيل: معناه لصدق، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم (٢): قمت قائماً، (وقولهم) (٣): لحقت بهم اللائمة: أى اللوم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن المتقين فى جنات وعيون) (٤) والمتقون لا يكونون فى الجنة فى العيون؟

قلنا: معناه أنهم فى الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم فى مجموعها لا فى كل عين، ونظيره قوله تعالى: (إن المتقين فى جنات ونهر) (٥) لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) (٦) أى فى قرى قوم لوط عليه السلام، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا: الضمير فى قوله تعالى: «فيها» عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط، الثانى: أنه عائد إليها، ولكن «فى» بمعنى

(١) سورة الذاريات ٥.

(٢) وفى نسخة (أ) كقوله.

(٣) ساقط من نسخة (أ).

(٤) سورة الذاريات ١٥.

(٥) سورة القمر ٥٤.

(٦) سورة الذاريات ٢٧.

من كما فى قوله تعالى: (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا) (١) وقوله تعالى: (وارزقوهم فيها) (٢) ويؤيد هنا الوجه مجيئه مصرحاً به فى سورة العنكبوت بلفظ من فى قوله تعالى: (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) (٣) ثم قيل الآية آثار منازلهم الخربة، وقيل: هى الحجارة التى أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقيل: هى الماء الأسود الذى يخرج من الأرض.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين) (٤) أى صنفين، مع أن العرش والكرسى والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد؟

قلنا: قيل معناه ومن كل حيوان خلقنا ذكراً أو أنثى، وقيل: معناه ومن كل شيء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار، والصيف والشتاء، والنور والظلمة، والخير والشر، والحياة والموت، والبحر والبر، والسماء والأرض، والشمس والقمر، ونحو ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (ففرؤا إلى الله) (٥) وقال سبحانه فى موضع آخر: (ويحذركم الله نفسه) (٦)؟

قلنا: معنى قوله تعالى: (ففرؤا إلى الله) (٧) أى الجنوا إليه

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة النساء ٥.

(٣) سورة العنكبوت ٢٥.

(٤) سورة الذاريات ٤٩.

(٥) سورة الذاريات ٥٠.

(٦) سورة آل عمران ٢٨، ٢٠.

(٧) سورة الذاريات ٥٠.

بالتوبة، وقيل: معناه ففروا من عقوبته إلى رحمته، ومعنى قوله: (ويحذركم الله نفسه) (١) أى يخوفكم عذاب نفسه أو عقاب نفسه، وقال الزجاج: معنى نفسه إياه كأنه قال تعالى: ويحذركم الله إياه، كما قال سبحانه وتعالى: (يريدون وجهه) (٢) أى إياه، فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين (٣).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) (٤) وإذا قلنا، خلقتهم للعبادة كان مريداً لها منهم فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون، بدليل خروج البعض منه بقوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) (٥) ومن خلق لجهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة، الثانى: إنه على عمومه، والمراد بالعبادة التوحيد، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق، وهذا الجواب يختص بالإنس، لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية، وقيل: معناه إلا أن يكونوا (٦) عبيداً لى، وقيل: معناه إلا ليدلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدرته عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم، وقيل: معناه إلا ليعبدون إن اختاروا (٧) لا قسراً وإلجاء، وقيل: إلا ليعبدون العبادة المرادة فى قوله تعالى:

(١) سورة آل عمران ٢٨، ٢٠.

(٢) سورة الأنعام ٥٢، سورة الكهف ٢٨.

(٣) فى نسخة (أ) خلط بين السؤال والجواب.

(٤) سورة الذاريات ٥٦.

(٥) سورة الأعراف ١٧٩.

(٦) وفى نسخة (ب) ليكونوا.

(٧) وفى نسخة (ب) اجازوا.

(ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها) (١)
والعموم ثابت فى الوجوه الخمسة.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (وما أريد أن يطعمون) (٢) بعد
قوله: (ما أريد منهم من رزق) (٢)؟

قلنا: معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم، وما أريد أن يطعمون: أى
أن يطعموا عبيدى، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة لأن الخلق
عياله وعبيده، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه، ويزيده ما جاء
فى الحديث الصحيح: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم
استطعمتك فلم تطعنى، أى استطعمك عبيدى فلم تطعمه.



(١) سورة الرعد ١٥.
(٢) سورة الذاريات ٥٧.
(٢) سورة الذاريات ٥٧.

سورة الطور

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وزوجناهم بحور عين) (١) مع أن

الحور العين في الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح؟

قلنا: معناه قرناهم بهن من قولهم زوجت إبلى: أى قرنت بعضها إلى

بعض، وليس من التزويج الذى هو عقد النكاح، ويؤيده أن ذلك لا

يعدى بالباء بل بنفسه، ويقال: زوجه امرأة ولا يقال بامرأة.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة: (كل أمرئ بما

كسب وهين) (٢) أى مرهون فى النار (بعمله) (٣)؟

قلنا: قال الزمخشري: كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل

الصالح الذى هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن

عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها، وقال غيره: هذه جملة من

صفات أهل النار وقعت معترضة فى صفات أهل الجنة، ويؤيده ما

روى عن مقاتل أنه قال: معناه كل أمرئ كافر بما عمل من الكفر

مرتهن فى النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً لقوله تعالى: (كل نفس

بما كسبت وهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى فى حق النبى صلى الله عليه وسلم: (فما

أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) (٥) وكل واحد غيره كذلك

لا يكون كاهناً ولا مجنوناً بنعمة الله تعالى؟

قلنا: معناه فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنسبة بكاهن

(١) سورة الطور ٢٠.

(٢) سورة الطور ٢١.

(٣) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الطور ٢٩.

(٤) سورة المدثر ٢٨ - ٢٩.

ولا مجنون كما يقول الكفار، وقيل: الباء هنا بمعنى مع كما فى قوله تعالى: (تَنبِتْ **بِالدَّهْنِ**) (١) وقوله تعالى: (فَتَسْتَجِيبُونَ **بِحَمْدِهِ**) (٢) ويقال: أكلت الخبز بالتمر: أى معه. فإن قيل: ما معنى الجمع فى قوله تعالى: (فَإِنَّكَ **بِأَعْيُنِنَا**) (٣) ؟ قلنا: معناه التفخيم والتعظيم، والمراد بحيث نراك ونحفظك، ونظيره فى معنى العين قوله تعالى: (وَلَتَصْنَعَنَّ **عَيْنِي**) (٤) ونظيره فى الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى: (فَجَرَى **بِأَعْيُنِنَا**) (٥) وقوله تعالى: (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا **خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ **أَيْدِينَا** أَنْعَامًا**) (٦).



(١) سورة المؤمنين ٢٠.

(٢) سورة الإسراء ٥٢.

(٣) سورة الطور ٤٨.

(٤) سورة طه ٣٩.

(٥) سورة القمر ١٤.

(٦) سورة يس ٧١.

سورة النجم

فإن قيل: الضلال والغواية واحدة، فما فائدة قوله تعالى: (ما ضل صاحبكم وما غوى) (١)؟

قلنا: قيل إن بينهما فرقاً لأن الضلال ضد الهدى والغى ضد الرشدهما مختلفان مع تقاربهما، وقيل: معناه ما ضل في قوله ولا غوى في فعله، ولو ثبت اتحاد معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فكان هاب قوسين أو أدنى) (٢) أدخل كلمة الشك، والشك محال على الله تعالى؟

قلنا: أو هنا للتخيير لا للشك، كأنه قال سبحانه وتعالى: إن شئتم قدروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم قدروه (٣) بأدنى منهما، وقيل: معناه بل أدنى، وقيل: هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم، وقيل: هو تشكيك لهم لنلا يعملوا قدر ذلك القرب، ونظيره قوله تعالى: (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (٤) والكلام فيهما واحد.

فإن قيل: قوله تعالى: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) (٥) من رؤية القلب لا من رؤية البصر، فأين مفعولها الثاني؟

قلنا: هو محذوف تقديره: أفرأيتموها بنات الله وأنداده، فإنهم كانوا

(١) سورة النجم ٢.

(٢) سورة النجم ٩.

(٣) وفي نسخة (أ) قدروا.

(٤) سورة الصافات ١٤٧.

(٥) سورة النجم ١٩ - ٢٠.

يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل.
فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (الثالثة الأخرى) (١) فوصف الثالثة
بالأخرى والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة، فظاهر اللفظ
يقتضى أن يكون قد سبق ثالثة أولى، ثم لحقتها الثالثة الأخرى
فتكون ثالثتان؟

قلنا: الأخرى نعت للعزى وتقديره: أفرأيتم آلات والعزى الأخرى
ومناة الثالثة لأنها ثالثة الصنمين فى الذكر، وإنما أخر الأخرى
رعاية للفواصل كما قال: (ولى فيها مآرب أخرى) (٢) ولم يقل
أخر رعاية للفواصل.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وإن الظن لا يغنى من الحق
شيئاً) (٣) أى لا يقوم مقام العلم، مع أنه يقوم مقام العلم فى صورة
القياس؟

قلنا: المراد به الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من
النظر والاستدلال، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا: (إن يتبعون إلا
الظن وما تهوى الأنفس) (٤).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (٥)
وقد صح فى الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها
إلى الميت؟

(١) سورة النجم ٢٠.

(٢) سورة طه ١٨.

(٣) سورة النجم ٢٨.

(٤) سورة النجم ٢٨.

(٥) سورة النجم ٢٩.

قلنا: فيه وجوه: أحدها: ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى: (وَاتَّبِعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) (١) معناه أنه أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء، قالوا وهذا لا يصح لأن الآيتين خبر ولا نسخ في الخبر، الثانى: أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، وهو حكاية ما فى صحفهم، فأما هذه الأمة فلها ما سعت وما سعى لها، الثالث: أنه على ظاهره، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتهما وصدقتهما عنه من سعيه أيضاً بواسطة اكتسابه للقربة أو الصداقة أو المحبة من الناس بسبب التقوى والعمل الصالح.

فإن قيل: كيف قال تعالى بعد تعديد النقم: (فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَ قَتَامًا) (٢) والآلاء النعم؟

قلنا: إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم نعم لما فيها من المزاجر والمواظ، فمعناه: فبأى نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك يا وليد بن المغيرة.



(١) سورة الطور ٢١.

(٢) سورة النجم ٥٥.

سورة القمر

فإن قيل: ما فائدة إعادة التكرير في قوله تعالى: (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبداً) (١) وهذا قال تعالى كذبت قبلهم قوم نوح عبداً؟

قلنا: معناه كذبوا تكذيباً بعد تكذيب (وقيل: إن التكرير الأول منهم بالتوحيد، والثاني بالرسالة) (٢) وقيل: التكرير الأول منهم لله تعالى، والثاني لرسوله صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف ماء الأرض والسماء: (فالتقى الماء) (٣) ولم يقل فالتقى الماءان؟ قلنا: أراد به جنس المياه.

فإن قيل: الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور (٤) فكيف قال تعالى: (جزاء لمن كان كفراً) (٥)؟

قلنا: جزاء مفعول له فمعناه: ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان بسبب إغراقهم جزاء لله تعالى لأنه مكفور به، فحذف الجر وأوصل الفعل بنفسه كقوله تعالى: (واختار موسى قومَه) (٦) والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر، الثاني: أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به فحذف (٧) الجار كما مر من الكفر

(١) سورة القمر ٩.

(٢) ماقط من نسخة (أ).

(٣) سورة القمر ١٢.

(٤) وفي نسخة (أ) للكفر.

(٥) سورة القمر ١٤.

(٦) سورة الأعراف ١٥٥.

(٧) وفي نسخة (ب) محذوف.

الذى هو ضد الإيمان، أو لأن كل نبي نعمة من الله على قومه، ومنه قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (١)، وقال رجل للرشييد: الحمد لله عليك، فقال: ما معنى هذا، فقال: أنت نعمة حمدت الله عليها، فكأنه قال: جزاء لهذه النعمة المكفورة، وكفران النعمة يتعدى بنفسه قال الله تعالى: (ولا تكفرون) (٢)، الثالث: أن «من» بمعنى ما فمعناه: جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم، وقرأ قتادة كفر بالفتح: أى جزاء للكافرين.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (أعجاز نخل منقعر) (٣) أى منقلع، ولم يقل منقعة؟

قلنا: إنما ذكر الصفة لأن الموصوف وهو النخل مذكر اللفظ ليس فيه علامة التأنيث، فاعتبر اللفظ وفي موضع آخر اعتبر المعنى وهو كونه جمعاً فقال: (أعجاز نخل خاوية) (٤) ونظيرهما قوله تعالى: (لاكلون من شجر من ذهوب هائلون منها البطون هشاربون عليه من الحميم) (٥) وقال أبو عبيدة: النخل يذكر ويؤنث، فجمع القرآن اللغتين، وقيل: إنما ذكر رعاية للفواصل.

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة البقرة ١٥٢.

(٣) سورة القمر ٣٠.

(٤) سورة الحاقة ٧.

(٥) سورة الواقعة ٥٢.

سورة الرحمن عز وجل

فإن قيل: أى مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما؟

قلنا: لما صدر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبده، ذكر من جعلتها وضع الميزان الذى به نظام العالم وقوامه، لا سيما أن المراد بالميزان العدل فى قول الأكثرين، والقرآن فى قول، وكل ما تعرف به المقادير فى قول كالميزان والمكيال والذراع المعروف ونحوها.

فإن قيل: قوله تعالى: (ألا تطفؤا نرى الميزان) (١) أى لا تجاوزوا فيه العدل مغن عما بعده من الجملتين فما فائدتهما؟

قلنا: المراد بالطفيان فيه أخذ الزائد، وبالإخثار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذى هو إقامة الوزن بالتوسط، ونهى عن الطرفين المذمومين.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) (٢) وهو الطين اليابس الذى لم يطبخ لكن له صلصلة: أى صوت إذا نقر، وقال تعالى فى موضع آخر: (من صلصال من حمأ مسنون) (٣) وقال تعالى: (من طين لازب) (٤) وقال تعالى: (من قراب) (٥)؟

قلنا: الآيات كلها متفقة فى المعنى، لأنه تعالى خلقه من تراب جعله

(٢) سورة الرحمن ١٤.

(١) سورة الرحمن ٨.

(٢) سورة الحجر ٢٦، ٢٨، ٢٢.

(٤) سورة الصافات ١١.

(٥) سورة آل عمران ٥٩، سورة الكهف ٢٧، سورة الحج ٥، سورة الروم

٢٠، سورة فاطر ١١، سورة غافر ٦٧.

طيناً ثم حمأً مسنوناً ثم صلصلاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (رب المشرقين ورب المغربين) (١) فكرر ذكر الرب ولم يكرره في سورة المعارج بل أفرد فقل تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) (٢) وكذا في سورة المزمّل: (رب المشرق والمغرب) (٣)، (لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) (٤)؟

قلنا: إنما كرر ذكر الرب تأكيداً، وكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بدينك الموضعين، لأنه موضع الامتنان وتعدد النعم، ولأن الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن.

فإن قيل: بعض الجمل المذكورة في هذه السورة ليست من النعم كقوله تعالى: (كل من عليها فان) (٥) وقوله تعالى: (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (٦) فكيف حسن الامتنان بعدها بقوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) (٧)؟

قلنا: من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب، فإبقاء من هو مخلوق للفناء (٨) نعمة، وتأخير العقاب عن العصاة أيضاً نعمة فلهذا امتن علينا بذلك.

(١) سورة الرحمن ١٧.

(٢) سورة المعارج ٤٠.

(٣) سورة المزمّل ٩.

(٤) سورة المزمّل ٩.

(٥) سورة الرحمن ٢٦.

(٦) سورة الرحمن ٣٥.

(٧) سورة الرحمن ٢٨، ٢٦.

(٨) وفي نسخة (ب) للقيامة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (سنفرغ لكم أيها الثقلان) (١) والله تعالى لا يشغله شيء؟

قلنا: قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين: أحدهما: الفراغ من شغل، والآخر: القصد للشيء والإقبال عليه، وهو تهديد ووعيد، ومنه قولهم: سأتفرغ لفلان: أى سأجعله قصدى، فمعنى الآية سنقصد لحسابكم ومعاقبكم.

فإن قيل: كيف وعد سبحانه الخائف جنتين فقط؟ قلنا: لأن الخطاب للثقلين، فكأنه قيل لكل خائفين من الثقلين جنتان، جنة للخائف الإنسى، وجنة للخائف الجنى، وقيل: المراد به أن لكل خائف جنتين، جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصى، وقيل: جنة يثاب بها، وجنة يتفضل بها عليه زيادة لقوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (٢) أى الجنة وزيادة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فيهن ناصرات الطرف) (٣) ولم يقل سبحانه فيهما، والضمير للجنتين؟

قلنا: الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرها مما سبق ذكره، وقيل: هو للجنتين، وإنما جمعه لاشتغال الجنتين على قصور ومنازل، وقيل: الضمير للمنازل والقصور التى دل عليها ذكر الجنتين، وقيل: الضمير لمجموع الجنان التى دل عليها ذكر الجنتين، وقيل: الضمير عائد إلى الفرش لأنها أقرب، وعلى هذا القول «فى» بمعنى على، كما فى قوله تعالى: (أم لهم

(١) سورة الرحمن ٢١.

(٢) سورة يونس ٢٦.

(٣) سورة الرحمن ٥٦.

سلم يستمعون فيه) (١).

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) (٢) أى لم يفتضهن، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان أيضاً، فما فائدة تخصيص الحور بذلك؟

قلنا: معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن، فلم يطمث الإنسيات إنسى، ولا الجنيات جنى، وفى هذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يواقع الإنس، وقيل فيها (٢) دليل على أن الجنى يغشى الإنسية فى الدنيا.



(١) سورة الطور ٢٨.

(٢) سورة الرحمن ٧٤.

(٢) وفى نسخة (ب) فيهما.

سورة الواقعة

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: (والسابقون السابقون) (١)؟

قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد (فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) (٢) كأنه تعالى قال: والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم، ونظيره قول أبي النجم: أنا أبو النجم وشعري شعري

.....
الثاني: أن معناه: والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمته وكرامته، ثم قيل: المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة، وقيل: الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: أهل القرآن، وقيل: السابقون إلى المساجد إلى الخروج في سبيل الله، وقيل: هم الأنبياء، فهذه خمسة أقوال.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يطوف عليهم ولدان مخلدون) (٣) مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان في الجنة، بل كل أهل الجنة مخلدون فيها لا يشيبون ولا يهرمون، بل يبقى كل واحد أبداً على صفته التي دخل الجنة عليها؟

قلنا: معناه أنهم لا يتحولون عن شكل الولدان هيئة الوصافة، وقيل: مقرطون، وقيل: مسورون، ولا إشكال على هذين القولين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لاكلون من شجر من زقوم فمائلون

(١) سورة الواقعة ١٠.

(٢) سورة الواقعة ٨ - ٩.

(٣) سورة الواقعة ١٧.

منها البطون فشاربون عليه من الحميم) (١) أنث ضمير الشجر
ثم ذكره؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة القمر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) (٢) أى
فهل تصدقون، مع أنهم مصدقون أنه خلقهم بدليل قوله تعالى: (ولئن
سألنهم من خلقهم ليقولن الله) (٣)؟

قلنا: هم وإن كانوا مصدقين بالسنتهم إلا أنهم لما كان منزههم خلاف
ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به، الثانى: أنه تخصيص على
التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنه تعالى
قال: هو الذى خلقكم أولاً باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم
ثانياً فهل تصدقون بذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى فى الزرع: (لو نشاء لجعلناه
حطاماً) (٤) بالام وقال تعالى فى الماء: (لو نشاء جعلناه
أجاجاً) (٥) بغير لام؟

قلنا: الأصل أن تذكر اللام فى الموضعين، إذ لابد منها فى جواب
«لو» إلا أنها حذفت فى الثانى اختصاراً، وهى منوية لدلالة الأولى
عليها، الثانى: أن أصل هذه اللام للتأكيد، فذكرت مع المطعوم دون
المشروب، لأن المطعوم مقدم وجوداً ورتبة، لأنه إنما يحتاج إلى

(١) سورة الواقعة ٥٢ - ٥٤.

(٢) سورة الواقعة ٥٧.

(٣) سورة الزخرف ٨٧.

(٤) سورة الواقعة ٦٥.

(٥) سورة الواقعة ٧٠.

الماء تبعاً له ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، فلما كان الوعيد بفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملة بمبالغة في التهديد .

فإن قيل : التسبيح التنزيه عن سوء ، فما معنى باسم في قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) (١) وهلا قال تعالى فسبح ربك العظيم ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن الباء زائدة والاسم بمعنى الذات فصار المعنى ما قلتم ، الثانى : أن الاسم بمعنى الذكر ، فمعناه فسبح بذكر ربك ، الثالث : أن الذكر فيه مضمّر ، فمعناه فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، الرابع : قال الضحاك : معناه فصل باسم ربك : أى افتتح الصلاة بالتكبير .

فإن قيل : إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قائمة بذاته المقدسة ، فكيف قال تعالى : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) (٢) أى اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين ؟ قلنا : معناه مكتوب فى كتاب مكنون ، ولا يلزم من كتابة القرآن فى الكتاب أن يكون (القرآن) (٣) حالا فى الكتاب كما لو كتب انسان على كفه ألف دينار لا يلزم منه وجود ألف دينار فى كفه ، وكذا لو كتب فى كفه العرش أو الكرسي ، وكذا قال تعالى فى صفة النبی صلى الله عليه وسلم : (يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة

(١) سورة الواقعة ٧٤ .

(٢) سورة الواقعة ٧٧ - ٧٨ .

(٣) فى نسخة (ب) .

والانجيل (١)، الثانى: أن القرآن لو كان حالا فى المصحف (فإذا ما أن يكون جميعه حالا فى مصحف واحد، أو فى كل مصحف، بعضه) (٢)، ولا مسيل إلى الأول لأن المصاحف كلها سواء فى الحكم فى كتابته فيها، ولأن البعض ليس أولى بذلك من البعض، ولا مسيل إلى الثانى والا لزم تعدد القرآن وأنه متحد، ولا مسيل إلى الثالث لأنه كله مكتوب فى كل مصحف، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البعض من ذلك المصحف، وكذا الباقي، فثبت أنه ليس حالا فى شيء منها، بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه. فإن قيل: فإذا لم تفارقه فكيف سماه تعالى منزلا وتنزيلا، وقال سبحانه: (نزل به الروح الأمين) (٢) ونظائره كثيرة، وإذا فارقه وبأينه يكون مخلوقا، لأن كل مباين له فهو غيره، وكل ما هو غيره فهو مخلوق؟

قلنا: معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علمه لجبريل فحفظه، وأمره أن يعلمه للنبي صلى الله عليه وسلم ويأمره أن يعلمه لأمته، مع أنه لم يزل ولا يزال صفة لله تعالى قائمة به لا تفارقه.



(١) سورة الأعراف ١٥٧.

(٢) فى نسخة (ب).

(٢) سورة الشعراء ١٩٢.

سورة الحديد

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وما لكم لا تؤمنون بالله) (١) ثم قال سبحانه: (إن كنتم مؤمنين) (٢)؟

قلنا: معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فإن شريعتهما تقتضى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، الثانى: إن كنتم مؤمنين بالبيثاق الذى أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام، الثالث: أن معناه: أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة وممكنكم من النظر وأزاح غلكم، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لا يستوى منكم من أففق من قبل الفتح وقاتل) (٣) ولم يذكر مع من لا يستوى، والامستواء لا يتم إلا بذكر اثنين كقوله تعالى: (قل لا يستوى الخبيث والطيب) (٤)، (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) (٥)؟

قلنا: هو محذوف تقديره: ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

فإن قيل: كيف يقال إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة

(١) سورة الحديد ٨.

(٢) سورة الحديد ٨.

(٣) سورة الحديد ١٠.

(٤) سورة المائدة ١٠٠.

(٥) سورة الحشر ٢٠.

الصديقين، والله تعالى قد حكم على كل مؤمن بكونه صديقاً بقوله تعالى: (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) (١)؟

قلنا: قال ابن مسعود ومجاهد: كل مؤمن صديق، الثانى: أن الصديق هو كثير الصدق، وهو الذى كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم، وقد روى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض فى زمانهم إلى الاسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلى وحمزة بن عبدالمطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد، وألحق بهم عمر رضى الله عنهم فصاروا تسعة. فإن قيل: كيف وصف سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم من لم يقتل؟

قلنا: معناه أن لهم أجر الشهداء، الثانى: أنه جمع شهيد بمعنى شاهد، فمعناه أنهم شاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان، الثالث: أنه مبتدأ منقطع عما قبله لا معطوف عليه، معناه: والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) (٢) والمسابقة من المفاعلة التى لا تكون إلا بين اثنين كقولك: سابق زيد عمراً؟

قلنا: قيل معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى الميدان، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة فى سورة آل عمران، وقيل: سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التى توصلكم

(١) سورة الحديد ١٩.

(٢) سورة الحديد ٢١.

إلى الجنة، وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) (١) (وقال تعالى في سورة آل عمران: (وجنة عرضها السموات والأرض) (٢) (فكيف) (٣) يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع؟

قلنا: المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (٤) ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله أن لا يحزن، ولا عند منفعة ينالها أن لا يفرح، وليرجع كل واحد منا في ذلك إلى نفسه؟

قلنا: ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذي لا ينفك عنه الإنسان بطبعه قسراً وقهراً، بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الذمّول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطفئ للملهي عن الشكر، نعوذ بالله منهما.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأُنزلنا معهم الكتاب والميزان) (٥)

(١) سورة الحديد ٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٢.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة الحديد ٢٢.

(٥) سورة الحديد ٢٥.

والميزان لم ينزل من السماء؟

قلنا: قيل المراد بالميزان هنا العدل، وقيل العقل، وقيل السلسلة التي أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام، وقيل هو الميزان المعروف أنزله جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام، وقال له: مر قومك يزنوا به.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا

برسوله) (١) مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله؟

قلنا: معناه يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد، فيكون خطاباً لليهود والنصارى خاصة، وعليه الأكثرون، وقيل: معناه يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وأمنوا برسوله اليوم، وقيل: معناه يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان اتقوا الله وأمنوا برسوله في السر بتصديق القلب.



سورة المجادلة

فإن قيل: لأى معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر فى النجوى دون غيرها من الأعداد؟

قلنا: لأن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجى على هذين العديدين مغايضة للمؤمنين، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضاً بهم وتسميماً لهم وزيد فيها ما يتناول كل متناجين غير تلك الطائفتين، وهو قوله تعالى: (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر) (١).

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) (٢)؟

قلنا: فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يحلفون على أنهم ما سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع اليهود كاذبين متعمدين للكذب فهم اليمين الغموس، فكان ذلك نهاية فى ذمهم.

(١) سورة المجادلة ٧.

(٢) سورة المجادلة ١٤.

سورة الحشر

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والذين قبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم) (١) والإيمان ليس مكاناً يتبوأ لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلاً؟

قلنا: فيه اضمار تقديره: وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر:

علفتها تبنأ وماء بارداً

.....

أى وسقيتها ماء بارداً، الثانى: أنه على ظاهره بغير اضمار ولكنه مجاز، فمعناه أنهم جعلوا الإيمان مستقراً مستوطناً لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهى المدينة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولئن نصروهم) (٢) بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم وحرف الشرط إنما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه؟

قلنا: معناه: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: (لئن أشركت ليحبطن عملك) (٣) وقوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) (٤) والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه، فهو يعلم ما لا يكون أنه لو كان كيف يكون.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى للمؤمنين: (لأنتم أشد رهبة فى

(١) سورة الحشر ٩.

(٢) سورة الحشر ١٢.

(٣) سورة الزمر ٦٥.

(٤) سورة الأنبياء ٢٢.

صدورهم من الله) (١) أى فى صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين، وظاهره لأنتم أشد خوفاً من الله، فإن كان «من الله» متعلقاً بأشد لزوم ثبوت الخوف لله تعالى كما تقول: زيد أشد خوفاً فى الدار من عمرو، وذلك محال، وإن كان «من الله» متعلقاً بالخوف فأين الذى فضل عليه المخاطبون، وأيضاً فإن الآية تقتضى إثبات زيادة الخوف للمؤمنين، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين؟ قلنا: رهبة مصدر رهب مبيناً لما لم يسم فاعله، فكأنه قيل أشد مرهوبية، يعنى أنكم فى صدورهم أهيب من الله فيها، كذا فسر ابن عباس رضى الله عنهما، ونظيره قولك: زيد أشد ضرباً فى الدار من عمرو، يعنى مضروبية.

فإن قيل: كيف يستقيم التفضيل وهم ما كانوا يرهبون الله، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر؟

قلنا: معناه أن رهبتهم فى السر منكم أشد من رهبتهم من الله التى يظهرونها لكم، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى.

فإن قيل: كيف قال إبليس: (إنى أخاف الله) (٢) وهو لا يخاف الله تعالى لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده (٣)؟ قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة الأنفال. فإن قيل: ما فائدة تنكير النفس والغد فى قوله تعالى: (ولتنظر نفس

(١) سورة الحشر ١٣.

(٢) سورة الحشر ١٦.

(٣) وفى نسخة (أ) عباده.

ما قدمت لغد) (٤)؟

قلنا: أما تنكير (٢) النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمت للأخرة كأن قال: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس، وأما تنكير الغد فلعلظمة وإبهام أمره كأنه قال: لغد لا يعرف كنهه لعلظمه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (لغد) (٢) وأراد به يوم القيامة، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليلة واحدة؟ قلنا: الغد له مفهومان: أحدهما ما ذكرتم، والثاني مطلق الزمان المستقبل، ومنه قول الشاعر:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما في غد عمى

وأراد به مطلق الزمان المستقبل كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضى، فصار لكل واحد منهما مفهومان، ويؤيده أيضاً قوله تعالى: (كأن لم تغن بالأمس) (٤)، وقيل: إنما أطلق على يوم القيامة اسم الغد تقريباً له كقوله تعالى: (اقتربت الساعة) (٥) وقوله تعالى: (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أهوب) (٦) وكأنه تعالى قال: إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس

(١) سورة الحشر ١٨.

(٢) وفي نسخة (ب) تكرار النفس.

(٣) سورة الحشر ١٨.

(٤) سورة يونس ٢٤.

(٥) سورة القمر ١.

(٦) سورة النحل ٧٧.

بينكم وبينه إلا ليلة واحدة، ولهذا روى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اعمل لليلة صبيحتها يوم القيامة»، قالوا: أراد بتلك الليلة ليلة الموت.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل... الآية) (١)؟

قلنا: معناه أنه سبحانه لو جعل في جبل على قساوته تميزاً كما جعل في الإنسان ثم أنزل عليه القرآن، لتشقق (خشية) (٢) من الله تعالى خوفاً أن لا يؤدي حقه في تعظيم القرآن، والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، وإعراضه عن تدبر قوارعه وزواجره.

فإن قيل: ما الفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر؟

قلنا: الخالق هو المقدر لما يوجد، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة، وقيل: الخالق المبدئ والبارئ المعيد.



(١) سورة الحشر ٢١.

(٢)

سورة الممتحنة

فإن قيل: من ماذا استثنى قوله تعالى: (إلا قول إبراهيم لأبيه) (١)؟ قلنا: من قوله تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم) (٢) لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه ليقصدوا به فيه ويتخذوه سنة يستنون بها، واستثنى سبحانه استغفاره لأبيه لأنه كان (عن) (٣) موعده وعدها إياه.

فإن قيل: فإن كان استغفاره لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة، فكيف عطف عليه قوله: (وما أملك لك من الله من شيء) (٤) وهو لا يصح استثناءه، ألا ترى إلى قوله تعالى: (هل فمن يملك لكم من الله شيئاً) (٥)؟

قلنا: المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط، وما بعدها ذكر لأنه من تمام كلام إبراهيم لا بقصد الاستثناء، كأنه قال: أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ولا يعصينك في معروف) (٦) ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف، فهذا اقتصر على قوله تعالى: «ولا يعصينك»؟ قلنا: فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن لو وقعت،

(١) سورة الممتحنة ٤.

(٢) سورة الممتحنة ٤.

(٣) ما قبل من نسخة (ب).

(٤) سورة الممتحنة ٤.

(٦) سورة الممتحنة ١٢.

(٥) سورة الفتح ١١.

من غير توقف الفهم على المقدمة التي أوردتم في السؤال.

| |
|--|
| |
|--|

سورة الصف

فإن قيل: ما فائدة «قد» في قوله تعالى: (وهد تعلمون أنى رسول الله إليكم) (١)؟

قلنا: فائدتها التأكيد، كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه، هذا جواب الزمخشري، وقال غيره: فائدتها التكثير، لأن قد مع الفعل المضارع تارة تأتي للتقليل كقولهم: إن الكذب قد يصدق، وتارة تأتي للتكثير كقول الشاعر:

قد أعسف النازح المجهود معسفة

في ظل أخضر يدعو هامة اليوم

وإنما يتمدح بما يكثر وجوده منه لا بما يقل.

فإن قيل: كيف قال عيسى عليه السلام: (ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) (٢) ولم يقل محمد ومحمد أشهر أسماء النبي صلى الله عليه وسلم؟

قلنا: إنما قال أحمد لأنه مذكور في الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمد، وإنما كان كذلك لأن اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، فنزل في الإنجيل اسمه السماوى، وقيل: إن أحمد أبلغ في معنى الحمد من محمد من جهة كونه مبنياً على صيغة التفضيل، وقيل: محمد أبلغ من جهة كونه على صيغة التفضيل الذى هو للتكثير.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) (٣) ولم يقل سبحانه هذه، والمشار إليه البينات وهى

(١) سورة الصف ٥.

(٢) سورة الصف ٦.

(٣) سورة الصف ٦.

مؤنثة ؟

قلنا: معناه هذا الذى جنت به، فالإشارة إلى المأتى به.
فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله
بقول عيسى عليه السلام: (من أنصارى إلى الله) (١) ؟
قلنا: التشبيه محمول على المعنى تقديره: كونوا أنصار الله كما كان
الحواريون أنصاراً لعيسى عليه السلام حين قال لهم من أنصارى إلى
الله.



سورة الجمعة

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله) (١) والسعى العدو، والعدو إلى صلاة الجمعة وإلى كل صلاة مكروه؟ قلنا: المراد بالسعى القصد، وقال الحسن: ليس هو السعى على الأقدام، ولكنه على النيات والقلوب، ويؤيد قول الحسن قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (٢) وقول الداعي في دعاء القنوت: وإليك نسعى ونحفد، وليس المراد به العدو والاسراع بالقدم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (انفضوا إليها) (٣) والمذكور شيان اللهو والتجارة؟

قلنا: قد سبق جواب هذا في سورة التوبة في قوله تعالى: (ولا ينفقونها في سبيل الله) (٤) والذي يؤيده هنا ما قاله الزجاج معناه: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه إليهما بضمير التثنية، وعليه فلا حذف.

(١) سورة الجمعة ٩.

(٢) سورة النجم ٢٩.

(٣) سورة الجمعة ١١.

(٤) سورة التوبة ٣٤.

سورة المنافقون

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (والله يعلم إنك لرسوله) (١)؟ قلنا: لو قال تعالى: قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد إنهم لكاذبون (لكان) (٢) يوم أن قولهم هذا كذب، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب، بل المراد أنهم كاذبون في غير هذه الشهادة، وقال أكثر المفسرين: إنه تكذيب لهم في هذه الشهادة لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا ولم يعتقدوا أنه رسول الله بقلوبهم، فسماهم كاذبين لذلك، فعلى هذا يكون ذلك تأكيداً.

فإن قيل: المنافقون ما برحوا على الكفر، فكيف قال تعالى: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) (٣)؟

قلنا: معناه ذلك الكذب الذي حكم عليهم به، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعملون بسبب أنهم آمنوا بالسنتهم (ثم كفروا) (٤) بقلوبهم (فطبع على قلوبهم) (٥) كما قال تعالى في وصفهم: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم... الآية) (٦)، الثاني: أن المراد به أهل الردة منهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) (٧) ولم يقل هي العدو؟

(١) سورة المنافقون ١.

(٢) ماقط من نسخة (أ).

(٣) سورة المنافقون ٢.

(٤) سورة المنافقون ٢.

(٥) سورة المنافقون ٣.

(٦) سورة البقرة ١٤.

(٧) سورة المنافقون ٤.

قلنا: عليهم هم ثانى مفعولين يحسبون تقديره: يحسبون كل صيحة
واقعة عليهم: أى لجبنهم وهلعهم، فالوقوف على قوله تعالى عليهم
وقوله سبحانه: (هم العدو) (١) ابتداء كلام، وقيل: إن المفعول
الثانى هو قوله تعالى: (هم العدو) (٢) ولكن تقديره: يحسبون أهل
كل صيحة عليهم هم العدو، والأول أظهر (بذلك) (٣) بدليل عدم
نصب العدو.



(١) سورة المنافقون .٤

(٢) سورة المنافقون .٤

(٣) فى نسخة (ب).

سورة التغاين

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) (١) قدم الكافر في الذكر؟

قلنا: الواو لا تعطى رتبة ولا تقتضى ترتيباً كما قال تعالى: (فمنهم شقى وسعيد) (٢). وقال تعالى: (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) (٣) وقال سبحانه: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) (٤) وقال تعالى: (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) (٥) وقد ذكرنا في الآية الأخيرة معنى آخر فى موضعها.

فإن قيل: قوله تعالى: (وتولوا واستغنى الله) (٦) يومهم وجود التولى والاستغناء معاً بعد مجيء رسلهم إليهم، والله تعالى لم يزل غنياً؟

قلنا: معناه وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك. فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) (٧) مع أن الهداية سابقة على الإيمان، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان؟ قلنا: ليس المراد يهد قلبه للإيمان، بل المراد به يهد قلبه لليقين

(١) سورة التغاين ٢.

(٢) سورة هود ١٠٥.

(٣) سورة الحشر ٢٠.

(٤) سورة فاطر ٣٢.

(٥) سورة الشورى ٤٩.

(٦) سورة التغاين ٦.

(٧) سورة التغاين ١١.

عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، الثاني: يهد قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب، الثالث: يهد قلبه للامترجاع عند نزول المصائب، وهو أن يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) (١)، الرابع: يهد قلبه: أى يجعله ممن إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، الخامس: يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، وقرىء «يهدأ» بفتح الدال وبالهمز من الهدو وهو السكون، فمعناه: ومن يؤمن بالله) (٢) إيماناً خالصاً يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجزع ويقلق.



(١) سورة البقرة ١٥٦.

(٢) فى نسخة (ب).

سورة الطلاق

فإن قيل: كيف قال تعالى: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) (١) أفرد الخطاب أولاً ثم جمعه ثانياً؟

قلنا: أفرد سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم أولاً بالخطاب لأنه إمام أمته وقودتهم إظهاراً لتقدمه ورياسته، وأنه وحده في حكم كلهم وساد مسد جميعهم، الثاني: إن معناه: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويؤزقه من حيث لا يحتسب) (٢) ونحن نرى كثيراً من الأتقياء مضيقاً عليهم رزقهم؟

قلنا: معناه يجعل له مخلصاً من هموم الدنيا والآخرة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، والصحيح أن هذه الآية عامة، وأن الله يجعل لكل متق مخرجاً من كل ما يضيق على من لا يتقى، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: (ومن يتق الله) (٢) وجعل يقرؤها ويعيدها»، وأما تضيق رزق الأتقياء فهو مع ضيقه وقلته يأتيهم من حيث لا يأمّلون ولا يرجون، وتقليله لطف بهم ورحمة ليتوفر حظهم في الآخرة ويخف حسابهم، ولتقل عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم، ولا يشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة

(١) سورة الطلاق ١.

(٢) سورة الطلاق ٢.

(٢) سورة الطلاق ٢ - ٣.

والعبادة، ولهذا اختار الأنبياء والأولياء والصدّيقون الفقر على الغنى.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (١) أى من يثق به فيما نابه كفاه الله شر ما أهمه، وقد رأينا كثيراً من الناس يتوكل على الله فى بعض أموره وحوائجه ولا يكفيه الله همه؟ قلنا: محال أن يتوكل على الله حق التوكل ولا يكفيه همه، بل ربما قلق وضجر واستبطاً قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضاً ففسد توكله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (إن الله بالغ أمره) (٢) أى نافذ حكمه، يبلغ ما يريد ولا يفوته (مراد) (٣) ولا يعجزه مطلوب، وبقوله تعالى: (قد جعل الله لكل شئ قدراً) (٤) أى جعل لكل شئ من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلاً ومنتهاً ينتهى إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

فإن قيل: كيف قوله تعالى: (واللأذى ينسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) (٥) علقه بشكنا مع أن عدتهن ذلك سواء وجد شكنا أم لا؟

قلنا: المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الآية والصغيرة، وإنما علقه به لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء فى سورة البقرة قال بعض الصحابة رضى الله عنهم: قد بقى الكبار والصغار لا ندرى كم عدتهن، فنزلت هذه الآية على هذا السبب، فلذلك جاءت مقيدة

(١) سورة الطلاق ٣.

(٢) سورة الطلاق ٣.

(٣) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الطلاق ٤.

(٤) سورة الطلاق ٣.

بالشك والجهل.

فإن قيل: إذا كانت المطلقة طلاقاً بائناً تجب لها النفقة عند بعض العلماء، فما فائدة قوله تعالى: (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن) (١) عند ذلك التناول؟

قلنا: فائدته أن لا يتوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحائض سقطت النفقة، فنفي هذا الوهم بقوله: (حتى يضعن حملهن) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: (سيجعل الله بعد عسر يسراً) (٣) وقال سبحانه في موضع آخر: (إن مع العسر يسراً) (٤) فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى «مع» بعد لأن الضدين لا يجتمعان. فإن قيل: كيف قال تعالى: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها وورسله فتحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) (٥) فنسب العتو إليها، وقال تعالى: «فحاسبناها»، «وعذبناها» والعذاب على الحساب يكون في الآخرة لا في الدنيا؟

قلنا: معناه عتأ أهلها، وإنما جرى به على لفظ الماضي تحقيقاً له وتقريراً، لأن المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آت لا محالة، وما هو كائن فكأنه قد وقع، ونظيره قوله تعالى: (ونادى أصحاب

(١) سورة الطلاق ٦.

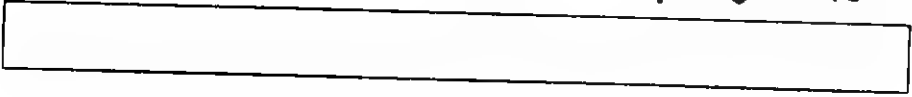
(٢) سورة الطلاق ٦.

(٣) سورة الطلاق ٧.

(٤) سورة الشرح ٦.

(٥) سورة الطلاق ٨.

النار) (١) وما أشبهه.



سورة التحريم

فإن قيل: قوله تعالى: (وصالح المؤمنين) (١) إن كان المراد به الفرد فأى فرد هو، وأيضاً فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع، وإن كان المراد به الجمع فهذا كان مكتوباً فى المصحف بالواو؟

قلنا: هو فرد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الفعل الصالح من الناس، تريد به الجنس كقولك: لا يفعل من صلح منهم، وقوله تعالى: (إن الإنسان خلق هلوعاً) (٢) وقوله تعالى: (إن الإنسان لفسى خسراً) (٣) وقوله تعالى: (والملك على أرجائها) (٤) وقوله تعالى: (ثم يخرجكم طفلاً) (٥) ونظائره كثيرة، الثانى: أنه يجوز أن يكون جمعاً، ولكنه كتب فى المصحف بغير واو على اللفظ كما جاءت ألفاظ كثيرة فى المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والملائكة بعد ذلك ظهير) (٦) ولم يقل ظهراء وهو خبر عن الجمع وهم الملائكة؟

قلنا: هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق، الثانى: اسم على وزن المصدر كالزميل والديبب والصليل، فيستوى فيه الفرد والتثنية والجمع، الثالث: أن فيعلا يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع بدليل

(١) سورة التحريم ٤.

(٢) سورة المعارج ١٩.

(٣) سورة العصر ٢.

(٤) سورة الحاقة ١٧.

(٥) سورة غافر ٦٧.

(٦) سورة التحريم ٤.

قوله تعالى: (عن اليمين وعن الشمال قعيد) (١).

فإن قيل: قوله تعالى بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم، وقد تقدمت نصره الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين، ونصرة الله سبحانه أعظم؟

قلنا: مظاهره الملائكة من جملة نصره الله تعالى، فكأنه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم، ولا شك أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين. فإن قيل: كيف قال تعالى: (عسى وبه إن طلقن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات... الآية) (٢)، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي صلى الله عليه وسلم وهي ثابتة فيهن؟

قلنا: المراد به خيراً منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن.

فإن قيل: كيف أخليت الصفات كلها عن الواو وأثبتت بين الثيبات والأبكار؟

قلنا: لأنهما صفتان متنافيتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو، ومن جعلها واو الثمانية فقدمها، لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه.

فإن قيل: هذه الصفات إنما ذكرت في معرض المدح، فأى مدح في كونهن ثيبات؟

(١) سورة ق ١٧.

(٢) سورة التحريم ٥.

قلنا: التشيب مدح من وجه، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل وأكثر تجربة وعقلا، والبكارة مدح من وجه فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (ويضعون ما يؤمرون) (١) بعد قوله سبحانه: (لا يعصون الله ما أمرهم) (٢)؟

قلنا: قيل المراد بالأمر الأول الأمر بالعبادات والطاعات، وبالأمر الثانى الأمر بتعذيب أهل النار، وقيل هو تأكيد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (توبة نصوحا) (٣) ولم يقل توبة نصوحة؟

قلنا: لأن فعولا من أوزان المبالغة التى يستوى فى لفظة الذكور والإناث كقولهم: امرأة صبور وشكور ونحوهما.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (من عبادنا) (٤) بعد قوله تعالى: (كاننا تحت عبيدين) (٥)؟

قلنا: فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص كما فى قوله تعالى: (وعباد الرحمن) (٦) وقوله تعالى: (فادخلنى فى عبادى) (٧) وهو مبالغة فى المعنى المقصود

(١) سورة التحريم ٦.

(٢) سورة التحريم ٦.

(٣) سورة التحريم ٨.

(٤) سورة التحريم ١٠.

(٥) سورة التحريم ١٠.

(٦) سورة الفرقان ٦٢.

(٧) سورة الفجر ٢٩.

وهو (أن) (١) الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لصلاح غيره، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والتقرب من الله تعالى. فإن قيل: وكيف قال تعالى: (وكانت من القانتين) (٢) ولم يقل سبحانه من القانتات؟

قلنا: معناه كانت من القوم القانتين: أي المطيعين لله تعالى، يعنى رهطها وأهلها، فكأنه تعالى قال: وكانت من بنات الصالحين، وقيل: إن الله تعالى لما تقبلها في النذر وأعطاه مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلا بهم، عاملها معاملة الذكور في بعض الخطاب إشارة إلى ذلك، وقال تعالى: (واذكرني مع الراكعين) (٣) وقال تعالى: (وكانت من القانتين) (٤).



(١) في نسخة (ب).

(٢) سورة التحريم ١٢.

(٣) سورة آل عمران ٤٣.

(٤) سورة التحريم ١٢.

سورة الملك

فإن قيل: ما فائدة تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى: (الذي خلق الموت والحياة) (١)؟

قلنا: إنما قدم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أولاً، قال ابن عباس رضى الله عنهما: أراد به خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، ولو سلم أن المراد به الحياة في الدنيا فالموت سابق عليها لقوله تعالى: (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) (٣) مع أن في خلقه سبحانه تفاوتاً عظيماً، فإن الأضداد كلها من خلقه عز وجل وهي متفاوتة، والسموات أيضاً متفاوتة في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك؟

قلنا: المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان في مخلوقه تعالى الذي هو السموات، ويؤيده قوله تعالى: (فارجع البصر هل ترى من فطور) (٤) أى من شقوق وصدوع في السماء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (أأمنتم من في السماء) (٥) والله سبحانه وتعالى ليس في السماء ولا في غير السماء، بل هو سبحانه منزّه عن كل مكان؟

قلنا: معناه من ملكوته في السماء، لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسیه واللوح المحفوظ، ومنها تنزل أفضيته وكتبه وأوامره

(١) سورة الملك ٢.

(٢) سورة البقرة ٢٨.

(٣) سورة الملك ٢.

(٤) سورة الملك ٢.

(٥) سورة الملك ١٦.

ونواهيه، الثانى: أنهم كانوا يعتقدون التشبيه، وأنه سبحانه وتعالى
فى السماء فخطبوا على حسب اعتقادهم.

| |
|--|
| |
|--|

سورة القلم

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا يستثنون) (١) أى ولا يقولون إن شاء الله فسمى الشرط استثناء؟

قلنا: إنما سماه استثناء لأنه فى معناه، فإن معنى قولك لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد، وقال عكرمة: المراد به حقيقة الاستثناء: أى أنهم لا يستثنون حق المساكين، والجمهور على الأول.

فإن قيل: كيف سمي أوسطهم الاستثناء تسييحاً فقال: (أنتم أهل لكم لولا تسبحون) (٢) أى لولا تستثنون؟

قلنا إنما سماه تسييحاً لاشتراكهما فى معنى التعظيم، لأن الاستثناء تفويض إليه وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئته سبحانه، والتسييح تنزيه له عن سوء، الثانى: أنه كان استثناءهم (قول) (٢) سبحانه الله، الثالث: أن معناه لولا تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقد كانوا يدعون إلى السجود) (٤) (ولا تكليف فى الدار الآخرة؟

قلنا: لا يدعون إليه تكليفاً وتعبداً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركه فى الدنيا.

(١) سورة القلم ١٨.

(٢) سورة القلم ٢٨.

(٣) فى نسخة (ب).

(٤) سورة القلم ٤٢.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وقد كانوا يدعون إلى
السجود) ((١)) (٢) وهم إنما كانوا يدعون إلى الصلاة، فإن المراد
بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن حين يقول حي على
الصلاة؟

قلنا: عبر سبحانه عن الصلاة بالسجود لأنه من أركانها، بل هو أعظم
الأركان وغايتها، كما عبر عنها بالركوع وبالقراءة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وهم سالمون) (٣) أى صحيحون، مع
أن الصحة ليست شرطاً لوجوب الصلاة؟

قلنا: وجوب الخروج إلى الصلاة بالجماعة مشروط بالصحة وهو
المراد.

| |
|--|
| |
|--|

(١) سورة الملك ٤٢.

(٢) ماقط من نسخة (أ).

(٣) سورة الملك ٤٢.

سورة الحاقة

فإن قيل: كيف قال تعالى: (بريح صرصر) (١) ولم يقل صرصرة، كما قال تعالى: (عاتية) (٢) وهو صفة لمؤنث، لأنها الشديدة الصوت أو الشديدة البرد؟

قلنا: لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها، فأشبه باب حائض وطامث وحامل، بخلاف عاتية فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فترى القوم فيها صرعى) (٣) أى فى تلك الليالى والأيام، والنبي صلى الله عليه وسلم ما رآهم فيها ولا يراهم فيها؟

قلنا: فيها ظرف لقوله تعالى صرعى، لا لقوله تعالى فترى، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار، فصار المعنى فتعلمهم صرعى فى تلك الليالى والأيام بإعلامنا حتى كأنك تشاهدهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) (٤) إلى قوله سبحانه: (يومئذ تعرضون) (٥) والمراد بها النفخة الأولى، وهى نفخة الصعق بدليل ما ذكر بعدها من فساد العالم العلوى والسفلى، والعرض إنما يكون بعد النفخة الثانية، وبين النفختين من الزمان ما شاء الله تعالى فكيف قال سبحانه: (يومئذ

(١) سورة الحاقة ٦.

(٢) سورة الحاقة ٦.

(٣) سورة الحاقة ٧.

(٤) سورة الحاقة ١٢.

(٥) سورة الحاقة ١٨.

تعرضون) (١) ؟

قلنا: وضع اليوم موضع الوقت الواسع الذى يقع فيه النفختان وما بعدهما .

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إنى ظننت أنى ملاق حسابه) (٢) ؟
قلنا: معناه تيقنت، والظن يطلق بمعنى اليقين كما فى قوله
تعالى: (الذين يظنون أنهم ملاهوا بهم وأنهم إليه
راجعون) (٣) .

فإن قيل: كيف قال تعالى فى وصف أهل النار: (فليس له اليوم ها
هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) (٤) وقال سبحانه فى موضع
آخر: (ليس لهم طعام إلا من ضريع) (٥) وفى موضع آخر: (إن
شجرة الزقوم طعام الأثيم) (٦) وفى موضع آخر: (ثم إنكم أيها
الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالئون منها
البطون) (٧) وفى موضع آخر: (أولئك ما يأكلون فى بطونهم
إلا النار) (٨) ؟

قلنا: معناه إلا من غسلين وما أشبهه، أو وضع الغسلين موضع كل

(١) سورة الحاقة ١٨ .

(٢) سورة الحاقة ٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٤٦ .

(٤) سورة الحاقة ٢٥ - ٢٦ .

(٥) سورة الغاشية ٦ .

(٦) سورة الدخان ٤٢ .

(٧) سورة الواقعة ٥١ - ٥٢ .

(٨) سورة البقرة ١٧٤ .

طعام مؤذ كريبه، الثانى: أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريح، لكل باب منهم جزء مقسوم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إنه لقول رسول كريم) (١) يعنى أن القرآن قول جبريل عليه السلام، مع أنه قول الله تعالى لا قول جبريل؟

قلنا: الأكثرين على أن المراد به النبى صلى الله عليه وسلم، والمعنى أنه يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله تعالى لا من تلقاء نفسه كما تزعمون.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فما منكم من أحد عنه حاجزين) (٢) فوصف الفرد بالجمع؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى آخر سورة البقرة.



(١) سورة الحاقة ٤٠.

(٢) سورة الحاقة ٤٧.

سورة المعارج

فإن قيل: كيف قال تعالى: (إن الإنسان خلق هلوعاً) (١) ويفسره ما بعده والإنسان في حال خلقه ما كان موصوفاً بهذه الصفات؟ قلنا: هلوعاً حال مقدرة، فالمعنى مقدراً فيه الهلع كما في قوله تعالى: (مخلقين رؤوسكم) (٢) وهم ليسوا محلّقين حال الدخول. فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: (الذين هم على صلاتهم دائمون) (٣) ثم قال تعالى ثانياً: (والذين هم على صلاتهم يحافظون) (٤) فهل بينهما فرق؟

قلنا: المراد بالدوام المواظبة عليها والملازمة أبداً، وقيل: المراد به سكونهم فيها بحيث لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، واختاره الزجاج وقال: اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن، كما جاء في الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن البول في الماء الدائم، قلت: وقوله «على» ينفي هذا المعنى، فإنه لا يقال هو على صلاته ساكن، بل يقال: هو في صلاته ساكن، والمراد بالمحافظة عليها أدائها على أكمل وجوها جامعة لجملة سننها وآدابها، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة والمحافظة إلى أحوالها.

(١) سورة المعارج ١٩.

(٢) سورة الفتح ٢٧.

(٣) سورة المعارج ٢٢.

(٤) سورة المعارج ٢٤.

سورة نوح عليه السلام

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ويؤخركم إلى أجل مسمى) (١) فإن كان المراد به تأخيرهم عن الأجل المقدر لهم في الأزل فهو محال لقوله تعالى: (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) (٢) وقوله تعالى: (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) (٣) وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدر لهم في الأزل، فما فائدة تخصيصهم بهذا وهم وغيرهم في ذلك سواء على تقدير وجود الإيمان منهم وعدم وجوده؟

قلنا: معناه ويؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان فلا يعذبكم في الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة، الثاني: إنه سبحانه قضى أنهم إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة، ف قيل لهم آمنوا يؤخركم إلى ذلك الأجل.

فإن قيل: كيف أمرهم بالاستغفار، والاستغفار إنما يصح من المؤمنين دون الكافر؟

قلنا: معناه استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والله أنبتكم من الأرض نباتاً) (٤) والحيوان ضد النبات، فكيف يطلق على الحيوان أنه نبات؟
قلنا: هو استعارة للإنشاء والإخراج من الأرض بواسطة آدم عليه السلام.

(١) سورة نوح ٤.

(٢) سورة المنافقون ١١.

(٣) سورة نوح ٤.

(٤) سورة نوح ١٧.

فإن قيل: كيف دعا نوح عليه السلام على قومه بقوله: (ولا قزد الظالمين إلا ضلالا) (١) مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم؟ قلنا: إنما (دعا) (٢) عليهم بذلك بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

فإن قيل: كيف قال: (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) (٣) وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا؟ قلنا: إنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ، وإنما علم ذلك بإعلام الله سبحانه وتعالى (٤).



(١) سورة نوح ٢٤.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة نوح ٢٢.

(٤) في نسخة (ب) اختصار للإجابة «إنما علم ذلك بإعلام الله تعالى».

سورة الجن

فإن قيل: كيف قال تعالى: (وأنه لما قام عبد الله) (١) ولم يقل سبحانه رسول الله أو نبي الله، والمراد به النبي عليه الصلاة والسلام؟

قلنا: لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن في ذلك المقام مرسلًا إليهم، بل اتفق مرورهم به وجوازهم عليه، فلو قال تعالى رسول الله أو نبي الله لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة (إليهم) (٢).

فإن قيل: كيف قال تعالى: (هل إن أدري أهريب ما توعدون أم يجعل له دمي أمدًا) (٣) مع أن الأمد اسم للغاية، والغاية تكون زمانًا قريبًا وزمانًا بعيدًا، ويزيده قوله تعالى: (توعد لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا) (٤)؟

قلنا: أراد بالتقريب الحال، وبالمجمل له الأمد المؤجل، سواء كان الأجل قريبًا أو بعيدًا.

(١) سورة الجن ١٩.

(٢) وفي نسخة (أ) إليهما.

(٣) سورة الجن ٢٥.

(٤) سورة آل عمران ٢٠.

سورة المزمل

فإن قيل: ما معنى وصف القرآن بالثقل في قوله تعالى: (إنا سنلقى عليك هولا ثقيلا) (١)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه كان يثقل نزول الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام حتى يعرق عرقاً شديداً في اليوم الثاني، الثاني: أن العمل بما فيه من التكاليف ثقیل شاق، الثالث: ثقیل في الميزان يوم القيامة، الرابع: أنه ثقیل على المنافقين، (الخامس: أنه كلام له وزن ورجحان، كما يقال للرجل العاقل: رزين راجح) (٢)، السادس: أنه ليس بسفاسف، لأن السفاسف من الكلام يكون خفيفاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (السماء منفطر به) (٣) (ولم يقل سبحانه منفطرة به) (٤) والسماء مؤنثة؟

قلنا: هو على النسب: أي ذات انفطار، وقيل: ذكر السماء على معنى السقف، وقيل: معناه السماء شيء منفطر به، وقيل: السماء تذكر وتؤنث.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه) (٥) ولم يقل تعالى أن لن تحصوها: أي لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار؟

قلنا: الضمير عائد إلى مصدر يقدر معناه: لن تحسوا تقديرهما.

(١) سورة المزمل ٥.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة المزمل ١٨.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) سورة المزمل ٢٠.

سورة المدثر

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: (غير يسير) (١) بعد قوله

سبحانه: (هذلك يومئذ عسير على الكافرين) (٢)؟

قلنا: قيل معناه أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا، وقيل: إنه تأكيد.

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: (لا تبقى ولا تذر) (٣) ومعناها واحد؟

قلنا: معناه لا تبقى للكفار لحماً ولا تذر لهم عظماً، وقيل: معناه لا تبقيهم أحياء ولا تذرهم أمواتاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ولا يرقاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) (٤) وما سبق من وصفهم بالاستيقان وازدياد الإيمان دل على انتفاء الارتياب، والجمل كلها متعلقة بعدد خزنة النار، والمعنى ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام حق، حيث أخبر عن عدد خزنة النار بمثل ما في التوراة، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيماناً بالنبي صلى الله عليه وسلم والقرآن، حيث وجدوا ما أخبرهم به مطابقاً لما في كتابهم؟

قلنا: فائدته التأكيد والتعريض أيضاً بحال من عداهم من الشاكين وهم الكافرون والمنافقون، فمعناه ولا يرتاب هؤلاء كما ارتاب أولئك.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ماذا أريد الله بهذا مثلاً) (٥) يعنى

(١) سورة المدثر ١٠.

(٢) سورة المدثر ٩ - ١٠.

(٣) سورة المدثر ٢٨.

(٤) سورة المدثر ٢١.

(٥) سورة المدثر ٢١.

حصر عدد الخزنة فى تسعة عشر وذلك ليس بمثل.
قلنا: هو استعارة من المثل المضروب مما وقع غريباً وبديعاً فى
الكلام استغراباً منهم لهذا العدد واستبداعاً له، والمعنى: أى شىء أراد
الله بهذا العدد العجيب، وأى حكمة قصد فى جعل الخزنة تسعة
عشر لا عشرين، الثانى: أن المثل هنا بمعنى الصفة كما فى قوله
تعالى: (مثل الجنة التى وعد المتقون) (١) فالمعنى: ماذا أراد الله
بهذا العدد صفة للخنزة.

فإن قيل: كيف طابق قوله تعالى: (ما سلككم فى سقر) (٢) وهو
سؤال للمجرمين قوله تعالى: (يتساءلون عن المجرمين) (٣) وهو
سؤال عنهم، وإنما المطابق الظاهر يسألون المجرمين ما سلككم فى
سقر أو يتساءلون عن المجرمين ما سلكهم فى سقر: أى يسأل أهل
الجنة بعضهم بعضاً عن أهل النار؟

قلنا: قوله تعالى: (ما سلككم) (٤) ليس بياناً للتساؤل عنهم، وإنما
هو حكاية قول المسئولين عن المجرمين، فالمسئولون من أهل الجنة
ألقوا إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، وذلك أن المؤمنين
إذا أخرجهم الله تعالى من النار بعد ما عذبهم بقدر ذنوبهم وأدخلهم
الجنة يسألهم بعض أصحاب اليمين عن حال المجرمين وسبب
تخليدهم، فقال المسئولون: قلنا لهم: (ما سلككم فى سقر) (٥)،

(١) سورة الرعد ٢٥.

(٢) سورة المدثر ٤٢.

(٣) سورة المدثر ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة المدثر ٤٢.

(٥) سورة المدثر ٤٢.

وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة صاروا من أصحاب اليمين، وقيل: المراد بأصحاب اليمين الملائكة عليهم السلام، وقيل: الأطفال لأنهم لا يرتنون (١) بذنوب إذ لا ذنوب لهم.



سورة القيامة

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) (١) والقارىء له على النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو جبرائيل عليه السلام؟

قلنا: معناه فإذا جمعناه في صدرك، ويؤيده أول الآية: (إن علينا جمعه وقرآنه) (٢) أى إن علينا ضمه وجمعه في صدرك فلا تعجل بقراءته قبل أن يتم حفظه، وقيل: إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى، لأن جبريل عليه السلام يقرؤه بأمره كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر، مع أن المباشر لها أعوانهم أو أتباعهم. فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٣) والذي يوصف بالنظر الذي هو الإبصار والإدراك إنما هو العين دون الوجه؟

قلنا: قيل إنما أراد بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة لا الوجه هو العضو، ولا أرى هذا الجواب مطابقاً لقوله تعالى: (ووجوه يومئذ باسرة) (٤) لأن العيوس والقطوب إنما يوصف به الوجه الذي هو العضو، ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة) (٥) الأعضاء المعروفة قوله تعالى: (نعرف في وجوههم نضرة النعيم) (٦).

(١) سورة القيامة ١٨.

(٢) سورة القيامة ١٧.

(٣) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣.

(٤) سورة القيامة ٢٤.

(٥) سورة القيامة ٢٦.

(٦) سورة المطففين ٢٤.

فإن قيل: النطفة المنى، فما فائدة قوله تعالى: (ألم يك نطفة من منى يمنى) (١)؟

قلنا: النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير، ومنه الحديث: حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوازاً، أراد بحر المشرق والمغرب.



سورة الإنسان

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (من نطفة أمشاج) (١) فوصف المفرد وهى النطفة بالجمع (وهو) (٢) الأمشاج لأنه جمع مشج، والأمشاج الأخلاط، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة؟

قلنا: قال الزمخشري: أمشاج لفظ مفرد لا جمع، كقولهم: برمة أعشار، وبيت أكباش، وبر أهدام، وقال غيره: الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) (٣) والابتلاء متأخر عن جعله سميعاً بصيراً؟

قلنا: قال الفراء: فيه تقديم وتأخير (تقديره) (٤) فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، وقال غيره: معناه ناقلين له من حال إلى حال نطفة ثم علقته ثم مضغة، فسمى ذلك ابتداءً استعارة.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (قوارير من فضة) (٥) والقوارير اسم لما يتخذ من الزجاج؟

قلنا: معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة، وهى مع بياض الفضة وحسنها فى صفاء القوارير وشفيفها، قال ابن عباس رضى الله عنهما: لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، وقوارير الجنة من فضة ويرى ما فيها من ورائها.

(١) سورة الإنسان ٢.

(٢) فى نسخة (ب).

(٣) سورة الإنسان ٢.

(٤) فى نسخة (ب).

(٥) سورة الإنسان ١٥ - ١٦.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (كانت هوارير) (١)؟
قلنا: معناه تكونت، فهو من قوله تعالى: (كن فيكون) (٢) وكذا
قوله تعالى: (كان مزاجها كافورا) (٣).
فإن قيل: كيف شبه الله تعالى الولدان (باللؤلؤ) (٤) المنشور دون
المنظوم؟

قلنا: إنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنشور لأنه أراد تشبيههم
باللؤلؤ الذي لم يثقب بعد، لأنه إذا ثقب نقصت مائتته وصفاءه،
واللؤلؤ (الذي) (٥) لم يثقب لا يكون إلا منشوراً، وقيل: إنما
شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنشور لأن اللؤلؤ المنشور على البساط
أحسن منظراً من المنظوم، وقيل: إنما شبههم سبحانه باللؤلؤ المنشور
لانتشارهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم في الخدمة
بدليل قوله تعالى: (ويطوف عليهم) (٦) ولو كانوا وقوفاً صفاً
شبهوا بالمنظوم.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وحلوا أساور من فضة) (٧) مع
أن ذلك في الدنيا إنما هو عادة الإماء ومن في مرتبتهم؟
قلنا: القرآن أول من خطب به العرب، وكان من عادة رجالهم

(١) سورة الإنسان ١٥.

(٢) سورة البقرة ١١٧، سورة آل عمران ٤٧، ٥٩، سورة الأنعام ٧٢، سورة

النحل ٤٠، سورة مريم ٢٥، سورة يس ٨٢.

(٣) سورة الإنسان ٥.

(٤) في نسخة (ب).

(٥) في نسخة (ب).

(٦) سورة الإنسان ١٩.

(٧) سورة الإنسان ٢١.

ونسائهم من بيت المملكة التحلى بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين،
الثانى: إن الاسم وإن كان مشتركاً بين فضة الدنيا والآخرة، ولكن
شتان (ما) (١) بينهما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «المشقال من
فضة الآخرة خير من الدنيا وما فيها»، وكذا الكلام فى السندس
والإستبرق وغيرهما مما أعدة الله تعالى فى الجنة.

فإن قيل: أى شرف لتلك الدار يسقى الله تعالى عباده الشراب
الطهور فيها مع أنه تعالى فى الدنيا سقام ذلك بدليل قوله
تعالى: (وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا) (٢) وقوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) (٣)؟

قلنا: المراد به فى الآخرة سقيهم بغير واسطة، وشتان بين الشرايين
والأنيتين أيضاً.

فإن قيل: قوله تعالى: (وَلَا تَطْعَمُهُمْ أَثْمًا أَوْ كُفُورًا) (٤) الضمير
لمشركى مكة بلاد خلاف، فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور،
وكلهم آثم وكلهم كفور؟

قلنا: المراد بالآثم عتبة بن ربيعة، فإنه كان ركاباً للمآثم متعاضياً
لأنواع الفسوق، والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة، فإنه كان غالباً
فى الكفر شديد الشكيمة فيه مع أن كليهما كافر وآثم، والمراد به
نهيهم عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة وموافقتهم
فيما كانوا عليه من الكفر والضلال.

(١) فى نسخة (ب).

(٢) سورة المرسلات ٢٧.

(٣) سورة الحجر ٢٢.

(٤) سورة الإنسان ٢٤.

فإن قيل: ما معنى النهى عن طاعة أحدهما، وهما نهى عن طاعتهما؟ قلنا: قال بعضهم إن أو هنا بمعنى الواو كما فى قوله تعالى: (أو الحوايا) (١)، الثانى: أنه لو قال تعالى ولا تطعهما جاز له أن يطيع أحدهما، وأما إذا قيل ولا تطع أحدهما كان منهيًا عن طاعتهما بالضرورة.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا: (وشددنا أسرهم) (٢) أى خلقهم، وقال سبحانه فى موضع آخر: (وخلق الإنسان ضعيفا) (٣)؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما والاكثر: المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية، وقال الزجاج: معناه أنه يغلبه هواه وشهوته فلذلك وصف بالضعف، وأما قوله تعالى: (وشددنا أسرهم) (٤) فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، وقيل: المراد بالأسر العصص، فإن الإنسان فى القبر يصير رفاتاً إلا عصصه فإنه لا يتفتت، وقال مجاهد: المراد بالأسر مخرج البول والغائط، فإنه يسترخى حتى يخرج منه الأذى، ثم ينقبض ويجتمع ويشد بقوة الله تعالى.



(١) سورة الأنعام ١٤٦.

(٢) سورة الإنسان ٢٨.

(٣) سورة النساء ٢٨.

(٤) سورة الإنسان ٢٨.

سورة المرسلات

فإن قيل: قوله تعالى: (هذا يوم لا ينطقون) (١) ينفي وجود الاعتذار منهم لأن الاعتذار إنما يكون بالنطق، فما فائدة نفي الاعتذار بعد نفي النطق؟

قلنا: معناه أنهم لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول وحجة صحيحة، ولا بعد أن يؤذن لهم في ذلك، فإن الأسير والجاني الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذره وحجته ابتداء لفرط خوفه ودهشته، ولكن إذا أذن (له) (٢) في إظهار عذره وحجته انبسط وانطلق لسانه، فكانت الفائدة في الجملة، الثانية: نفي هذا المعنى: أي لا ينطقون بعذر ابتداء ولا بعد الإذن.

فإن قيل: قوله تعالى: (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) (٣) يدل على وجود الاعتذار منهم، فكيف التوفيق بينه وبين ما نحن فيه؟ قلنا: قيل المراد بتلك الظالمون من المسلمين، وبما نحن فيه الكافرون وآخر تلك الآية يضعف هذا الجواب، أي قوله: (ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) (٤).

(١) سورة المرسلات ٢٥.

(٢) في نسخة (ب).

(٣) سورة غافر ٥٢.

(٤) سورة غافر ٥٢.

سورة النبا

فإن قيل: كيف اتصل وارتبط قوله تعالى: (ألم نجعل الأرض مهاداً) (١) بما قبله؟

قلنا: لما كان النبا العظيم الذي يتساءلون عنه هو البعث والنشور وكانوا ينكرونه، قيل لهم: ألم يخلق من وعد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظيمة العجيبة الدالة على كمال قدرته فما وجه انكارهم قدرته على البعث.

فإن قيل: لو كان النبا العظيم الذي يتساءلون عنه ما ذكرتم لما قال تعالى: (الذي هم فيه مختلفون) (٢)، لأن كفار مكة لم يختلفوا في أمر البعث، بل اتفقوا على إنكاره؟

قلنا: كان فيهم من يقطع القول بإنكاره، وفيهم من يشك فيه ويتردد فثبت الاختلاف (لأن) (٢) جهة الاختلاف لا تنحصر في الجزم بإثباته والجزم بنفيه، الثاني: إن بعضهم صدق به فأمن، وبعضهم كذب به فبقى على كفره، فثبت الاختلاف الإثبات والنفي، الثالث: إن الضمير في «يتساءلون» وفي «هم» عائد إلى الفريقين من المسلمين والمشركين، وكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم، فصدق به المسلمون فأثبتوه، وكذب به المشركون فنفوه.

فإن قيل: قوله تعالى: (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) (٤) إن كان قوله تعالى: «اتخذ إلى ربه مآباً» هو جزاء الشرط فأين الشرط، وشاء وحده لا يصلح شرطاً لأنه لا يفيد دون ذكر مفعوله، وإن

(١) سورة النبا ٦.

(٢) سورة النبا ٩.

(٣) في نسخة (ب).

(٤) سورة النبا ٢٩.

كان كل المذكور هو الشرط فأين الجزاء؟
قلنا: معناه فمن شاء النجاة من اليوم الموصوف اتخذ إلى ربه مرجعاً
بطاعته، الثانى: إن معناه فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآباً لقوله
تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (١) أى فمن شاء
الإيمان فليؤمن، ومن شاء الكفر فليكفر.



سورة النازعات

فإن قيل : كيف قال الله تعالى : (والنازعات) (١)،
(والناشطات) (٢) بلفظ التانيث، وكذا ما بعده، والكل أوصاف
للملائكة، والملائكة ليسوا إناثاً؟

قلنا: هو قسم بطوائف الملائكة وفرقها، والطوائف والفرق مؤنثة.
فإن قيل: كيف أضاف الله تعالى الإبصار إلى القلوب في قوله
تعالى: (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) (٣) أى ذليلة
لمعاينة العذاب، والمراد بها الأعين بلا خلاف؟

قلنا: المراد أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى: (يقولون) (٤).
فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (فأراه الآية الكبرى) (٥) مع أن
موسى عليه الصلاة والسلام أراه الآيات كلها بدليل قوله تعالى: (ولقد
أريناه آياتنا كلها فكذب) (٦) وكل آياته كبرى؟

قلنا: الإخبار في هذه الآية عن أول ملاقاته إياه، وإنما أراه في أول
ملاقاته العصا واليد، فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما،
وقيل: أراد بالآية الكبرى العصا، لأنها كانت المقدمة والأصل
والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتبعها بيده، ف قيل له أدخل يدك في
جيبك.

فإن قيل: كيف أضاف الله سبحانه الليل إلى السماء بقوله تعالى:

(١) سورة النازعات ١.

(٢) سورة النازعات ٢.

(٣) سورة النازعات ٨ - ٩.

(٤) سورة النازعات ١٠.

(٥) سورة النازعات ٢٠.

(٦) سورة طه ٥٦.

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) (١) مع أن الليل إنما يكون في الأرض لا في السماء؟

قلنا: إنما أضافه إليها لأنه أول ما يظهر عند غروب الشمس إنما يظهر من أفق السماء من موضع الغروب، وأما قوله تعالى: (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) (٢) فالمراد به ضوء الشمس بدليل قوله تعالى: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) (٣) أي وضونها فلا إشكال في إضافته إليها.



(١) سورة النازعات ٢٩.

(٢) سورة النازعات ٢٩.

(٣) سورة الشمس ١.

سورة عبس

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (كلا إنها تذكرة) (١) ثم قال سبحانه وتعالى: (فمن شاء ذكره) (٢) ولم يقل ذكرها؟

قلنا: الضمير المؤنث لآيات القرآن أو لهذه السورة، والضمير في قوله تعالى: «ذكره» راجع إلى القرآن، وقيل: إنه راجع إلى معنى التذكرة وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها.

فإن قيل: في قوله تعالى: (وهناكه وأبا) (٢) روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية وقال: كل هذا قد عرفنا فما الأب؟ ثم قال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا البيان وما لا فدعوه، وهذا شبيه النهي أن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته؟

قلنا: لم يرد بقوله ما ذكرت، ولكن الصحابة رضى الله عنهم كانت أكثر همهم عاكفة على العمل، وكان الاشتغال بعلم لا يعمل به تكلفاً عندهم، فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه وامتنعاء شكره، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان متاعاً له ولأنعامه، فكأنه قال: عليك بما هو الأهم وهو الشكر على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه تعالى، ولا تتشغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص، واكتف بمعرفته جملة إلى أن يتبين لك في وقت آخر، وعن أبى بكر رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال: أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت في كتاب الله تعالى بما لا علم لى به، وأكثر المفسرين

(١) سورة عبس ١١.

(٢) سورة عبس ١٢.

(٣) سورة عبس ٢١.

قالوا: الأب كل ما ترعاه البهائم.

| |
|--|
| |
|--|

سورة التكوير

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب

قتلت) (١) والسؤال إنما يحسن للقاتل لا للمقتول؟

قلنا: سؤالها لتبكيك قاتلها وتوبيخه بما تقوله من الجواب، فإنها

تقول: قتلت بغير ذنب، ونظيره في التبكيك والتوبيخ قوله تعالى

لعيسى عليه السلام: (أأنت قلت للناس اتخذوني) (٢) حتى قال

سبحانك: (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) (٣).

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (علمت نفس ما أحضرت) (٤)

(فأثبت العلم لنفس واحدة، مع أن كل نفس تعلم ما أحضرت) (٥)

يوم القيامة بدليل قوله تعالى: (يوم تجد كل نفس ما عملت من

خير محضوا) (٦)؟

قلنا: هذا مما أريد به عكس مدلوله، ومثله كثير في كلام الله تعالى

وكلام العرب كقوله تعالى: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا

مسلمين) (٧) فإن رب هنا بمعنى كم للتكثير، وقوله تعالى حكاية

عن موسى عليه الصلاة والسلام لقومه: (وقد تعلمون أني رسول

الله إليكم) (٨) وقول الشاعر:

(١) سورة التكوير ٨.

(٢) سورة المائدة ١١٦.

(٣) سورة المائدة ١١٦.

(٤) سورة التكوير ١٤.

(٥) في نسخة (ب) وساقط من نسخة (أ).

(٦) سورة آل عمران ٢٠.

(٧) سورة الحجر ٢.

(٨) سورة الصف ٥.

قد أترك القرن مصفراً أنامله

كأن أثوابه مجت بفرصاد

| |
|--|
| |
|--|

سورة الانفطار

فإن قيل: لأى فائدة ذكر صفة الكرم دون سائر صفاته فى قوله تعالى: (ما غرك ربك الكريم) (١)؟

قلنا: قال بعض: إنما قال ذلك لطفاً بعبده وتلقيناً له حجته وعذره ليقول: غرنى كرم الكريم، وقال الفضيل: لو سألتى الله تعالى هذا السؤال لقلت: غرنى مستورك المرخاة، وروى أن علياً صاحب بغلام له مرات فلم يلبه، ثم أقبل فقال له: مالك لم تجبنى؟ فقال: لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه، ولهذا قالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، والحق أن الواجب على الإنسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى وجوده فى خلقه إياه وإسباغه النعمة الظاهرة والباطنة عليه فيعصيه ويكفر نعمته اغتراراً بتفضيله الأول، فإن ذلك أمر منكرو خارج عن حد الحكمة، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأها: غره جهله، وقال عمر رضى الله تعالى عنه: غره حمقه وجهله، وقال الحسن: غره والله شيطانه الخبيث الذى زين له المعاصى، فقال له: افعل ما شئت فإن ربك كريم.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) (٢) والنفوس المقبولة الشفاعة تملك لمن شفعت فيه شيئاً وهو الشفاعة؟ قلنا: المنفى ثبوت النصرة بالملك والسلطنة والشفاعة ليست بطريق الملك والسلطنة فلا تدخل فى المنفى، ويؤيده قوله تعالى: (والأمر يومئذ لله) (٣) قال مقاتل: المراد بالنفس الثانية الكافرة، والأصح أنه على العموم فى النفسين.

(١) سورة الانفطار ٦.

(٢) سورة الانفطار ١٩.

(٣) سورة الانفطار ١٩.

سورة المطففين

فإن قيل: هاد قال الله تعالى إذا اکتالوا أو اتزنوا على الناس يستوفون
كما قال سبحانه في مقابلة: (وإذا كالوهم أو وزنوهم
يخسرون) (١)؟

قلنا: لأن المطففين كانت عادتهم أنهم لا يأخذون ما يكال وما يوزن
إلا بالمكيال لأن استيفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم وأهون عليهم
منه بالميزان، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فيهما.
فإن قيل: كيف فسر سبحانه وتعالى سجيناً بكتاب مرقوم (فقال
تعالى: (وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم) ((٢)) (٣) وكذا فسر
تعالى عليين به مع أن سجيناً اسم للأرض السابعة، وهو فعيل من
السجن، وعليين اسم للجنة أو لأعلى الأمكنة، أو للسماء السابعة، أو
لسدرة المنتهى؟

قلنا: قوله تعالى: (كتاب مرقوم) (٤) وصف معنوى لكتاب الفجار
ولكتاب الأبرار، لا لسجين ولعليين تقديره: وهو كتاب مرقوم.

(١) سورة المطففين ٣.

(٢) سورة المطففين ٨ - ٩.

(٣) ماقط من نسخة (أ).

(٤) سورة المطففين ٩.

سورة الانشقاق

فإن قيل: أين جواب «إذا» في قوله تعالى: (إذا السماء انشقت) (١)؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه متروك لتكرر مثله في القرآن، الثاني: إنه أذنت الثانية والواو فيها زائدة، الثالث: إنه محذوف تقديره بعد قوله تعالى: (وحقت) (٢) بعثتم أو جوزيتم أو لاقيتم ما عملتم، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى: (فملاقية) (٣)، الرابع: إن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية إذا السماء انشقت.

-
- (١) سورة الانشقاق ١.
 - (٢) سورة الانشقاق ٢.
 - (٣) سورة الانشقاق ٦.

سورة البروج

فإن قيل: أين جواب القسم؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه متروك، الثاني: أنه قوله تعالى: (فقتل) (١) أي لقد قتل: أي لعن، الثالث: أنه قوله تعالى: (إن بطش ربك لشديد) (٢)، الرابع: أنه محذوف تقديره: لتبعثن أو نحوه، الخامس: أنه قوله تعالى: (إن الذين هتفوا) (٣).

(١) سورة البروج ٤.

(٢) سورة البروج ١٢.

(٣) سورة البروج ١٠.

سورة الطارق

فإن قيل: أين جواب القسم؟

قلنا: (إن كل نفس) (١) فإن بمعنى ما، ولما بالتشديد بمعنى إلا، فيكون المعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ، ولما بالتخفيف ما فيه زائدة وإن هي المخففة من الثقيلة، فيكون المعنى: إن كل نفس لعلها حافظ، والقسم يتلقى بها وبإن.

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: (فلينظر الإنسان) (٢) بما قبله؟

قلنا: وجهه أنه لما ذكر سبحانه أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، فلا يملأ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته.

فإن قيل: ما فائدة الجمع بين فمهل وأمهل ومعناها واحد؟

قلنا: التأكيد وإنما خولف بين اللفظين طلباً للخفة.

(١) سورة الطارق ١.

(٢) سورة الطارق ٥.

سورة الأعلیٰ

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (فذكر إن نفع الذكرى) (١) مع أنه كان صلى الله عليه وسلم مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع؟ قلنا: معناه إذ نفعت، وقيل: معناه قد نفعت، وقيل: إن نفعت وإن لم تنفع، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وذكر الماوردي: أنها بمعنى ما، وكأنه أراد ما الظرفية، وإن بمعنى ما الظرفية ليس بمعروف.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (لا يموت فيها ولا يحيا) (٢) مع أن الحيوان لا يخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين؟ قلنا: معناه لا يموت موتاً يستريح به، ولا يحيا حياة ينتفع بها، وقال ابن جرير: تصعد نفسه إلى حلقومه ثم لا تفارقه فيموت ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا، وقد سبق هذا السؤال مرة في سورة طه.

(١) سورة الأعلیٰ ٩.

(٢) سورة الأعلیٰ ١٣.

سورة الغاشية

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وجوه يومئذ خاشعة عاملة فاصبة
تصلى نادراً حامية) (١) مع أن جميع أبدانهم أيضاً تصلى النار؟
قلنا: الوجه يطلق ويراد به جميع البدن كما فى قوله تعالى: (وعنت
الوجوه للحى القيوم) (٢) وقيل: إن المراد بالوجوه هنا الأعيان
والرؤساء، كما يقال: هؤلاء وجوه القوم، ويا وجه العرب: أى يا
وجيهم، ويؤيد هذا القول ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى
عنهما أنه قال: إن المراد به الرهبان وأصحاب الصوامع.
فإن قيل: كيف ارتبط قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل) (٣)
بما قبله، وأى مناسبة بين السماء والإبل والجبال والأرض حتى جمع
بينها؟

قلنا: لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف، عجب من ذلك الكفار،
فذكرهم عجائب صنعه، وقال قتادة: لما ذكر ارتفاع سرر الجنة
قالوا: كيف نصعدها؟ فنزلت هذه الآية: (أفلا ينظرون إلى
الإبل) (٤) نظر اعتبار كيف خلقت للنهوض بالأثقال وحملها إلى
البلاد البعيدة، وجعلت تبرك حتى تحمل وتركب عن قرب ويسر
ثم تنهض بما حملت، فليس فى الدواب ما يحمل عليه وهو بارك
ويطيق النهوض إلا هى، وسخرت لكل من قادها حتى الصبى
الصغير، ولما جعلت سفائن البر أعطيت الصبر على احتمال العطش
عشرة أيام فصاعداً وجعلت ترعى كل نبات فى البرارى ومفاوز مما

(١) سورة الغاشية ٤.

(٢) سورة طه ١١١.

(٣) سورة الغاشية ١٧.

(٤) سورة الغاشية ١٧.

لا يرعاه سائر البهائم، وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركدن وغيرها مما هو أعظم من الجمل لأن العرب لم يروا شيئاً من ذلك ولا كانوا يعرفونه، ولأن الإبل كانت أنفس أموالهم وأكثرها لا تفارقهم ولا يفارقونها، وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم وكثرة مالدبتهم ومخالفتهم، ومن فسر الإبل بالسحاب فإنما قصد بذلك طلب المناسبة بطريق تشبيه الإبل بالسحاب في السير وفي الشكل أيضاً في بعض الأوقات، لا أنه أراد أن الإبل من أسماء السحاب حقيقة، وقد جاء في أشعار العرب تشبيه السحاب بالإبل كثيراً، وشبهها ابن دريد أيضاً بالسحاب في قصيدته، وقرأ أبي بن كعب وعائشة رضى الله عنهما الإبل بتشديد اللام، قال أبو عمرو وهو اسم السحاب الذى يحمل الماء.



سورة الفجر

فإن قيل: كيف نكر الليالى العشر دون سائر ما أقسم به، وهلا عرفها بلام العهد وهى لىالى معلومة معهودة فإنها لىالى عشر ذى الحجة فى قول الجمهور؟

قلنا: لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفضيم والتعظيم بدليل قوله تعالى: (وإلهكم إله واحد) (١) ونظيره قوله تعالى: (لا أقسم بهذا البلد) (٢) فعرفه ثم قال: (ووالد) (٣) فنكره، والمراد به آدم وإبراهيم أو محمد عليه الصلاة والسلام، ولأن الأحسن أن تكون الالامات كلها متجانسة، ليكون الكلام أبعد عن الألفاظ والتعمية، وهى فى الباقي للجنس.

فإن قيل: كيف ذم الله تعالى الإنسان على قوله: (وبى أكرمى) (٤) مع أنه صادق فيما قال، لأن الله تعالى أكرمه بدليل قوله تعالى: (هاكرمه ونعمه) (٥) كيف وأن هذا تحدث بالنعمة وهو مأمور به؟

قلنا: المراد به أن يقول ذلك مفتخراً على غيره ومتطاولاً به عليه ومعتقداً استحقاق ذلك على ربه كما فى قوله تعالى: (إنما أوتيته

(١) سورة البقرة ١٦٢.

(٢) سورة البلد ١.

(٣) سورة البلد ٣.

(٤) سورة الفجر ١٥.

(٥) سورة الفجر ١٥.

على علم عندي) (١) ومستدلا به على علو منزلته في الدار الآخرة، وكل ذلك منهي عنه، وأما إذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بملوم ولا منهي عنه.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى في الجملة الأولى: (فأكرمهم) (٢) ولم يقل في الجملة الثانية فأهانهم؟

قلنا: لأن بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة، وقبضه ليس باهانة لأن ترك الإنعام والإفضال لا يكون إهانة بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة، فإن المولى قد يكرم عبده وقد يهينه، ولا يكرمه ولا يهينه، وتضييق الرزق ليس إلا عبارة عن ترك إعطاء القدر الزائد، ألا ترى أنه يحسن أن تقول زيد أكرمني إذا أهدى لك هدية، ولا يحسن أن تقول أهانني إذا لم يهد لك.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وجاء ربك) (٣) الانتقال والحركة على الله محالان لأنهما من خواص الكائن في جهة؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: وجاء أمر ربك لأن في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك) (٤) وقيل: معناه وجاء ظهور ربك لضرورة معرفته يوم القيامة ومعرفة الشيء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته، فمعناه: زالت الشكوك وارتفعت الشبهه كما ترتفع عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه.

(١) سورة القصص ٧٨.

(٢) سورة الفجر ١٥.

(٣) سورة الفجر ٢٢.

(٤) سورة الأنعام ١٥٨.

سورة البلد

فإن قيل: كيف قال تعالى: (ووالد وما ولد) (١) ولم يقل سبحانه وتعالى ومن ولد؟ قلنا: لأن في «ما» من الإبهام ما ليس في «من»، فقصده التفخيم والتعظيم كأنه تعالى قال: وأى شيء عجيب غريب ولد، ونظيره قوله تعالى: (والله أعلم بما وضعت) (٢).

(١) سورة البلد .٢.

(٢) سورة آل عمران ٣٦.

سورة الشمس

فإن قيل: كيف نكر الله تعالى النفس دون سائر ما أقسم به؟ قلنا: لأنه لا سبيل إلى لام الجنس، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك بدليل قوله تعالى: (فألهمها فجورها وتقواها) (١) ولا سبيل إلى لام العهد لأن المراد ليس نفساً واحدة معهودة، وعلى قول من قال إن المراد بها نفس آدم عليه السلام، فالتنكير للتفخيم والتعظيم كما سبق في سورة الفجر.

فإن قيل: أين جواب القسم؟

قلنا: قال الزجاج وغيره: إنه قوله تعالى: (قد أفلح من زكاه) (٢) وحذفت اللام لطول الكلام، وقال ابن الأنباري: جوابه محذوف، وقال الزمخشري: تقدير ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام، قال: وأما: (قد أفلح من زكاه) (٢) فكلام تابع لما قبله على طريق الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء.

(١) سورة الشمس .٨

(٢) سورة الشمس .٩

(٣) سورة الشمس .٩

سورة الليل

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (لا يصلاحها إلا الأتقى) (١) مع أن الشقى أيضاً يصلاحها: أى يقاسى حرها وعذابها؟ قلنا: قال أبو عبيدة: الأتقى هنا بمعنى الشقى، والمراد به كل كافر، والعرب تستعمل أفعال فى موضع فاعل ولا تريد به التفضيل، وقد سبق تقرير ذلك والشواهد عليه فى سورة الروم فى قوله تعالى: (وهو أهون عليه) (٢)، وقال الزجاج: هذه نار موصوفة معينة، فهو درك مخصوص ببعض الأتقياء، ورد عليه ذلك بقوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى) (٣) والأتقى يجنب عذاب أنواع نار جهنم كلها، والمراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بإجماع المفسرين، ولهذا قال الزمخشري: إن الأتقى ليس بمعنى الشقى بل هو على ظاهره، والمراد به أبو جهل أو أمية بن خلف، فالآية واردة للموازنة بين حالتى أعظم المؤمنين وأعظم المشركين، فبولغ فى صفتيهما المتناقضتين، وجعل هذا مختصاً بالمصلى (٤) كأن النار لم تخلق إلا له لوفور نصيبه منها وجاء قوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى) (٥) على موازنة ذلك ومقابلته، مع أن كل تقى يجنبها، قال بعض العلماء: هذه الآية تدل على أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل الصحابة لأنه وصفه بالأتقى، وقال تعالى:

(١) سورة الليل ١٥.

(٢) سورة الروم ٢٧.

(٣) سورة الليل ١٧.

(٤) وفى نسخة (ب) لها يلقى.

(٥) سورة الليل ١٧.

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) وإذا كان أكرم عند الله كان
أفضل.

سورة الضحى

فإن قيل: كيف وصف صلى الله عليه وسلم بالضلال والنبي عليه الصلاة والسلام معاذ الله أن يكون ضالاً: أى كافراً لا قبل النبوة ولا بعدها، والضال أكثر ما ورد فى القرآن بمعنى الكافر؟

قلنا: المراد به هنا أنه تعالى وجده ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهده إليها، هذا قول الجمهور، الثانى: إنه ضل وهو صغير فى شباب مكة فردّه الله تعالى إلى جده عبدالمطلب، الثالث: إن معناه ووجدك ناسياً فهداك إلى الذكر، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان، ومنه قوله تعالى: (أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (١).

فإن قيل: لو كان الضلال بمعنى النسيان لما جمع بينهما فى قوله تعالى: (لا يضل ربي ولا ينسى) (٢)؟ قلنا: لا ندعى أنه حيث ذكر كان بمعنى النسيان، فهو فى تلك الآية بمعنى الخطأ، وقيل: بمعنى الغفلة، الرابع: إن معناه: ووجدك جاهلاً فعلمك.

فإن قيل: كيف من سبحانه عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنى بقوله تعالى: (ووجدك عائلاً فأغنى) (٣) أى فقيراً، والعائل الفقير سواء كان له عيال أو لم يكن؟

قلنا: قال ابن السائب، واختاره الفراء: إنه لم يكن غناه بكثرة المال، ولكن الله أرضاه بما آتاه، (ولم) (٤) يكن ذلك الرضا قبل النبوة

(١) سورة البقرة ٢٨٢.

(٢) سورة طه ٥٢.

(٣) سورة الضحى ٨.

(٤) فى نسخة (ب).

وذلك حقيقة الغنى، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: «الغنى غنى القلب»، وقال غيره: المراد به أنه أغناه بـمال خديجة عن مال أبى طالب، والمراد به الإغناء بتسهيل ما لابد منه وتيسيره، لا الإغناء بفضول المال الذى لا يجمع صفة الفقر.



سورة الشرح

فإن قيل: أي فائدة في زيادة ذكر لك وعنك والكلام تام بدونهما (١)؟

قلنا: فائدته الإيهام ثم الإيضاح، وهو نوع من أنواع البلاغة، فلما قال تعالى: (ألم نشرح لك) (٢) فهم أن ثم مشروحاً له ثم قال: (صدرك) (٣) فأوضح ما علم بهما بلفظ لك، وكذا الكلام في: (ووضعنا عنك) (٤).

فإن قيل: وكلمة مع للمصاحبة والقران، فما معنى اقتران العسر واليسر؟

قلنا: سبب نزول هذه الآية أن المشركين عيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بالفقر والضائقة التي كانوا فيها، فوعدهم الله تعالى يسراً قريباً من زمان عسرهم، وأراد تأكيد الوعد لتسليتهم وتقوية قلوبهم، فجعل اليسر الموعود كالمقارن للعسر في سرعة مجيئه.

فإن قيل: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: لن يغلب عسر يسرين، ويروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً؟

قلنا: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء، وإن وعد الله لا يحمل إلا على أحسن ما يحتمله اللفظ وأكمل، وأما حقيقة القول فيه فهو أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى، كما في

(١) دونهما.

(٢) سورة الشرح ١.

(٣) سورة الشرح ١.

(٤) سورة الشرح ٢.

تكرار قوله تعالى: (ويل يومئذ للمكذبين) (١) وما أشبهه، وكما فى قولك: جاءنى رجل جاءنى رجل، وأنت تعنى واحداً بعينه فى الجملتين، فعلى هذا يتحد العسر واليسر، أو يكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود، وللتفخيم والتعظيم، ويحتمل أن تكون الجملة الثانية وعداً مستأنفاً فيتعدد اليسر حينئذ على ما قيل، ويؤكد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس فى مصحف عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إلا مرة واحدة.

فإن قيل: وإذا ثبت فى قراءته غير مكرر، فكيف قال: والذي نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، إنه لن لن يغلب عسر يسرين؟

قلنا: كأنه نزل ما فيه من التفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التثنية، لأن المعنى يسراً وأى يسر، وأما من فسرہ بيسرين فإنه قال: أحد اليسرين ما تيسر من الفتوح فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، والثانى: ما تيسر بعده فى زمن الخلفاء، وقيل: هما يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى: (هل ترصصون بنا إلا إحدى الحسنيين) (٢) وهما حسن الظفر وحسن الثواب.

(١) سورة المرسلات ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

سورة المطففين ١٠.

(٢) سورة التوبة ٥٢.

سورة التين

فإن قيل: كيف وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) (١)؟ قلنا: قال الأكثرون: المراد بالإنسان هنا الجنس، ويرده أسفل سافلين إدخاله النار، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً بظاهر الاتصال، ويكون قوله تعالى: (فلهم أجر غير ممنون) (٢) قائماً مقام قوله تعالى فلا نردهم أسفل سافلين، وأما على قول من فسر الرد أسفل سافلين بالهرم والخرف وقال السافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال والشيخ الهرم أسفل هؤلاء كلهم، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى لكن، ومعنى قوله تعالى: (فلهم أجر غير ممنون) (٣) أى غير مقطوع بالهرم والضعف الحاصل من الكبر: أى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى حال شبابهم وقوتهم، فإنهم إذا عجزوا عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطاعات والحسنات إلى وقت موتهم، وهذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وقال بعض العلماء: الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى شبابهم وقوتهم فإنهم لا يردون إلى الخرف وأرذل العمر وإن عمروا طويلاً، وتمسك بظاهر قول ابن عباس رضى الله عنهما.

(١) سورة التين ٦

(٢) سورة التين ٦

(٣) سورة التين ٦

سورة العلق

فإن قيل: أين مفعول خلق الأول؟

قلنا: يحتمل وجهين: أحدهما: أن لا يقدر له مفعول، بل يكون المراد الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، كما في قوله تعالى: (ألا يعلم من خلق) (١) في أحد القولين، وقولهم: فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع، الثانى: أن يكون مفعوله مضمراً تقديره: الذي خلق كل شيء، ثم أفرد الإنسان بالذكر تشريفاً له وتفضيلاً.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (خلق الإنسان من علق) (٢) على الجمع ولم يقل: من علقته؟

قلنا: لأن الإنسان فى معنى الجمع بدليل قوله تعالى: (إن الإنسان لفسى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (٣) والجمع إنما خلق من جمع علقه لا من علقته.

فإن قيل: هذا الجواب يردده قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه) (٤)؟

قلنا: المراد به فإننا خلقنا أباكم من تراب، ثم خلقنا كل واحد من أولاده من نطفة، وقيل: إنما قال من علق رعاية للفاصلة الأولى وهى خلق.

(١) سورة الملك ١٤.

(٢) سورة العلق ٢.

(٣) سورة العصر ٢-٣.

(٤) سورة الحج ٥.

سورة القدر

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: (من كل أمر) (١) وتنزلهم من الأمر لا معنى له؟

قلنا: من هنا بمعنى الباء كما في قوله تعالى: (يحفظونه من كل أمر) (٢) وقوله تعالى: (يلقى الروح من أمره) (٣) أى لكل أمر قضاء الله تعالى فى تلك السنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وقيل: إلى الأرض.

(١) سورة القدر .٤

(٢) سورة الرعد .١١

(٣) سورة القدر .٤

سورة البينة

فإن قيل: المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم بلا خلاف، فكيف قال تعالى: (يتلو صحفاً) (١) وظاهره يدل على قراءة المكتوب من الكتاب وهو منتف في حقه صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً؟

قلنا: المراد يتلو ما في الصحف عن ظهر قلبه، لأنه هو المنقول عنه صلى الله عليه وسلم بالتواتر.

فإن قيل: ما الفرق بين الصحف والكتب حتى قال تعالى: (صحفاً مطهرة فيها كتب) (٢)؟

قلنا: الصحف القرامليس، وقوله تعالى: «مطهرة» أى من الشرك الباطل، وقوله تعالى: (فيها كتب هبمة) (٢) أى مكتوبات مستقيمة ناطقة بالعدل والحق، يعنى الآيات والأحكام.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) (٤) أى النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم ما زالوا متفرقين مختلفين يكفر كل فريق منهم الآخر قبل مجيء البينة وبعدها؟

قلنا: المراد به تفرقهم عن تصديق النبى صلى الله عليه وسلم والإيمان به قبل أن يبعث، فإنهم كانوا مجتمعين على ذلك متفقين عليه بأخبار التوراة والإنجيل، فلما بعث إليهم تفرقوا، فمنهم من آمن

(١) سورة البينة ٢.

(٢) سورة البينة ٢ - ٢.

(٤) سورة البينة ٤.

(٢) سورة البينة ٢.

ومنهم من كفر، وقال بعض العلماء: المراد بالبينّة ما فى التوراة والإنجيل من الإيمان بنبوته صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أقرّوا بالذكر فى هذا التفرّق مع وجود التفرّق من المشركين أيضاً بعدما جمعوا مع المشركين فى أول السورة، فلا بد أن يكون مجيء البينّة أمراً يخصهم، ومجىء النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن العزيز لا يخصهم.



سورة الزلزلة

فإن قيل: ما معنى إضافة الزلزال الذي هو المصدر إلى الأرض، وهاد
قال زلزالا كما قال تعالى: (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) (١)
وما أشبهه؟

قلنا: معناه الزلزال الذي تستوجهه في حكمة الله تعالى ومشينته في
ذلك اليوم، وهو الزلزال الذي ليس بعده زلزال، ونظيره قولك:
أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانتته، تريد ما يستوجبانه من
الإكرام والإهانة، ويجوز أن يكون المراد بالإضافة الاستغراق معناه
زلزالها كله الذي هو ممكن لها.

فإن قيل: كيف قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة) (٢) على العموم،
وحسنات الكافر محيطة بالكفر وسيئات المؤمن معفو عنها مغفورة
باجتناب الكبائر، فكيف ثبت رؤية كل عامل جزاء عمله؟
قلنا: معناه فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من فريق السعداء، ومن يعمل
مثقال ذرة شراً من فريق الأشقياء، لأنه جاء بعد قوله تعالى: (يصدر
الناس أشناقاً) (٣)، وذكر مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل
المدينة كان أحدهما يستقل أن يعطى السائل الكسرة أو التمرة
ويقول: إنما نؤجر على ما نعطيه ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون
بالذنوب اليسير ويقول: إنما أوعده الله النار على الكبائر.

(١) سورة الفجر ٢١.

(٢) سورة الزلزلة ٧.

(٣) سورة الزلزلة ٦.

سورة العاديات

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) (١) مع أنه تعالى أخبر بهم في كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم؟ قلنا: معناه أن ربهم سبحانه مجازيهم يومئذ على أعمالهم، فالعلم مجاز عن المجازاة، ونظيره قوله تعالى: (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) (٢) معناه يجازيهم على ما فيها، لأن علمه شامل لما في قلوب كل العباد، ويقرب منه قوله تعالى: (يوم هم باردون لا يخفى على الله منهم شيء) (٣).

| |
|--|
| |
|--|

(١) سورة العاديات ١١.

(٢) سورة النساء ٦٢.

(٣) سورة غافر ١٦.

سورة القارعة

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (وأما من خفت موازينه) (١) أى رجحت سيناته على حسناته: (فأما هاوية) (٢) أى فمسكنه النار، وأكثر المؤمنين سيناتهم راجحة على حسناتهم؟ قلنا: قوله تعالى: (فأما هاوية) (٢) لا يدل على خلوده فيها، فيسكن المؤمن فيها بقدر ما تقتضيه ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة، وقيل: المراد بخفة الموازين خلوها من الحسنات بالكلية، وتلك موازين الكفار.

(١) سورة القارعة ٨.

(٢) سورة القارعة ٩.

(٣) سورة القارعة ٩.

سورة التكاثر

فإن قيل: أين جواب (لو تعلمون) (١)؟

قلنا: هو محذوف تقديره: لو تعلمون الأمر يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر، ثم ابتدأ سبحانه بوعيد آخر فقال تعالى: (لترون الجحيم) (٢).

فإن قيل: كل أحد لا يخلو عن نيل نعيم في الدنيا ولو مرة واحدة، فما النعيم الذي يسأل عنه العبد؟

قلنا فيه سبعة أقوال: أحدها: أنه الأمن والصحة، الثاني: أنه الماء البارد، الثالث: أنه خبز البر والماء العذب، الرابع: أنه كل مأكول ومشروب لذتان، الخامس: أنه الصحة والفراغ، السادس: أنه كل لذة من لذات الدنيا، السابع: أنه دوام الغناء والعشاء، وقيل: إن السؤال خاص للكفار، والصحيح أنه عام في كل إنسان وفي كل نعيم، فالكافر يسأل توبيخاً والمؤمن يسأل عن شكرها، ويؤيد هذا ما جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى ثلاث لا أسأل عبدي عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك: بيت يكنه، وما يقيم به صلبه من الطعام، وما يوارى به عورته من اللباس».

(١) سورة التكاثر ٥.

(٢) سورة التكاثر ٦.

سورة العصر

فإن قيل: الاستثناء الذي في السورة لا يدل على أن المؤمنين الموصوفين في ربح مع أن الاستثناء إنما سيق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء؟

قلنا: الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم في ربح، ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربع الشريفة يدل على أنهم في أعظم ربح، مع أننا لو قدرنا أنهم ليسوا في ربح فالمضادة حاصلة أيضاً لأنهم ليسوا في خسر بمقتضى الاستثناء.

سورة الهمزة

فإن قيل: ما الفرق بين الهمزة واللمزة؟
قلنا: قيل إنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما، وإنما الثاني تأكيداً
لأول، وقيل: إنهما مختلفتان، فقيل: الهمزة للمغتاب، واللمزة
العياب في التقفا، وقيل: الهمزة العياب في الوجه، واللمزة العياب في
التقفا، وقيل: الهمزة الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنساب
الناس، وقيل: الهمزة يكون بالعين، واللمزة باللسان، وقيل: عكسه،
فهذه ستة أقوال.

سورة الغيل

فإن قيل: ما معنى الأبايل، وهل هو واحد أو جمع؟
قلنا: معناها جماعات فى تفرقة أى حلقة حلقة، وقيل: التى يتبع
بعضها بعضا، وقيل: الكثيرة، وقيل: المختلفة الألوان، وقال الفراء
وأبو عبيدة: لا واحد لها، وقيل: واحدها أبالة وأبول وأبيل.

سورة قريش

فإن قيل: بأى شيء تتعلق الادم فى قوله تعالى: (إيلاف قريش) (١)؟

قلنا: قيل إنها متعلقة بآخر السورة التى قبلها: أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، ويؤيد هذا أنهما فى مصحف أبى رضى الله عنه سورة واحدة بلا فصل، والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيها بؤهم ويحترمواهم، فينتظم لهم الأمر فى رحلتهم ولا يجترىء أحد عليهم، وقيل: معناه أهلكهم ليألف قريش رحلة الشتاء والصيف بهلاك من كان يخيفهم ويمنعهم، وقيل: إنها متعلقة بما بعدها وهو قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت) (٢) لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، معناه أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسانر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة، وقيل: هى لام التعجب معناه أعجبوا لإيلاف قريش، وكانت لقريش فى كل سنة رحلتان للتجارة التى بها معاشهم، رحلة فى الشتاء إلى اليمن، ورحلة فى الصيف إلى الشام، ثم قيل الإيلاف هنا مصدر بمعنى الإلف تقول: ألفته إيلافاً بالمد كما تقول ألفته إلفاً بالتقصير كلاهما متعد إلى مفعول واحد، فيكون معنى لإيلاف قريش لإلف قريش: أى لحبهم الرحلتين، وقيل: ألف بالمد متعد إلى مفعولين، تقول ألف زيد المكان وألف زيد عمراً المكان، فيكون معنى الآية لإيلاف الله تعالى قريشاً الرحلتين، فعلى هذا الوجه يكون

(١) سورة قريش ١.

(٢) سورة قريش ٢.

المصدر مضافاً إلى المفعول، وعلى الوجه الأول يكون مضافاً إلى
الفاعل، وأما تكرار إضافة المصدر في قوله تعالى: (إِيلَافٌ قُرَيْشٍ
إِيلَافُهُمْ) (١) فقول: إن الثاني بدل من الأول، وقيل: إنه للتأكيد كما
تقول: أعطيتك المال لصيانة وجهك صيانة عن ذل السؤال.

سورة الماعون

فإن قيل: كيف توعده الله الساهى عن الصلاة، والحديث ينفي مواخذته وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»؟

قلنا: المراد بالسهو هنا التغافل عنها والتكاسل فى أدائها وقلة الالتفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة والشياطين من المسلمين، وليس المراد ما يتفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان أو حديث النفس مما لا صنع للعبد فيه ولا اختيار، وهو المراد فى الحديث، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقع له السهو فى صلاته فضلا عن غيره، ولهذا قال تعالى: (عن صلاتهم) (١) ولم يقل فى صلاتهم، وعن أنس رضى الله عنه أنه قال: الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم.

سورة الكوثر

فإن قيل: ما الكوثر؟ قلنا: فيه قولان: أحدهما: وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه الخير الكثير فوعل من الكثرة كقولهم: رجل نوفل: أى كثير النوافل، ومنه قول الشاعر:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب

وكان أبوك ابن العقائل كوثرأ

قيل لأعرابية رجع ابنها من سفر: كيف أب ابنك؟ قالت: أب بكوثر، ولقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيراً كثيراً، فإنه أتاه الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، ومنهم من فسر هذا الخير الكثير بالنبوة، ومنهم من فسره بالعلم والحكمة، ومنهم من فسره بالقرآن، والقول الثانى: أن الكوثر (اسم) (١) نهر فى الجنة، وهو قول أكثر المفسرين، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكوثر نهر وعدنيه ربى فى الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتى يوم القيامة»، وعنه صلى الله عليه وسلم أيضاً فى الحديث الصحيح أنه قال: «بينما أنا أسير فى الجنة فإذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاك ربك، فضرب الملك يده فإذا طينه المسك الأذفر»، وروى عن صفته أنه أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء، لا يظماً من شرب منه أبداً.

(١) فى نسخة (ب).

سورة الكافرون

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) (١) ولم يقل «من» مع أنه القياس؟

قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أنه إنما قال «ما» رعاية للمقابلة في قوله تعالى: (لا أعبد ما تعبدون) (٢)، الثاني: أن «ما» مصدرية: أي لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، وقال الزمخشري: إنما قال «ما» لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، وقال غيره: «ما» في الكل بمعنى الذي، والعائد محذوف.

فإن قيل: ما فائدة التكرار؟

قلنا: فيه وجهان: أحدهما: أنه للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه من، الثاني: أن الجملتين الأوليين لنفي العبادة في الحال، والجملتين الأخريين لنفي العبادة في الاستقبال فإد تكرر فيه، وهذا قول ثعلب والزجاج، والخطاب لجماعة علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وقال الزمخشري: ما يرد الوجه الثاني، وذلك أنه قال لا أعبد أريد به العبادة فيما يستقبل، لأن «لا» (لا تدخل إلا على المضارع في معنى الاستقبال كما أن «لا» (٣) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، فالجملتان الأوليان لنفي العبادة في المستقبل، والجملتان الأخريان لنفي العبادة في الماضي، فقلوه: (ولا أنا عابد ما عبدتم) (٤) أي ما عهدتم من عبادة الأصنام في الجاهلية، فكيف

(١) سورة الكافرون ٢، ٥.

(٢) سورة الكافرون ٢.

(٣) في نسخة (أ).

(٤) سورة الكافرون ٤.

يرجى منى بعد الإسلام، وقوله: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) (١)، أى ما عبدتم فى وقت ما أنا على عبادته، ويرد على قوله والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى أن اسم الفاعل المنون العامل عمل الفعل لا يكون إلا بمعنى الحال أو الاستقبال وعابد هنا عامل فى «ما» وكذلك عابدون، وجوابه أنه على الحكاية كما قال تعالى: (وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد) (٢) وأورد على هذا التقدير فقال:

فإن قيل: هلا قال تعالى: «ولا أنتم عابدون ما عبدت»، بلفظ الماضى، كما قال: (ولا أنا عابد ما عبدتم) (٣)؟ قلنا: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه، وهو ما كان يعبد الله تعالى قبل بعثه، بل بعد بعثه، ويرد على هذا التقدير: أن أعظم العبادة التوحيد، وكل الأنبياء كانوا موحدين بعقولهم قبل البعثة، وقال بعض العلماء: إنما جاء الكلام مكرراً لأنه ورد جواباً لسؤالهم العبادة مناوبة، وكان سؤالهم مكرراً، فإنهم قالوا: يا محمد تعبد آلِهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة، ثم تعبد آلِهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة، فورد الجواب مكرراً ليطابق السؤال، وهذا وجه حسن لطيف.

(١) سورة الكافرون ٢. ٥.

(٢) سورة الكهف ١٨.

(٣) سورة الكافرون ٤.

سورة النصر

فإن قيل: أي مناسبة بين الأمر بالاستغفار وبين ما قبله، فإن مجيء
الفتح والنصر والظفر يناسب الشكر والحمد لا الاستغفار والتوبة؟
قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه السورة علم
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد نعت إليه نفسه، وقال الحسن:
أعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح
والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح، فكان
يكثّر من قوله: سبحانك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب، وعن ابن
مسعود رضي الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع، وروى
أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها منتين.

سورة المسد

فإن قيل: كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه، مع أن ذلك إكرام واحترام؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه يجوز أنه لم يعرف له اسم ولم يشتهر إلا بكنيته، فذكره بما اشتهر به لزيادة تشهيره بدعوة السوء عليه، الثاني: إنه نقل أنه كان اسمه عبد العزى، وهو كان عبد الله لا عبد العزى، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع، الثالث: إنه ذكره بكنيته (لموافقة حاله لكنيته) (١) فإن مصيره إلى النار ذات اللهب، وإنما كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما.

(١) ساقط من نسخة (ب).

سورة الإخلاص

فإن قيل: فالمشهور في كلام العرب أن الأحد يستعمل بعد النفي، والواحد يستعمل بعد الإثبات، يقال: في الدار واحد، وما في الدار أحد، وجاءني واحد وما جاءني أحد، ومنه قوله تعالى: (وإلهم إله واحد) (١) وقوله تعالى: (الواحد القهار) (٢)، (ولا فصل على أحد منهم) (٣)، (لا فرق بين أحد منهم) (٤)، (لستن كأحد) (٥)، (فما منكم من أحد) (٦) فكيف جاء هنا أحد في الإثبات؟

قلنا: قال ابن عباس رضى الله عنهما: لا فرق بين الواحد والأحد في المعنى، واختاره أبو عبيدة، ويؤيده قوله تعالى: (فابعثوا أحدكم بورقكم) (٧) وقولهم: أحد وعشرون وما أشبهه، وإذا كانا بمعنى واحد لا يختص أحدهما بمكان دون مكان، وإن غلب استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات، ويجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد.



-
- (١) سورة البقرة ١٦٢.
 - (٢) سورة يوسف ٢٩، سورة الرعد ١٦، سورة إبراهيم ٤٨، سورة ص ٦٥.
 - سورة الزمر ٤، سورة غافر ١٦.
 - (٣) سورة التوبة ٨٤.
 - (٤) سورة آل عمران ٨٤.
 - (٥) سورة الأحزاب ٢٢.
 - (٦) سورة الحاقة ٤٧.
 - (٧) سورة الكهف ١٩.

سورة الفلق

فإن قيل: قوله تعالى: (من شر ما خلق) (١) يتناول كل ما بعده، فما الفائدة في الإعادة؟

قلنا: خص شر هذه الأشياء الثلاثة بالذكر تعظيماً لشرها، كما في عطف الخاص على العام تعظيماً لشرفه وفضله، أو خصها بالذكر لخفاء شرها، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به، ولهذا قيل: شر الأعداء المداجي، وهو الذي يكيّد الإنسان من حيث لا يعلم.

فإن قيل: كيف عرف سبحانه النفاثات ونكر ما قبلها وما بعدها؟ قلنا: لأن كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وهو الليل له شر، وكذا ليس كل حاسد له شر، بل رب حشود محمود وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين... الحديث، وقال أبو تمام:

وما حاسد في المكرمات بحاسد

.....

وقال:

إن العلي حسن في مثلها الحسد

.....

| |
|--|
| |
|--|

سورة الناس

فإن قيل: كيف خص الناس بالذكر في قوله تعالى: (هل أعوذ برب
الناس) (١) وهو رب كل شيء؟

قلنا: إنما خصهم بالذكر تشريفاً لهم وتفضيلاً على غيرهم، لأنهم
أهل العقل والتمييز، الثاني: إنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع
ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم، الثالث: إن الاستعاذة
وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي هو إلههم ومعبودهم،
كما يستغيث بعض العبيد إذا اعتراه خطب بسيدته ومخدومه وولي
أمره.

فإن قيل: هل قوله تعالى: (من الجنة والناس) (٢) بيان للذي
يوسوس على أن الشيطان الموسوس ضربان جنى وإنسى كما قال
تعالى: (شياطين الإنس والجن) (٣) أو بيان للناس الذي أضيفت
الوسوسة إلى صدورهم، والناس المذكور آخرأ بمعنى الإنس؟

قلنا: قال بعض أئمة التفسير: المراد المعنى الأول، كأنه قال: من شر
الوسواس الجنى، ومن شر الوسواس الإنسى، فهو استعاذة بالله تعالى
من شر الموسوسين من الجنسين، وهو اختيار الزجاج، وفي هذا
الوجه إطلاق لفظ الخناس على الإنسى، والنقل أنه اسم للجنى،
وقال بعضهم: المراد المعنى الثاني، كأنه قال: من شر الوسواس الجنى
الذي يوسوس في صدور الناس جنهم وإنسهم، فسمى الجن ناساً كما

(١) سورة الناس ١

(٢) سورة الناس ٦

(٣) سورة الأنعام ١١٢

سماهم نفراً ورجالا في قوله تعالى: (أنه استمع ففر من الجن) (١) وقوله تعالى: (يعوذون برجال من الجن) (٢) فهو استعاذة بالله من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الإنس، وهو اختيار الفراء، والمراد بالجنة هنا الشياطين من الجن على الوجه الأول، ومطلق (الجن) (٣) على الوجه الثاني، لأن الشيطان منهم هو الذي يوسوس لا غيره، ومطلقهم يوسوس إليه، واختار الزمخشري الوجه الأول، وقال: ما أحق أن اسم الناس ينطلق على الجن، لأن الجن سموا جنّاً لاجتنانهم: أي لاستتارهم، والناس سموا ناساً لظهورهم من الإناس وهو الإبصار، كما سموا بشراً لظهورهم من البشرة، ولو صح هذا الإطلاق لم يكن هذا المجمل مناسباً لفصاحة القرآن، قال: وأجود منه أن يراد بالناس الأول الناسي كقوله تعالى: (يوم يدع الداع) (٤) وكما قرئ: (من حيث أفاض الناس) (٥) ثم بين بالجنة والناس، لأن الثقلين هما الجنسان الموصوفان بنسيان حقوق الله عز وجل.

(١) سورة الجن ١.

(٢) سورة الجن ٦.

(٣) وفي نسخة (ب) الناس.

(٤) سورة القمر ٦.

(٥) سورة البقرة ١٩٩.

فهرس أهم المصادر والمراجع

- القرآن.
- الأعلام للزركلى، دار العلم للملايين ببيروت، ط٩، ١٩٩٠م.
- إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي، مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٤٥م، فى ذيل كتاب «كشف الظنون».
- صحيح البخارى، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، اسطنبول، تركيا.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الشروق، القاهرة.
- كشف الظنون لحاجى خليفة، مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٤٥م.
- معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، دار التراث العربى ببيروت.
- مجلة الرسالة، العدد (٨)، ص١٨٢٠ - ١٨٢١.
- مجلة المجمع العلمى العربى بالقاهرة، العدد (٢٢)، بحث لعبدالله خالص عن المؤلف، ص٤١٨ - ٤٢٦.
- فهرس المخطوطات، جامعة الملك سعود بالرياض.

فهرس الموضوعات

| | |
|-----|-----------------------|
| أ | مقدمة المحقق |
| ج | المؤلف والكتاب |
| ج | المؤلف |
| ج | مؤلفاته |
| ط | مخطوطات الكتاب |
| ط | منهج التحقيق |
| و | بين يدي الكتاب |
| ز | نماذج المخطوطات |
| ١ | مقدمة الكتاب |
| ٢ | سورة الفاتحة |
| ٤ | سورة البقرة |
| ٣٨ | سورة آل عمران |
| ٦١ | سورة النساء |
| ٩٣ | سورة المائدة |
| ١٢٠ | سورة الأنعام |
| ١٣٧ | سورة الأعراف |
| ١٥٣ | سورة الأنفال |
| ١٦٤ | سورة التوبة |
| ١٨٤ | سورة يونس عليه السلام |
| ١٩٦ | سورة هود عليه السلام |
| ٢١٧ | سورة يوسف عليه السلام |

| | |
|-----|----------------------------|
| ٢٢٩ | سورة الرعد |
| ٢٣٣ | سورة ابراهيم عليه السلام |
| ٢٤٧ | سورة الحجر |
| ٢٥٠ | سورة النحل |
| ٢٦٩ | سورة الإسراء |
| ٢٩١ | سورة الكهف |
| ٣١٠ | سورة مريم عليها السلام |
| ٣٢٣ | سورة طه عليه السلام |
| ٣٣٤ | سورة الأنبياء عليهم السلام |
| ٣٤٤ | سورة الحج |
| ٣٥١ | سورة المؤمنین |
| ٣٥٤ | سورة النور |
| ٣٦٢ | سورة الفرقان |
| ٣٦٨ | سورة الشعراء |
| ٣٧٧ | سورة النمل |
| ٣٨٧ | سورة القصص |
| ٣٩٢ | سورة العنكبوت |
| ٣٩٨ | سورة الروم |
| ٤٠٣ | سورة لقمان عليه السلام |
| ٤٠٧ | سورة السجدة |
| ٤١٢ | سورة الأحزاب |
| ٤٢٤ | سورة سبأ |

| | |
|-----|------------------------------|
| ٤٢٦ | سورة فاطر |
| ٤٢٨ | سورة يس عليه السلام |
| ٤٣٢ | سورة الصافات |
| ٤٤٢ | سورة ص |
| ٤٤٧ | سورة الزمر |
| ٤٥٢ | سورة غافر (المؤمن) |
| ٤٥٨ | سورة فصلت (حم السجدة) |
| ٤٦١ | سورة الشورى |
| ٤٦٥ | سورة الزخرف |
| ٤٦٩ | سورة الدخان |
| ٤٧١ | سورة الجاثية |
| ٤٧٢ | سورة الأحقاف |
| ٤٧٤ | سورة محمد صلى الله عليه وسلم |
| ٤٧٦ | سورة الفتح |
| ٤٨٠ | سورة الحجرات |
| ٤٨٣ | سورة ق |
| ٤٨٧ | سورة الذاريات |
| ٤٩١ | سورة الطور |
| ٤٩٣ | سورة النجم |
| ٤٩٦ | سورة القمر |
| ٤٩٨ | سورة الرحمن |
| ٥٠٢ | سورة الواقعة |

| | |
|-----|----------------|
| ٥٠٦ | سورة الحديد |
| ٥١٠ | سورة المجادلة |
| ٥١١ | سورة الحشر |
| ٥١٥ | سورة الممتحنة |
| ٥١٧ | سورة الصف |
| ٥١٩ | سورة الجمعة |
| ٥٢٠ | سورة المنافقين |
| ٥٢٢ | سورة التغابن |
| ٥٢٤ | سورة الطلاق |
| ٥٢٨ | سورة التحريم |
| ٥٣٢ | سورة الملك |
| ٥٣٤ | سورة القلم |
| ٥٣٦ | سورة الحاقة |
| ٥٣٩ | سورة المعارج |
| ٥٤٠ | سورة نوح |
| ٥٤٢ | سورة الجن |
| ٥٤٣ | سورة المزمل |
| ٥٤٤ | سورة المدثر |
| ٥٤٧ | سورة القيامة |
| ٥٤٩ | سورة الإنسان |
| ٥٥٢ | سورة المرسلات |
| ٥٥٤ | سورة النبأ |

| | |
|-----|---------------|
| ٥٥٦ | سورة النازعات |
| ٥٥٨ | سورة عبس |
| ٥٦٠ | سورة التكويد |
| ٥٦٢ | سورة الانفطار |
| ٥٦٣ | سورة المطففين |
| ٥٦٤ | سورة الانشقاق |
| ٥٦٥ | سورة البروج |
| ٥٦٦ | سورة الطارق |
| ٥٦٧ | سورة الأعلى |
| ٥٦٨ | سورة الغاشية |
| ٥٧٠ | سورة الفجر |
| ٥٧٢ | سورة البلد |
| ٥٧٣ | سورة الشمس |
| ٥٧٤ | سورة الليل |
| ٥٧٦ | سورة الضحى |
| ٥٧٨ | سورة ألم نشرح |
| ٥٨٠ | سورة التين |
| ٥٨١ | سورة العلق |
| ٥٨٢ | سورة القدر |
| ٥٨٣ | سورة البينة |
| ٥٨٥ | سورة الزلزال |
| ٥٨٦ | سورة العاديات |

٥٨٧

سورة القارعة

٥٨٨

سورة التكاثر

٥٨٩

سورة العصر

٥٩٠

سورة الهمزة

٥٩١

سورة الفيل

٥٩٢

سورة قريش

٥٩٤

سورة الماعون

٥٩٥

سورة الكوثر

٥٩٦

سورة الكافرون

٥٩٨

سورة النصر

٥٩٩

سورة المسد

٦٠٠

سورة الإخلاص

٦٠١

سورة الفلق

٦٠٢

سورة الناس

٦٠٤

المصادر والمراجع

رقم الإيداع ٩٢/٤٥٠٦

I.S.B.N.

977-00-3385-5

كويك

حمادة الجريس

للطباعة والكمبيوتر والتصوير

ت : ٩٠٩٠٥٠ - ٣٧٧٠٥٩